جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية

Mohmmad Bin Ali Assanosi University

كلية التأريخ والحضارة

المجلة العلمية
للدراسات التاريخية والحضارية

Scientific Journal of Historical and Civilizational Studies

العدد الثاني

ديسمبر / 2018 م

ت	المحتويات	رقم الصفحة
1.	كلمة رئيس الجامعة	2
2.	تقديم	3
3.	شروط النشر	4
4.	هيئة التحرير	6
	الأبحـــــــــــــــــاث	
5.	نقشان جنائزيان من طرابلس الرومانية (د. عبد الحفيظ الميار)	7
6.	"الطرق الرومانية في ليبيا وأميال الأحجار" (ترجمة : د . سعد الدلال)	19
7.	كيفية حماية المعالم الأثرية المهددة بمياه البحر في مدينة سوسة (أ.محمد ابراهيم محمد عبد الواحد).	41
8.	الأرستوقراطيون الإغريق في مجتمع كوريني (أصلهم ونشأتهم ودورهم السياسي والعسكري) 631 – 93 ق.م (د. امدالله محمد منصور بوشديق)	63
9.	المدن الإسلامية بإفريقية ودورها في نشر الثقافة الإسلامية (القيروان – تونس، أنموذجاً) (أ.عبد السلام سالم)	80
10.	انتشار مذهب الأمام مالك بن أنس في الأندلس وتأثيره على الحياة السياسية 138 – 755م / 316 – 939م (أ . محمد فرج جبريل)	92
11.	مظاهر الحياة الاجتماعية بمملكة سنغاي الإسلامية خلال الفترة (873-1000 هـ/ 1468-1591 م) (د. حمد محمد الجهيمي)	118
12.	موقف منافقي المدينة من غزوات الرسول ومنهجه – صلى الله عليه وسلم – في التعامل معهم . (أ . عبدالسلام صالح يحيى الحجازي)	135
13.	دور العلماء في تشكيل الهوية الدينية والمذهبية لبلاد المغرب خلال القرن الثاني والثالث الهجري (د. بن بوزيد لخضر)	169
14.	طبقة الفرسان في اوروبا خلال العصور الوسطى ودورها في الحروب الصليبية. (أ . علي حماد محمد)	183
15.	أثر اتفاقية سايكس _ بيكو، وتصريح بلفور على تقسيم المنطقة العربية 1916_1917 (م.د/ عبد الرحمن جدوع سعيد التميمي)	206
16.	الوضع الصحي في مدينة مرزق خلال العهد العثماني الثاني 1835-1911م (د.المبروك محمود صالح سليمان – د.امساعد محمد عبدالرازق)	222
17.	الأوضاع الاقتصادية في مدينة زليتن خلال العهد العثماني الثاني (1858-1911م) (أحمد العبد صالح)	239

كلمة رئيس الجامعة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

يطيب لنا أن نقدم العدد الثاني من المجلة التي تصدرها كلية التاريخ والحضارة، وساهم فيها لفيفٌ منذ الأساتذة والمختصين كل في تخصصه الدقيق. وكلهم من ذوي الاختصاص والخبرة ــ وفي مجال الموروث الثقافي والإنساني بحيث تكون مجلة متخصصة متفردة في مجالها، وصرحاً داعماً للعمل والمعرفة ومرجعاً للباحثين والمهتمين.

وفي هذه اللحظة الفارقة من تاريخ عمر هذه المجلة، وفي عددها الثاني، يسرني ويسعدني ويشرفني أن أقدم الشكر والثناء والعرفان لكل القائمين على هذا العمل الجبار، الذين تحملوا العناء والتعب في سبيل انتاج وإخراج هذا العدد، والذي لا شك أنه سيسهم في تنمية وتطوير البحث العلمي، وفي مجال العلوم الانسانية والثقافية وفعالاً في نشر الحضارات والثقافات الانسانية، وتولي اهتمامها كمجلة متفردة كونها في هذا المجال.

وفي الوقت الذي نقف فيه على إصدار هذا العدد من مجلتنا، فإني أدعو بأن تكون هناك مجلات علمية بحثية مماثلة في كافة العلوم الانسانية والتطبيقية بهذه المؤسسة العريقة حتى تسير بخط متوازي لتغطية كافة الاختصاصات والمجالات التطبيقية منها والانسانية وعلى أسس علمية وفنية في غاية الدقة والمهنية.

سنكون خير داعم وراعٍ للتنمية والتطوير العلمي والبحثي وفي سبيل خلق التنوع العلمي المطلوب الذي من شأنه أن يسهم في الرفع من مستوى البحث العلمي ويسهل الطريق أمام ابنائنا والمهتمين خاصة ممن يهتمون ببرامج الدراسات العليا، وسوف نكون دائماً معكم وخير داعم لكم.

والشكر كل الشكر والتقدير لكل من ساهم في انجاز هذا العمل العظيم.

أ.د. موسى رجب
رئيس جامعة السيد محمد بن علي السنوسي.

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين إلى يوم الدين

أما بعد:

يطيب لي وبكل سرور أن أقدم للعدد الثاني من المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية، التي تصدر عن كلية التاريخ والحضارة بجامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية، والذي جاء زاخرا بالأبحاث العلمية القيمة في جوانب التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، والتي كتبها نخبة من الكتاب المتميزين بجامعة السيد محمد بن علي السنوسي الاسلامية ، وجامعة بنغازي، وجامعة طرابلس، وجامعة عمر المختار ، وجامعة طبرق، والكلية التربوية المفتوحة ببغداد.

يحتوي العدد على بحوث علمية متميزة نرى فيها الافادة الجمة لطلبة التاريخ بمختلف تخصصاتهم في التاريخ القديم أو الإسلامي أو الحديث والمعاصر، وكذا الباحثين في حقل الدراسات التاريخية عموما. وهي خطوة في الاتجاه الصحيح، وأرى أن هذا النبت الطيب منذ صدور العدد الأول للمجلة بدأ ينمو ويكبر يوما بعد يوم وسيؤتي أكله بإذن الله بفضل عزيمة وإصرار القائمين عليه.

وبالمناسبة فإني أشد على أيدي القائمين على هذه المجلة العلمية الرصينة التي تصدر عن كلية التاريخ والحضارة بجامعة السيد محمد بن على السنوسي الإسلامية التي تحظى بمكانة علمية مرموقة ، وسمعة طيبة على الصعيدين المحلي والدولي منذ زمن بعيد.

وإني أتضرع إلى الله العلي القدير أن يوفقهم في مسيرتهم العلمية التي يجتازونها وسط ظروف مادية ومعنوية صعبة لا يتوفر فيها مناخ البحث العلمي الرصين، وأن يجعل ذلك في ميزان حسنات الجميع.

وختاما أدعو جميع الباحثين والمهتمين بالدراسات التاريخية محليا ودوليا إلى المساهمة في إثراء هذه المجلة بنشر أبحاثهم العلمية في الأعداد القادمة بإذن الله.

والله ولي التوفيق

د/ ارويعي محمد علي قناوي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب /جامعة بنغازي
وعميد كلية العلوم الاجتماعية بطبرق /جامعة عمر المختار
وعميد كلية الآداب والعلوم طبرق /جامعة درنه/ الأسبق

شروط كتابة البحث العلمي ونشره في المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية

1- ملخص البحث يكون باللغة العربية وباللغة الانجليزية في حدود (150كلمة)

2- المقدمة،وتشمل التالي:

- ملخص عن موضوع الدراسة (مدخل) يشمل أهمية الدراسة والمنهج العلمي المتبع.فيها.

3- الخاتمة. (أهم نتائج البحث – التوصيات)

4- قائمة المصادر والمراجع.

5-عدد صفحات البحث لا تزيد عن (30) صفحة ولا تقل عن (15) صفحة متضمنة الملاحق وقائمة المصادر والمراجع ،على أن تكون هوامش جانبي الصفحة (2.5) وأعلى وأسفل الصفحة (3).

القواعد العامة لقبول النشر

1- تقبل المجلة نشر البحوث باللغتين العربية و الإنجليزية والتي تتوافر فيها الشروط الآتية:

- ✓ أن يكون البحث أصيلاً،وتتوافر فيه شروط البحث العلمي المعتمد على الأصول العلمية والمنهجية المتعارف عليها من حيث الإحاطة والاستقصاء والإضافة المعرفية والمنهجية والتوثيق وسلامة اللغة ودقة التعبير .
- ✓ ألا يكون البحث قد سبق نشره أو قُدم للنشر في أي جهة أخرى.
- ✓ أن يكون البحث مراعيا لقواعد الضبط ودقة الرسوم والأشكال – إن وجدت–ومطبوعاً على ملف وورد word،حجم الخط (13) وبخط (Simplified Arabic) للغة العربية. وحجم الخط (12) وبخط (Times New Roman) للغة الإنجليزية .
- ✓ أن تكون الجداول والأشكال مدرجة في أماكنها الصحيحة،وأن تشمل العناوين والبيانات الإيضاحية الضرورية.
- ✓ في حالة التوثيق وفق دليل جمعية علم النفس الأميركية (APA) تثبت هوامش البحث في نفس الصفحة والمراجع في نهاية البحث على النحو الآتي:
  - أن تُثبت المصادر أو المراجع بذكر اسم المؤلف كاملاً، ثم وضع تاريخ نشره بين حاصرتين،ويلي ذلك ذكر عنوان المصدر،متبوعا باسم المحقق أو المترجم،ودار النشر،ومكان النشر،ورقم الصفحة.

- عند استخدام الدوريات (المجلات،المؤتمرات العلمية،الندوات) بوصفها مراجع للبحث: ذكر اسم صاحب المقالة كاملاً، ثم تاريخ النشر بين حاصرتين،ثم عنوان المقالة، ثم ذكر اسم المجلة،ثم رقم المجلد،ثم رقم العدد،ودار النشر،ومكان النشر،ورقم الصفحة.

2- تحتفظ المجلة بحقها في أسلوب إخراج البحث النهائي عند النشر.

إجراءات النشر

ترسل جميع المواد عبر البريد الإلكتروني الخاص بالمجلة وهو كالتالي:

- يرسل البحث الكترونياً إلى عنوان المجلة وهو saeidgrida@gmail.comأوAglimohada@gmail.com
- أو(نسخة CD) بحيث يظهر في البحث اسم الباحث ومؤهله العلمي،ومكان عمله،ومجال تخصصه.
- يرفق مع البحث نموذج تقديم ورقة بحثية للنشر موجود على موقع المجلة، وكذلك إرفاق للسيرة الذاتية العلمية للباحث إلكترونياً .
- لايقبل استلام الورقة العلمية إلا بشروط المجلة.
- في حالة قبول البحث مبدئيا يتم عرضه على مُحكَمين من ذوي الاختصاص في مجال البحث،ويتم اختيارهم بسرية تامة،ولا يعرض عليهما سم الباحث أو بياناته، وذلك لإبداء آرائهم حول مدى أصالة البحث،وقيمته العلمية،ومدى التزام الباحث بالمنهجية المتعارف عليها،ويطلب من المحكم تحديد مدى صلاحية البحث للنشر في المجلة من عدمها.
- يبلغ الباحث بقرار صلاحية بحثه للنشر من عدمها خلال خمسة عشرة يوماً من تاريخ الاستلام.
- في حالة ورود ملاحظات من المحكُمين،تُرسل تلك الملاحظات إلى الباحث لإجراء التعديلات اللازمة بموجبها،على أن تعاد للمجلة خلال مدة أقصاها أسبوعين.
- الأبحاث التي لم تتم الموافقة على نشرها لا تعاد إلى الباحثين.
- الأفكار الواردة في ما نشر من دراسات وبحوث وعروض تعبر عن آراء أصحابها.
- لا يجوز إعادة نشر إي من المواد المنشورة في المجلة مرة أخرى.

رئيس هيئة تحرير المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية
د. سعيد محمد غريدة
saeidgrida@gmail.com

المشرف العام

د. سعد الدلال

رئيس التحرير

د. سعيد غريدة

مدير التحرير

د. الصديق بودوارة
يونس ,أ علي الجوير

المراجعة اللغوية

د. حسين نوح الحمري

الهيئة الاستشارية

ح .دمد الجهيمي

أ . صالح الجراري

ح . أمدي علي سعد

ح . أماد فضل الله

أسرة تحرير المجلة :

- ح . أمدي خليفة الصادق
- ع . ألي مفتاح حويلن
- أ . عادل عوض الزائدي
- أ . الفرجاني محمد الفرجاني
- أ . حسين الفقيه
- أ . أكرم علي الحمروش

سكرتير التحرير

منى طه زيدان

تنسيق واخراج

محمد حسن الخضر

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية 2018/225

نقشان جنائزيان من طرابلس الرومانية

إعداد :

د. عبد الحفيظ الميار

جامعة بنغازي.

Two funerary inscriptions from Roman Tripolitania:

By A F Elmayer *

Abstract :

These two funarary inscriptions were didcovered at Al brahama village in Rejban area in Western Mounain – Tripolitania . The first is Neo- Punic and the second Is latin :

Neo-Punic inscription : It consists of seven lines and the first four lines are legible and their translation cause no problem > But the rest are illegible as a result to damage to the stone.

Latin inscription : It consists of four lines . They are easy to read and translate.

ترجمة الملخص :

نقيشتان جنائزيتان عثر عليهما فى قرية البراهمة فى منطقة الجبل الغربى فى طرابلس الرومانية و تعودان الى العصر الرومانى وأحدهما بونى متأخر و الآخر لاتينى :

النقش البونى المتاخر : يتكون من سبعة أسطر والأربعة الأولى يمكن قراتها وترجمتها بسهولة . أما الأسطر الثلاثةللباقية يصعب قراءتها بسبب ما لحق بحجر النقيشة من أضرار .

النقيشة اللاتنية : وهى تتكون من أربعة أسطر ولاتوجد صعوبة فى قراءتها ا وترجمتها .

الصور الواردة فى هذا المقال هى لمقابر فينيقية- بونية تحت الأرض جرى تدميرها من قبل نابشى القبور الباحثين عن الذهب .

1- Neo-Punic inscription:

This inscribed stone block was found in a tomb discovered by a Libyan in his land beside his house at el-Brahama Village in Rejban (Gable el- Gharbi-Tripolitania). The photos of the two inscriptions were taken by him (fig.1), upon which my subsequent transcription is based. The rectangular block [any dimension known?] bears a carefully incised recessed tabula ansata on its front face. The text comprises seven lines (each line accommodating approximately 9 letters). The first four lines are legible and their reading and translation cause no problem. The lines 5,6,7 are illegible as a result of damage to the surface of the stone.

Fig. 1. Neo- Punic inscription:

(fig. 1: Neo-Punic inscription)

Text:

A suggested reading is a follow (uncertain letters are under dotted) :

1- m ʿ nsbt ʿ s d b n
2- n ym r ʿ n hʿ s
3- k y n b ʿ n≥ l≥
4- b n m w l b w h m hn
5- bn … illegible ..
6- L bn≥m h n w a . . illegible ..
7- Illegible ….

Translation:

1- Stele of Aside son of
2- Nymran the AS
3- k yn built for
4- his sons and for his father Hanno
5- son of…illegible …
6- For his sons Hno(?)…a..h ...illegible…
7- …illegible…

Line- by- line commentary:

Line 1-m ʿnsbt = stele which is equivalent to Latin monumentum /memoria, indicating the funerary monument which is mostly the direct object of the sentence (cf. Kerr2010, p.149). It recurs in another Neo-Punic inscription from Wadi -elAmud: IPT 77.1). The word is Ultimately derived from Phoenician MSBT (KAI 6,1. 1;7, II. 1-2, Um el-Awamid) and other phoenician places in North Africa (Maktar : KAI 149.1/2(Npu)Npu) ; KAI 78.4/6(Pu);Drombi N 1 : Jongeling,2008,p.83).

-hʿsd=asido =Libyan name (cf.Jongeling (2008), p.306; PIBB 122;123). It is preceded by the article 'h' in this inscription which indicate its Semitic origin) (S.Antioco N3 : Jongeling (2008) ,p.362) .

2/3- hʿskyn= Libyan name. Also it could be hslkyn . It was written in viriant forms : Slkny ;(Hr. Maktar N 64,31;76 ;Hr Mededi N 5 ;7)(see Jongleling (2008) ,p.362).

3-Nymrʿn =Nimiran, Libyan name (Wadi el-a Amud N2: Tripol.39; TRE 39; IPT 77.2 (Npu); Jongeling,(2008),p.59).

¾-B ʿ n≥ =" b n a,bny"= 'He built' which recurred in neo-Punic inscription from: Drombi N1(Tunisia)(Jongeling ,2008,p.83) ; Meta mur) N1: Bʿn≥ l≥ = He built for him (Kerr,2010, p.160).Also it recurred in other inscriptions from Roman Tripolitania in different forms: b≥n≥ (Brevilgieri N1: (Alkhdra-Tarhuna(IPT 67.1;Kerr,p.50) ;(El-Amruni N1; Jongeling (2008),p.9) .

3/4-L≥ b n m= l +abnm= for+ his sons: It is attested in different forms 'bn≥m' in texts from Wadi el-Amud(IPT 77.1); bnam(79.6);Jongeling(2008),p.59) . vlybanem='for his sons (Gasr el-Aziz LP 1 :2/3(Npu); IRT893; Kerr, p.139,150).

4-L≥ bw h m =For his father.I t contains a lexeme'a b' in the singular/plura 'parents'(Kerr,210,97;143). It recurred in other inscriptions from Roman Tripolitania: labvnom(Wadi Umm el-AgreemLP1,Wadi Chanafes LP1;Kerr,210,p.97); (Tunisia :a b ʿ n h m (KAI 142 .4 (Npu) .

4- hn = Hano. Punic name (Lepcis Magna: IPT 17; KAI 130. 6(Npu); Levi Della Vida, 12; IRT 12) ;(Algsubat N1: IPT 86. 4) . Jongeling, p.41-42) .

5- For his sons Hano(?) and …Illegible

Lines,6,7 illegible as a result of damage to the stone of the inscription.

(Fig1: The tomb where the Neo-Punic inscription was found by a Libyan resident in the area.)

2- Funerary Latin inscription from Albrahmh Village at el-Rejban in Western Mountain (el-Gable elgharbi) -Tripolitania:

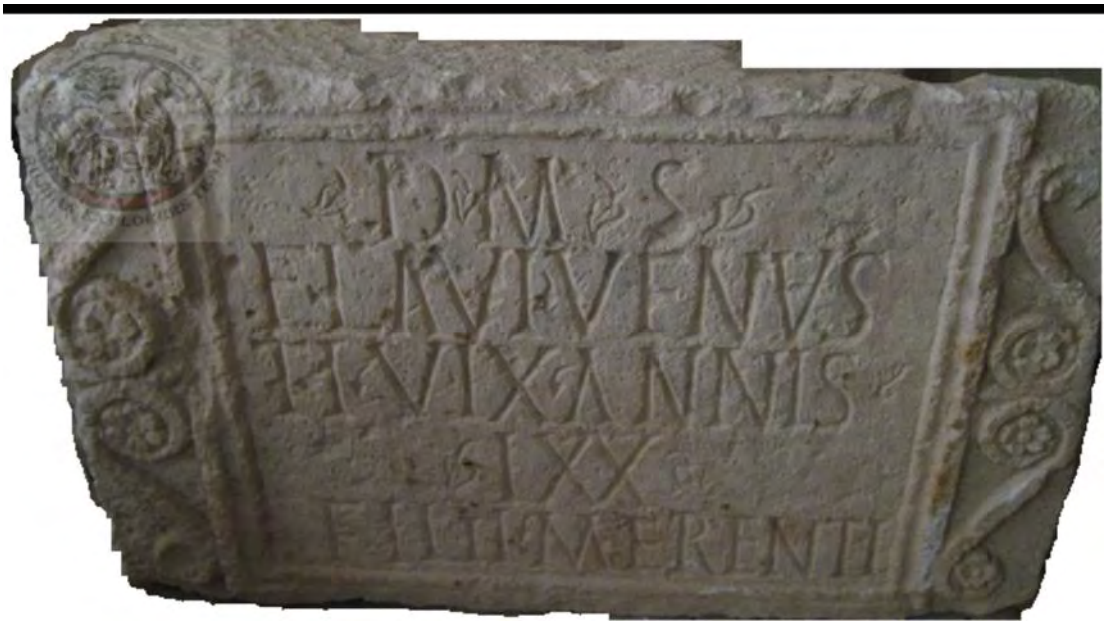

(fig. 2: Funerary Latin inscription on a Tombstone)

Translation:

Sacred to the departed spirits of

Flavius Venustus

Who lived for 70

(His) children (set this Up) to a deserving (parent).

The man who found this inscription mentioned that he discovered it in his digging in the piece of his land beside his home in the same place where he found the Neo-Punic inscription (figr.1). But I think it is from a tomb in the area of the Roman centenarium whose building traces still can be seen in el- Barahma village near city of Rejban (fig. 3).

(fig.3: Roman centenarium in el-Barahma village was built on high place to control the area.

Fig. 4: Symbol of a god on the wall was found with the writing (fig.5)

Fig. 5. Graffiti was found with symbol of god (figr.4)

These photos are for Phoenician tombs in Jefara Plain south of Sabratha and I think they were destroyed by tomb thieves who were looking for gold.

(fig. 6 : Phoenician tomb .) with mosaic before destroying by thieves looking for gold . Now the mosaics none exist.

Fig. 7: Frescoes which were on the wall of the tomb (fig.6) before destroying.

fig. 8: This photo for fresco in the tomb(fig.6) was taken before a Shepherd damaged it.

(figr.9: Phoenician Tomb)

(Figr.10: This tomb is near to the tomb(figr.6) where fresco was found)

(Figr.11: Destroyed Phoenician tomb.) I have been told that a Shepherd destroyed these Phoenician tombs in Jefara plain, but I still think it had been done by thieves who were looking for Gold.

(Figr.12) Relief representing a Camel and a man feeding it (from the same area)

Symbols:

≥=a

ʿ $= A = ain$

Bibliography

IPT Levi Della Vida, G. and Amadasi Guzzo, M. G. (eds).*Iscrizioni Puniche della Tripolitania (1927-1967)*. L'Erma di Brertschneider, Rome. 1987.

IRT Reynolds, J. M. andWard-Perkins, J.B. (eds). *Inscriptions of Roman Tripolitania*. British School at Rome, Rome/London. 1952 + *IRT2009:*

KAI Donner, H. and Röllig, W.*Kanaanäische unde Aramäische Inschriften*, miteinem Beitrag von O. Rossler, I-III².Harrassowitz, Wiesbaden. 1966-1969.

Jongeling, K., 2008.*Handbook of Neo-Punic Inscriptions.*Mohr Siebeck, Tübingen.

Kerr, R. M. 2010. *Latino-Punic Epigraphy. A Descriptive Study of the Inscriptions*. Mohr Siebeck, Tübingen.

LP Latino Punic Inscriptions

PIBB Manfredi ,1995, Monete Puniche , reperitorio epigrafico e numismatico delle leggenda Puniche ,Roma (= Bolletino di numismatica , monografia 6), NA =Carthaginian coins ; NB = coins from autonomous cities ; NC = coins struck in the Numedian and Mauretanian kingdoms ; PIPP = Iberian Peninsula , autonomous cities .

* Faculty of Arts, Tripoli University

The Roman of Libya And Their Milestones by – R . G . goodchild

"الطرق الرومانية في ليبيا وأميال الأحجار"

جودتشايلد

ترجمة – د . سعد الدلال
أستاذ مساعد في التاريخ اليوناني والروماني
جامعة السيد محمد بن علي السنوسي

ملخص البحث

هذه الورقة ترجمة لمقالة الباحث الأستاذ ريتشارد ج . جودتشايلد، أستاذ الآثار الرومانية بجامعة لندن والتي ألقاها في المؤتمر التاريخي "ليبيا في التاريخ" والذي نظمته كلية الآداب بالجامعة الليبية – بنغازي، في الفترة من 16 – 23 مارس عام 1968، حيث تحدث الباحث عن أحجار الأميال التي وضعها الرومان لمعرفة المسافات بين مدن وقرى الولايات التابعة لهم، موضحاً أشكالها وأحجامها، ويوضح استعانة الرومان بخط الطريق الإغريقي القديم، فيتحدث الباحث عن خط طريق طرابلس – فزان – وخط طرابلس – مصراتة – سرت – وخط سرت – بنغازي وفروع هذه الطرق كلها، كما يشير الباحث إلى خريطة أنتونيو، وخريطة بوتينجر فتناول أهمية أحجار الأميال لسعاة البريد، والقوافل التجارية إضافة إلى الإداريين العسكريين كما أشار الباحث إلى استعانته ببعض المقالات من داخل المؤتمر للباحثين، رينولدز، وبيركنز

رغم ترجمتي للمقالة كاملة إلا أنني في هذا المؤتمر سأتناول الطرق من طرابلس إلى فزان وإشكالياته.

الطرق الرومانية في ليبيا وأحجار الأميال

الطريق المعبد يعتبر معلم من الأرض الفاصلة، الميل الواحد الروماني (1000 من سرعة العدو توازي 1432 متر) بواسطة أعمدة الأحجار نقش عليها ألقاب وفترة حكم الأباطرة.

والتي تمثل أكثر من معالم مميزة للعصر الإمبراطوري، إن مثل هذه الطرق مرتبط بالمدن الرئيسية في جميع الولايات، كذلك تمتد إلى حدود مناطقها على طول الطريق السريع، ولم تكن مهمة لقوات الجيش فقط، بل أنها تمثل حركة مرور تجارية لمجتمع الأغنياء، وتخدم موظفي البريد السريع ووصل أي أخبار أو تقارير إدارية بين روما ومعظم المناطق البعيدة التابعة لروما [1] ومراكزها الهامة.

ولكن منذ العهد الإمبراطوري كانوا دائماً يعطون عناوين بواسطة النقوش التي استخدمت بدقة لتوضيح أفضل وأحسن طريق بريد يصل بالكامل في القرون الثالث والرابع الميلادي هناك يكون أحسن طريق حديث صلب يحتوي على معالم بها نقوش غالباً تظهر بعض الأسماء.

إلى جانب ذلك يكون له اسم على موضوع طول الطريق السريع الهام للأباطرة وتحتوي على عناوينهم وألقابهم معلمةً بنقوشهم وغالباً تعطى أسماء للحكام ووحدات الجيش أو البلدات التي كانت مسئولة عن إصلاح الطريق ولهم وثائق ومستندات تاريخية طويلة مهمة أكد عليها العلماء، وهذا مقياس دقيق جداً لمسافات ملكهم التابعة لروما.

وكان المجتمع القديم له اهتمام ودوافع لإعداد مخططات الملكية، والإدلاء بها في كتاب أو خريطة، ومستندات ووثائق الملكية كثيرة، وهي مفيدةً جداً للوظيفة نفسها، وبما أن الإدلاء يشبه المنشور اليوم، إلى جانب ذلك فأن منظمات السياح السيارة والجمعيات وشركات الزيت قد مكنت المسافرين سواء بالقطاع الخاص أو العام إلى تنظيم خطة رحلاتهم بكفاءة وتصميم على إيجاد طريق دون الاعتماد على خبرات الموظفين المحليين.

موظفو التسفير في العهد الروماني تمتعوا باستخدام نظام جديد وهو محطات البريد (تغيرات مفاجئة) من أجل تغيير الجياد والراحلة، (قصر الراحلة) من أجل تأمين الراحلة ونهاية يوم السفر.

هذا النظام كان أساسياً و فعالاً كان يدعى بـــــ(كيروسوس الشعبية)[2] ولكن على الرغم من هذا الاسم إلا أنه لم يكن متاحاً لكل أفراد الشعب، بل هو تصنيف للموظفين ذوي الكعب العالي أُهلوا لاستخدام الـــــ(كيروسوس الشعبية) وعادةً طُلِبوا بحركة أو أمر أو (أميكتو) من رقم محدد، حدد كل سنة لأي شخص وفقاً لمرتبته في خدمة الشعب.

([1]) – أفضل حساب شامل للطرق الرومانية في شمال أفريقيا بواسطة "بايز: سلامة الطرق الرومانية في شمال أفريقيا (الجزائر)، عام 1951م، ص 155.

([2]) – علاقة قوانين استعمال طريقة (كيروسوس الشعبية) اشتملت على مخططات (ثيوديسايتوس)، المجلد 18، 5 – 6، ص156.

عن طريق أثنين من الرحالة الرومان تمت تغطية مساحات من شمال أفريقيا التي نجت من السقوط في العهد الإمبراطوري، وكانوا على درجة كبيرة من الأهمية لطلاب العلم ولتجار أحدهم يسمى (الرحالة اتونين)[1].

الذي يؤكد ظهوره في العهد الإمبراطور كاراكلا (أن هناك موظف يسمى أنتونيوس) وهذا ببساطة لتحديد الطرق ومحطات الرحلة وهي تغطي المسافات بين بعضها البعض والمسح الأخر كان خريطة الرحالة (بيوتنجر)[2] (المعروف فيما بعد بالتلميذ الألماني، وهو أول من نشرها) والأكثر متعة والأكثر براعة هو تجميع خريطة الإمبراطورية الرومانية التي جعلها طويلة فأمدها إلى ((34 سنتمتر و 7 متر)).

وكذلك كان بإمكانه ألحاق بكرتين ملفوفتين أو غير ملفوفتين لاستعمالها في مسافة الرحلة وبالرغم من أن شكل الخريطة وتصحيفها يعطي خلفية الخريطة للجغرافيين.

ولتوضح مسالك الطرق الرومانية وعلاقتها على خطوط البحر الأبيض المتوسط وجزره.

وهي كافية ويمكن تمييزها ونقدها في هذا المؤتمر، أحجار الأميال الرومانية والتي بالإمكان وبشكل مدروس وعن طريق خطوط الرحلات بأعمدة حجرية عادية حجمها يقدر بقطر (65 سم) وارتفاعها (2.5 متر) من القاعدة لإبراز أساسات المكعب المطلوبة لإبراز الباطن لتعطي العمود استقراره، وهذا الحجر لين وسهل احتجازه (مثل جبل برقة) ، العمود وقاعدته قطعت كحجر منفرد في مكان آخر (مثل الذي في باطن المدن الثلاث) الأعمدة وقواعدها قطعت وفصلت وفي النهاية تعطينا أحجار دائرية تشكل جزء من العمود.

أحجار الأميال ستكون عادية القطع بكمية كبيرة من المحجر الذي أشرنا إليه، وكذلك نؤكد صحة اكتمال النقوش ماعدا أرقام الرسم الميلي، فقد أملوا أن ينقل الحجر بعيداً لمسافة أطول عن خط الطريق، وشيّدت لغرض معين لتحديد فواصل أرقام الرسم الميلي، وأضيفت بعد ذلك للتشّييد.[3]

تحت تلك الأجزاء أحجار ميلية جديدة وكان بالإمكان إضافة واحدة أكثر قدماً شيّدت تحت حكم الأباطرة السابقين التي ما زالت قائمة: وأنها صامته عادية وعددها حوالي خمسة قواعد ما زالت قائمة كمحطة ميل منفردة.

حينها وبطريقة أعمدة الأحجار وبحجم مناسب كان الأمر صعباً في الحصول على علامات طرق، لقد اشبعوا رغباتهم بإلغاء النقوش على الأعمدة ومنحوتاتها الجديدة في ذلك المكان.

أحياناً كان ا لعمود القديم بسيط، تحول رأساً على عقب بحيث يمكن أن يقطع نصفه دون عناء لمحو القديم، هكذا حجر واحد قد يحمل آثار لعدة نقوش متعاقبة[4] نصبت على الطرق الرومانية نفسها جنباً إلى جنب مع هذه العلامات، التي تختلف اختلافاً كبيراً في طابعها في الولايات الأوروبية للإمبراطورية الرومانية، حيث

([1]) - أفضل طبقة للرحالة (أنتونين) و(أكونة)، الرحالة الرومان، (ليبزق 1929).

([2]) – كنراد ميللر، خريطة بيتنجر (يربراينت) (1962م)، ص 156.

([3]) – في بعض الأحيان في طريق فزان في إيريا من مزدا حسب الطول لمسافة يفتقر إلى أحجار ميلية، وكان يعني ربما إضافة علامة أو تلوين لإبقائه حياً، ربما يعني أن لفت الانتباه لذلك الجزء من نقوش أحجار الأميال الموجودة بقصر (اوون) بالقرب من القصبات التي زخرفت أفضل من اختصار الكتابة.

([4]) – في كيرينايكا (برقة) يوجد العديد من الأمثلة كإعادة الاستعمال ولكنها لم تظهر في طرابلس، ص 157.

التضاريس غالباً ما تكون مليئة بالغابات والمستنقعات التي وضعت في خطوط مستقيمة مع الجسر الذي رفع من الحجر الجصي، يمكن في كثير من الأحيان أن يتم مشاهدة هذا الجسر في يومناً هذا، وإن كان لم يتم العثور على معالمه، في الأرض الإغريقية حيث وجود شبكة جيدة من الطرق قبل الاحتلال الروماني وغالباً ما استمرت هذه الطرق القديمة في الاستعمال دون تغيير في المعالم على طول مسارها على التربة الجافة في أفريقيا (بما في ذلك غرب ليبيا) في الشمال الغربي رصفت بعض الطرق السريعة الرئيسية[1] فقط في جميع الأنحاء، وكانت الطرق خارج حدود المدن غير المُعّبدة وغير مطهرة من الحجارة.

أو تلك المسالك التي نهضت بالأعباء خلال قرون للاستعمال لتحدث تجاويف أساساتها والتي يمكن ببساطة التعرف عليها عن طريق الصور الجوية، في كيرينايكا (برقة) حيث الطريق الإغريقية والتي اتخذها الرومان خطاً لعلاماتهم عن طريق أنفاق سطحية في البروز الصخري، وبواسطة كثير من عربات الطريق.

إذن لتعديل ((الطريق الروماني))وبادراك تام للمسالك يجب الانتباه إلي التالي : (أ) يبدوا واضحاً لواحد أو أكثر من الرحالة الرومان: أو (ب) أحجار الأميال الرومانية وهبت له طولها واستغلت وجه الطريق أو (س) وكذلك بدون شك الطريق القديم مترابط واستمر في العهد الروماني: والقليل من معلوماتنا الجيدة حول الطريق الروماني تتلاقى الثلاثة وهذا يتطلب شرحاً: تلاقت ما عدا واحدة، ولكنها مقبولة بدونه.

في مناقشة الطرق الرومانية في ليبيا، ومحاولة إيجاد حد للممتلكات وتاريخها، ينبغي علينا إيجاد الأسباب التاريخية والفرق بين المدن الثلاث وكيرينايكا (برقة) وأيضاً نعنى هنا ببساطة النقوش، وسنناقش هنا طول طريق سرت (بين مصراتة وبنغازي) والترابط بين الولايتين.

1- المدن الثلاث.

نظام الطرق الرومانية في المدن الثلاث[2] شكل قدم الشرق في شبكة معلومات مركبة عن نواب القناصل في أفريقيا وتتألف من:

أ- طريق الساحل الرئيسي جول ((سير تايز)) الصغير لربط قرطاجة بالمدن الثلاث "صبراتة ، وطرابلس ولبدة الكبرى" وتستمر شرقاً باتجاه شواطئ "سير تايز".

ب-على حدود طريق طرابلس الرئيسي من حافة " شط الجريد " ، في تونس وحتى النهاية الغربية من جبل نفوسة، ومنها على طول الجبل إلي لبدة الكبرى.

ج- طريق فزان من طرابلس إلي غريان حيث يتقاطع مع الطريق الحدودي، ويبدو من ذلك المكان نحو الجنوب باتجاه جنوب(مزدة)حيث علامات الأحجار الرومانية تظهر بوضوح بالرغم من أن الطريق من المفترض أن يكون متواصل إلى واحة القريات، ومن هناك إلى (فزان).

د- طريق سوف الجين الأعلى من الزنتان(الطريق العاشرة) على الطريق الحدودي إلى مزدة.

([1]) – سلامة، المرجع السابق، ص 73.

([2]) – جوتشايلد، الطرق الرومانية وأحجار الأميال في طرابلس(طرابلس 1948) أحجار أميال إضافية تشتمل على: ج . م . رينولدر و ج . ب و واردبيركز ، نقوش طرابلس الرومانية (روما . 1952) الكثير من أحجار الأميال وجدت منذ عام 1956م لم يتغير استنتاجاتنا المادية قبل بداية عملنا، ص157.

من المحتمل أن يستمر على طول وسط وادي سوف الجين وأسفل

أ- طريق طرابلس الساحلي:

خريطة "أنتونين وبيوتينجر" كلاهما يصفان هذا الطريق من "جابيتس" قرب جربة في تونس إلى لبدة الكبرى و "ثيوباكتس" "مصراتة" لكن هناك بعض الاختلافات من أسماء محطات الطريق الأوسط الذي لا داعي لمناقشته في هذا الموضوع.

جزء من أحجار الأميال في عهد الامبراطور"كاراكلا" وجد غرب بسيدا (بوكماش) والأخر مشابه في التاريخ وجد غرب مصراتة، عرفت كل المعالم المعروفة في هذا الطريق بين قصر القربوللي وزليتن، لذلك في تلك المنطقة نمتلك فكرة دقيقة عن الطريق الذي يتبع الطرق الداخلية المهملة في أماكن عدة، وهو بدون شك لتفادي الأودية والكثبان الرملية القريبة من الشاطئ، وبتراوح معالم طريق طرابلس الساحلي من تاريخ عهد كاركلا (216م) إلى عهد (يوكليتيان)(290م)[1] ولكن الطريق نفسه لابد أن يكون قد استعمل لقرون عديدة في وقت سابق، وأيضاً حتى نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس ميلادي أي قبل غزو قبائل الوندال البربرية والتي قطعت طرق المواصلات الساحلية.

ب- طريق المدن الثلاث:

هذا الطريق في بعض الأحيان يعرف بـــ"جبل رواد الشرقي" ويتضح ذلك من خريطة الرحالة (أنتونين) ومكان هذا مكان ((تيلياسن الحديثة)) الكتلة الرملية من ((شط الجريد)) ((تونس)) الطريق الساحلي يؤدي بنا داخل طرابلس بالقرب من ((الذهيبات)) ويستمر نحو الشرق حتى جبل نفوسة عن طريق نالوت و جادو وزنتان (تينثيوس) مروراً بـــ ((الاوينيا)) (أورا) و (آين وايف) (ثيناداسا) دخولاً لسهل ترهونة الواسع، ويشق طريقه إلى وسط ((دوغا)) (ميسف) و((القصبات)) قبل أن يمتد إلى لبدة الكبرى والتي يدخلها عن طريق مدخلها الشمالي .

تطوير هذا الطريق كطريق موازي لطريق طرابلس في وقت لاحق يجب أن ينتمي إلى عهد الإمبراطور (كمودوس) في الطرف الشرقي من سيف إلى لبدة الكبرى ظهرت إلى حيز الوجود قبل ذلك وتبين من معالم المحطة بالقرب من قوس (سيفيروس) في لبدة شمالاً في عام 17 ميلادي في عهد الامبراطور تيبريوس والبرو قنصل (أيليوس لاما) شيد طريق بنحو 44 ميلاً في الداخل[2]

وبصرف النظر عن هذا المعلم الوحيد من القرن الأول فجميع المعالم الأخرى على هذا الطريق هي من القرن الثالث، تم العثور بين لبدة الكبرى والمحطة 57 ميل التي تقع جنوب ابيار ميجي وتتراوح من عهد كاراكلا

(1) – واحد من نقوش أحجار الأميال من يوكليتيان من لبدة الكبرى حدّده مؤخراً، ب. سلامة ليبيا القديمة ج . 2 ، 1965م ، 39 – 45.

(2) – نقوش طرابلس الرومانية (أي . أر . ت) 970، مع أن مكان نهاية الرجلة البحر المتوسط ، ليس دقيقاً أن له دلالة على اسم لـــ ريلويس لاما، كذلك يخطر على البال في نقوش بونيقيا الجديدة من المعبد رأس الهاداجيا في سهل ترهونة.

216م الى غالينوس 262م وبالرغم أن الفصائل العسكرية الرومانية كانت متمركزة على هذا الطريق (على سبيل كما في أوو وثيناداسا)[1].

وعلى الرغم من عنوانها لم تكن الحدود محصنة بشدة كمقاطعات أخرى، وبحلول عهد سيفيروس إن لم يكن قبل ذلك فإن الحدود الحقيقية قد امتدت أبعد بكثير إلى الجنوب، وليس من المرجح أن يتم التخلي عن هذه المنطقة الحدودية بأكملها في عهد "يوكليتيان" كما اقترح "كورتوا" ربما ظلت فعالة حتى عشية الاحتلال الوندالي.

الطريق لا تظهر في أي من مخططات الرومان ولكن هي الطريق الاكثر أهمية ورئيسية من الساحل الطرابلسي نحو فزان كل آثار الطريق ظاهرة لتطمس في سهل اجفارة الرملي، وهي تبعد 57 ميل من طرابلس (عند كاف توبيا قرب غريان) التي تصادفنا كأول معلم لـــــ(كاراكلا) 216م بعض المعالم في المجموعات من 13 . 4 في كل محطة يمر من "كورمنت" الهنتيشا

(125 كيلومتر من طرابلس) كل الطرق حيث السلسلة تتوقف عند (مزدة) هي على ما يبدو تتراوح من عهد "كراكلا " 216م الى عهد أورليان 274م من المشكوك فيه أن هذا الطريق مستمر إلى الجنوب وصولاً إلى "القلعة" العظيمة لسيبتموس سيفيروس ((قيريا القاربيا)) ومن ثم تستمر (كطريق القافلة الليبية على الأصح أكثر من كونها طريق الرومان الرئيسية الى فزان).

لكن في الواقع بقيت آثار جنوب مزدة دون احجار اميال لتنير مسالك الطريق حيث لا يمكن أقتفاء آثر المسافرين[2]

د- طريق وادي سوف الجين:

الرابع و الأخير من تحديدنا لأحجار الأميال للطرق الرومانية في إقليم المدن الثلاث له شيء من طابع الطرق الحدودية على امتداد الطريق يوجد حصنان رومانيان صغيران، يجب ان يكون قد ترك طريق قرب وتيثوس (الزنتان)ومروراً جنوباً باتجاه قصر الذويب الذي نعرف بأنه كان قد شُيّد في عام 244 – 246م في عهد الامبراطور فيليب العربي[3]

أول معلم معروف علامة 25 ميل وجد في (عقلة الجفيرات) على مسافة من شرق (قصر الذويب) وقد تم تجديد محطات ميلية أخرى عند (قصر أوامس) وحصن حدودي آخر يسمى (الشقيقة قرب مزدة).

المعالم المسجلة تعود إلى عهد الإمبراطور كاركلا عام (216م) وماكسيمنوس(237م) البعض يميل الى الاعتقاد بأن هذا الطريق يعبر طريق فزان – مزدة ويستمر عبوره أسفل وادي سوف الجين، لتمر بمواقع رومانية عند تينال و(شبيك)غير أن الادلة لازالت مفقودة.

---

(1) – نقوش طرابلس الرومانية 868م (ثيناداسا): أوراق من المدرسة البريطانية في روما، الجزء28 (1960)، ص 51 (أور).

(2) – أ . د. ي فيثا (ليبيا القديمة ، 1 ، (1964) ، ص 87) إشارة الى سلسلة الحصون الصغيرة القائمة في الأراضي المنخفضة من 3 الى 5 كيلومتر تماماً الى غرب طريق كارافانا من مزدة الى ((قيريا ايش شيرقيا)) بدون الاجزاء الثانوية من تلك المدن والمعالم المشّيدة، من الصعب أن ننسبها الى العهد الروماني أو للموظفين العسكريين الرومان.

(3) – نقوش طرابلس الرومانية، 880: للتفصيل، أنظر مجلة الدراسات الرومانية، 39 (1949)، 91.

مع وصف الطرق الاربعة نحن يجب أن نختم تقريرنا عن نظام الطرق الرومانية من طرابلس.

- هناك طرق سريعة هامة أخرى يجب أن تكون مثل الطريق إلى غدامس، وأخرى الى أبي نجيم ولكن من غير المجدي تخمين مسارها الفعلي بدون دليل أحجار الأميال، أو على الأقل بعض الآثار المحددة على الأرض، ربما تساعد دراسات مستقبلية للصور الجوية لسد الثغرات لمعرفتنا: بالرغم من ذلك فيمكننا المجازفة للتعليق على أهمية الدليل والجدير بالذكر نستثنى هنا الحجر الأخير من لـــــ"ايليوس لاميا" في لبدى الكبرى، ما عداها سقطت خلال القرن الثالث الميلادي في عهد "كاركلا" عام (216م) الى عهد (ديوكليتيان) عام 290م ، وهي تشير الى نقط من علامات احجار الاميال لكاركلا جميعها توضح أصولها الامبراطورية الدعائية والتي لها علامات بسيطة جداً للبرامج الفعلية للعمل بالنسبة للأباطرة الذين تلو كاركلا والذين اتخذوا أسماءهم وألقابهم راسخة بشكل واضح على امتداد الآثار في إقليم المدن الثلاث ماكسيمسنوس 237م وحده من حافظ على الطرق بشكل جعل العمل الحقيقي لخلف الطرق الرومانية في المدن الثلاث وقد تم بدون شك تحت حكم الأباطرة الأوائل والذين كانوا أقل اهتماماً باستخدام هذه الطرق كوسيلة للدعاية الرسمية.

ومن المثير للاهتمام ملاحظة أن سيبتميوس سيفيروس نفسه الذي كان نشطاً جداً في بناء حصن عسكري قوي في طرابلس والذي لابد أن يكون قد شيّد العديد من الطرق الصحراوية الجديدة.

يبدوا انه استخف بالدعايات، فقد استخدم هذه الطرق لتقديم دعاية لحكمه.

طريقة حكمه تختلف عن إبنه كاركلا الذي قدم انجازات واقعية، لم تكن تحتاج إلى دعاية لتسندها.

2- خليج سرت:

طريق القوافل الساحلي الطويل الذي يربط طرابلس بكيرينايكا (برقة) اشتهر في العصور القديمة برماله المتحركة والثعابين السامة، وقلة الماء، مواكب جيوش((افيلاس)) عام 309ق.م وكاتو الاصغر 47 ق.م كانت قد اعتبرت في ذلك الوقت انجازات ملحمية، بالرغم من أن الرومان لم يحاولوا أبداً توحيد طرابلس البونيكية (الفينيقية) الرومانية مع كيرينايكا (برقة) المتحدثة بالإغريقية، الا أنهم احتاجوا الى طريق ساحلي آمن طوال جميع الفصول لخط مياه اقتصادي وسياسي، واشارت خطوط السير الرومانية الى ان طريق (سرت) كان قد شيّد كطريق روماني عادي مع محطات طريق على فواصل مناسبة، من المؤكد أن وسائل الترفيه المتاحة للمسافرين كانت بداية في هذه المنطقة المنعزلة أكثر من المعتاد في مكان آخر.

الترقيم أو التدوين على خريطة "بيوتنجر" يفرض ان الماء النقي لم يكن من السهل الحصول عليه دائما على محطات الطرق.

ومن الغريب أنه لم يتم اكتشاف أحجار أميال رومانية في أي مكان على طريق 800 كيلو متر بين تيوباكتس (مصراتة) وبرينيكي (بنغازي) ولكن إلاي القيلاينيوروم (أم الغرانيق) الحد الرسمي بين

أقاليم المدن الثلاث وكيرينايكا وهي أعمدة عالية تمثل تماثيل للإمبراطور ديوكليتيان ورفاقه، وتلفت انتباه واهتمام المسافرين[1]

في اغلب مساره من المحتمل ان الطريق الروماني اتجه الى البحر اقرب منه الى الطريق الحديث، على الرغم من انه يرجح ان مسافري الشتاء القدامى كانوا يضطرون الى اتباع الحافة الداخلية للمستنقعات المالحة الواسعة لسبخة تورغاء والهيشة .

القليل من البلدات الفرعية مثل ماكومادس (سرت) واسينا (مدينة سلطان) ودجيجة (بين سدرة وبن جواد) وبوريوم (بوجرادة بالقرب من مرسى البريقة) كانت مبعثرة على طول الطريق ، ولكن اغلب محطات الطريق كانت إما حصن عسكري او نواصي بعيدة تتباهى بالقليل من الماء، بعض الحصون كذلك التي في تاجولاي (قصر الجديدة) بالقرب من رأس لانوف وتلك التي في (أم الغرانيق) يحتمل انها ظهرت للوجود خلال الحملات التي قام بها (سيليوس فلاكوس) ضد قبائل النسامونيس في عهد الإمبراطور (دوميتيان) وحتى تكللت تلك الحملات بالنجاح في الطريق الساحلي الغير أمن في سرت [2]

بين مرسى البريقة والزويتينة وهي إقليم يتأرجح فيه الطريق الحديث ليعبر اجدابيا الي الداخل وحيث يمر طريق سرت الرئيسي بالقرب من الشاطئ ، وبعض آثاره يمكن رؤيتها من الجو، ولكن الطريق البديل للرومان يمر خلال اجدابيا التي على الأرجح كانت كوريكلانوم القديمة ، وتقاطع مسار القوافل إلى اوجلة من اجل الاستفادة من المياه العذبة الوفيرة هناك [3]

احتلال المخربين لإقليم المدن الثلاث ربما كان سبب تدفق الاتصالات البرية مع كيرينايكا (برقة) والتي ظلت تحت حكم المقاطعة الرومانية الشرقية، حتى غزو العرب عام 642م والذي امتد الي طريق سرت وكان قد أعيد مجدداً إلى الاستعمال الفعال بعد ان هزم الامبراطور جستنيان المخربين، وأعاد تأسيس المقاطعات الرومانية بواسطة بروقنصل افريقيا التي ظلت غير معروفة ، ولكن ربما كانت تستخدم من قبل الجيش البيزنطي البربري الذي اسسه الامبراطور هرقل عام 608م لحملته ضد الطاغية (فوكاس).

3- كيرينايكا (برقة) :

بين برينيكي (بنغازي) ودارنيس(درنة) شبكة طرق استخدمت للعربات ذات العجل (والتي لا تزال ترى بالعين إلى يومنا هذا) في أماكن عدة ، و التي استخدمت في العصر الإغريقي للربط بين المدن الخمس ، لذا فإن الرومان لم يحتاجوا الي بناء طرق جديدة ، بل كانوا حريصين على الحفاظ وتطوير الطرق الموجودة مسبقاً منذ عهد الإمبراطور كلاوديوس إلي الآن ، هذه الطرق معلمة بطريقة أحجار الأميال والذي عرف بالميل الروماني أي (1482 متر).

أحجار أميال كيرينايكا (برقة) يختلف عن ما هو في إقليم المدن الثلاث ، حيث النقوش ليست (لاتينية) فقط بل أحياناً إغريقية وتكون هذه اللغات أكثر غنى بالمعلومات في كثير من الأحوال ، والنقوش تشير إلى أحداث

(1) – ورقات من المدونة البريطانية في روما، 20 (1952)، 94 – 110.

(2) – نقش من نقوش (طرابلس الرومانية) وجد بالقرب من سرت يرُينا تورط سيليوس فلاكوس عام 86 – 87 في تثبيت الحدود القبلية.

(3) – نقوش وفيرة نقشت على السطح الخارجي في صخر حول ابار اجدابيا تشهد على وجود الجنود الرومان هناك.

وشخصيات قبل عام 1950 [1] وحوالي العشرة أميال التي وجدت في كل كيرنايكا (برقة) ولكن هذا الرقم أصبح ثلاث أضعاف بواسطة أحداث الاكتشافات الحديثة ، بعض هذه المواضيع كتبت أثناء فترة بناء مدينة البيضاء الحديثة.

نظام الطرق الروماني في كيرينايكا (برقة) كان بسيطاً في البداية ، ولم تكن مهمة الطرق من الساحل الى الداخل بخلاف طريق اجدابيا أوجلة المشار اليه سابقاً الطريق الساحلي الكبير من قرطاج الى الإسكندرية من خلال تتبعها لإقليم المدن الثلاث، وخليج سرت استمرت في الاتجاه شرقاً من يرينيكي (بنغازي) الى توكرة وطلميثة كلها مدن ذات أهمية.

بعد المدينة الأخيرة على السهل الساحلي تكون المقاطعة بواسطة الحافة الشمالية من الجبل الأخضر ، والطريق القديم متأرجحة الى الداخل تعبر خلال وادي الكوف قبل الوصول الى أعلى الهضبة الطريق القديم من (مسة) إلى شحات يمكن ان تكون منفصلة بشكل مستمر ، وتعبر من خلال مدينة بلغراي (البيضاء) المدينة المشهورة بحرم الإله (اسكالابيوس) ،العديد من الأميال وجدت في هذا القطاع [2]

هذا هو الطريق الذي اتضح في خريطة " بيوتينجر"، والتي يبدو فيها معبد (اسكالابيوس) واضحاً والطريق البديل من طلميثة الى شحات في الجنوب الشرقي من المدينة الأولى ليبعد " سيميروس (مراوة) ولاساميس (سلنطة) قبل الوصول إلي شحات ، والمسافة تكون أبعد إلى حد كبير من مسافة الطريق الأخر، ولكن يتبع حَدّ مائي فاصل مما يقلل من المشاكل الهندسية من المثير للاهتمام بأن نفس الفاصل بأكثر أو أقل قد أُتبع من قبل طريق (ايراتليان الأول المعبد للسيارات) من باركي المرج إلي كبريني (شحات) والذي بني من قبل أن يتم إضافة جسر معلق لوادي الكوف.

طريق حجري ميلي روماني واحد فقط وجد على مسار طلميثة – مراوة – سلنطة – شحات وهو يقع بالقرب من سيدي محمد الحمري، ولكن لسوء الحظ أنه يحتوي على نقوش غير واضحة.

كبريني (شحات) كانت مركز طريق هام باربعة طرق رئيسية ، والعديد من الطرق الفرعية متقاربة على المدينة ، من المعتقد أن أكثر الطرق الرئيسية أهمية كان الطريق المؤدي أسفل الجرفين المتتاليين للجبل الأخضر الى ميناء أبولونيا (سوسة) مسافة 15 ميلاً رومانياً [3]

أحجار ميلية عديدة وجدت على امتداد خط ذلك الطريق مع نقوش للآباطرة كلوديوس – تراجان – هادريان – ديوكليتيان – قسطنطين تحت حكم اولئك الاباطرة الجُدد شيّد ممر جديد وهُندس بشكل جيد للتغلب على المنحدرات

(1) – ر . ج جوتشايلد " احجار الاميال الرومانية في كيرينايكا (برقة) أوراق من المدونة الانجليزية في رزما ، 16 ، (1950) 83 – 91 الاكتشافات الحديثة لأحجار الأميال هي من عمل الكاتب.

(2) – علامة أحجار الأميال الحديثة هي الثامنة والتاسعة والعاشرة والحادية عشر ميل من كيرين (شحات) وامتداداً الى كل مساحة الأرض من البيضاء وتبسط الى العشرين ميل من كيرين (شحات) وفقاً لخريطة بيوتينجر التي توضح لنا بشكل دقيق

(3) – أنا أقصر في عملي لإيجاد آثار مقنعة لطريق هام كرابط بين أبولونيا سوسة ودرنة بواسطة الطريق الساحلي ، ولكن هناك نقش للإمبراطور قسطنطين الأكبر اكتشفه السيد ر.م. هاريسون في رأس الهلال ، وكان يعني أنه خدم أميال غير هامة من الآثار الساحلية

الحادة للجروف السفلية بين علامة الحصن وحتى سواحل "فيلاين" قبل هذا العمل قد اتبعت الطريق الإغريقية القديمة، السرير المتعرج من وادي عميق حيث تعرضت الى الضرر المتكرر بسبب السيول الشتوية [1]

أعاد الإمبراطور " تراجان " بناء طريق "ابولونيا سوسة" بواسطة الأطراف العاملة من مجندي الجيش والذين كانوا قد جُندوا عام 100 بعد الميلاد ضمن (كيرينائيكا برقة) ولكن بعد "15 عاماً" دمر الطريق من قبل المتمردين اليهود الذين سيطروا على "كيريني – شحات" وتم إصلاحة في عهد الإمبراطور هادريان عام 118م مستخدماً جنود من جماعات الجيش ، كما شهد الطريق اصلاحات أخرى في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الميلادي ، كما أن هناك طريقان رئيسيان يؤديان الى شرق (كيرين – شحات) .. الأول والذي يظهر على خريطة بوتنجر" ، وقد امتد الى الجنوب الشرقي باتجاه "أجابيس" (حيجاب) ويلتقي بساحل (بالليوروس– التميمي) في خليج بومبة – والطريق الأخر سُجل في المسار (النتوني) وهو يتبع دورة مماثلة لتلك الطريق الحديثة ، والتي تمر بين ليمناس – لملودة ، ودارنس – درنة.

ثم ينحنى حول باليوروس حيث يلتقي بالطريق الأول إلا أن هذه الطرق لم تظهر بها أحجار أميال بعد.

ولا واحدة من هذه الطرق إلى الشرق من باللبورس امتد عبر الطريق الساحلي أكثر أو أقل على خط الطريق الحالي الي انتبرخوس – (طبرق) ، ومنها تمر الي بارانتيونيوم (مرسى مطروح) في مصر والإسكندرية لم تظهر أي أحجار أميال حتى ذلك الوقت في هذا القطاع ، ربما يكون هناك طريق صحراوي قد تفرع الي الجنوب من طريق يتواصل مع الواحات المكتظة بالسكان في الجغبوب وملفا ، ومنها إلى سيوه ، الموقع الشهير بالآلة آمون ولكن لم يتم العثور على آثر واضح مؤكد حتى الأن .

أحجار الأميال الرومانية في كيرينايكا (برقة) والتي تُبنى عليها معرفتنا لتاريخ نظام الطريق القديم العميق والواسع يقدم العديد من المواقع المثيرة للاهتمام كما رأينا ، وهي تعود للقرون الأول والثاني والرابع بعد الميلاد ، والتي تمثل أحجار الأميال في تريبوليتانيا وإقليم المدن الثلاث" خلافاً لذلك فإن أباطرة القرن الثالث الذين تظهر نقوش أحجارهم الميلية ، والتي تكون بكثرة في تريبوليتانيا – المدن الثلاث ولا تظهر على الإطلاق في كيرينايكا (برقة).

سيطرة فعّالة على الجبل الأخضر عن طريق حصون قوية مثل حصن قصر المقدم أوبني قديم في وادي الكوف ، وهذا التحكم الفعّال ظل حتى القرن السابع الميلادي، عندما أصبح البربر ذوي قوة فعّالة ، وعند احتلال البيزنطيين للمدن الخمس القديمة احتاجوا الي الطرق التي تربطها مع بعضها ، ولكن طريقة نصب الاحجار الميلية التي كانت ترمز لأسم الإمبراطور كانت قد اندثرت في القرن الخامس الميلادي.

في الصفحات السابقة حاولت أعطاء تخطيط لمعرفتنا بالطرق الرومانية وأحجار الأميال في ليبيا ، ومن الواضح أن هذه المعرفة مازالت غير كاملة ، وأتمنى من الآخرين محاولة البحث والتقصي عن تلك الطرق العامة القديمة ، والتي كانت في عهدها أساسية للاقتصاد والإدارة في ليبيا ، كما هو الحال بالنسبة للطرق

---

(1) – العلامة في ملتقى الطرق للطريق الإغريقية القديمة تنحدر نحو سوسة واستخدمت كطريق روماني التي وتتمدد على وجه الدقة نحو مبنى المدرسة في "غامبو" 2 كيلومتر من شحات.

الحديثة لعصر النفط لتحديد الطريق القديم وتتبعه عبر الريف، لا يحتاج الأمر لأي موهبة أو أداة خاصة ، ويكون وراء المعنى العام والميل للتجول بعيداً عن الآثار المضروبة حتى الوقت الحالي ، ومع ذلك فإن التحقيق ينبغي أن يطلع على الخرائط الجيدة [الأفضل تكوين الخرائط الأمريكية على مقياس 1/50,000] والصور الجوية حيث توجد هذه الطرق ، كما أن هذه الأحجار الميلية الرومانية تزود بالشواهد الأكثر وضوحاً ومعلومات عند وجود الطرق القديمة فإنها تستحق الاهتمام الأول لكل باحث في المناطق الرملية مثل المنطقة العليا لسوف الجين بـــ تريبوليتانيا– المدن الثلاث.

هذه الأعمدة الجماعية تكون غالباً غير مغطاة بفعل الرياح منتظرة الاكتشاف حيث توجد التربة الثقيلة والغطاء النباتي، كما في الجبل الأخضر بكرينايكا – برقة

الانجاز الوحيد على وجود أحجار الأميال الرومانية يمكن أن يكون جزء من عمود كلسي بارز من التربة فيسهل تمييزه بواسطة تخطيطه الدائري ، ربما أكون قد أضفت تلميحات قليلة من تجربتي الخاصة للتعريف بأحجار الأميال القديمة .

أولاً : حيثما وجد حجر ميلي من المحتمل أن تكون أحجار أخرى بالجوار أو بالقرب منها غالباً ما تكون القواعد المربعة فقط ، والتي تدعم الأعمدة الحجرية التي تكون مرئية على سطح الأرض ، ولكن الأعمدة لا ينبغي أن تتباعد كثيراً عن هذه النقطة ، حيث أنها تكون ثقيلة جداً لتحريكها من مكانها.

ثانياً : بما أن حجر ميلي واحد يتم تحديده في موقع ما يزود بمفتاح إيجاد الحجر الميلي المجاور على نفس خط الطريق ، فإن موقفاً كهذا ينبغي أن يسجل بحرص على الخريطة ومن ثم ينبغي أن يتبع البحث على خط الطريق القديم بمسافة 2964 متراً وتتم المحاولة مرة أخرى .

ثالثاً : بمجرد اكتشاف حجر ميلي غير مسجل ينبغي أن يتم التقرير عنه في قسم أو مصلحة الآثار التي بها موظفون يستطيعون حمله أو تحريكه إلى مكان آمن [1] بانتظار وصولهم ثم بتدوين ملاحظاتك الخاصة ، وصورك ثم ترك العمود مع إبقاء وجهه الغير مكتوب عليه للأسفل لحمايته من أي ضرر محتمل .

([1]) – في عام 1948 م عندما كانت الطرق الداخلية في ليبيا قليلة الاستعمال والنصب الأثرية القديمة في البلاد تتحمل التلف أنا أوحيت في مقالة الطرق الرومانية وأحجار الأميال الرومانية في المدن الثلاث ، ص . 6) بأن أحجار الأميال الرومانية تركت متى كان ممكناً كمرشد للمستقبل عن طريق المحققين لتطوير الحركات الصناعية والزراعية في البلاد وأحضرت عن طريق تهديدات للأثار القديم الغير محمية ، لا أمل أطول من ذلك لجعل نفس التوصية اليوم.

THE ROMAN ROADS OF LIBYA AND THEIR MILESTONES

BY

R. G. GOODCHILD

Paved roads, marked at intervals of one Roman mile (1000 running paces, equivalent to 1482 metres) by stone columns inscribed with the titles of the reigning Emperor, were among the most characteristic features of the Roman Empire. Such roads linked the principal cities of all the provinces, and also extended into frontier areas where they connected fortresses and outposts. Along these highways moved not only the military forces, but also the commercial traffic of a rich society, and the fast official postal services which carried news, reports and administrative orders between Rome and the most distant regions subject to Rome.[1]

The Roman milestones served primarily to mark the distances between the major centres, but since they invariably bore inscriptions giving the titles of the Emperor in whose reign they were erected, they had a notable propagandist importance which was exploited to the full in the third and fourth centuries of the Christian era. There was no better way for a ruler who had recently seized power to make himself known to his subjects than by ensuring that his name was placarded along the major highways. Apart from the imperial titles they contain, the milestone inscriptions often give the names of provincial governors, military units, or municipalities who were responsible for road repairs. That they are important historical documents has long been recognized by scholars.

This careful measuring of road-distances, to which the Romans were the first ancient society to pay attention, facilitated the preparation of accurate "Itineraries", or road-guides in book or map-form. These handy documents had much the same function as the similar guides published to-day by tourist organisations, automobile associations and oil companies: they enabled travellers, whether official or private, to plan their journeys with efficiency, and to find their way without dependence on local informants.

Official travellers in the Roman period also enjoyed the use of a well-organized system of "posting-stations" (*mutationes*) for changing their horses, and rest-houses

1. The best general account of the Roman roads of North Africa is by PIERRE SALAMA, *Les Voies romaines de l'Afrique du Nord* (Algiers, 1951).

(*mansiones*) providing accommodation at the end of a day's journey. This system, which was essential for effective administration over a vast area, was called the *cursus publicus*;[1] but, despite this name, it was not available to all members of the public. Only high-ranking officials were entitled to use the *cursus publicus*, and even they required a movement-order or *evectio*, of which only a limited number were issued each year to any one person, according to his rank in the public service.

By good fortune two Roman "Itineraries" covering the area of North Africa have survived from the break-up of the Roman Empire: they are invaluable to the student of ancient history and archaeology. One is the "Antonine Itinerary",[2] believed to have had its origin in the reign of the Emperor Caracalla (whose official name was Antonius): it is simply a list of routes and road-stations, giving the distances between each place. The other surving Itinerary, the "Peutinger Map"[3] (so-called after the German scholar who first published it) is more interesting. It is a most ingeniously compiled map of the Roman Empire, drawn out in elongated form (34 centimetres high and some 7 metres long) so that it could be attached to two rollers and rolled and unrolled as the user's journey progressed. Although the very shape of the map distorts the geographical back-ground on which the routes of Roman roads are marked, the outlines of the Mediterranean coast and islands are sufficiently recognisable to allow easy consultation.

The Roman milestones, which can only effectively be studied in connection with the Itineraries, were normally stone columns of up to 65 cm. diameter and 2.5 metres height rising from cubical bases which were intended to be dug into the ground to give the column stability. Where the available stone was soft and easily quarried (as in the Cyrenaican Jebel) the column and base were cut as a single stone. Elsewhere (as in the interior of Tripolitania) columns and bases were cut separately, and the latter were given circular sockets to receive the shaft.

The milestones would normally be cut in quantity at a single quarry, where they might also receive their inscriptions complete except for the mileage figure. They would then be carted along the line of the road and erected at the appropriate intervals, the mileage figure being added after their erection.[4] Under this procedure a new milestone would be added even where one or more old ones, erected under previous emperors, were still standing; and it is quite normal to find up to five bases still standing at a single mile-station. When, however, stone columns of suitable size were difficult to obtain, the

1. Legislation relating to use of the *Cursus Publicus* is contained in the *Codex Theodisianus*, VIII, 5-6.
2. The best editions of the Antoine Itinerary are those of Parthey and Pindar (Berlin, 1848) and O. Cuntz, *Itineraria Romana*, I (Leipzig, 1929).
3. Konrad Miller, *Die Peutingersche Tafel*. (Reprint, Stuttgart, 1962.)
4. Sometimes, as on the Fezzan road in the area of Mizda, the mileage figure is lacking on the milestones. It might perhaps, have been added *in paint* which has not survived. It may be noticed that part of a milestone inscription found at Qasr Dauun, near Kussabat, has painted rather than cut letters.

road markers would content themselves with obliterating the inscription on an old column and carving a new one in its place. Sometimes the old column was simple turned upside down, or back to front, so that the new text could be cut without the trouble of obliterating the old one. Thus a single stone may sometimes bear the traces of several successive inscriptions.[1]

The Roman roads themselves, along with these milestones were erected, varied considerably in their character. In the European provinces of the Roman Empire, where the terrain often consisted of forest and marsh, they were usually laid out in straight lines with a raised causeway of stone and gravel. This causeway, or *agger*, can often still be recognized today even where no milestones have been found. In Greek lands where a good network of roads existed before the Roman occupation, these old roads often continued in use unchanged except for the erection of milestones along their course. On the dry soils of north-west Africa (including western Libya) only a few major highways were paved throughout their length.[2] More commonly, the roads outside the confines of the cities were unpaved 'pistes' cleared of stones and roughly levelled. Such tracks tended, during centuries of use, to become hollows in the ground which can easily be recognized on air photographs. In Cyrenaica, where the Greek roads were adopted by the Romans, their line is marked by shallow cuttings in the rocky outcrops, and by multiple wheel-ruts.

Thus, to qualify as a "Roman road" in the strictest sense, a route must *either* (a) appear in one or other of the Roman Itineraries; or (b) have yielded Roman milestones along its presumed course; or (c) be visible on the ground as an undoubtedly ancient road linking up places known to have been occupied in the Roman period. Some of the best-known Roman roads meet all three requirements: others meet only one, but are acceptable none the less.

In discussing the Roman roads of Libya, and attempting to outline their extent and their history, we must — for historical reasons — differentiate between those of Tripolitania and those of Cyrenaica: and we may also, for simplicity of description, discuss separately the long Syrtic route (from Misurata to Benghazi) which linked the two provinces.

I. Tripolitania.

The road-system of Roman Tripolitania[3] represented the eastern extremity of the highly complex network of communications of Proconsular Africa. It consisted of:

1. In Cyrenaica there are many instances of such re-use; but they do not occur in Tripolitania.
2. Salama, *op. cit.*, p. 73.
3. R.G. Goodchild, *The Roman roads and milestones of Tripolitania* (Tripoli, 1948). Additional milestones are included in J.M. Reynolds and J.B. Ward Perkins, *Inscriptions of Roman Tripolitania* (Rome, 1952). The few milestones which have been found since 1952 do not materially alter the conclusions of the above works. (But cf. note 9.)

The development of this road as a continuous route along the Tripolitanian *limes* must belong to the period of Commodus and later. Its eastern extremity, from Mesphe to Leptis Magna, had come into existence much earlier, as is shown by a terminal milestone near the Severan Arch of Leptis, recording that in 17 A.D., under Tiberius, the proconsul L. Aelius Lamia had constructed a road for 44 miles into the interior (*in mediterraneum*).[1]

Apart from this single milestone of the first century, all the other milestones on this route are of third century date, and have been found between Leptis Magna and the 57th mile-station, which stood south of Abiar Mijji. They range in date from Caracalla (216) to Gallienus (262).

Although Roman military detachments were stationed along this road (as, for example, at *Auru* and *Thenadassa*)[2] it was not — despite its title — a strongly fortified frontier line such as we find in other provinces. By the age of Severus, if not earlier, the true frontier had extended much farther to the south. Nor is it likely that this whole frontier zone was abandoned under Diocletian, as Courtois has suggested: it probably remained effective until the eve of the Vandal occupation.

(c) *The Road from Oea to Mizda and Fezzan.*

This route does not appear in either of the Roman Itineraries, but it was certainly the most central and important route from the Tripolitanian coast towards the Frezzan. All trace of the road appears to be lost in the sandy Jefara plain, and it is only at the 57th Mile from Tripoli (at Caf Tobbi, near Garian) that we encounter the first milestone, of Caracalla (216). Other milestones, in groups of three or four at each mile-station, occur from the pass of Khormet el-Hanteshia (km. 125 from Tripoli) all the way to Mizda, where the series apparently stops. They range in date from Carcallaa (216) to Aurelian (271).

It can hardly be doubted that this road continued further southwards to reach the great fortress of Septimius Severus at Gheria el-Gharbia, and to continue thence (as a Libyan caravan route rather than an official Roman road) to the Fezzan. But the fact remains that south of Mizda no milestones have yet come to light, and the course of the road cannot be traced.[3]

1. *Inscriptions of Roman Tripolitania* (IRT), 930. Although the destination *in mediterraneum* is not precise, it is significant that the name of L. Aelius Lamia also occurs in the neo-Punic inscription of a temple at Ras el-Haddagia on the Tarhuna plateau.
2. IRT 868 (*Thenadassa*) : Papers of the British School at Rome XXVIII (1960), p. 51 (*Auru*).
3. A. Di Vita (*Libya Antiqua*, I (1964), p. 87) refers to a series of small forts situated at intervals of 3 to 5 kilometres immediately west of the caravan route from Mizda to Gheria esh-Shergia. Without more details of their sites and constructional features it is difficult to be sure of their Roman date and military function.

(d) *The Wadi Sofeggin road.*

The fourth and last of our milestone-marked Roman roads in Tripolitania has something of the character of a true frontier road, in that two small Roman forts lie along its route. It must have left the Jebel road near Tentheos (Zintan) and passed southwards towards the fort of Qasr Duib, which we know to have been constructed in A.D. 244-246 by Philip the Arab.[1] The first known milestone, marking the 25th Mile, has been found at Oglet el-Jefirat, some distance east of Qasr Duib; and other mile-stations have been identified at Qasr Uames (another frontier fort), Shegega, and near Mizda. The recorded milestones belong to Caracalla (216) and Maximinus (237).

One is tempted to assume that this road, crossing the Fezzan route at Mizda, continued down the course of the Wadi Sofeggin, to pass by the Roman sites at Tininai and Shemek; but proof is still lacking.

* * *

With the description of the above four roads we must conclude our account of the Roman road-system of Tripolitania. Other important highways there must have been, such as a road to Ghadames, and another to Bu Ngem; but it is useless to make conjectures as to their exact courses, without the evidence of milestones or — at least — of some definite archaeological traces on the ground. Future study of air photographs may help to fill these gaps in our knowledge: for the present it is prudent to reserve judgement.

We may, however, venture to comment on the significance of the evidence at present at our disposal, with particular reference to the milestones. These — with the notable exception of the terminal stone of L. Aelius Lamia at Leptis Magna — all fall within the third century, from Caracalla (216) to Diocletian (290). They indicate a phase of *road-marking* rather than of road-making, and it is significant that the very numerous milestone-inscriptions of Caracalla all set out his fictitious imperial "ancestry", going back to Nerva. These are, beyond any reasonable doubt propagandist documents, having only a slight relationship to actual programmes of public works. Of the subsequent emperors who followed Caracalla in having their names and titles posted up so conspicuously along the desert tracks of Tripolitania, only Maximinus (A.D. 237) claimed actually to have restored the roads.

The real work of creating Roman highways in Tripolitania was no doubt carried out under earlier emperors who were less concerned with using these highways as a means of official propaganda. It is interesting to note that Septimius Severus himself, who was so active in establishing a firm military frontier in Tripolitania, and whose troops must have laid out many of the new desert routes, seems to disregard the propagandist

1. IRT 880: for details see *Journal of Roman Studies* XXXIX (1949), 91.

possibilities offered by these routes. His regime, unlike that of his son Caracalla, was founded on positive achievements: it did not need propaganda to bolster it up.

II. The Syrtic Gulf.

The long coastal caravan-route linking Tripolitania with Cyrenaica was famed in antiquity for its shifting sands, venemous serpents and lack of water. The marches of the armies of Ophellas (309 B.C.) and of Cato the Younger (47 B.C.) had been regarded at the time as epic achievements.

The Romans, although they never attempted to unite Romano-Punic Tripolitania with Greek-speaking Cyrenaica, needed a safe all-season coastal route as an economic and political life-line; and the Roman Itineraries indicate that the Syrtic route was organized as a normal Roman highway, with road-stations at appropriate intervals. Certainly the amenities available to travellers must have been more primitive in this desolate area than was normal elsewhere: the notation "*Dissio — aqua amara*" on the Peutinger Map shows that sweet water could not always be obtained at the road-stations.

Curiously enough, no Roman milestones have yet been found anywhere on the 800 kilometre route between *Thubactis* (Misurata) and *Berenike* (Benghazi); but at *Arae Philaenorum* (near Umm el-Garanigh), the official boundary between Tripolitania and Cyrenaica, lofty columns bearing statues of the Emperor Diocletian and his colleagues attracted the attention of the traveller.[1] For most of its route the Roman track probably followed closer to the sea than the modern highway, although in winter ancient travellers probably had to follow the inland edge of the vast salt-marshes of Sebkha Taworga and El-Heshia.

A few minor towns, such as *Macomades* (Sirte), *Iscina* (Medina Sultan), *Digdiga* (between Sidra and Ben Jawad) and *Boreum* (Bu Grada, near Marsa Breiga), were scattered along the route, but most of the road-stations were either military forts or remote localities boasting a little water. Some of the forts, such as the ones at *Tagulae* (Qasr Haddadia, near Ras Lanuf) and at Umm el-Garanigh, had probably come into existence during the campaigns of Suellius Flaccus against the Nasamones in the reign of Domitian. Until those campaigns had been successfully completed, the Syrtic coastal route remained unsafe.[2]

Between Marsa Brega and Zuetina, in which region the modern highway swings inland to pass Ajdabiya, the main Syrtic route followed close to the shore, and some traces of it can be seen from the air; but an alternative Roman route did pass through

1. *Papers of the British School at Rome*, XX (1952), 94-110.
2. An inscription (IRT 854) found near Sirte shows that Suellius Flaccus was engaged, in A.D. 86-87, in fixing tribal boundaries in the Syrtica.

Ajdabiya (which was probably the ancient *Corniclanum*, and the junction of the caravan-track to Augila) in order to take advantage of the abundant fresh water there.[1]

The Vandal occupation of Tripolitania probably interrupted overland communications with Cyrenaica, which remained under uninterrupted East Roman rule until the Arab conquest of 642. To what extent the Syrtic route was brought back into effective public use after Justinian had defeated the Vandals and re-established the Roman provinces of Proconsular Africa remains unknown; but it was probably used by the Byzantine-Berber army which Heraclius assembled in Libya in A.D. 608 for his campaign against the tyrant Phocas.

III. Cyrenaica.

Between *Berenike* (Benghazi) and *Darnis* (Derna) a network of roads used by wheeled traffic (of which the wheel-ruts can still be seen today in many places) had come into being in Greek times, linking the cities of the Pentapolis. The Romans had, therefore, no need to construct new highways; and they were content to maintain and improve the routes which were already in existence. From the time of the emperor Claudius onwards, these routes began to be marked with milestones at the usual interval of one Roman mile (1482 metres).

The Cyrenaican milestones differ from those of Tripolitania in bearing inscriptions not only in Latin but sometimes in Greek, and occasionally in both languages. They are also very much more informative, since the inscriptions frequently mention personages and events. Prior to 1950[2] only about ten milestones had been found in the whole of Cyrenaica, but this number has been trebled by recent discoveries, some of them made during the course of the construction of the new city of El-Beida.

The road-system of Roman Cyrenaica was simple, there being no important routes from the coast to the interior, other than the Ajdabiya-Augila route previously mentioned. The great Coast Road from Carthage, to Alexandria, which we have followed through Tripolitania and the Syrtic Gulf, continued its eastward course from Berenike to *Teuchira* (Tocra) and *Ptolemais* (Tolmeita), both cities of importance. Shortly after the latter city, the coastal plain is interrupted by the northern edge of the Jebel el-Akhdar, and the ancient route was obliged to swing inland, passing through the broken country of the Wadi Kuf before arriving on the upper plateau. From Messa to Cyrene the old road can be traced almost continuously, passing through the small town of *Balagrae* (Beida), site of a famed Sanctuary of Aesculapius: numerous milestones have been found in this

1. Numerous inscriptions carved on the surface of the rock around the wells of Ajdabiya attest the presence there of Roman soldiers.
2. R.G. Goodchild, "Roman Milestones in Cyrenaica", *Papers of the British School at Rome* XVIII (1950), 83-91. A full description of the more recent milestone discoveries is in preparation by the writer.

sector.[1] This is the route which appears in the Peutinger Map, on which the Temple of Aesculapius is prominently marked.

An alternative route from Ptolemais to Cyrene is given in the Antonine Itinerary. It must have run south-eastwards from the former city to pass *Semeros* (Marawa) and *Lasamices* (Slonta) before arriving at Cyrene. The distance is considerably greater than that of the other road, but as it follows a natural watershed it presents less engineering problems. It is interesting to note that more or less the same course was taken by the first Iratlian motor-road from Barce to Cyrene, constructed before the Wadi Kuf was effectively bridged. Only one Roman milestone has been found on the Ptolemais-Semeros-Lasamices-Cyrene route. It lies near Sidi Mohamed el-Homri, but unfortunately bears no legible inscription.

Cyrene was an important road centre, with four major highways and numerous minor ones converging on the city. Perhaps the most important of the major roads was the one leading down the two successive escarpments of the Jebel el-Akhdar to the port of Apollonia, a distance of 15 Roman miles.[2] Numerous milestones have been found along its line, with inscriptions of the emperors Claudius, Trajan, Hadrian, Diocletian and Constantine. Under the first of these emperors a new, well-engineered pass was constructed to overcome the steep slopes of the lower escarpment, between the Signal Fort and the coastal plain. Prior to this work, the old Greek road had followed the winding bed of a deep ravine, where it was exposed to frequent damage by the winter torrents.[3]

The emperor Trajan reconstructed the Apollonia road by means of working-parties of army recruits who had been enlisted in 100 A.D. within Cyrenaica. But only 15 years later the road was wrecked by the Jewish insurgents who had seized control of Cyrene, and Hadrian repaired it in 118 using the soldiers of a military cohort. Later repairs are attested at the end of the third century and at the beginning of the fourth.

Two main roads led eastwards from Cyrene. The first, which appears on the Peutinger Map, ran south-east towards *Agabis* (Ghegab) and met the coast at *Paliuros* (Tmimi) in the Gulf of Bomba. The other, recorded in the Antonine Itinerary, followed a course similar to that of the modern highway, passing *Limnias* (Lamluda) and *Darnis* (Derna) and then curving round to *Paliuros* where it met the first road. Neither of these roads has yet produced milestones.

---

1. The new milestones mark the 8th, 9th, 10th and 11th miles from Cyrene, and all lie within the area of the new city of Beida. *Balagrae* itself lay at the 20th mile from Cyrene as the Peutinger Map accurately shows.
2. I have failed to find any convincing traces of a major Roman road linking Apollonia with Derna by a coastal route. But an inscription in honour of Constantine the Great found by Mr. R.M. HARRISON at Ras el-Hillal might have served as a milestone of a minor coastal track.
3. The point of junction of the old Greek road descending to Apollonia and the improved Roman road which superceded it lies precisely at the new School building at Gambu, 11 kilometres from Cyrene.

East of *Paliuros* the Coast Road ran, more or less on the line of the present highway, to *Antipyrgos* (Tobruk) and thence to *Paraetonium* (Marsa Matruh, on Egypt) and Alexandria. No milestones have yet come to light in this long sector. A desert track may have branched south from Tobruk to communicate with the populous oases of Jaghbub and Melfa, and thence to Siwa, site of the famous Oracle of Ammon: but no certain trace of it has yet been found.

The Roman milestones of Cyrenaica, on which our knowledge of the history of the ancient road-system is largely based, offer many points of interest, as we have seen. They belong mainly to first, second and fourth centuries which are not represented in the milestones of Tripolitania. Conversely, the emperors of the third century, whose milestone inscriptions are so plentiful in Tripoliatnia do not appear at all in Cyrenaica, with the exception of a series of texts of Philip the Arab (A.D. 244-246) found between Cyrene and Beida.

Although the latest milestone inscriptions in Cyrenaica are of the age of Constantine the Great, the roads to which they refer must have been maintained and used for long after that time. There is no doubt that the Byzantines maintained an effective control of the the Jebel el-Akhdar, by means of strong fortresses such as Qasr Migdum (or Beni Gdem) in the Wadi Kuf. This control remained effective until the seventh century when the Berbers became increasingly powerful. So long as the Byzantines occupied the old cities of the Pentapolis they needed the roads that linked them together; but the custom of erecting milestones bearing the emperor's name was already forgotten in the fifth century.

* * *

In the preceding pages I have attempted to give an outline of our present state of knowledge of the Roman roads and milestone of Libya. It is obvious that this knowledge is still very incomplete, and I hope that others will interest themselves in the investigation of these ancient highways which were — in their day — as essential to the economy and administration of Libya as are the modern highways of the oil age.

To identify an ancient road and follow it across the countryside does not require any special talent or equipment, beyond common-sense and an inclination to wander away from the beaten tracks of today. The investigator should, however, have access to good maps (the best are the recent American maps on the scale of 1/50,000) and air photographs, where these exist.

Since the Roman milestones provide the most obvious and informative testimony of the existence of ancient roads, they merit every investigator's first attentions. In sandy areas, such as the Upper Sofeggin area of Tripolitania, these massive columns are often uncovered by the winds and lie awaiting discovery. Where there is much heavy soil and vegetation, as in the Jebel el-Akhdar of Cyrenaica, the only clue to the presence of a Roman

milestone may be a fragment of a limestone column protruding from the soil, and recognisable only by its circular outline.

Perhaps I may append a few hints culled from my own experience of identifying ancient milestones:

First, wherever one milestone is found, it is likely that others lie close at hand. Often only the square bases which supported the stone columns are visible on the surface of the ground; but the columns should not have wandered far from this point, since they are too heavy to be moved around.

Second, since one identified milestone site provides the key to finding the next one along the same line of road, any such site should be carefully recorded on the map. A search should then be made on the line of the old road at distances of 1482 metres in either direction. If this fails, double the distance to 2964 metres and try again.

Third, once an inscribed milestone is discovered it should be reported to the Department of Antiquities which has the technical personnel who can lift it and move it to a safe place.[1] Pending their arrival, make your own notes and photographs and then leave the column with its inscribed face downwards to protect it from possible damage.

1. In 1948, when the inland routes of Libya were little used and the ancient monuments of the country suffered little disturbance, I recommended (*Roman Roads and Milestones of Tripolitania*, p. 6) that Roman milestones be left *in situ* whenever possible, as a guide for future investigators. The recent rapid industrial and agricultural development of the country has brought about serious threats to unguarded ancient monuments, and I would no longer make the same recommendation today.

كيفية حماية المعالم الأثرية المهددة بمياه البحر في مدينة سوسة

إعداد :

أ.محمد ابراهيم محمد عبد الواحد.

جامعة عمر المختار

الملخص :

يتناول هذا البحث المخاطر الناتجة من حركة الأمواج التي تتعرض له المعالم الأثرية القريبة من شاطئ البحر في مدينة سوسة، وإيجاد الحل الأمثل لحمايتها من تلك المخاطر. وقد تبين من خلال دراسة التغير الذي حدث على بعض هذه المعالم عبر العقود الماضية أن بعضها قد انهار أو أصابه الضرر، وهي عرضة لأضرار أكبر إذ لم تتوفر حلول لحمايتها.

وقد تم في هذا البحث دراسة الميناء الأثري المغمور بمياه البحر للتعرف على أسباب غمر المياه له، وكذلك تحديد التأثيرات الناتجة من تشييد نظام حماية على المعالم الأثرية المغمورة بالمياه. ثم استمر البحث بحصر المعالم القريبة من شاطئ البحر ودراسة المنطقة المستهدفة بتطبيق نظام الحماية للتعرف على الحل الأمثل وقابلية تنفيذه.

وقد توصل هذا البحث إلى نتيجة مهمة وهي إمكانية تنفيذ مصد على شكل حاجز بحري حجري على المنطقة المستهدفة بالحماية التي تمتد لمسافة 515 مترا تقريبا، غير أن التنفيذ الفعلي لهذا الحل يكمن في تعاون الجهات الحكومية المختصة مع مصلحة الآثار.

المقدمة :

لقد ركز الكثير من خبراء الآثار في العالم على التنبيه من التهديدات الناتجة عن النشاط البشري التي تتعرض لها المواقع الأثرية في الآونة الأخيرة، وخاصة في المناطق التي تعاني من نزاعات مسلحة، غير أنه يوجد هناك تهديدات طبيعية وبيئية للمواقع الأثرية الساحلية، حيث يعد هبوط مستوى الساحل وارتفاع منسوب مياه البحر أكبر تهديد تتعرض له العديد من تلك المواقع المشيدة على شواطئ البحر، حتى أصبح ارتفاع مستوى سطح مياه المحيطات والبحار يشكل تهديداً في المستقبل لمعظم مواقع التراث العالمي المعتمدة من اليونسكو، ويشمل ذلك التهديد مواقع تراثية عالمية في منطقة حوض البحر المتوسط مثل مدينتي نابولي والبندقية.[1]

إن ذلك التهديد لا يقتصر على مواقع التراث المعتمدة من منظمة اليونسكو فقط بل يمتد لمدنٍ ساحلية تحتوي على معالم أثرية مهمة مثل مدينة سوسة (أبولونيا). ولم يكن هناك أي مبادرة من قبل الجهات المسؤولة عن إدارة الآثار في إنشاء نظام حماية من مياه البحر للمعالم الأثرية في المدن الساحلية الليبية منذ بداية عمليات الكشف والتنقيب في البلاد وحتى وقتنا الحالي، وقد غمرت مياه البحر مرافق الميناء الأثري القديم في مدينة سوسة، مما شكل دليلاً واضحاً وجلياً على هبوط مستوى الساحل وارتفاع منسوب مياه البحر على مدى القرون المتتالية منذ الفترة الكلاسيكية إلى وقتنا الحاضر، ويمكن ملاحظة التغيرات على ملامح شاطئ المدينة منذ بداية القرن التاسع عشر إلى القرن الحادي والعشرين حسب الأدلة والخرائط التي دونّها الكثير من الرحالة الأوروبيون الذين زاروها آنذاك.

وتكمن أهمية هذا البحث في تحديد بعض طرق الحماية لبعض معالم مدينة سوسة الأثرية المهددة بغمر مياه البحر لها أو تسبب الأمواج في انجراف التربة أسفل أساسات الكثير من المباني. وللحد من هذا التهديد يقوم الباحث بدراسة المبادئ المتعلقة بكيفية حماية الشاطئ والمباني الأثرية المشيدة عليه من الأضرار الناتجة عن قوة حركة الأمواج والتيارات البحرية، كما يقوم الباحث كذلك بحصر المعالم الأثري القريبة من الشاطئ وتحليل أية تأثيرات جانبية أو أضرار لتلك المعالم جراء تنفيذ الحماية المقترحة. ويعد الهدف الأساسي لهذا البحث كيفية حماية المواقع الأثرية المهددة بالتغيرات الطبيعية من أجل المحافظة على التراث الثقافي، ولذا يجب البحث عن حلول ملائمة للتقليل من خطر هذا التهديد الطبيعي، حيث يقترح الباحث تشييد مصد للأمواج على طول امتداد منطقة الشاطئ المستهدفة بالحماية، وبعد الانتهاء من هذا المشروع ستكون نتيجة هذا المصد توفير حماية للمعالم الأثرية المهددة بالانهيار أو غمر مياه البحر لها.

---

[1] Ben Marzeion & Anders Levermann, "Loss of cultural world heritage and currently inhabited places to sea-level rise", Environmental Research Letters, (Vienna, 2014), pp. 3-9;

تعتبر التغيرات المناخية وبالتحديد ارتفاع مستوى سطح البحر من التهديدات البيئية لأن أحد أهم عواملها هو النشاط البشري المسبب لزيادة في انبعاث الغازات المساهمة في رفع درجة حرارة الأرض، بينما هبوط أو ارتفاع مستوى اليابسة في المناطق الساحلية الناتجة من تحركات اللوحات التكتونية يعد من العوامل الطبيعية التي لها تأثير مباشر في ارتفاع مستوى سطح البحر. حسب تقرير الباحثين هناك 136 موقع مدرجة على قائمة اليونسكو لمواقع التراث العالمي ستتأثر بارتفاع مستوى مياه المحيطات والبحار ومنها تمثال الحرية Statue of Liberty وقاعة الاستقلال Independence Hall في الولايات المتحدة الأمريكية وبرج لندن Tower of London ودار الأوبرا في سيدني Sydney Opera House.

إن منهجية البحث والمبادئ المستخدمة لدراسة نواحي هذه الظاهرة تختلف اختلافا كبيرا بين الباحثين حسب الغرض منها. وبما أن الهدف الأساسي من هذه الدراسة هو تقديم مقترح عملي لحماية المعالم الأثرية المهددة، قابل للإنجاز حالما توفرت الموارد المالية لذلك، لذا اتبع الباحث عدة مناهج منها التحليل الكيفي Qualitative Analysis والمنهج الوصفي Descriptive Methodology لتفسير دراسات الحفريات للمعالم الأثرية القريبة من الشاطئ، وتوضيح تقارير أعمال التنقيب تحت الماء في ميناء سوسة الأثري المغمور بمياه البحر من أجل معرفة أسباب المسألة الرئيسية التي يعالجها هذا البحث والوصول إلى اقتراح الحلول المناسبة. وليس كل ساحل مدينة سوسة الأثرية معرضاً للارتفاع المتسارع في مستوى سطح البحر بنفس الدرجة وذلك لتفاوت طبوغرافية اليابسة والتي تشمل مناطق منخفضة ومناطق مرتفعة، ولذا يعد ارتفاع مستوى سطح البحر الناتج عن التغير المناخي في المناطق المنخفضة مسألة في غاية الأهمية. والأسلوب الذي اتبعه الباحث هو تحديد المناطق المنخفضة في مدينة سوسة الأثرية وتصنيف المعالم الأثرية القريبة من الشاطئ حسب درجة تعرضها لتهديد ارتفاع منسوب مياه البحر، وقد تم هذا بواسطة دراسة الخرائط الطبوغرافية ومعاينة الباحث الميدانية للموقع. ومن الممكن معالجة كل من التغيرات الطبيعية والتغيرات الناتجة عن النشاط البشري في المنطقة الساحلية عن طريق تشييد وسائل تحمي الشاطئ والمباني الأثرية الواقعة عليه من تلك التغيرات، حيث أن الخطوط العريضة لمعايير تصميم وسيلة الحماية تتم من خلال الاستعانة بمجال الهندسة المدنية وخاصة فرع الهندسة الشاطئية المتعلق بالإنشاءات في المناطق الساحلية. ويكون التركيز على إنشاء مصد للأمواج مصمم لمنع وصول مياه البحر لتلك المعالم وغمرها وكذلك لحماية الشواطئ من التآكل والانجراف الناتج أساسا من أمواج البحر. وبما أنه يوجد تباين كبير في طبيعة معظم حلول حماية الشواطئ والمشاكل التي تواجهها حسب الموقع، وعليه يتطلب أي حل معين دراسة منهجية وشاملة، بحيث تكون البداية هي تعريف واضح للمسألة ودراسة أسبابها والأهداف المتوقعة من الحل. وبما أنه في أغلب الأحيان يكون هناك أكثر من طريقة لإنجاز الأهداف السريعة، لذا يجب دراسة تأثيرات كل وسيلة على المدى القصير والطويل أثناء مرحلة تصميم هذه المشاريع من أجل مراعاة جميع التأثيرات البيئية والمصالح والأضرار حين تحديد مسوغات طرق الحماية.

وقد استعان الباحث بدراسة نيكلوس فلمنج Nicholas Flemming بعنوان *Apollonia, a model harbor* عن ميناء سوسة الأثري المغمور تحت مياه البحر، ودراسته الثانية عن الميناء الأثري بعنوان *Apollonia Revisited*، أما عن أدلة تغير مستوى سطح البحر في الفترات الكلاسيكية فهي في دراسته بعنوان *Underwater survey of Apollonia; preliminary report*، وكذلك كتابه بعنوان *Cities in the Sea* للتعرف على موقع معالم ومرافق الميناء المغمورة بمياه البحر.[1] أما عن المسوح الطبوغرافية للمدينة

[1] Nicholas C. Flemming, 'Apollonia, a model harbor', Structures Under Water, vol. 18, (1961), pp. 174-175; _____, 'Apollonia Revisited', Geographical Magazine, no. 33, (1961), pp. 522,530; _____, "Underwater survey of Apollonia; preliminary report", in Taylor, J. du Plat (ed.), Marine Archaeology, Hutchinson, (London, 1964), pp.168-178; _____, Cities in the Sea, Doubleday& Co., Inc., (New York, 1971).

التي قامت بها بعثة جامعة ميتشيجن Michigan University فقد تم نشرها في دراسات دونالد وايت D. White الأولى بعنوان *Excavations at Apollonia, Cyrenaica* والثانية بعنوان Cartographic *Surveys, Town Plan and Aqueduct*.[1] كما استعان الباحث بالدراسات الأثرية لميناء المدينة المغمور بمياه البحر البعثة الأثرية الفرنسية خلال أعوام 1995 إلى 1997 تحت إشراف أندريه لاروند A. Laronde والتي تم نشرها بعنوان *Mission Archeologique Francise en Libya: Rapport sur la Campagne de Fouilles de Septembre 1995 a Apollonia*.[2] وأما ما يخص الأنواع المختلفة لأنظمة حماية الشواطئ ومعايير اختيارها فقد استعان الباحث بدليل هندسة حماية الشواطئ *Shore Protection Manual* الذي تم إعداده من قبل مركز أبحاث الهندسة الشاطئية The Coastal Engineering Research Center (CERC) التابع لهيئة مهندسين الجيش بالولايات المتحدة الأمريكية US Army Corps of Engineers، وقد تأسس هذا المركز في ثلاثينيات القرن العشرين، ويستمر في الأبحاث الشاملة وبرنامج تطوير تقنية الهندسة الشاطئية (بما فيها حماية الشواطئ) وتقنية هندسة الإنشاءات البحرية.[3]

ويستعرض الباحث في القسم الأول من هذا البحث القياسات الأساسية التي أجريت على بعض مرافق الميناء الأثري القديم في مدينة سوسة وتحليل أسباب غمر مياه البحر له، ثم في القسم الثاني يقوم بحصر لأهم المعالم الأثرية القريبة من الشاطئ والمهددة بمياه البحر، وبعد ذلك ستتم معاينة المنطقة المستهدفة بمشروع الحماية، وفي آخر قسم من البحث تتم مناقشة اختيار النوع المناسب للحماية وتحديد الخطوط العريضة لمعايير التصميم، وفي الخاتمة يتم ذكر أهم نتائج وتوصيات البحث.

أسباب غمر مياه البحر للميناء الأثري القديم :

أصبح مجال أعمال التنقيب تحت الماء مجالاً رئيسياً في علم الآثار بعد التطورات في تقنية الغوص التي حدثت في خمسينيات القرن العشرين، حيث نظمت المدرسة البريطانية في أثينا British School at Athens أعمال التنقيب تحت الماء أولاً في السواحل الجنوبية والشرقية لجزيرة خيوس Chios ثم في ميناء خيرسونيزوس Chersonesos في جزيرة كريت الذي يعود للفترة الرومانية.[4] وكذلك قام الباحث م. جاي M. Guy بالتنقيب تحت الماء في ميناء ناربون Narbonne جنوب فرنسا.[5] وقامت بعثة جامعة كامبريدج University of

[1] D. White, “Cartographic Surveys, Town Plan and Aqueduct”, Libya Antiqua, vol. IV, (1976), pp. 29, 40, with contributions by R. G. Goodchild and J. G. Pedley; _____, "Excavations at Apollonia, Cyrenaica", American Journal of Archaeology, vol. 70, (1966); _____,"The city defenses of Apollonia", in supp. Libya Antiqua, IV, (1976), pp.

[2] Laronde, Andre, "Mission Archeologique Francise en Libya: Rapport sur la Campagne de Fouilles de Septembre 1995 a Apollonia", Libya Antiqua, vol. III-IV, (1996-1997), pp. 182, 187, pp. 236-243, pp. 162-166.

[3] US Army Corps of Engineers, Shore Protection Manual, vol. II, Coastal Engineering Research Center, (Washington, D. C., 1984).

يعد مجال الهندسة الشاطئية فرع متخصص من الهندسة المدنية وهو مزيج مركب للعديد من مجالات العلوم الطبيعية والهندسية، ويعالج هذا المجال كلا من التغيرات الطبيعية والبشرية في المناطق الساحلية ونظام الحماية من هذه التغيرات بتشييد إنشاءات الحماية أو نظام حماية بدونها، وبالرغم من أن هذا الدليل يركز أصلاً على حماية الشواطئ، على سبيل المثال، إنشاءات مصممة لتثبيت الشواطئ ضد التعرية والتآكل الناتج أساساً عن حركة أمواج البحر، إلا أن معظم المادة قابلة للتطبيق في تصميم الموانئ وإدخال تحسينات على ممرات الملاحة البحرية.

[4] N. Flemming, “Underwater survey of Apollonia; preliminary report”, Marine Archaeology, p. 168.

[5] Ibid.

Cambridge تحت إشراف نيكلوس فلمنج بأول عملية تحديد لميناء سوسة الأثري المغمور بمياه البحر أثناء عام 1958، حيث تم تحديد امتداد الميناء المغمور بالمياه ما بين الجزيرتين الشرقية والغربية والشاطئ على مسافة 400 متر من الشمال إلى الجنوب، فيما يمتد الميناء من الشرق إلى الغرب لمسافة 1.2 كيلومتر.[1] أما عن عمق المياه يتراوح من 2.5 إلى 5 أمتار فيما عدا الحوض الشرقي حيث يصل عمق المياه إلى 8 أمتار في عدة أماكن.[2] وقامت هذه البعثة بتحديد منطقة تكسر الأمواج على الشاطئ بحيث كونت هذه المنطقة فاصلاً ما بين موقع المدينة الأثري على اليابسة وموقع الميناء المغمور بالمياه، لأن قوة الأمواج قامت بتفتيت وتحريك جميع أساسات المباني المتواجدة على الشاطئ عبر مئات السنين، وعرض هذه المنطقة يتراوح ما بين 10 إلى 50 متراً.[3] ويعد ميناء سوسة الأثري أحد أفضل النماذج المتبقية من الموانئ الإغريقية الهلنستية في حوض البحر المتوسط نظرا لوجود معظم مرافقه في حالة جيدة تحت مياه البحر.[4]

وتم استئناف عمليات التنقيب تحت الماء في الميناء الأثري القديم خلال أعوام 1995 إلى 1997 من قبل البعثة الأثرية الفرنسية في الحوض الغربي للميناء الأثري وتم دراسة أماكن إيواء السفن Shipsheds (C5 في الشكل 1) التي تقع شمال الحوض الغربي، والحاجز الحجري الذي يبلغ طوله 55.5 مترا ويقع إلى الجنوب من أماكن إيواء السفن، والرصيف الشمالي للحوض الغربي، والممر المائي Entrance Channel الرابط ما بين الحوضين الغربي والشرقي للميناء (C10 في الشكل 1)، والرصيف الجنوبي للحوض الغربي.[5] ثم تركز التنقيب تحت الماء في عام 1996 على تحديد مداخل ميناء المدينة الأثري والتحوير والإضافات في الممر المائي الرابط ما بين حوضي الميناء الغربي والشرقي خلال الفترتين الهلنستية والرومانية.[6] كما قامت البعثة الفرنسية بدراسة بعض المرافق في الجهتين الشرقية والجنوبية من الحوض الغربي للميناء ومنها أرصفة الميناء وأساسات مجموعة من مخازن الميناء.[7] وقد أنهت البعثة الأثرية الفرنسية أعمال التنقيب في الميناء المغمور بمياه البحر عام 1997 بدراسة الحوض الشرقي للميناء ودراسة الجهة الشرقية من الممر الرابط بين الحوضين.[8]

---

[1] N. Flemming, Marine Archaeology, pp. 168-169.
[2] Ibid.
[3] Ibid., p. 169.
[4] Little, J. H., "Harbours and Settlements in Cyrenaica", Libyan Studies, vol. 9, (1977 – 1978), p. 45;
تتوفر في ميناء أبوللونيا المغمور تحت مياه البحر عدة ملامح فريدة من نوعها منها التاريخ المبكر نسبيا مابين القرنين السابع والسادس ق.م، ولاحقاً أثناء فترة على مستويات أحدها فوق الأخر، فلم يتم العثور على ميناء مماثل يعود Triremeالمعارك البحرية التي استخدمت فيها السفن ذات ثلاث صفوف من المجاديف لهذا التاريخ. ومعظم مرافق منطقة الميناء المغمور وهياكل الأرصفة موجودة في حالة جيدة، وما تحويه هذه المرافق من مباني مختلفة وتقنيات قديمة لها وظائف البعض منها لا تزال بدون تفسير. وكذلك وجود نظام كامل للتحصينات البحرية والجدران البحرية ولحواجز الأمواج البحرية المشيدة بالكتل الحجرية ودبش الحجارة بالرغم من انهيارها. بالإضافة إلى وجود طبقات متعددة لثلاثة أجيال من المباني على رصيف الميناء محفوظة في سياق التسلسل الطبقي من فترة الاستيطان المبكر حوالي 600 ق.م إلى الفترتين الهلنستية والرومانية؛ للمزيد راجع:Stratigraphiesللحفريات
Nicholas C. Flemming, Cities in the Sea, Doubleday& Co., Inc., (New York, 1971); Baika, K., “Shipsheds of the Ancient Mediterranean”, Apollonia, Cambridge University Press, eds. D. Blackman and B. Rankov, (2013), pp. 294-306.
[5] Laronde, Andre, "Mission Archeologique Francise en Libya: Rapport sur la Campagne de Fouilles de Septembre 1995 a Apollonia", Libya Antiqua, vol. III-IV, (1996-1997), pp. 186,187;
الفرنسية في ليبيا تم تكليفها من قبل مركز الأبحاث عن الآثار في ليبيا، جامعة باريس – السوربون. وتجدر الإشارة إلى أن البعثة الأثرية
Centre de Recherches sur la Libye Antique de l’Universite de Paris-Sorbonne.
[6] Ibid., pp. 240-242.
[7] Ibid., pp. 242-243.
[8] Ibid., pp. 162, 163.

وحسب القياسات التي قام بها نيكلوس فلمنج لمنزلقات إيواء السفن Slipways في الجزيرة الغربية التي تقع في الحوض الغربي من الميناء (A9 إلى B9 في الشكل 1) والتي يتراوح عمقها عند بداية منحدر المنزلق ما بين 1.8 متر إلى 50 سنتيمتر أثناء تشييدها في فترة الاستيطان المبكر (600 إلى 500 ق.م)، وبما أن العمق الحالي هو 2.8 متر، إذن مستوى مياه البحر في تلك الفترة التي يرجح فيها تشييد تلك المنزلقات كان منخفضا بمقدار مترين عن مستوى البحر حالياً، مما يعني أن الساحل قد هبط بمقدار مترين منذ ذلك الزمن.[1] ويبدو من مخطط حوض الأسماك piscine الذي يوجد أسفل الأكروبلوس في أقصى الحوض الشرقي (F16 في الشكل 1) أن الحافة التي هي الآن بعمق 2.5 مترا تحت سطح الماء كانت في الأصل ممر توجد به عدة درجات تقود من هذا الممر إلى أسفل الحوض وبما أنه لا توجد حركة مد وجزر كبيرة في البحر المتوسط، فقد كان من الشائع تشييد الأرصفة والطرق في الموانئ المحمية من الموج على ارتفاع عدة سنتيمترات فقط ولذلك فأن هذا يعد دليلاً آخر على ارتفاع مستوى مياه البحر بمقدار حوالي المترين مما يدل على هبوط الساحل بهذا المقدار تدريجيا من الفترة الرومانية وحتى وقتنا الحالي.[2] ويتضح كذلك من أرضية النفق Tunnel في صخور الجريتو Grotto Reef (B4 في الشكل 1) أن مستوى سطح البحر قد كان منخفضاً نسبياً بأكثر من 2 متر عندما كان النفق قيد الاستعمال.[3]

وقام فريق البعثة الأثرية الفرنسية بإجراء دراسة إضافية على أبراج الممر المائي بين حوضي الميناء، وكانت نتيجة هذه الدراسة تقدير الفرق في مستوى البحر عند 3.5 متر، وقد اعتمدت هذه النتيجة على وجود إشارات من بقايا الأصداف البحرية التي تنمو على الصخور الكلسية Lithophaga على جوانب الأبراج.[4] وقد تم اختبار هذا المستوى على جميع المعالم المغمورة في الميناء وأدى إلى نتيجة مقبولة لحوالي 90% من تلك المعالم.[5] وبالإضافة إلى ذلك، سطح الجدران أسفل الأبراج الدفاعية في الممر المائي بين الحوضين منحوت من الصخور في الموقع مما يوحي بأنها كانت في السابق فوق مستوى سطح البحر.[6]

لقد ازدادت معرفة الأسباب العديدة المحتملة لتغير مستوى البحر منذ الأبحاث المبكرة في الخمسينيات إلى الثمانينيات من القرن العشرين، ولذا تعد الملاحظات المذكورة أعلاه صحيحة بصفة عامة، ولكن اصبح هناك تطورا في شرح تلك النتائج بناءً على الأبحاث الحديثة. أكدت هذه الأبحاث .

---

[1] N. Flemming, Marine Archaeology, pp. 177-178.
[2] Ibid., p. 178.
[3] N. Flemming, Cities in the Sea, p.111
ويعد النفق من المعالم الأثرية الاستثنائية الرائعة في المدينة، ويبلغ طوله حوالي 17 مترا وبارتفاع 2 متر وبعرض متر واحد وله أرضية مستوية تماماً، ويواجه مدخل النفق الحوض الغربي للميناء الأثري القديم ويؤدي إلى مرتفع صخري في الشمال الغربي، حيث يرجح إما أن يؤدي النفق إلى تحصينات دفاعية أو محاجر، للمزيد راجع:
N. Flemming, Cities in the Sea, pp. 107-108.
[4] Baika, K., "Shipsheds of the Ancient Mediterranean", Apollonia, Cambridge University Press, eds. D. Blackman and B. Rankov, (2013), pp. 295-296.
[5] Ibid.
[6] Ibid.

الشكل (1): خريطة مدينة سوسة الأثرية تبين مرافق الميناء القديم والمعالم الأثرية القريبة من الشاطئ

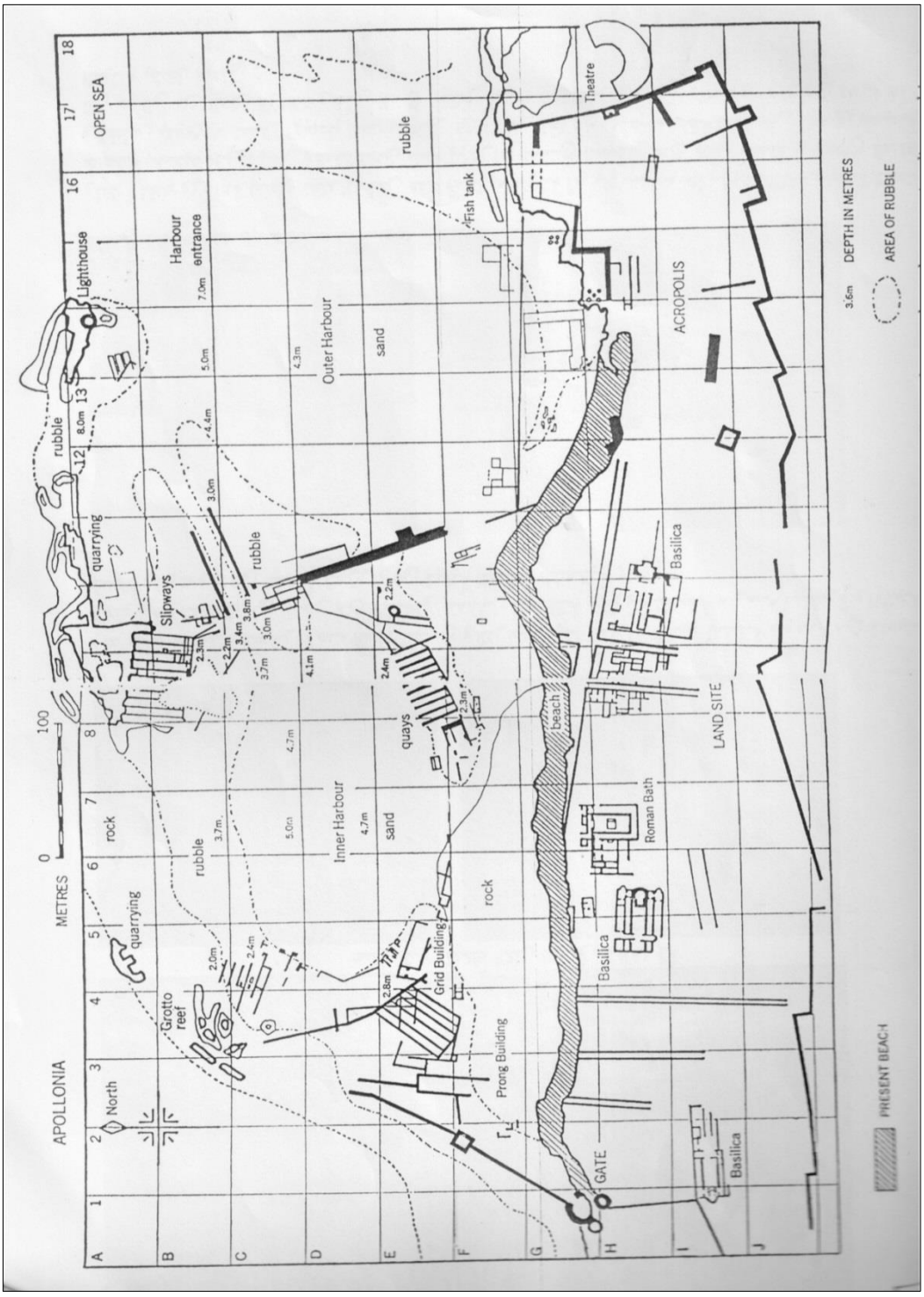

المصدر: Nicholas C. Flemming, **Cities in the Sea**, Doubleday& Co., Inc., (New York, 1971)

حسب معيار ضبط التوازن المائي الجليدي Glacial Hydro Isostatic Adjustments (GIA) ارتفاعا لمستوى مياه البحر في هذه المنطقة ما بين 30 إلى 50 سنتيمتر خلال الألفي سنة الماضية.[1] ولكن، كان هناك اختلافا كبيرا في ارتفاع مستوى البحر في أماكن عديدة لأنها تشمل أيضاً التحركات التكتونية Tectonic movements والتي كانت في مدينة سوسة على الأغلب على شكل هبوط في مستوى الساحل.[2] بينما يعد الجبل الأخضر بصورة عامة منطقة مستقرة جيولوجيا، ولا توجد أدلة على تحركات كبيرة للطبقات الجيولوجية التي تعرف بالألواح الصخرية التكتونية Tectonic plates حيث قام الجيولوجيون بدراسة الطبقات الصخرية على عمق ستة أمتار في عدة مواقع ساحلية من درنة حتى بنغازي وكانت نتيجة هذا الفحص عدم وجود أي حركة كبيرة للطبقات الصخرية على طول هذا الامتداد.[3] غير أن خبير الجيولوجيا في شركة أسو النفطية Esso Oil Co. ب. هاورد P. Howard قد تعرف على عدة تصدعات صخرية Faults بالقرب من مدينة سوسة والتي يمكن أن تكون تفسير لهبوط مستوى الساحل.[4]

وبالنظر إلى بيانات الأدلة في فترات مختلفة: الأولى من منزلقات السفن حوالي 500 ق.م، والثانية من أبراج حماية الممر المائي بين الحوضين المؤرخة في ما بين الفترتين الرومانية والبيزنطية، نجد أن هذه الأدلة تشير إلى ارتفاع مدينة سوسة بحوالي 50 سنتيمتر ما بين التاريخين وربما بمقدار أعلى. ويرجح أن يكون السبب نشاط زلزالي (تحركات تكتونية) وذلك لعدم وجود أدلة في المواقع الأثرية الأخرى في البحر المتوسط عن هبوط في معيار ضبط التوازن المائي الجليدي (GIA) أثناء هذه الفترة.[5] إذن، طوال ألفي سنة هبطت المدينة حوالي 3 متر، ويعد هذا التغير النسبي في مستوى سطح البحر مكون من حوالي 30 إلى 50 سنتيمتر في ارتفاع مستوى سطح البحر الناتج من معيار ضبط التوازن المائي الجليدي (GIA) و ما بين 2.5 إلى 2.7 متر من هبوط الساحل الناتج من التحركات التكتونية.[6]

---

[1] Morhange, C., "Ports antiques et variations relatives du niveaumarin", Géochronique, no.130, (2014), pp.21-24;
ضبط التوازن المائي الجليدي Glacial Hydro Isostatic Adjustments (GIA) هو عبارة عن ردة فعل مستوى البحر والقشرة الأرضية على ذوبان الغطاء الجليدي في نهاية آخر تجمد. لأكثر التقديرات دقة عن سبب التغير النسبي في مستوى البحر على الشواطئ التونسية والليبية راجع:
Anzidel, M., Antonioli, F., Lambeck, K., Benini, A., Soussi. M., & Lakhdar, R., "New insights on the relative sea level change during Holocene along the coasts of Tunisia and western Libya from archaeological and geomorphological markers", Quaternary International. no. 232, (2011), pp. 5-12,;
وراجع كذلك:
Lambeck, K. & Purcell, A., "Sea-level change in the Mediterranean Sea since the LGM: model predictions for tectonically stable areas", Quaternary Science Review, no.24, (2005), pp. 1969-1988.

[2] للمزيد عن العمليات التكتونية وأنشطة الزلازل في ليبيا، راجع:
Ambraseys, N.N., "Material for the investigation of the seismicity of Tripolitania (Libya)", Boll. Geof. Teor., Appl., no. 26, (1984), pp. 143-153; _____, "Material for the investigation of the seismicity of Libya", Libyan Studies, no. 25, (1994), pp. 7-22.

[3] N. Flemming, Marine Archaeology. p. 169.

[4] Ibid.

[5] Tsimplis, M., Spada, G., Marcos, M., & Flemming, N.C., "Multi-decadal sea level trends and land movements in the Mediterranean Sea with estimates of factors perturbing tide gauge data and cumulative uncertainties", Global and Planetary Change, (2011), pp. 63-76.

[6] Ibid.

وإذا ما كانت هذه القياسات صحيحة، فإن مستوى سطح البحر كان منخفضا بمقدار 2.5 مترا عن المستوى الحالي لعدة قرون تلت الاستيطان المبكر، وقد كان أسفل منزلقات السفن في الجزيرة الغربية على الأقل 30 سنتيمتر تحت سطح الماء. وأثناء الفترتين الرومانية والبيزنطية حدث ارتفاع في طبوغرافية المدينة بحوالي 50 سنتيمتر، فأصبحت منزلقات السفن والأرصفة جافة تماما، وتقلص قطر الحوض الغربي للميناء مما أدى إلى وجود حاجة لتشييد مجموعة أخرى جديدة من المرافق لتلائم تقلص قطر الحوض والذي تفاوت ما بين 25 إلى 50 مترا أقل من قطر واجهة الميناء السابقة.[1] وأخيراً، أثناء الفترة الرومانية المتأخرة أو بعدها (ربما في زلزال عام 365م)، أصبحت المدينة مغمورة بالمياه بحوالي 3 إلى 3.5 مترا.[2] وتعد التواريخ والأحداث المذكورة أعلاه مجرد تقديرات تقريبية، ولكن هناك دليل قاطع عن وجود تعديل لمباني ومرافق الميناء لتلائم مستويين مختلفين لسطح البحر في تواريخ مختلفة.[3] تقلص قطر الحوض الغربي بحوالي 25–50 مترا بعد مرحلة الارتفاع، وأصبحت بعض مباني ومرافق الواجهة البحرية غير صالحة للاستعمال وعند ذلك ازدادت أهمية الحوض الشرقي. وعلى الأرجح وجود اختلاف في ارتفاع منسوب مياه البحر في حوض البحر المتوسط من منطقة إلى أخرى كما تشير بقايا المعالم الأثرية المغمورة بالمياه في مدينة الإسكندرية والمنطقة الساحلية المحيطة بها والتي تتكون من عدة بلدات ومرافئ ومباني أخرى تعود للفترات الإغريقية والهلنستية والرومانية والبيزنطية حيث تم قياسها على عمق 5 إلى 7 أمتار في خليج أبوقير.[4]

أما عن الفترة الحديثة، فليس هناك مجال للشك في التغيرات التي حدثت على شاطئ مدينة سوسة منذ بداية القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين وذلك لهبوط مستوى الساحل وارتفاع منسوب مياه البحر خلال هذه الفترة؛ ويتضح ذلك حين النظر إلى خريطة الأخوين بيتشي للمدينة في عام 1827 (الشكل 2) حيث أن الكثير من المعالم الأثرية التي كانت موجودة على الشاطئ آنذاك لم تكن مغمورة بمياه البحر مثل رصيف الحوض الشرقي ورصيف الحوض الغربي للميناء بجميع مرافقه ومنزلقات إيواء السفن في الجزيرة الغربية إضافة إلى الأبراج التي تحمي مدخل الممر المائي بين الحوضين.[5] ويبدو من تلك الخريطة أن حافة شاطئ المدينة كانت على مسافة 150 متراً شمال موقعها الحالي.[6] وقد استمرت هذه التغيرات على شاطئ المدينة خلال القرن العشرين كما تدل على ذلك مقارنة صور الباحثين الأثريين للمعالم القريبة من الشاطئ حوالي منتصف القرن بالصور التي التقطت لنفس المعالم في القرن الواحد والعشرين.[7]

---

[1] Ibid.
[2] Ibid;
إن حقيقة حدوث زلزال عام 365 م قد تحث بعض الباحثين على ربط ذلك الحدث الجيولوجي بهبوط مستوى الساحل، ولكن إلى الآن لا توجد أي أدلة لهذا الربط وعلى الأرجح أن هبوط مستوى الساحل قد حدث تدريجيا؛ راجع:
N. Flemming, Marine Archaeology, p. 178.
[3] Ibid.
[4] Omran El Sayed Frihy & Essam A. Deabes et al., "Alexandria-Nile Delta coast, Egypt: update and future projection of relative sea-level rise", Environmental Earth Sciences, July 2010, pp. 117-130.
[5] N. Flemming, 'Apollonia, a model harbor', Structures Under Water, vol. 18, (1961), pp. 174-175, fig. 1.
[6] N. Flemming, Marine Archaeology, p. 176.
[7] بالمقارنة ما بين صورة في أرشيف صور مراقبة آثار شحات تبين حجارة رصف شارع الديكومانوس في الستينيات من القرن العشرين التقطتها البعثة الأثرية لجامعة ميتشيجن (الصورة 3) في هذا البحث، وصورة في عام 2012م تبين سقوط حجارة رصف شارع الديكومانوس في البحر (الصورة 4) في هذا البحث.

حصر المعالم الأثرية القريبة من الشاطئ والمهددة بمياه البحر

توجد عدة معالم أثرية كبرى في القطاع الغربي من المدينة تعود للفترات الهلنستية والرومانية والبيزنطية، وتتنوع وظائفها من إنشاءات دفاعية ومباني مدنية عامة ودينية مثل الأسوار وأبراجها والحمامات العامة والكنائس. وتعد بعض من هذه المباني مهددة حالياً بمياه البحر وخصوصاً في فصل الشتاء، وهي: البرج المستدير "البرج I" والبوابة الغربية (H1 في الشكل 1)، وما تبقى من حجارة رصف الشارع الرئيسي الممتد من الشرق للغرب (الديكومانوس ماكسيموس، H12 إلى G6 في الشكل 1)، والحمامات الرومانية العامة وما يسمى بالحمامات البيزنطية الغير مستكملة (H7 و H6 في الشكل 1)، والكنيسة الشرقية (H10 في الشكل 1).[1] وقد يصل خطر المياه حتى إلى الأسوار المحاذية للبوابة الغربية وكذلك إلى الكنيسة الغربية (I2 في الشكل 1)، وكذلك يصل تهديد مياه البحر إلى بقايا أساسات خشبة المسرح لمبنى المسرح الهلنستي–الروماني (H18 في الشكل 1) في القطاع الشرقي خارج تحصينات المدينة الأثرية مباشرة.

يعد البرج المستدير"البرج I" من أهم المعالم الهلنستية الأكثر عرضة للانهيار حيث يوجد تصدع في جزء كبير منه ناتج عن حركة الأمواج القوية، حيث وصلت أمواج البحر إلى مستوى أعلى من الجهة الشرقية للبرج المستدير (الصورة 1)، وقد أكدت بعثة جامعة ميتشيجن Michigan University في الستينات من القرن العشرين تهديد مياه البحر لكل من البرج الأول المستدير والبوابة الغربية ويبدو انهيار كامل المبنى احتمال وارد.[2] ويلاحظ

شكل (2): خريطة مدينة سوسة في الربع الأول من القرن التاسع عشر للأخوين بيتشي Beechey, F., & H. W.

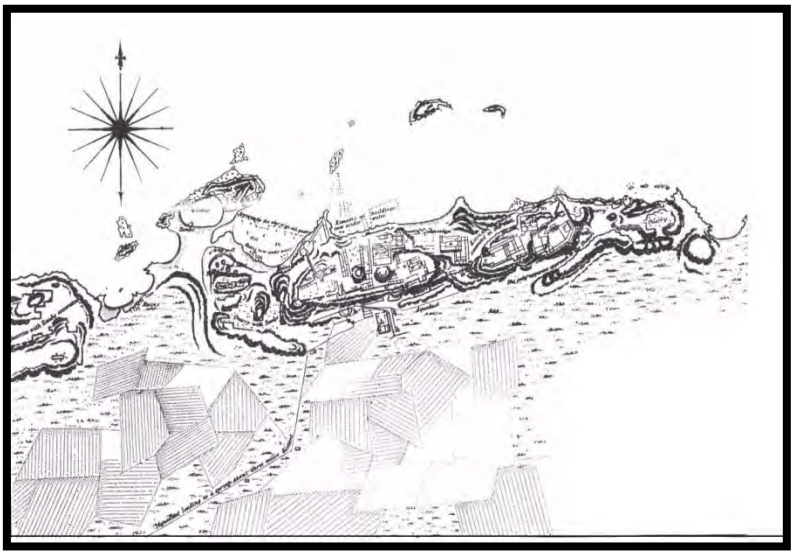

D. White, "Cartographic Surveys, Town Plan and Aqueduct", **Libya Antiqua**, vol. IV, 1976,

[1] ورقة عمل بعنوان "كيفية حماية البرج الأول المستدير أحد معالم مدينة سوسة المهددة بمياه البحر"، تم تقديمها من قبل الباحث في مؤتمر الملتقى الثاني لخبراء الآثار الوطنيين الذي أنعقد في مدينة بنغازي ما بين 20 –23 سبتمبر 2016. والجدير بالذكر أن هناك جدل حول وظيفة ما يسمى بالحمامات البيزنطية الغير مستكملة، حيث يشير رينيه ريبوفات R. Rebuffat أن المبنى منشأة صناعية خاص إما بدباغة الجلود أو الصباغة أو تجفيف وتحضير السمك، ويؤيد أندريه لارواند A. Laronde هذا الترجيح حيث يشير إلى أن المبنى هو منشأة صناعية؛ للمزيد راجع:
R. Rebuffat, J. D. Joulia, G. Monthel & E. Lenoir, "Note Preliminaire sur les Grande Therms d'Apollonia", Libya Antiqua, vols. 15-16, (1978-1979), p. 269; A. Laronde, "Apollonia de Cyrenaique: Archeologie et Histoire", Journal des Savants, Paris, De Boccard Edition Diffusion, (Janvier – Juin 1996), p.42.

[2] D. White, "The city defenses of Apollonia", in supp. Libya Antiqua, IV, (1976), p. 106.

تساقط كتل حجرية متفاوتة الحجم في الجهة الغربية للبرج الأول حيث كونت هذه الكتل حاجز كاسر للأمواج مما منع وصول مياه البحر إلى أساسات البرج من هذه الجهة (الصورة 2)، وهذا يشير إلى أن الحل الأمثل لحماية المعالم الأثرية القريبة من شاطئ البحر هو تشييد مصد للأمواج على طول المنطقة المستهدفة التي تقدر بمسافة 515 مترا.[1]

كما يشمل تهديد مياه البحر حجارة رصف الشارع الرئيسي للمدينة (الديكومانوس) حيث تبين صورة قديمة التقطتها بعثة جامعة ميتشيجن (الصورة 3) وجود معظم حجارة رصف الشارع في حالة جيدة آنذاك، وعند مقارنة هذه الصورة بالصورة التي قام الباحث بأخذها لنفس الموقع عام 2012م (الصورة 4) يتضح انهيار أجزاء كثيرة من حجارة الرصف خاصة الجزء الذي تطل عليه مباني الحمامات الرومانية العامة وما يعرف بالحمامات البيزنطية. وكلما طالت الفترة الزمنية بدون وجود حماية لحجارة رصف الشارع، ازداد احتمال الانهيار الكلي لما تبقى منها. وهذا التهديد بالانهيار جراء مياه البحر لحجارة رصف الشارع الرئيسي قد يصل لمباني كل من الحمامات الرومانية العامة وما يسمى بالحمامات البيزنطية الغير مستكملة والتي تقع على مسافة أمتار قليلة من الشارع الرئيسي. أما بالنسبة لمبنى الكنيسة الشرقية التي تبعد حوالي 35 مترا من الشاطئ فهي أيضاً مهددة بمياه البحر ولكن بدرجة أقل من المعالم الأثرية المذكورة أعلاه. ولهذا يكون شاطئ القطاع الغربي من المدينة الأثرية الممتد من البرج الأول إلى نهاية شارع الديكومانوس هو المنطقة الرئيسية المستهدفة بالحماية من الأمواج والتيارات البحرية، أما في القطاع الشرقي من المدينة الأثرية فالمنطقة المستهدفة بالحماية هي الشاطئ القريب من مبنى المسرح الهلنستي–الروماني (الصورة 5)، ويمتد هذا الشاطئ لمسافة قصيرة لا تتجاوز 45 متراً تقريباً.

الصورة (1): صورة للجهة الشرقية من البرج الأول في مدينة سوسة الأثرية تظهر مستوى وصول الأمواج إلى المدماك الرابع من الأساسات

المصدر: تصوير الباحث

[1] ورقة عمل للباحث في مؤتمر الملتقى الثاني لخبراء الآثار الوطنيين.

الصورة (2): صورة من الجهة الشمالية الغربية للبرج الأول حيث نلاحظ تساقط الكتل الحجرية من أعلى البرج لتكون حاجز كاسر للأمواج

المصدر: تصوير الباحث

الصورة (3): صورة في ستينيات القرن العشرين تبين حجارة رصف شارع الديكومانوس في مدينة سوسة الأثرية

المصدر: إعداد الباحث استنادا على البعثة الأثرية لجامعة ميتشيجن، أرشيف صور مراقبة آثار شحات

الصورة (4): صورة في عام 2012م تبين سقوط حجارة رصف شارع الديكومانوس في البحر

المصدر: تصوير الباحث

المنطقة المستهدفة بمشروع الحماية

إن طبوغرافية الموقع ذو المستوى المنخفض للقطاع الغربي من الموقع الأثري للمدينة يجعله عرضة لأمواج وتيارات البحر، مما أدى إلى أضرار كبيرة في المعالم الأثرية التي سبق ذكرها أعلاه. أما بالنسبة للقطاع الشرقي فارتفاعه عن مستوى سطح البحر بمقدار 24 مترا يحمي معظم معالمه الأثرية ما عدا مبنى المسرح الهلنستي–الروماني المشيد في المنطقة المنخفضة من هذا القطاع.[1] ولذا يعد القطاع الغربي من المدينة الأثرية المنطقة الأساسية المستهدفة بالحماية، ويصبح طول الشاطئ المستهدف بتشييد نظام الحماية من البوابة الغربية (الصورة 6) إلى نهاية شارع الديكومانوس الذي تطل عليه الكنيسة الشرقية (الصورة 7) يقدر بحوالي 515 مترا (G2 إلى G13 في الشكل 1)، غير أنه يمكن التوسع في امتداد المنطقة المستهدفة باتجاه الشرق نحو الأكروبوليس لمسافة 100 متر تقريبا وذلك من أجل حماية تلك المنطقة التي توقفت فيها أعمال تنقيب البعثة الأثرية الفرنسية عام 2011م ، والمشتملة على الغرف الصخرية والأوعية المحفورة في الصخر وغيرها من المعالم الأثرية القريبة من الشاطئ في منطقة الأكروبوليس.[2] وفي الجزء المنخفض من القطاع الشرقي فأن المنطقة المستهدفة هي الشاطئ القريب من المسرح الهلنستي–الروماني بطول 45 متر تقريباً (G18 في الشكل 1). ومن أجل اختيار نوع التشييد الملائم لحماية الشاطئ في المنطقة المستهدفة يجب أولا

[1] D. White, "Excavations at Apollonia, Cyrenaica", American Journal of Archaeology, vol. 70, (1966), pp. 262-263.

[2] كان سبب توقف أعمال تنقيب البعثة الأثرية الفرنسية الأحداث التي حصلت عام 2011م.

التعرف على أنواع الحماية المختلفة، ثم دراسة العوامل المتحكمة في قرار اختيار النوع الملائم للمنطقة المستهدفة، وأخيرا وضع الخطوط العريضة المتبعة في معايير التصميم.

الصورة (5): صورة تبين قرب وصول مياه البحر لمعالم مبنى المسرح الهلنستي–الروماني في القطاع الشرقي من مدينة سوسة الأثرية

المصدر: إعداد الباحث استنادا على

Fadel Ali Mohamed, Apollonia: Port of Cyrene, Dar al–Anies Publishing, (Misurata, 2006)

اختيار النوع الملائم للحماية ومعايير التصميم :

يتطرق هذا الجزء من البحث لمعلومات ورسوم توضيحية عن الملامح الإنشائية لمشاريع حماية الشواطئ، حيث تكون التفاصيل عن هذه الحلول أساس لمقارنة كل نوع من هذه الإنشاءات مع الآخر. توجد أهمية لتعيين وفهم أسباب تعرية وتآكل الشواطئ لكلا من المدى القصير والطويل قبل مباشرة اختيار أي وسيلة لحماية الشواطئ، حيث أن تجاهل معرفة الأسباب قد ينتج عنه تصميم وإنشاء حلول غير فعالة لحماية الشاطئ، وعلى الرغم من أن أهم أعراض تآكل الشواطئ تحدث أثناء العواصف، إلا أنه هناك أسباب أخرى عديدة طبيعية وبشرية تحتاج إلى دراسة شاملة؛ الأسباب الطبيعية للتآكل هي التي تحدث نتيجة لرد فعل الشاطئ لتأثيرات الطبيعة، بينما التآكل الناتج عن التدخل البشري يحدث حينما يؤثر النشاط البشري في نظام الطبيعة.[1]

[1] US Army Corps of Engineers, Shore Protection Manual, vol. II, Ch. 6, p. 1.

إن أنواع الإنشاءات التي تستخدم لحماية الشواطئ تختلف حسب الغرض المراد منها وتنقسم إلى ثلاثة أنواع رئيسية: الجدران الإسمنتية البحرية Seawalls والحواجز البحرية Bulkheads والحواجز الحجرية Revetments.[1] ويعود الفرق بين هذه الأنواع أساسا للغرض من المصد، حيث يتم تحديد الخطوط العريضة للتشييد في فترة التخطيط لملائمة الغرض المقصود، وبصفة عامة تعد الجدران الإسمنتية البحرية إنشاءات ضخمة وهي مصممة لإعطاء أكبر مقاومة لقوة حركة الأمواج، أما الحواجز البحرية فهي تأتي بعدها في الترتيب من حيث الحجم وبينما لا تكون عرضة لحركة أمواج شديدة إلا أنها يجب أن يتم تصميمها لمقاومة

الصورة (6): الجهة الغربية للقطاع الغربي من شاطئ المنطقة المستهدفة بالحماية

المصدر: تصوير الباحث

الصورة (7): الجهة الشرقية للقطاع الغربي من شاطئ المنطقة المستهدفة بالحماية

[1] Ibid.

المصدر: تصوير الباحث

التآكل الناتج عن الأمواج في الموقع، أما بالنسبة للحواجز الحجرية فعلى العموم هي الأصغر حجما لأنها مصممة لحماية الشاطئ من التآكل الناتج عن حركة الأمواج أو التيارات البحرية؛ وتنقسم الحواجز الحجرية المستخدمة لحماية الشواطئ إلى نوعين: إما نوع أسمنتي صلب (جامد) يتم صبه في الموقع أو نوع مرن يتكون من وحدات منفصلة (الشكل 3).[1]

الاعتبارات الرئيسية لاختيار نوع التشييد الأفضل لحماية الشاطئ هي: حالة الأساسات، والتعرض لحركة الأمواج، وتوفر مواد التشييد.[2] بالنسبة لحالة الأساسات فهي يمكن أن تؤثر على اختيار نوع التشييد لأنه أولاً، يجب أن يكون الأساس ملائم لنوع التشييد؛ حيث أن أي تشييد يعتمد على الاختراق من أجل التثبيت والاستقرار بالطبع لن يكون ملائم لأساس صخري، أما إذا كان الأساس السفلي طري وناعم (رملي) فسيكون ملائم لتشييد كيان مكون من كتل حجرية بأحجام مختلفة أو أي نوع آخر من التشييد بخاصية مرنة.[3] وثانياً، أي تشييد للأنواع الثلاث المذكورة أعلاه يمكن أن ينتج عنه هبوط في الأساس السفلي مما يسبب في انهيار التشييد؛ ولذا يجب حماية الجدار الأسمنتي البحري من تأثيرات الهبوط الناتج.

[1] Ibid.
[2] US Army Corps of Engineers, Shore Protection Manual, vol. II, Ch. 6, p. 13.
[3] Ibid., Ch. 6, p. 14.

الشكل (3): التصميم الهندسي لحاجز بحري حجري Quarrystone Revetment

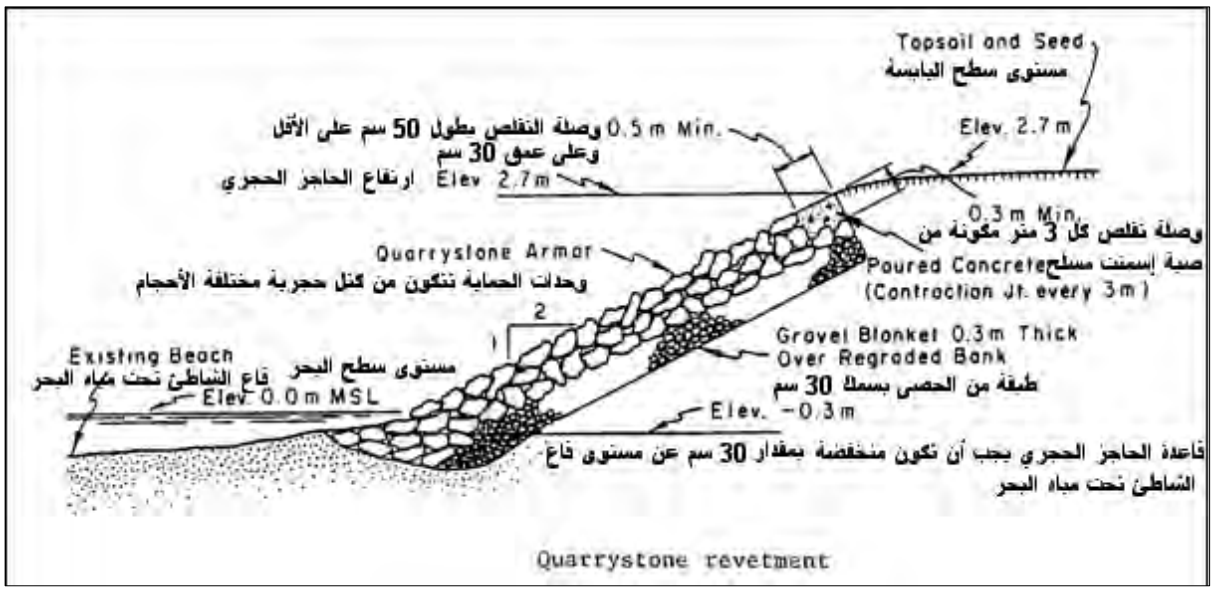

المصدر: إعداد الباحث استنادا على

US Army Corps of Engineers, Shore Protection Manual, vol. II, Coastal Engineering Research Center, (Washington, D. C., 1984)

عن انخفاض الأساس وذلك لثقل الجدار نفسه.[1] أما عن التعرض لحركة الأمواج فهي يمكن أن تكون العامل المتحكم في اختيار نوع التشييد لحماية الشاطئ وكذلك في اختيار التفاصيل الهندسية للتصميم؛ ففي المناطق المتعرضة لحركة أمواج قوية لا يمكن استخدام إنشاءات خفيفة حيث يتم استخدام جدران أسمنتية بحرية بشكل مقوس في تلك المناطق.[2] أما من حيث عامل توفر مواد التشييد فهو متعلق بتكلفة التشييد؛ فإذ لم تكن مواد التشييد متوفرة محلياً بالقرب من الموقع، أو كان هناك نقص في المواد، يمكن أن تكون عملية تشييد حماية الشاطئ غير قابلة للتنفيذ اقتصاديا من حيث ارتفاع التكلفة، وفي هذه الحالة يمكن اللجوء إلى اختيار نوع آخر من التشييد بتكلفة أقل وبالطبع ستقل درجة الحماية المرجوة من هذا التشييد.[3]

يجب الإيفاء بعدة معايير حين تصميم الإنشاءات الشاطئية وقد تكون هذه المعايير متناقضة في بعض الأحيان وهي تشمل: عوامل استقرار التشييد والأداء الوظيفي والتأثير على البيئة والتكلفة؛ مما يزيد من التحديات التي تواجه مهندس التصميم.[4] وعادة ما يتم التعبير عن معايير استقرار التشييد بالشروط التي يجب أن تتوفر من أجل تحمل التشييد أقصى الظروف دون حصول أضرار كبيرة به.[5] هذه الظروف تشمل الأمواج الشديدة التي تحدث في فترات نادرة كل 50 أو 100 سنة، ويمكن أن تشمل هذه الظروف التغير في عمق

[1] Ibid.
[2] Ibid
[3] Ibid.
[4] Ibid., Ch. 7, p. 1.
[5] Ibid.

المياه أو حوادث اصطدام بسفن كبيرة.[1] ويعتمد مدى الإيفاء بهذه المعايير على الوصول إلى حل وسط من أجل تخفيض تكلفة التشييد؛ حيث يمكن أن يدل التحليل على أن عواقب الأضرار العرضية تعد يسيرة بالمقارنة بارتفاع تكلفة التشييد من أجل الحماية من تأثيرات وقائع نادرة الحدوث.[2] أما الأداء الوظيفي فيتم التعبير عنه بمصطلح التأثيرات المرغوب فيها التي يحدثها التشييد على البيئة المحيطة أو الوظيفة المقصودة بالتشييد.[3] فعلى سبيل المثال، إذا كانت معايير الأداء لحاجز بحري في ميناء معين يتم التعبير عنها بمصطلح أقصى أحوال للأمواج المسموح بها في منطقة الميناء؛ إذن يمكن تصميم الحاجز بميزات تؤثر على انتقال الأمواج للإيفاء بهذه المعايير.[4] ويمكن عند مراعاة الأداء الوظيفي للتشييد الوصول أيضاً إلى حل وسط من أجل الوصول إلى تكلفة مبدئية مقبولة حين تعد تكلفة إصلاح وصيانة العواقب الناتجة عن قصور الأداء يسيرة.[5] تتطلب التكلفة العالية لمعظم الإنشاءات الشاطئية أن يكون تحليل المخاطر والتكلفة على مدى عمر المشروع جزء متكامل من جهود التصميم.[6]

عند النظر في طبيعة شاطئ المنطقة المستهدفة بالحماية في مدينة سوسة الأثرية نجد أن حالة أساسات الموقع هي حجرية في جزء منها (الصورة 6) ورملية في الجزء الآخر (الصورة 7)، أما من حيث قوة أمواج البحر متوسطة معظم السنة بالمقارنة بأمواج المحيط العالية والشديدة ولكن تزداد قوتها أثناء فصل الشتاء، وبالنسبة لتوفر مواد التشييد محلياً فيمكن الحصول على المكونات الأساسية مثل الكتل الحجرية والحصى من المحاجر والكسارات القريبة من الموقع، أما المواد الأخرى مثل الأسمنت فهي متوفرة بالسوق المحلي، وهذه العوامل تخفض من تكلفة المشروع، ولذا حين أخذ جميع هذه الاعتبارات الرئيسية معاً يمكن الوصول إلى نتيجة اختيار نوع الحاجز الحجري البحري Revetment من النوع المرن (الصورة 8).[7] إن الخطوط العريضة لمعايير التصميم للحاجز البحري الحجري المقترح والتي يستوجب إتباعها من قبل مهندس المشروع بعد أخذ القياسات اللازمة يجب أن تتوفر فيها عوامل استقرار من حيث مقاومة الأمواج القوية وبالأخص في

[1] Ibid.
[2] Ibid.
[3] Ibid.
[4] Ibid.
[5] Ibid
[6] Ibid.
[7] يمكن الاستدلال على قوة أمواج البحر في فصل الشتاء على شاطئ مدينة سوسة بفحص الصورة (1) في هذا البحث للجهة الشرقية من البرج الأول حيث يتضح وصول الأمواج إلى المدماك الرابع من أساسات البرج، وكذلك الصورة (2) في هذا البحث للجهة الشمالية الغربية للبرج الأول تبين وصول أمواج البحر لمستوى أعلى في فصل الشتاء.

الصورة (8): صورة تبين نوع الحاجز الحجري البحري في منطقة تشاسبيك بي بالولايات المتحدة Chesapeake Bay, U.S.A

المصدر: إعداد الباحث استنادا على

US Army Corps of Engineers, **Shore Protection Manual**, vol. II, Coastal Engineering Research Center, (Washington, D. C., 1984)

فصل الشتاء، ويجب أيضاً مراعاة الأداء الوظيفي المتوقع من حيث توفير نسبة عالية من الحماية.[1] وتعد الآثار الجانبية لهذا المشروع ضئيلة جداً، فالمخاطر البيئية الناتجة عن تنفيذ مشروع الحماية تصل إلى أدنى حد، ولن

[1] يجب على مهندس التصميم تحديد أحوال الأمواج وذلك بتقييم كل بيانات الأمواج التي تنطبق على موقع المشروع، وبينما توجد صعوبة في تأكيد البيانات من الملاحظة البصرية للأمواج القوية أثناء العواصف، ولكن الملاحظة البصرية يمكن أن تزود مهندس التصميم بإشارة إلى مقياس ارتفاع الأمواج وفترة ترددها واتجاهها ومدة العاصفة ومدى تكرر حدوثها، وقد تم تطوير معدات قياس لتحديد ارتفاع الموجة وفترة ترددها واتجاهها عند نقطة معينة، حيث يعد تحليل بيانات اتجاه الأمواج ضرورية للتصميم ولكن يمكن تقديرها من بيانات اتجاه الرياح إذا تعذر قياسها بالمعدات؛ وهناك تأثير كبير لأحوال الأمواج على التصميم الهندسي من حيث استقرار التشييد وأدائه الوظيفي. وحالما يتم تقدير خصائص أحوال الأمواج، يجب على مهندس التصميم أن ينظر في إذ ما كان ارتفاع الأمواج يعتمد على عمق مياه البحر في منطقة الشاطئ. وربما تتفاوت قوة حركة الأمواج المؤثرة على تشييد الحماية (الحاجز الحجري البحري) عند عدة نقاط على طول التشييد وكذلك يتفاوت مستوى المياه عند أي قطاع معين، ولهذا السبب يجب تقدير أحوال الأمواج على نقاط مختلفة على طول موقع التشييد وعند مستويات مختلفة للمياه. وحالياً تتوفر عدة إجراءات تحليلية لتقدير أقصى قوة أمواج مؤثرة على التشييد أو لحساب الأوزان المناسبة لوحدات الكتل الحجرية التي تشكل الحاجز الحجري. وتعد القياسات التي يقوم بها مهندس التصميم في الموقع مهمة جداً، إذ أنها تتحكم في ارتفاع الحاجز الحجري البحري ودرجة ميله من الشاطئ المستند عليه؛ للمزيد راجع: US Army Corps of Engineers, Shore Protection Manual, vol. II, Ch. 7, pp. 3-5.

يسبب مشروع الحماية أي تغيير أو تحوير على المعالم الأثرية القريبة من الشاطئ أو الآثار الغارقة، وذلك لأن منطقة الشاطئ المقترح إقامة مشروع الحماية عليها أصبحت منطقة فاصلة بعرض ما بين 10 إلى 50 متراً ما بين المعالم الأثرية على الشاطئ ومرافق الميناء الغارقة، حيث أن قوة الأمواج قامت بتفتيت وتحريك جميع أساسات المباني المتواجدة على الشاطئ كما يوضح تقرير أعمال التنقيب تحت الماء التي أجريت في ميناء سوسة الأثري بإشراف فلمنج. [1]

الخاتمة :

تعتمد عوامل ارتفاع منسوب البحر وهبوط مستوى الساحل في مدينة سوسة في الأساس على التغير التدريجي عبر فترات زمنية طويلة، حيث تشير كل الأدلة من فترة الاستيطان المبكر في القرن السادس ق.م إلى الفترتين الرومانية والبيزنطية من القرن الأول ق.م إلى القرن الرابع الميلادي إلى أن التغيرات في مستوى سطح البحر وهبوط مستوى الساحل في المدينة تعد حقيقة مثبتة، والخلاصة أن أقدم المباني في ميناء المدينة الأثري المغمور حالياً تحت سطح مياه البحر على عمق 2 متر تقريباً كانت أعلى من سطح البحر بحوالي 50 سنتيمتر. وحتى في الفترة الحديثة توجد أدلة واضحة على تغير شكل الشاطئ في المدينة وغمر المياه لبعض المعالم الأثرية منذ القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين.

لا شك في حدوث أضرار كبيرة للمعالم الأثرية القريبة من شاطئ البحر في مدينة سوسة خلال العقود الخمس الأخيرة جراء حركة الأمواج العالية والتيارات البحرية خصوصا في فصل الشتاء، ولذا هناك حاجة ملحة للتحرك لإنقاذ هذه المعالم الأثرية من خطر الانجراف والانهيار. وقد تم التوصل في هذا البحث إلى إمكانية تشييد حاجز بحري حجري على الشاطئ بطول 515 مترا ليكون مصدا للأمواج والتيارات البحرية. وقد قام الباحث بتحليل التأثيرات الجانبية للمشروع على كلا من المعالم الأثرية القريبة من الشاطئ والآثار الغارقة، وخلص إلى أن أي تأثيرات تحصل جراء هذا المشروع تعد طفيفة، وذلك لأن اتخاذ الإجراءات المناسبة بالنسبة للمعالم الأثرية القريبة من الشاطئ ستضمن عدم إحداث أي تغيير أو تحوير على تلك المعالم أثناء تنفيذ المشروع، أما بالنسبة للآثار الغارقة فتفصلها عن منطقة مشروع الحماية منطقة فاصلة تمتد من الشاطئ إلى الشمال بعرض ما بين 10 إلى 50 مترا، وهذه المنطقة خالية تماماً من أي معالم أثرية.

وتجدر الإشارة إلى أن معايير التصميم الهندسي للمشروع المقترح هي خطوط عريضة لتكون دليل للمسؤولين أثناء مرحلة التصميم والتعاقد مع الشركة المنفذة، أما الشكل النهائي لنظام الحماية فيعتمد على القياسات التي يقوم بها مهندس المشروع في الموقع. ويقر الباحث بصعوبة بدء تنفيذ المشروع في ظل العجز المالي الحالي الذي تواجهه ميزانيات جميع المصالح الحكومية، ولكن قد تم النظر في موضوع خفض التكلفة وذلك عن طريق توفر معظم مواد التشييد محلياً إذ ما تم الشروع في مرحلة التصميم الهندسي ومرحلة التنفيذ

[1] . راجع هامش رقم 10 في هذا البحث.

وفقا للخطوط العريضة المقترحة في هذا البحث حين توفر التمويل من الجهات المختصة، وتكمن إمكانية تنفيذ هذا الحل في تعاون الجهات الحكومية المختصة مع مصلحة الآثار وإذ ما تعذر الحصول على تمويل لهذا المشروع من الجهات الحكومية ذات الاختصاص يمكن اللجوء إلى طلب تعاون منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) UNESCO من أجل إيجاد مصادر تمويل بديلة، حيث أن من مهام هذه المنظمة حماية التراث الإنساني من الاختفاء. فكلما تأخر تنفيذ مشروع الحماية كلما تفاقمت الأضرار بهذه المعالم، ولذا يعد مدى سرعة تنفيذ الحماية عاملاً مهماً في إنقاذها والمحافظة عليها، وعندما يتم تنفيذ هذا المشروع سيكون نموذجا يحتذي به لحماية المواقع الأثرية القريبة من الشاطئ في المدن الأخرى.

وأخيراً، بما إن الميناء الأثري المغمور بمياه البحر أصبح عرضة للانتهاكات من قبل هواة جمع الآثار الغارقة وغيرهم، عليه يوصي الباحث بضرورة تشديد نظام الحماية من قبل الأجهزة الرقابية ذات العلاقة حتى يتم منع عمليات الغوص غير المرخص لها واستخراج اللقى الأثرية مثل الفخار والعملات والمنحوتات أو أية عناصر لمواد البناء الخاصة بالميناء المغمور بمياه البحر بدون آلية متابعة وجرد وتصنيف تحت إشراف واعتماد إدارة مصلحة الآثار.

الأرستوقراطيون الإغريق في مجتمع كوريني
(أصلهم ونشأتهم ودورهم السياسي والعسكري)
631 – 93 ق.م

إعداد :
د. امدلله محمد منصور بوشديق
جامعة عمر المختار

الملخص باللغة الانجليزية :

Coreny society was as all the Greek societies in Greece country. It was society of classes, in the top of it the rich and the high society which contains "kahnot" class, middle class and liberal poor class. This gradual classes caused appearance of the categories which played an important role in Political life. The famous high class affected the life of coryna and its district. This study aimed to show the categories in coryna, and take all the information from it, passing to the most important political and military works during the succession of all next periods. and show its principles and the base of its connection, the important of this study that is to take parts of the political life in coryna city. Especially the high class.

Trying to show the important of politicail life to this city and the important of its works, which have been achieved and the influence of coryna comparing to all Greek societies. This study summered that the high class was the secret of their connection, the tribal connection, because their origin was the old (thranean) who lived in coryna, and they had established it and they had wide farms caused prosper life, this racial economic beginning. They played an important role in the city they focused as all the other high classes in Greece country they helped for its exitance. The system of their role and falling, all the other political systems either it was royal democracies, or the role of the ((tyrants)) and other workers mixed between political work and the mixing of military movement.

الملخص:

كان المجتمع الكوريني شأنه شأن جميع المجتمعات الإغريقية في مدن بلاد الإغريق مجتمعاً طبقياً تتربع في أعلاه الطبقة الأرستقراطية المرهفة والغنية، والتي تضم داخلها طبقة الكهنوت، وتليها الطبقة المتوسطة، والطبقة المعدمة من الفقراء والأحرار، وطبقاً لهذا التدرج الطبقي في المجتمع ظهرت أحزاب لعبت دوراً مهماً في الحياة السياسية كان أبرزها الحزب الأرستوقراطي الذي كان له بصماته السياسية المهمة في حياة مدينة كوريني وإقليمها.

هدفت هذه الدراسة إلى إبراز هذه الفئة في مجتمع كوريني ودراستها دراسة تحليلية بدءاً من أصل نشأتها ومروراً بأهم أعمالها السياسية، والعسكرية خلال الحقب التاريخية المتتابعة، وإيضاح مبادئها وأسس ترابطها.

تتمثل أهمية هذه الدراسة في أنها اشتقت جانباً من الحياة السياسية في مدينة كوريني وهو الحزب الارستوقراطي، محاولاً فيه إبراز دوره المهم في الحياة السياسية للمدينة، من خلال أعماله التي قام بها وكيف كان تأثيرها على كوريني مع مقارنتها بباقي المجتمعات الإغريقية.

وقد خلصت هذه الدراسة إلى أن الأرستوقراطيين كان سر ترابطهم هو الترابط القبلي كونهم يرجعون في أصلهم إلى الثيرانيين الأوائل الذين عمروا مدينة كوريني وكان لهم فضل التأسيس وامتلكوا اقطاعات زراعية واسعة أدت إلى ثرائهم، ومن هذا المنطلق العرقي والاقتصادي أصبحوا يلعبون دوراً سياسياً مهماً في المدينة فحرصوا دائماً شأنهم في ذلك شأن الطبقات الارستقراطية الأخرى في المجتمعات الإغريقية ببلاد الإغريق على بقاء نظام حكمهم الارستقراطي وإسقاط النظم السياسية الأخرى، سواءً ملكي أو ديموقراطي أو حكم (الطغاة)، وقد تنوعت أعمالهم ما بين العمل السياسي الصرف وبين العمل السياسي الممزوج بتحركات عسكرية.

المقدمة:

كان المجتمع الكوريني شأنه شأن جميع المجتمعات الإغريقية في مدن بلاد الاغريق مجتمعاً طبقياً يتربع في أعلاه طبقة الارستوقراطيين الأغنياء والكهنوت، ويلي هذه الطبقة في الترتيب الطبقة المتوسطة ثم الطبقة المعدمة من الأحرار الفقراء، وطبقاً لهذا التدرج الطبقي في المجتمع ظهرت أحزاب سياسية في كوريني شأنها في ذلك شأن مدينة أثينا، وكان الحزب الأرستوقراطي هو الحزب البارز في كوريني، والذي لعب دوراً مهماً في الحياة السياسية فتنوعت أعماله ما بين العمل السياسي الدبلوماسي وما بين العمل العسكري، وكان لكل هذه الأعمال تأثيرها الكبير على مدينة كوريني إيجابياً أو سلبياً.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز هذا الحزب في مجتمع كوريني وإيضاح مبادئه وأسس ترابطه القبلي الذي قام عليه، وأيضاً إبراز أعماله السياسية والعسكرية .

أهمية الدراسة:

تتمثل أهمية هذه الدراسة في أنها أشنقت فئة من مجتمع كوريني لتضعه موضع الدراسة والتحليل بدءاً من أصله ونشأته إلى أن أصبح حزباً سياسياً واضحاً، ودراسة أعماله وتحليلها وكيف كان تأثيرها على مستقبل المدينة مع دعمها بالنصوص الإغريقية، ووضعها وضع المقارنة في بعض تفاصيلها مع ما يحدث داخل المدن الإغريقية في بلاد الإغريق.

الدراسات السابقة:

من أبرز الدراسات السابقة في هذا المجال دراسة الباحث أندريه لاروند في مؤلفه التاريخي (برقة في العصر الهللنيستي من العهد الجمهوري حتى ولاية أغسطس)، تناول فيه أحوال الإقليم ومدنه الإغريقية بشكل مجمل من الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، تضمن خلالها بعض الإشارات في بعض فصوله إلى أحداث يظهر فيها الحزب الارستوقراطي الكوريني وسط تزاحم الأحداث التاريخية وتلاحمهما في ذلك الكتاب، إلا إنه لم يتم تسليط الضوء بشكل دقيق على هذا الحزب ودراسته وإفراد أعماله السياسية والعسكرية على حدة.

المنهج العلمي المتبع:

أعتمد في الدراسة على المنهج التحليلي والمقارن.

أسست مدينة كوريني (Cyrene) شحات حالياً عام (631) ق.م على يد المهاجرين الإغريق الأوائل الذين قدموا من جزيرة تيرا There (سانتورين حالياً) الواقعة في بحر إيجا برئاسة شخص يدعى أرسحوطاليس الذي لقب عند وصوله ليبيا بلقب باتوس Battus[1]، وأصبحت هذه المدينة وبمرور الزمن من أشهر وأكبر المدن الإغريقية الواقعة في الساحل الشرقي لليبيا، وأصبحت عاصمة الإقليم الذي عرف باسمها إقليم كورنيايكا Cyrenaica.

كان أول نظام حكم عرفته هذه المدينة هو النظام الملكي كسائر بقية المدن الإغريقية، وذلك بزعامة

[1] Boardman. J.(19) Histpry of Greece, the Hellenistic world, OX ford. Pp 20,88

أسرة باتوس وأستمر نظامهم الملكي منذ تأسيس المدينة أي عام 631 ق.م وحتى عام 440 ق.م عندما أسقط على يد الأرستوقراطين [1] محور الدراسة في هذا البحث.

المبحث الأول: الأصل والنشأة

كان الظهور الأول للطبقة الارستقراطية في مدينة كوريني خلال حكم أركسيلاوس الثاني Arcesi Laus [570- 550ق.م].

إذا يذكر هيرودوت أن هناك نزاع نشب بين هذا الملك وأخواته الذين كانوا يجمعون حولهم بعض المناصرين لهم وأغلب الظن أنهم من الأرستقراطيين؛ لأن الهدف من هذا النزاع كان هو التقليص من سلطات الملك، فأسفر هذا النزاع في نهايته عن خروج هؤلاء المنشقين على الملك وذهابهم إلى غرب الاقليم وقاموا بتأسيس مدينة جديدة لهم أطلق عليهم اسم باركي Barce– المرج حالياً[2].

بعد ذلك تطور الصراع ما بين أنصار الأرستقراطيين في باركي وبين الملك أركسيلاوس إلى صراع عسكري، حيث قرر هذا الملك تدمير المدينة الجديدة والتخلص من أعداء الملكية داخلها من قبل أن يتعاظم خطرهم، فالتقى الجانبان في معركة ليوكن Lewcon التي كان نتيجتها خسارة أركسيلاوس وهزيمته بعد أن فقد عدداً كبيراً من جنوده، فاعتبرت نتيجته هذه المعركة الانتصار الأول للأرستوقراطيين على النظام الملكي في كوريني[3].

الأصل العرقي للأرستقراطيين من خلال دستور ديموناكس:

بما أننا نحن هنا في صدد البحث عن أصل هذه الطبقة في كوريني، فإن هناك احداث حدثت في خلفية هذا الملك ويدعى باتوس الثالث (550- 527 ق.م)، تجعلنا نستطيع تحديد أصل هذه الطبقة ذلك أن الملك الجديد على ما يبدو من الأحداث كان يمتاز بالحكمة أكثر من والده ففضل الحوار مع خصومه بدلاً من الحروب التي لم تجدي نفعاً فقام بإجراء تعديلات على دستور المدينة، وكان ذلك بسبب ضغط الأرستقراطيين عليه، ولإجراء هذه التعديلات قام باستدعاء مشرع من مدينة مانتينا Mantina [4] يدعى ديموناكس (Demonax) [5]، وكان دستوره قد تكون من ثلاث بنود حسبما يذكر هيرودوت وذلك على النحو التالي:

أولاً: "تقسيم الكورنيين إلى ثلاث قبائل وهي:

1. المهاجرين من ثيرا والمجاورين بيراويكيوى[6].
2. المهاجرين من البلوبونيز وجزيرة كريت.
3. الثالثة تضم أهم الجزر جمعياً.

---

[1] رجب عبد الحميد الأثرم، (1975) تاريخ برقة السياسي والاقتصادي من القرن السابع وحتى بداية العصر الروماني بنغازي منشورات مكتبة قورينا للنشر والتوزيع ، ص33.

[2] Hero. Iv. 160

[3] Hero. Idem

[4] مانتينيا : مدينة تقع في شرق وسط اركاويا (Arcadia) في إقليم البيلونيرم فوزي مكاوى (1999)، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة ، ص82

[5] Thrige (1940).J.P.Res Cyrenensiwm. Tradu Zione del latione, Lation Dislvio Ferri Arroidi, P 169

[6] Hero. Iv. 161 - 163

ἑ ς τὴ ν Κυρήνην καὶ μαθὼν ἕ καστα τοῦ το μὲ ν Οὗ τος ὧν ὠνὴ ρ ἀ πικόμενος τριφύλους ἑ ποίησέ σφεας, τῇ δε διαθείς·

Θηραίων μὲ ν γὰ ρ καὶ τῶνπεριοίκων μίαν μοῖ ραν ἑ ποίησε. -1

ἄ λλην δὲ Πελοποννησίων καὶ Κρητῶν. -2

τρίτην δὲ νησιωτέων πάντων· -3

ثانياً: "ترك للملك باتوس السيطرة على الأراضي المقدسة وشغل المناصب الدينية"[1]

"τοῦ το δὲ , τῷ βασιλέϊ Βάττῳ τεμένεα ἑ ξελὼν καὶ ἰ ρωσύνας,"

ثالثاً: ترك للشعب عموماً الامتيازات الأخرى التي يتمتع بها الملك"[2]

"τὰ ἄ λλα πάντα τὰ πρότερον εἶ χον οἱ βασιλέες ἑ ς μέσον τῷ δήμῳ ἔ θηκε".

الملاحظ هنا في دستور ديموناكس أنه وضع الثيرانيين في الطبقة الأولى لمجتمع كوريني وعلى هذا الأساس يمكننا الاعتقاد بأن الطبقة الارستقراطية ترجع بأصولها إلى الثيرانين الأوائل الذين قادموا مع باتوس الأول وشهدوا تأسيس المدينة وأصبحوا يمتلكون فيما بعد أقطاعات زراعية شاسعة وبمرور الزمن أصبحوا يمتلكون ثروات كبيرة ومن هذا المنطلق أصبحوا ينادون بحقهم في المشاركة في حكم كوريني، لذلك وضعهم ديموناكس في الطبقة الأولى ليميزهم عن باقي فئات المجتمع.

ثانياً: يلاحظ أن دستور ديموناكس ومن خلال البنود الأخرى أنها قد جاءت لصالح الأرستوقراطيين حيث قام بتقليص سلطات الملك وجعلها تشمل الصلاحيات الدينية فقط، ويرجحُ أن جل السلطات قد ذهبت إلى الأرستوقراطيين وليس إلى عامة الشعب كما ذكر في الدستور، والدليل على ذلك مايذكره أحد الباحثين من احتكار هذه الطبقة لبعض الوظائف التي لم تذكر عند ديموناكس، لكنها ظهرت بعد سقوط الملكة مما يرجع وجودها في ذلك العهد ومن هذه الوظائف الايفورز الخمس Ephors[3]، ووظيفتهم مراقبة الملك والحد من سلطته ويذكر أن ديموناكس قد قام بالعديد من الاجراءات في توزيع سلطات الملك العسكرية لمجموعه من القادة العسكريين الذين قام بتعيينهم، كما أوجد ما يسمى بالنوموفولاكيس حراس القوانين وعهد إليهم بالسلطات القضائية إضافة إلى مجلس الشيوخ الذي كان غالبيته من الطبقة الارستقراطية[4]، فكانت الطبقة الارستوقراطية هي المستفيد الحقيقي من دستور ديموناكس.

---

(1) Hero. Iv.161

(2) Idem

(3) يوجد في البناء الدستوري لمدينة كوريني تسميات متشابهة كثيراً مع البناء الدستوري لمدينة إسبرطة وربما يرجع ذلك كون المدينتين من أصل دوري ، فالايفورز عنصراً أساسياً من العناصر المكملة لدستور مدينة إسبرطة مكونة من خمس أعضاء بدأو بالظهور منذ القرن الثامن قبل الميلاد وكانت في البداية وظائفهم مقتصرة على الوظائف المدينة والقضائية ثم بدأت بالازدياد في القرن السادس والخامس والرابع قبل الميلاد حيث أصبحوا الحكام الحقيقيون يستقبلون السفراء ويعقدن المفاوضات مع مندوبي الدول ويقومون بدعوة المجالس للانعقاد ناهيك من مراقبة ملوك إسبرطة عاصم أحمد حسين (1993) المدخل إلى تاريخ وحضارة الإغريق بيرفومانس، ص 148- 149.

(4) مصطفى كمال عبد العليم،(1966) دارسات في تاريخ ليبيا القديم المطبعة الأهلية، بنغازي، ص 133.

نهاية الحكم الملكي لأسرة باتوس على يد الأرستوقراطيين:

الواقع أن دستورديموناكس لم يقضي على الصراع الدائر في المدينة بين أنصار الملكية والأرستقراطيين، فلقد عادت الحروب من جديد بين الطرفين في عهد أركيسيلاوس الثالث(527–516 ق.م) الذي لم يرضى التنازل عن صلاحياته كملك، مما أدى إلى ظهور ثورة ضده من جانب الأرستوقراطيين، فهرب في البداية إلى جزيرة ساموس Samos[1]، ثم ما لبث أن عاد بجيش من المرتزقة واستطاع أن يستولي على حكم المدينة بالقوة، بينما هرب الارستوقراطيين إلى مدينة باركي وبقيت مجموعة أخرى من الارستقراطيين لم تتمكن من الفرار، فقام اركيسيلاوس بمحاصرتهم في حصن أغلوماخوس في الريف فقام الملك بإحراق الحصن بمن فيه، وعمل أيضاً على إحراق عدداً من الأحياء في مدينة كوريني، وعمل على تهجير ما بقى من العائلات الارستقراطية إلى وطنهم الأصلي جزيرة ثيرا[2]، وهذه اشارة واضحة تبين أن الطبقة الارستقراطية في مدينة كوريني تعود بأصولها إلى تلك الجزيرة.

الواقع أن الصراع المرير ما بين الطبقة الارستوقراطية وملوك أسرة باتوس كان قد وصل إلى مراحل خطيرة جداً وصل إلى حد استنجاد الأسرة المالكة بقوات فارسية التي جاءت إلى الاقليم هادفة تدمير مدينة باركي حاضنة الارستقراطيين وعاصمتهم في غرب الاقليم، وأصبحت أسرة باتوس تعتمد في بقائها على حكم الاقليم في تحالفهم مع قوة الفرس الرابظة في مصر[3].

كان هذا الصراع الشرس يهدأ أحياناً لفترة وجيزة ثم ما يلبث أن يعود من جديد ليعكر صفو الحياة في مدينة كوريني التي نعمت بشيء من السلام في عهد الملك باتوس الرابع 519 – 475 ق.م، ولكن عمت الفوضى من جديد في عهد أخر ملوك أسرة باتوس أركيسيلاوس الرابع 470 ق.م والذي بدأت تظهر في عهده بعض الاضطرابات السياسية داخل المدينة بسبب ضيق الرقعة الزراعية وعدم العدالة في التوزيع والتي انتهت بنشوب ثورة سميت بثورة الاصلاح، فقابل أركسيلاوس هذه الثورة بطريقة عنيفة جاوز الحد فيها حيث أطلق لنفسه العنان في القتل والانتقام من مثيري الثورة ونفي زعيم هذه الثورة والمدعو دوموفيلوس Domophilos[4] إلى مدينة طيبة Thebes [*] إلا أن الطبقة الارستقراطية ما لبث أن انتهت من الملك بقتله وقطعت رأسه الذي ألقته في البحر عام 440 ق.م، وكان ما شجع الطبقة الأرستقراطية على النهوض من جديد في وجه ملوك أسرة باتوس هو ضعف حلفائهم الفرس الذين قامت ثورة ضدهم في مصر زعزعت كثيراً من سلطاتهم[5] بقتل آخر ملوك أسرة باتوس تبدأ مدينة كوريني عصر جديداً تحت حكم الأرستقراطيين، وبالرغم من أن أحد الباحثين يذكر أنه بعد انتهاء حكم أسرة باتوس أعلنت الديموقراطية[6] في كوريني ولكن ما سيأتي من أحداث ستبث عكس ذلك.

---

(1) Hero. Iv. 163-164
(2) Hero. Iv. 162-164
(3) جميلة عبد الكريم محمد، (1996) قورينائية والفرس الأخمنيون منذ إنشاء كوريني وحتى سقوط أسرة باتوس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ص
(4) عبد الله حسن المسلمي، (1973) كاليماخوس الكوريني ، منشورات الجامعة الليبية، كلية الأداب ص 131
(*) طيبة : تقع في إقليم بيوتيا وسط بلاد الاغريق وتعتبر المدينة الرئيسية في ذلك الاقليم، فوزي مكاوي ، المرجع السابق، ص 183.
(5) Good chld. R (1962) Benghazi the story of the city. p. 1
(6) Thrige. op. it. pp. 213

المبحث الثاني: النشاط السياسي والعسكري للارستقراطيون الكورنيون

أولا: خلال العصر الجمهوري (440 – 323 ق.م)

أمتاز الارستقراطيون في هذا العصر بتنوع نشاطهم مابين العمل السياسي الدبلوماسي وبين العمل العسكري ويمكن تقسيم هذا النشاط إلى النقاط التالية:

1- صراع الارستقراطيين مع الحزب الديمقراطي عام 401ق.م.

أصبح الحكم في مدينة كوريني بعد انتهاء حكم أسرة باتوس في يد الطبقة الأرستقراطية، وذلك بسبب أن هذه الطبقة كانت تتمتع بنفوذ اقتصادي وعسكري مما أهلها أن تكون هي المتحكمة في الأمور داخل المدينة شأنهم في ذلك شأن جميع الارستوقراطيين في باقي المدن الإغريقية في بلاد الإغريق على سبيل المثال مثلما حصل في مدينة أثينا[1].

فيشير كلاً من أندريه لاروند ورجب الأثرم إلى أن الذين كانوا يمتلكون الإقطاعات الزراعية الشاسعة في كوريني كان أغلبيتهم من الطبقة الارستقراطية، كما يمتلكون أيضاً الخيول والعربات فمنهم الفرسان والقادة العسكريين[2].

ظهر خصم جديد للارستقراطيين في بداية القرن الرابع قبل الميلاد وأصبح هو الأخر يطمح في المشاركة في حكم المدينة وهم الديمقراطيون والذين كانوا من عامة الشعب، وتطور الصراع إلى صدام عسكري وصل ذروته عام 401ق.م وصلت أخباره إلينا عن طريق المؤرخ ديودورس الصقلي Diodorssi Siculas، وذلك في أثناء حديثه عن فرار بعض الإغريق من مسينيا من ظلم واستعباد الاسبرطيين لهم واتجهوا إلى كوريني وكان عددهم حوالي ثلاثة آلاف فوجدوا هؤلاء الفارين الصراع مشتعلاً ما بين الديمقراطيين بزعامة شخص يُدعى إريستون وبين الأرستقراطيين، واستطاع الديمقراطيين تحقيق النصر في البداية على الأرستوقراطيين واستولى أريستون على حكم المدينة بعد أن قتل هو ومناصريه ما يقارب من خمسمائة رجل من ارستقراطي المدينة، الأمر الذي اضطر معه بقية الارستقراطيين ذوي المراكز العالية إلى الفرار من المدينة وتركها ولكن الفترة وجيزة، حيث قاموا بتنظيم صفوفهم والهجوم على الديمقراطيين ومناصريهم المسنين واحتدام الصراع ما بين الجانبين مما أدى إلى فقد كثير من رجال الإغريق على حد تعبير ديودورس الصقلي[3].

" τινὲ ς δ' εἰ ς Κυρήνην ἔ πλευσαν, περὶ τρισχιλίους ὅ ντες, καὶ μετὰ τῶν ἐ κεῖ φυγάδων ἐ τάχθησαν. οἱ γὰ ρ Κυρηναῖ οι κατ' ἐ κεῖ νον τὸ ν καιρὸ ν ἐ ν ταραχῇ καθειστήκεισαν, Ἀ ρίστωνος καί τινων ἐ τέρων κατειληφότων τὴ ν πόλιν. προσφάτως

---

(1) لطفي عبد الوهاب يحي (2002) اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، دار المعرفة الجامعية، ص123.

(2) رجب عبد الحميد الأثرم، مرجع سابق، ص42، أندريه لاروند (2002) برقة في العصر الهللينستي- ت- محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، ص75.

(3) Diod, XIV:33.6-34.

μὲ ν πεντακόσιοι οἱ δυνατώτατοι τῶν Κυρηναίων ἀ νῄ ρηντο, τῶν δ' ἄ λλων ἑ πεφεύγεισαν οἱ χαριέστατοι. οὐ μὴ ν ἀ λλ' οἱ φυγάδες προσλαμβανόμενοι τοὺ ς Μεσσηνίους παρετάξαντο πρὸ ς τοὺ ς τὴ ν πόλιν κατειληφότας, καὶ τῶν μὲ ν Κυρηναίων πολλοὶ παρ' ἀ μφοτέροις ἔ πεσον, οἱ δὲ Μεσσήνιοι σχεδὸ ν ἅ παντες ἀ νῃ ρέθησαν. μετὰ δὲ τὴ ν παράταξιν οἱ Κυρηναῖ οι πρὸ ς ἀ λλήλους διαπρεσβευσάμενοι διηλλάγησαν, καὶ παραχρῆ μα ὀ ρκωμοτήσαντες μὴ μνησικακήσειν, κοινῇ τὴ ν πόλιν κατῴκησαν. Περὶ δὲ τοὺ ς αὐ τοὺ ς χρόνους Ῥ ωμαῖ οι προσέθηκαν οἱ κήτορας εἱ ς τὰ ς ὁ νομαζομένας Οὐ ελίτρας."

إجهاض الارستقراطيين للدستور الديمقراطي في كوريني:

لم يجد كلاً من الارستقراطيين والديمقراطيين أي فائدة ترجى من الحروب والنزاعات التي أضعفت كثيراً من مركز مدينتهم كوريني في الإقليم، فاختاروا الحوار والتفاهم وضرورة أن تستمتع الطبقة الارستقراطية لمطالب عامة الشعب، فاتفق الجانبان على وضع دستور جديد للمدينة، وذلك في بداية القرن الرابع قبل الميلاد.

كان المؤرخ أرسطو Aristole هو الذي أسمى هذا الدستور بالديمقراطي وكان هو أيضاً من تحدث عنه، ويبدوا أن الذي حذا بأرسطو إلى وصفه بالديمقراطي هو ظهور الحرب الديمقراطي فيه بقوة ومشاركته في الحقوق السياسية، والملاحظ هنا أنه بالرغم من أرسطو لم يتحدث في مؤلفه عن هذا الدستور بشكل تفصيلي، إلا أن أهميته في أنه أعطى الصورة الحقيقية للأوضاع السياسية في مدينة كوريني في هذه الفترة، خاصة أنه شبه هذا الدستور الجديد لكوريني، بدستور كليستينيس Cleitnehes[1]. من حيث إعادة التنظيم القبلي وزيادة عدد أفراده والتوسع في حقوق المواطنة.

الواقع أن هذا الدستور الجديد لم يعش طويلاً في كوريني فلقد كان ميتاً مُنذ لحظة ولادته، حيث قام الارستقراطيين بالقضاء عليه وما ساعدهم في ذلك هي مجموعة من الأخطاء والحماقات التي ارتكبها الحزب الديمقراطي نفسه، ويتمثل الخطأ الأكبر الذي وقع فيه الديمقراطيين والذي كان علة الدستور الديمقراطي حسب وجهة نظر أرسطو، هو مبالغة الديمقراطيين في منح حقوق المواطنة لأعداد كبيرة ضمت حتى الأطفال الغير شرعيين، وذلك من أجل أن تتغلب الطبقة الوسطى عددياً طبقة الارستقراطيين.

الأمر الذي زاد من حنق الأرستقراطيين عليهم والذين كانوا يتحملون طموحاتهم بنفاذ صبر، ناهيك على أن الديمقراطيين أصبحوا يحاولون بكل الوسائل أزالت الفروقات بين المواطنين ومزجهم مع بعضهم وإلغاء التنظيمات القبلية القائمة من قبل، فأدى هذا السلوك من جانب الديمقراطيين إلى إرباك المشهد السياسي

[1] كلستين، رجل دولة أثيني ابن ميجاكليس أصدر قانوناً باسمه فأسس ديمقراطية وأدخل تنظيمات عديدة على طبقات المجتمع ولقد كان أهم عمل قام به هو إلغائه للتقسيم القبلي القديم في المجتمع الأتيكي إلى أربع قبائل على أساس المولد والأصل فقسمهم إلى عشرة قبائل على أساس مكان الإقامة. Hammona.N.G.L&Scullard. HH:h(1970) Theoxford Classical Pictonary, Oxford.p241.

في المدينة، وكما ذكر أرسطو أن هذه الخطوة من جانبهم أدت إلى الفوضى بدل الاستقرار داخل المدينة وازدياد نقمة الطبقات العليا وازدياد طمع الطبقات الوسطى في المشاركة في الحياة السياسية[1].

وفي هذا الصدد يقول أرسطوا حرفياً "لا تقبل بمواطنين حدد إلا بمقدار ما هو ضروري من أجل تفوق الكثرة عددياً عليه القوم وأناس الطبقة الوسطى وألا نذهب إلى أبعد من ذلك، إذ أنه بتجاوز الحد حول هذه النقطة، فإن الشعب يزيد من فوضى الدولة يزيد من سخط الطبقات العليا التي تتحمل الديمقراطيين بنفاذ صبر وتصرف من هذا النوع كان علة الثورة في كوريني لأن الشر لا يعتد به وهو صغير، ولكن إذا ما تعاظم لفت إليه كل الأنظار".

" δεῖ μέντοι προσλαμβάνειν μέχρι ἂν ὑπερτείνῃ τὸ πλῆθος τῶν γνωρίμων καὶ τῶν μέσων, καὶ τούτου μὴ πέρα προβαίνειν· ὑπερβάλλοντες γὰρ ἀτακτοτέραν τε ποιοῦσι τὴν πολιτείαν, καὶ τοὺς γνωρίμους πρὸς τὸ χαλεπῶς ὑπομένειν τὴν δημοκρατίαν παροξύνουσι μᾶλλον, ὅπερ συνέβη τῆς στάσεως αἴτιον γενέσθαι περὶ Κυρήνην· ὀλίγον μὲν γὰρ πονηρὸν παροραῖται, πολὺ δὲ γινόμενον ἔν ὀφθαλμοῖς μᾶλλόν ἐστιν."[2].

ما زاد الوضع سوءاً داخل مدينة كوريني هو قيام أحد زعماء الديمقراطيين بأعمال تنذر بالخطر وكان قد لقى موازرة من جانب الفئات الفقيرة من إغريق كوريني ومن جانب العناصر الليبية التي اختلطت بمجتمع المدينة، الأمر الذي أدى بالتالي إلى اندلاع أعمال عنف من جانب الارستقراطيين الذين أصبحوا يؤمنون أنهم أصحاب الحق في الحكم دون سواهم وهم من يستطيعون قيادة المدينة[3].

ما يدل على تردي الأوضاع السياسية داخل المدينة في بداية القرن الرابع قبل الميلاد تلك الزيارة التي قام بها الفيلسوف الإغريقي أفلاطون Aplat 427-346 ق.م لهذه المدينة عام 396ق.م من أجل مقابلة عالم الرياضيات ثيودوروس Theodoros، وكان شعب كوريني قد طلبوا منه وضع قوانين لمدينتهم وأن ينظم لهم حكومتهم، إلا أنه رفض ذلك بسبب أنه وجد من الصعب وضع قوانين لأهالي مدينة كوريني الذين يعيشون في حالة من الترف والبذخ[4].

حيث قال أنه لمن الصعب وضع قوانين وفرضها عليهم بينما هم أغنياء يطرون بما هم فيه من نعمة وتجارتهم نافعة مزدهرة؛ لأنه من نقائض البشر وأفاتهم أنهم عندما يستغرقون في النعيم في ملذات العيش في مهاد الدعم فأنهم يعزفون عن الانصياع للقوانين والسلطة[5].

---

(1) عبد السلام محمد شلوف (1991) نقوش ونصوص من ليبيا، منشورات مركز الجهاد الليبيين الدراسات التاريخية، طرابلس، ص ص37-38، عبد الرحمن بدوي (1969) "ليبيا في مؤلفات أرسطو" مجلة كلية الآداب، العدد 3، الجامعة الليبية، ص141.

(2) Arr.VI.4.

(3) Thrige.Op.Cit.P223.

(4) اندريه لاروند، مرجع سابق، ص284.

(5) Pla.705.

الملاحظ هنا أن أفلاطون لم يحدد بالضبط من هم أصحاب هذه الفئة هل هم الارستوقراطيين أم الديمقراطيين؟، ولكن المرجح أنهم الارستقراطيين؛ لأنهم هم الفئة الغنية والمرهفة كونهم يمتلكون مورد مالي مهم وهي الاقطاعات الزراعية فامتلكوا مخازن الحبوب في المدينة

هيئة بوليتيوما Politeumale :

أخيراً بعد كل هذه الأحداث استطاع الارستقراطيين إلغاء هذا الدستور وإنشاء هيئة الألف عضو تسمى بولينيوما، والتي أصبح بيدها حكم المدينة[1]. وبالرغم من أن هذه الهيئة غير معروفة إذا ما كان جميع أعضاؤها من الارستقراطيين أوضمت إليها أعداداً من الديمقراطيين،ولكن المرجح أن الارستقراطيين كانوا هم المتحكمين فيها وأقول ذلك بناءً على وقائع ملموسة، إذ يذكر أندريه لاروند أن معالم الارستقراطيين بدت تظهر من جديد، فيلاحظ تشيد المباني ذات الصبغة الدينية، وكذلك كثرة النذور التكريسية للمعبودات، وأنه بعد السنوات التي أعقبت عام 360 ق.م أصبح الحكم في مدينة كوريني لعدد من الأسر الارستقراطية التي بلغت أوج رفاهيتها وثرائها[2].

والدليل الأقوى على أن هيئة الألف عضو كانت من الارستقراطيين هو أن هذه الطبقة كانت هي من تحكمت في الأمور السياسية الدبلوماسية أيضاً، وهذا ما سيتضح في الحديث عن العلاقات مع الاسكندر المقدوني، والذي يُعتبر من الأنشطة السياسية البارزة لهم في هذا القرن.

2- علاقة الارستقراطيين مع الاسكندر المقدوني:

لم يكن لمدينة كوريني أن تعيش بمنأى عن مستجدات الأحداث التي حدثت مع المدن الإغريقية في بلاد الإغريق التي أصبحت تحت حكم وسيطرة مقدونيا (Mecedon) عام 338ق.م عن طريق قائدها فيدليب ابنه الاسكندر المقدوني Alexaner[3]، إذ أن الخطر قد أصبح يهدد كوريني بعد زحف الاسكندر على ممتلكات الدولة الفارسية ابتداءً من ساحل أسيا الصغرى والتي سقطت في يده واحداً تلو الأخرى، وبات خطر هذا الفاتح المقدوني قريباً من الإقليم بعد أن دخل مصر التي أحتشد أهلها للترحاب به كونه حررهم من الحكم الفارسي[4]، وتبعاً لذلك اضطر من يُمسكون بزمام أمور الحكم في كوريني إلى فتح خطوط الدبلوماسية إزاء هذه التطورات الجديدة القريبة منهم وخوفاً من حرمان مدينتهم من الاستقلال والحرية التي ما لبثوا أن تحصلوا عليها بعد انتهاء ملوك أسرة باتوس، وكان من اضطلع بهذه المسؤولية هم الارستقراطيون[5].

---

(1) Thrige.Op.Cit.pp223.

(2) أندرية لاورند، مرجع سابق، ص ص 287-288.

(3) الاسكندر عاش في الفترة من 356-323 ق.م ويُعد من أعظم القادة العسكريين في زمانه استطاع خلال فترة حكمه أن يحقق انتصارات كبرى ولكن لم يطل به الزمن لكي يثبت أركان حكمه حيث تقاتل قادة جيشه على تقاسم دولته بعد وفاته Johnson.J. (1962) Classical Hand book London. P79.

(4) Thrige. Op.Cit,p.240.

(5) I bid . rhrige. Op.Cit, P.240.

وجاءتهم الفرصة المناسبة لبدء علاقات جديدة مع الاسكندر أثناء زيارة الأخير لمعبد أمون في واحة سيوه عام 331 ق.م فذهبوا لمقابلته[1]، وجاءت أخبار هذا اللقاء عند مؤرخين هما ديودورس الصقلي، والمؤرخ اللاتيني كوينتوس كورتيوس Quintus– Curtus .

فيذكر ديودوس قوله " كان الاسكندر قد بلغ منتصف الطريق نحو سيوه عند مصرع للقائه وفد من كوريني إغريقي حاملاً إليه تاجاً مرصعاً وهدايا أخرى قيمة من بينها ثلاثمائة من أجود خيول الحرب وخمس عربات قتالية بالغة الروعة، ولقد استغل الاسكندر المقدوني أولئك الموفدين وأبرم مع إغريق كوريني معاهدة صداقة وتحالف حرب"

κατὰ μέσην δὲ τὴν ὁδὸν ἀπήντησαν αὐτῷ πρέσβεις παρὰ Κυρηναίων στέφανον κομίζοντες καὶ μεγαλοπρεπῆ δῶρα, ἐν οἷς ἦγον ἵππους τε πολεμιστὰς τριακοσίους καὶ πέντε τέθριππα τὰ κράτιστα. ὁ δὲ τούτους μὲν ἀποδεξάμενος φιλίαν καὶ συμμαχίαν συνέθετο πρὸς αὐτούς,[2].

أما كونيتيوس كورتيوس فإنه يتفق مع ديودورس الصقلي في حديثه عن هذا اللقاء ويزيد عنه أنه ذكر "أن وفد كوريني طلب من الاسكندر منحهم السلم وزيادة مدنهم فقبل هداياهم وعقد معهم معاهدة صداقة"

Cyrenensium dona attulere, pacem et ut adiret urbes suas petenes . Ille, donis acceptis amicitiaque con– iuncta, destinata exsequi pergit[3].

ودليل على أن الارستقراطيون كانوا هم من ذهبوا لمقابلة الاسكندر، هي تلك الهدايا التي جلبوها معهم وأعطوها للإسكندر، وكانت هدايا ثمينة وذات قيمة لا يمتلكها في كوريني سوى أفراد هذه الطبقة، وبهذا العمل من جانب الارستقراطيين دفعوا جيش الاسكندر عن الدخول إلى الإقليم بطريقة دبلوماسية، وكانت هذه الخطوة من جانبهم تؤكد أنهم كانوا المسيطرين على الوضع داخل مدينة كوريني.

ثانياً: النشاط السياسي للارستوقراطيين خلال العصر البطلمي 323–96 ق.م

من أهم وأبرز النشاطات السياسية للأرستوقراطيين هي العلاقة التي جمعتهم مع حاكم مصر الجديد والقوى بطليموس بن لاجوس Ptolemy[4].

كان السبب في ظهور هذه العلاقة الجديدة هو ظهور الصراع السياسي من جديد بين الديمقراطيين والارستقراطيين وكان نتيجتها نفي بعض العناصر من الديمقراطيين إلى جزيرة كريت، وتكمن الخطورة في

---

[1] سالم يونس عبد الكريم سالم (2006)، الإله أمون في واحة سيوه ومكانية في العالم القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة قاريونس، ص49.

[2] Diod.XVII,49.3

[3] Qui. TV, 7.8.

[4] بطليموس: يعتبر من أهم القادة البارزين للإسكندر المقدوني وعندما توفي الأخير دونما أن يترك وريث شرعي لدولته الكبيرة انقسمت هذه الدولة ما بين قواده فحرص بطليموس على الحصول على مصر فأسس فيها دولة البطالمة إحدى الممالك الهللتيسية في العالم القديم وعمل على ضم مناطق عديدة من أهمها أقاليم كورينايكا، إبراهيم نصحي (1979) تاريخ مصر في عصر البطالمة، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص ص 69، 85.

هذه المرحلة هو أن كلاً من الطرفين قد قام باستجلاب عناصر خارجية للتدخل في الصراع، وحسمه وكان الديمقراطيون هم من بدؤوا في هذه الخطوة المصيرية والخطيرة على مستقبل الإقليم بأكمله، إذ التقى الديمقراطيين المنفيين في جزيرة كريت بقائد اسبرطي مُغامر يُدعى ثيبرون (Thibron) وطلبوا منه المساعدة للعودة للحكم، فما كان من هذا القائد إلا أن لبى النداء ولكن ليس لنصرة الديمقراطيين وإنما لمصالحه الشخصية، فقام بتجهيز جيشه[1]. وبدأ الغزو على الإقليم مما سبب الذعر وأزداد الوضع سوءاً داخل مدينة كوريني وبقية المدن الإغريقية الأخرى، وحاول الارستقراطيون في كوريني الدفاع عن أنفسهم بكل الوسائل، إلا أن هذه الحرب انتهت بفوز ثيبرون، فما كان من الارستقراطيين الذين فاروا من كوريني إلا أن خطوا نفس خطوة الديمقراطيين في طلب مساعدة قوة خارجية فتواجهوا إلى بطليموس بن لاجوس[2].

كان ما يشغل كلاً من الطرفين سواءً الارستقراطيين أو الديمقراطيين هو البقاء على رأس الحكم حتى وأن جلبوا قوات أجنبية لمساعدتهم دون الاكتراث لم قد تجلبه هذه الخطوة من خطر على حريتهم، وهذا ما حدث بالفعل مع بطليموس بن لاجوس الذي لبى نداء الارستقراطيين وأرسل جيشه بقيادة أوفيلاس Ophellas[3] الذي استطاع هزيمة ثيبرون وإرجاح كفة النصر للارستقراطيين لكنه ليس نصراً كاملاً، إذ أن بطليموس الأول قد وضع دستوراً جديداً للمدينة كوريني وإقليمها يتضح من أحد بنودها أن الإقليم بالكامل قد أصبح تحت حكم بطليموس جزءاً تابعاً لمصر.

الارستقراطيون ودستور الدياجراما:

كان الدستور الجديد الذي وضعه بطليموس قد عُرف باسم الدياجراما Diagramma وكان قد وضع لتنظيم شؤون مدينة كوريني، ويشير أحد الباحثين أن بطليموس لم يقف مع أي حزب في الصراع وأسس دستوراً عنصرياً متساوي بين الطرفين[4].

إلا أنه من خلال الاطلاع على بنود هذا الدستور تبين لنا جلياً تحيز بطليموس لطبقة الارستقراطيين خاصة الذين لجأوا إليه فخصهم باهتمام كثير في بنوده، ومن خلال الدراسة والتحليل لهذا الدستور تبين أنه دستور جمع بين الارستقراطية والملكية على رأسها والتي تمثلت في الحاكم الجديد بطليموس الأول، أما فيما يخص البنود التي تميز فيها الارستقراطيون وأعطى لهم فيها حقوق سياسية مميزة فهي كالتالي:

1. أبقى بطليموس على هيئة البوليتوما والتي سبق وأن أشرنا إليها وحصر على هذه الهيئة حق ممارسة حقوقهم الانتخابية، وازداد عدد الهيئة إلى عشرة ألاف عضو بدل من ألف عضو احتكرتها الطبقة الارستقراطية بالكامل، وذلك لأن بطليموس اشترط أولاً أن تضم هذه الهيئة الارستقراطيين الذين لجأوا إليه

---

(1) Diod. XVIII.108,4-8.
(2) Diod, XVIII,21,3-5.
(3) Alan, R.(1945) AHistory of An cient cyrenaicay Lecaire.P38.
(4) Jakob.A.G(1929)"Notes on the Constiutional InScription From Cyrene" Classical philology, vol.24,The Universil-Y of Chicago press.pp351-368.

وسيقوم هو بتحديدهم كما اشترط أن يمتلك بقية الأعضاء المنظمين لهيئة البوليتوما أن يمتلكوا نصاباً مالياً معيناً بحيث يبلغ قيمته عشرون ميناي أي ما يعادل ألفي دارخمه[1].

بهذا النحو ضمن بطليموس للطبقة الارستقراطية الحكم في أهم هيئة سياسة تحكم مدينة كوريني كونهم هم من يمتلكون الثروة وهذا يذكرنا بإصلاحات سولون في مدينة أثينا الذي اعتبر الثروة مقداراً مقاسية لممارسة السلطة، فحرم بهذا البند أصحاب الدخل المحدود من الطبقة المتوسطة والأحرار المعدمين من المشاركة في حكم مدينتهم.

2. هناك أيضاً بند في هذا الدستور تحدث عن مجلس الشيوخ والذي يظهر فيه صفوة المجتمع الارستقراطي بدليل بقاء أعضاءه في مناصبهم لمدى الحياة [2].

وجعل لبطليموس لهذا المجلس الحق في اختيار عمال الاحصاء وأيضاً القادة العسكريين، وما يؤكد لنا ارستقراطية هذا المجلس أن بطليموس جعل حق اختيار كاهن أبولو يكون من بينهم كما جاء في النص.

Τοὺς δὲ ἱαρῆας τοῦ Ἀπόλλωνος αἱρεῖσθων ἐκ τῶν[3].

والدليل الواضح على انحياز بطليموس للطبقة الارستقراطية ويبدو أنه يفعل ذلك لتثبت حكمه الجديد في الإقليم هو ذلك البند الذي يأمر فيه بطليموس بعدم تطبيق حكم الإعدام على الارستقراطيين الذين كانوا قد لجأوا إليه إلا بعد أخذ رأيه بينما بقية عامة السبب يتم اصدار حكم الإعدام عليهم من قبل مجلس الشيوخ ومجلس البولي.

"Ὅτωι δ' ἂν ἀγομένωι ὑπὸ τῶν στρατηγῶν οἱ γέροντες καὶ ἡ βουλὴ θάνατον κρίνωσι, ἐξέστω αὐτῶι, ὁπότερον ἂν βούληται, ἢ ἐν τοῖς νόμοις δικάσασθαι ἢ ἐν Πτολεμαίωι, ἔτη τρία. Τὸ δὲ λοιπὸν ἐν τοῖς νόμοις δικαζέσθων. Φυγάδος δὲ μὴ δικαζέσθων ἄτερ τῆς Πτολεμαίου γνώμης"[4].

الواقع هنا حتى وأن استطاع الارستوقراطيون أخذ نصيب الأسد في دستور الدياجراما خاصة بعد سيطرتهم على أهم الهيئات السياسية فيه واقصد بذلك هيئة البوليتيوما ومجلس الشيوخ، إلا أنهم في حقيقة الأمر قد فقدوا حريتهم التي ناضلوا منذ أجلها وتحصلوا عليها بعد اسقاطهم لحكم أسرة باتوس، ثم ها هم يجبلون حكماً ملكياً جديداً أشد وطأة وصرامة منذ ذي قبل وهذا ما يتضح من بعض بنود الدستور منها على سبيل المثال البند الذي يخص على أن يكون بطليموس حاكماً مدى الحياة.

"Στρατηγὸς δὲ ἔστω Πτολαμαῖος αὐτός. Πρὸς δὲ τοῦτον αἱρεῖσθωσαν στρατηγοὺς πέντε ἐκ τῶν μήπω ἐστρατηγηκότων μὴ νεωτέρους πεντήκοντα"[5].

والبند الأخر الذي ذكر فيه ما يلي:

---

(1) Jakob.A.G(1929)Noles on the Constiutional Inscription from Cyrene "Classical philology.VOL.24.The University of Chicago press. Pp.351-368.

(2) فوزي مكاوي، مرجع سابق، ص ص 98-99.

(3) S.E.G.IX.83-.L20-23.

(4) S.E.G.IX.86.L.39-44.

(5) S.E.G.IX.841-36-28.

"كل من يخالف أوامر بطليموس التي فرضها بنفسه على الكورنين سيعرض نفسه للإعدام"

" ὅς ἂν τὰς Πτολεμαί ου γνώμας καταλύ ηι, ἀς έ ς Κυνηναί ους Πτολεμαῖ ος κατῆ χξε, θανά σιμος ἔ σται αύ τό ς ".[1]

الوضع السياسي للاستوقراطيين خلال الفترة من 322-308 :

بعد وضع دستور الدياجراما أصبح الإقليم منذ تاريخ وضعه عام 321 وحتى عام 96 ق.م يتبع ملوك البطالمة لمصر وحقيقة أن الارستوقراطيين لم يعد لديهم نشاط سياسي أو عسكري مميز فيبدوا أن هذه الطبقة أضعفت وهمشت، خاصة أن هناك ولاةً أقوياء وضعوا على حكم مدينة كوريني من قبل البطالمة لم يتركوا للأرستقراطيين أو غيرهم فرصة لمحاولة التحرر. صحيح أن هناك ثورات حدثت تبين فيها أن الارستقراطيون وغيرهم من فئات المجتمع الكوريني غير راضين عن حكم البطالمة مثل ثورة عام 313 ق.م[2]، والثورة التي حدثت في الفترة من 250-245 ق.م[3]، ثم ثورة 162 ق.م، جميعها كان الهدف منها التحرر من حكم البطالمة والعودة من جديد إلى الحرية، إلا أنها جميعاً فشلت في الحصول على مطالبها[4].

ونتيجة لشدة القبضة الأمنية لملوك البطالمة وولاتهم الذين انفردوا أحياناً بحكم الإقليم ولقبوا أنفسهم بلقب الملك واقصد ماجاس Magas[5]. لم يظهر أي نشاط سياسي مميز للطبقة الارستقراطية خلال هذه الحقبة الطويلة.

ثالثاً: النشاط الارستقراطي عام 93 ق.م :

انتهى حكم البطالمة لإقليم كورينايكا بوصية بطليموس أبيون عام 96 ق.م بالإقليم للرومان من بعده، فعاش الإقليم في السنوات القليلة التي أعقبت مباشرةً نهاية حكم الإغريق لها في فترة من الفوضى والاضطراب السياسي، إذ أن الرومان لم يهتموا بالشأن السياسي داخل الإقليم في البداية فأصبحت المدن الإغريقية تعاني حالة فراغ سياسي كبير بعد أن أصبحت تفتقد وجود حكومة قوية تؤسسها[6]. ويبدوا أن الطبقة الارستقراطية في هذه الفترة الحرجة من تاريخ المدينة لم تعد بتلك المهارة السياسية السابقة التي فقدتها بسبب رضوخها طويلاً لحكم البطالمة، ومع ذلك نجد أن هناك شخصية ظهرت من هذه الطبقة وتصدت لما يسمى حكم الطغاة في المدينة بزعامة شخص يُدعى نيكوكراتيس (Nicocrates) عام 94-93 ق.م[7]. الذي تسلط على أهالي المدينة وقتل العديد من مواطنيها وخاصة من الطبقة الارستقراطية التي تناقصت في حكمه كثيراً حيث تم قتل بعضهم وفرار البعض الأخر بل وقتل أيضاً كاهن أبوللو المدعو ميلاثيبوس وأخذ رتبته الكهنونية وكان من

---

(1) S.E.G.IX.89-L.51-52.
(2) Laronde (1971) "Aobser vations Sur I.apolitigue Ophe Llas Cyrene" Revue Hitorigue.I.245 Universitires&e France p300.
(3) Plut.I.3,PolY.X.23,2.
(4) Polyb.xxxi.18-19.
(5) محمد مصطفى فارس، نور (1971) قورينائية (برقة في العصر الهلينستي)، (رسالة ماجستير غير منشوره) جامعة عين شمس، كلية الآداب، ص35.
(6) Oliverio.G (1938) Lastele DiToLemeo Neoteros.Re Piarrene. Roma.p74.
(7) Oost.S.T.(1963) "Cryene 96-74 B.C" Classical philology, Vol.58-p12.

درجة تضيف الخناق على الارستقراطيون أن هذا الطاغية وضع حراساً على البوابات لمنع خروجهم وامتدت سلطته حتى المدن الإغريقية الأخرى.

Νικοκράτης γὰρ ἑ παναστὰς Κυρηναίοις τύραννος ἄλλους τε πολλοὺς ἑ φόνευε τῶν πολιτῶν καὶ τὸν ἱ ερέα τοῦ Ἀπόλλωνος αὐτόχειρ ἀνελὼν Μελάνιππον εἶ χε τὴν ἱ ερωσύνην·" .[1].

كان من تصدع لنيكوكراتيس كما ذُكر أنفاً من الطبقة الارستقراطية ولم يكن رجلاً بل كانت سيدة تدعى أريتافيلا Aretaphila التي فُجعت بمقتل زوجها فاديموس phaedimus على يد هذا الطاغية بل وأجبرت على الزواج من نيكوكراتيس فحاولت التخلص منه بتسميمه، لكن خطتها فشلت وظلت صامدة أمام التعذيب، ثم قامت مما بعد بمحاولة ثانية للتخلص منه، وذلك بتقريب أخ الطاغية إليها ويُدعى ليندر Leander فسيطرت على عقله وقامت بتحريضه على قتل أخيه مقابل أن تزوجه ابنتها، فقام برشوة أحد الخدم الذي تمكن بالفعل من طعن نيكوكراتيس وقتله[2].

ثم أصبحت أريتافيلا بعد التخلص من نيكوكراتيس في مواجهةً مع طاغية جديد وهو ليندر نفسه الذي استولى على حكم المدينة وتحول هذا الآخر إلى طاغية عندها لجأت أرتيافيلا بطلب المساعدة لمدينتها وشعبها من زعيم أحد القبائل الليبية ويدعى أنابوس Anabos الذي دخل في مفاوضات مع ليندر، واستطاع في النهاية استدرجه وإلقاء القبض عليه وتسليمه إلى مواطني كوريني الذين قاموا بالانتقام منه وقتله، ثم بعد ذلك انسحبت ارتيافيلا من الحياة السياسية لتمارس حياتها الخاصة[3].

كهذا كانت أخر أعمال الارستوقراطيين في نهاية حكم الإغريق للإقليم ويبدو من خلال ظهور أرتيافيلا التي وافقت لوحدها كما رأينا في وجه الطغاة يبدو أن هذه الطبقة قد أضعفت كثيراً، ولم تعد بتلك القوة التي عهدنا في بداية القرن الرابع قبل الميلاد فلم تعد تدخل أو تكترث للشؤون السياسية، ومع ذلك ظلت إلى آخر رمق تناضل من أجل الحرية والذود عنن مدينتها ضد أي خطر داخلي أو خارجي.

---

1) (Plut.225-511.
(2) plut.225-511.
(3) Pliny, 8.38.

الخاتمة :

من خلال الدراسة نخرج بالنتائج التالية:

أولاً: أن الإغريق الأرستوقراطيين في مجتمع كوريني يرجعون في أصلهم إلى جزيرة ثيرا فهم سلالة المعمرين الأوائل الذين قدموا وشهدوا بداية تأسيس المدينة، وفيما بعد أصبحوا مترابطين على أساس هذا الرابط القبلي بالإضافة إلى كونهم قد احتكروا جميع المنافذ الاقتصادية في المدينة وعلى رأسها الاقطاعات الزراعية كونهم أول من قدم إلى الإقليم.

ثانياً: تبين من خلال الدراسة أن حصيلة النظام السياسي في هذه المدينة كان ملكياً أرستوقراطيا نفس النظام السياسي في مدينة اسبرطه، ولم يتطور إلى أبعد من ذلك فأن أي محاولات لظهور أنظمة أخرى كالنظام الديمقراطي قد فشلت بسبب قوة وثبات هذه الطبقة الممتلكة تحت يدها القوة العسكرية والأموال ويتضح أن نظام كوريني السياسي كان ملكياً ارستقراطياً من خلال دساتيرها المتعاقبة وإبرازها دستور ديموناكس ودستور بطليموس الأول الدياجراما.

ثالثاً: أن هذه الطبقة لعبت دوراً مهماً في تاريخ المدينة السياسي فكانت الركيزة المهمة التي اعتمدت عليها المدينة وأهلها، والحقيقة أن هذه الطبقة حتى وإن كانت تطمع في أن تكون هي المتحكمة في الوضع السياسي داخل المدينة، فإنها في نفس الوقت كانت قد ضحت لأجل شعبها ومدينتها كثيراً فهي التي تصدت لهجوم ثيبرون، وهي من جنبت الإقليم الخوض في حرب الاسكندر بطريقة دبلوماسية وضمنت لها حريتها في التصرف في شؤونها الداخلية، كما كانت هي من تصدت لقيام حكم الطغاة في فترة كانت تمثل قمة الانهيار السياسي في الإقليم بأكمله، وذلك في ظل ظروف انتقاله من حكم الإغريق إلى الرومان.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

أ- كتابات المؤرخين القدماء

1. Aristotle.(1959).Politics.trans by Rackham.H.(L.C.L)London.
2. Diodoros. (1998) The Librury of History (Trans by Russel.MG) (t.c.l) Books XVIII-XIX.London.
3. HerodotusL (1957) Hisoria (Trans by Codley.A.D) (L.C.L)Vol11-Iv,London.
4.Plato: (1999) Laws.(transby.R.G.Bury).Books.VII.XII. London.
5. Pliny: (1981) Natural History (trans by Racham) (L.C.L) VOL II Books III-VII. London.
6. Plu tarchis (1967) Lives (Trans byperrin B) (L.C.L) VOL VIL. London.
7. Polybius: (1993).The Histories, (Trans by Paton.W.R) (L.C.L) VOL IV Book sx. London.
8. Quintus Curtivs (1992): History of Alexander (trans by John.C.R) (L.C.L) Books I&V.London.

ب- النقوش

1. SEG(1939) Suppleementum Epigraphicum Graecum.Vol.IX.

المراجع العربية:

أ- الكتب

1. إبراهيم نصحي (1970)، تاريخ مصر في عصر البطالمة، الجزء الأول، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.
2. أندرية لاروند (2002)، برقة في العصر الهللنيستي، من العهد الجمهوري حتى ولاية أغسطس، ت محمد عبد الكريم الواقي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي.
3. جميلة عبد الكريم محمد (1996)، قورينائية والفرس الأحمتيون مُنذ إنشاء كوريني وحتى سقوط أسرة باتوس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
4. رجب عبد الحميد الأثرم(1975)، تاريخ برقة السياسي والاقتصادي من القرن السابع وحتى بداية العصر الروماني، بنغازي، منشورات مكتبة قورينا للنشر والتوزيع.
5. عاصم أحمد حسين (1993)، المدخل إلى تاريخ وحضارة الإغريق، بيرفورمانس.
6. عبد السلام محمد شلوف (1994)، نقوش ونصوص في ليبيا، الجمهورية الليبية، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.
7. عبد الله حسين المسلمي (1973)، كاليماخوس الفوربي، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب.
8. فوزي مكاوي (1999)، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة.
9. لطفي عبد الوهاب يحي (2004)، اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري- دار المعرفة الجامعية.
10. مصطفى كمال عبد العليم (1966)، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، المطبعة الأهلية، بنغازي.

ب. الرسائل العلمية

1. سالم يونس عبد الكريم (2006)، الإله أمون في واجه سيوه ومكانته في العالم القديم، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة قاريونس، كلية الآداب، 2008.
2. محمد مصطفى فارس، (1971)، قورينائية (برقة في العصر الهلينستي) رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس، كلية الآداب.

المراجع الأجنبية:

أ- الكتب

1. Alan.R.A(1948) Historg of Ancient Cyrenaicai/. Lecaire.
2. Boar dmans (2001) History of Greece &The Hellenistic world, Ox ford.
3. Oliverio.G.(1938) Lastele Di TolemeoNeo Neoteros Re Piarrene.Roma.
4. Thrige.J.P.(1940) Rescyrenensium Traduzi one Lal Latino disilvio Editore.

ب- الدوريات الأجنبية:

1. Jakob.A.G.(1929) "Nores on the constitutional inscription from cyrene" Classical Phlology VOL24 The University of Chicago.
2. Laronde A(1971) "Abservation Sur La politigue A, Ophella A" Cyren" Revue Historiyee Frnce.
3. Oost-S.J.(1963) "Cyrene 96-7413.C Classical philology,VOL58.

جـ القواميس:

1. Hammond.N.G.L.Sscullar d, H.H.(1970) The oyforl Classical Diltionary, Oxford.

المدن الإسلامية بإفريقية ودورها في نشر الثقافة الإسلامية (القيروان – تونس، أنموذجاً)

إعداد :
أ.عبد السلام سالم

جامعة السيد محمد بن علي السنوسي

مقدمة:

كان ظهور الحضارة الإسلامية وتقدّمها وشمولها، وتلبيتها لجميع حاجات الفرد والجماعة عاملاً مهماً في جذب الأفراد والجماعات إلى اعتناق الإسلام واتباعه حيث يرقى بالفرد مادياً ومعنوياً مما أدى إلى انتشار الإسلام وسيادة مبادئه في كثير من البقاع.

وهنا نشأت المدن الإسلامية التي تحمل الطابع الإسلامي المتمثل في مناهج الإسلام ومبادئه، وإلى النظر والتفكير، واستخدام العقل وبذل كل الجهود في سبيل تقدّم الحياة وازدهارها، وخاصة الجانب الفكري المؤدي إلى التبحّر في العلوم والفنون والآداب.

وقد حفل العالم الإسلامي، وخاصة في المغرب العربي بكثير من المدن والمراكز التي حملت راية الحضارة العربية الإسلامية وبثتها في كثير من أرجاء العالم.

من هنا ولأهميّة هذه المراكز الثقافية الإسلامية في المغرب العربي الإسلامي رأيت أن أخصص حديثي في هذا البحث عن مدينتي القيروان، وتونس، ودورهما العلمي والثقافي في بلاد إفريقية باعتبارهما أحد روافد الحياة العلمية والثقافية آنذاك، ولازالت إلى وقتنا هذا.

وسأتناول بالحديث عن هذه المراكز الثقافية من حيث إنشائها ومؤسسيها، ثم الدور الحضاري الذي لعبته باعتبارها مراكز لنشر الثقافة الإسلامية في المغرب ومنه إلى بقاع العالم الأخرى.

وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز الدور الذي لعبته هذه المراكز لنشر الإسلام والثقافة الإسلامية والعلوم الدينية والعقلية والنهوض بالحضارة الإسلامية، وكوسيلة في انتقال هذه الحضارة إلى أوروبا وأفريقيا وغيرها من بقاع الأرض.

أولاً: القيروان

تأسيس القيروان

إن الأمر الذي أخرج العرب من الجزيرة لكي يصلوا إلى أفريقية إنما هو الإسلام، وإذا كان العرب يطلبون الإقامة في افريقية، فإنما من أجل ذلك، وإنما كانوا يبنون مدينة، من أجل ذلك الدين ولتحقيق هذا الهدف[1].

فتأسيس مدينة القيروان كان لهدف ديني، ولهدف عسكري حربي، وهذا ما يشير إليه ابن عذاري حين يورد الحديث بين عقبة وأصحابه فيقول: "إن إفريقية إذا دخلها أمير تحزّم أهلها بالإسلام، فإذا خرج منها، رجعوا إلى الكفر، وإنّي أرى أن أتّخذ بها مدينة نجعلها معسكراً وقيروانا تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر"[2].

([1]) السيد، عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير "في العصر الإسلامي، دار النهضة (بيروت، 1981م)، 198/2.

([2]) ابن عذاري المراكشي، أحمد بن محمد: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنشال، الدار العربية للكتاب (بيروت، 1983م) 19/1.

ولم يكن عقبة أول من فكر في بناء قاعدة للمسلمين في إفريقية، فقد ذكر ابن الأثير: "إن معاوية بن حُديج كان قد اختط القيروان بموضع يدعى اليوم بالقرن، فلما رآه عقبة بن نافع لم يعجبه"[1].

ويبدو أن عدول "عقبة" عن اتجاه القيروان يرجع إلى أنها قريبة من البحر أولاً، ولأنها في موضع غير مستوي ولا معمور، فقد آثر أن تكون القيروان في إفريقية مدينة برية إذ كان يخشى أن يطرقها الروم بالأساطيل فجأة فتتعرض للعزو بسهولة، بينما يستطيع المسلمون التأهب لمدافعة الغزاة لو كانت قاعدتهم داخلية[2].

وفي سنة 50 هـ/ 670م، شرع "عقبة" في بناء القيروان وأجابه العرب إلى ذلك ثم قالوا "إنك أمرتنا بالبناء في شعارى وغياض، ونحن نخاف من السباع والحيّات ..." [3]، وكان في عسكر عقبة بن نافع ثمانية عشر رجلاً من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وسائرهم من التابعين فدعا الله سبحانه وتعالى وأصحابه يؤمنون على دعائه، ومضى إلى السبخة ووادیها، ونادى: "أيتها الحيّات والسباع ! نحن أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فأرحلوا عنا فإنا نازلون، ومن وجدناه بعد هذا قتلناه" فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر معجب من أن السباع تخرج من الشعرى وهي تحمل أشبالها ونادى في الناس "كفوا عنهم حتى يرحلوا عنها"[4].

فلما خرج ما فيها من الوحش والسباع والهموم عنهم، والناس ينظرون إليها حتى أوجعهم حر الشمس فلم يروا منها شيئاً، ثم دخلوا فأمرهم بقطع الأشجار، فأقام أهل أفريقية بعد ذلك بأربعين عاماً لا يرون حيّة ولا عقرباً ولا سبعاً، فاختط عقبة أولاً دار الإمارة، ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاختطّه، ثم أخذ النّاس في بناء الدور والمساكن والمساجد، وعمرت "القيروان" بمختلف أنواع المباني والمنشآت، وشدّ الناس إليها الرحال فاتّسعت بالأسواق والمرافق ودامت حركة البناء فيها نحواً من خمس سنوات وسوّرت المدينة بسور من اللبن والطّين وكان دورها ثلاثة آلاف درع وستمائة درع ثم أمرها سنة 55 ه/ 675م فسكنها الناس ودخل الكثير من البربر في الإسلام[5].

وقدّر للقيروان أن تصبح حاضرة شمال أفريقيا كله في عهد بني أميّة إلى أن انفصل المغرب عن الدولة العباسية في أواخر القرن الثاني للهجرة، وتكونت بذلك إمارات مستقلة فيه، وفي هذه الفترة كانت القيروان على حدّ قول ابن حوقل: "أعظم مدينة بالمغرب وأكثرها تجراً وأموالاً، وأحسنها منازلاً وأسواقاً، وكان فيها ديوان جميع المغرب، وإليها تجبى أموالها وبها دار السلطان"[6].

([1]) ابن الأثير، علي بن محمد: الكامل في التاريخ، دار صادر (بيروت، 1966م) 230/3.

([2]) ابن عبدالحكيم، عبدالرحمن بن عبدالله: فتوح مصر والمغرب، تحقيق: عبدالمنعم عامر، دار الفكر (القاهرة، 1961م)، ص 64.

([3]) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني (بيروت، 1961م)، 531/6.

([4]) النويري، شهاب الدين أحمد عبدالوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: حسين نصار، الهيئة المصرية للكتاب (القاهرة ، 1983م) 22/24 – 23.

([5]) ابن الأثير، المرجع السابق، 234/3.

([6]) ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي (القاهرة، بدون تاريخ) ص 94.

ويصفها الإدريسي في القرن الخامس الهجري، فيقول: "ومدينة القيروان أم أمصار، وقاعدة أقطار، وكانت أعظم مدن المغرب قطراً، وأكثرها تبشراً، وأكثرها جباية، وأنفقها سلعة وأنماها ربحاً، وأجهرهم عصياناً وأطغاهم أغماراً .."[1].

وقد كثرت الحركة العمرانية في القيروان، وكثرت المساجد إلى أن بلغت 300 مسجد يعبد فيها الله، ولا شك أن أعظمها هو المسجد الجامع الذي أسسه عقبة عند تخطيط القيروان والذي بذل كثير من الولاة والأمراء جهوداً كبيرة لتجديده وتحسينه، ويعتبر هذا المسجد من أشهر مساجد الأمصار الإسلامية وأكبرها[2].

هذا قليل مما ذكره المؤرخون في القيروان وتأسيسها ولأنني لست بصدد الحديث عن القيروان وتاريخها السياسي والاقتصادي لأن الحديث عن ذلك يطول، وإنما الحديث عن القيروان باعتبارها أحد المراكز الثقافية الإسلامية بإفريقية وبذلك سأنتقل بالحديث عن الحياة الفكرية في القيروان.

الحياة الثقافية والفكرية في القيروان:

ابتدأت الحياة الفكرية في القيروان بالعلوم الدينية وعلى قمتها تعليم القرآن والحديث ثم الفقه والتفسير التي قدم بها صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وتابعوهم، وقد ذكر المؤرخون أن إفريقية قد دخلها تسعة وعشرون أو ثلاثون صحابياً خلال فترة فتحهم لها كما يذكر أن عقبة كان معه عندما عاد للمرّة الثانية خمسة وعشرون صحابياً[3].

ومن بين الصحابة الذين حملوا راية الفكر في القيروان وكان لهم الفضل في وضع بذور الحركة العلمية في القيروان، أبو سعيد المقداد بن البهراني، وأبو زمعة عبيد بن ارقم البلوي، وزياد بن حارث الصدائي وعبدالله بن عمرو بن العاص القرشي، وغيرهم وكان الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز قد وجّه عناية خاصة بالقيروان، واختار عشرة من الفقهاء ألقى على عاتقهم مهمّة القيام بنشر التعاليم الدينية بين المسلمين في المدينة[4].

بالإضافة إلى ذلك برز العديد من علماء الشريعة من أبناء القيروان الذين كان لهم الفضل في نمو الحياة الفكرية في القيروان من بينهم عبدالرحمن بن زياد المعاوني، وعبدالله بن الفارسي[5].

وقد كانت القيروان منذ تأسيسها مدينة عربية ومصر إسلامي وبالتالي كانت اللغة العربية هي اللغة السائدة بين سكان المدينة، وقد ساعد على إقبال البربر على اللغة العربية، أنها لغة الدين الذي آمنوا به، وقد حظيت القيروان ببعض الشعراء والبلغاء ورواة الأدب من أمثال: الحكم بن ثابت السعدي، وربيعة بن ثابت الرقي، والمسهّر التميمي، وغيرهم، بالإضافة إلى الشعراء كان هناك في القيروان أيضاً الكتاب وعلماء النحو ورواة الأدب من أمثال "يونس بن حبيب الضبُّي"[6].

([1]) الإدريسي، الشريف أبوعبدالله محمد: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة، 1984م)، ص 110.

([2]) ابن عذاري، المرجع السابق، 20/1.

([3]) ابن عذاري، المرجع السابق، 20/1.

([4]) النويري، المرجع السابق، 22/24.

([5]) السيد سالم، المرجع السابق، 206/2.

([6]) زيتون، محمد محمد: القيروان، ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار (القاهرة، 1987م) ص 219.

وبقيام دولة الأغالبة تبدأ الحياة الفكرية في القيروان بالنمو والازدهار لتشمل معظم العلوم، وأصبحت القيروان غاصّة بالعلماء في شتى العلوم والفنون الآداب، وأخذ أبناء القيروان يجوبون معظم مدن العالم الإسلامي لتحصيل العلوم وخاصة الشرعية منها وتبحّر كثير من العلماء في الفقه والتفسير والحديث، وقد مال كثير من الفقهاء إلى مذهب الإمام مالك، وأخذ البعض بمذهب أبي حنيفة وقد عرفت القيروان من رجال الفقه "أسد بن الفرات" قاضي أفريقية في عهد الأغالبة، والإمام سحنون وابنه محمد وابن أبي زيد القيرواني وسليمان بن عمران وغيرهم[1].

وقد زاد إقبال العلماء في القيروان في فترة الإزدهار أيام الأغالبة على حفظ القرآن الكريم، وتعلّم القراءات والأحكام والتأليف فيها، بالإضافة إلى اهتمام العلماء في القيران بالقرآن الكريم، فقد كان هناك اهتمام كذلك بالتفسير ومن أشهر المفسّرين في أيام الأغالبة يحيى بن سالم التميمي الذي ولد بالكوفة وكان له كتاب في التفسير رتّبه تلميذه أبو داود العطّار[2].

وقامت العلوم الشرعية وازدهرت خلال حكم الأغالبة فقد ازدهرت العلوم العربية خلالها في شتّى فروعها الأدبية واللغوية، فكان هناك الشعراء والخطباء والكتاب وعلماء النحو واللغة من أبناء القيروان الذين رحلوا إلى المشرق أو تعلّموا في القيروان، وقد كان كثير من العلماء يعقدون الحلقات التي تغص بالطلاب لتلقّي العلوم العلمية والإحاطة بقوانين اللغة وقد كان من بين الأسباب التي شجّعت على كل ذلك تحلّي كثير من الأمراء بالميل واتساع نفوذها، مما أدى إلى ازدهار الكتابة والخطابة وقيام حركة الشعر[3].

وقد كان من أبناء الأسرة الأغلبية بعض الأدباء والخطباء منهم "محمد بن زيادة الله بن محمد بن الأغلب" الذي ألّف كتابه "راحة القلب" هذا وقد ازدهر الشعر خلال هذه الفترة كما كانت القيروان تزخر بالأفكار والعلوم العقلية والعقائدية المختلفة، فضلاً عن اهتمام أهل القيروان بالتاريخ والجغرافيا وخاصة كتب "المسالك والممالك"، وعرفت عندهم حركة التأليف والترجمة والعلوم الطبيعية التي تتصل بالحياة العلمية كالطب والفيزياء والكيمياء، وعلوم الزراعة والفلك والنجوم، وقد ابتدأ بعضها في القيروان في منتصف القرن الثاني الهجري أخذ في النمو والازدهار بحيث استطاع علماء كل عام أن يقوموا بدور فكري خصب في رقي الحضارة وتقدمها[4].

ثم كان للمكتبات دور كبير في ازدهار القيروان، وجعلها مركزاً ثقافياً إسلامياً، حيث بدأت الكتب في القيروان بداية متواضعة، ثمّ تطوّرت بتطوّر الحركة الفكرية، ونشطت حركة التأليف في العلوم المختلفة، وكان تأسيس بيت الحكمة خطوة عملية من الحكام نحو تنشيط الوعي المكتبي، ولم يكتف فيه بالمؤلفات التي ألّفت في القيروان، بل إن إبراهيم بن الأغلب كان يمدّ البعثة التي يرسلها إلى دار الخلافة في بغداد بالأموال ويكلّفها

---

(1) زياد، نقولا: مدن عربية، دار الطليعة (بيروت، 1965م) ص 67.

(2) محمد زيتون، المرجع السابق، ص 220.

(3) ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: محي الدين عبدالحميد، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1968م) 65/3.

(4) محمد زيتون، المرجع السابق، ص 410.

بشراء نفائس الكتب التي توجد في بغداد مما لا نظير له في القيروان، وخاصة الكتب العلمية، لا سيما مؤلفات الحكمة من فلك وتنجيم لولوع الأمير بها خاصة، كما كانت تشتري الكتب النادرة من دمشق والفسطاط[1].

وبجانب هذه المكتبة الحكومية العامة كانت هناك خزانات الكتب التي توضع في المساجد، وتوقف على طلبة العلم، وقد أوقف عبدالله بن مسرور التجيبي ثلث مكتبته التي كانت تزن سبعة قناطير كتب على طلاب العلم، ومازال بعض الأجزاء من ذلك الثلث الموقوف موجوداً[2].

العلاقات الفكرية بين القيروان وغيرها من مراكز الفكر:

مما لاشك فيه العلاقة القوية الفكرية بين القيروان وغيرها من المراكز الفكرية وتأثرها ببعضها، مما أدى إلى النمو والتطوّر في الحركة الفكرية في القيروان، وجعلها منارة مشعة من منارات الفكر في العالم الإسلامي، فلا يظهر فيها أو في غيرها أي جديد إلا وكان لها منه أو فيه نصيب، فلقد كانت صلة القيروان بمكة والمدينة وثيقة منذ تأسيسها، لأنها المنبع الأصلي للإسلام، وشريعته واللغة العربية، ولقد حظيت القيروان منذ تأسيسها بعدد غير قليل من الصحابة والتابعين الذين أتوا إليها ومكثوا فيها ينشرون كتاب الله ويعلمون إلى أن أدركتهم المنيّة فيها، وبعضهم عاد ثانية إلى المشرق، وقد أورد النويري وابن عذاري وغيرهم العديد من هؤلاء الصحابة والتابعين[3].

كما اتصلت القيروان بالعراق حيث نجد بعض الروّاد الأوائل الذين غادروا القيروان متجهين إلى المنبع الأصلي للإسلام في مكة والمدينة لتحصيل العلم، ثم امتد طموحهم للقاء علماء البصرة والكوفة وبغداد، وكانوا بذلك مثلاً أعلى يقتدى بهم ممن جاء بعدهم، وكما رحل طلّاب وعلماء من القيروان إلى العراق للتعلّم، فقد قدم بعض العلماء إلى القيروان من العراق[4].

كما كان هناك اتصال بين دمشق والقيروان، وأشهر مثال على ذلك إرسال الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز بعثة من الفقهاء والعلماء إلى القيروان لتعليم وتفقيه أهل المغرب[5]، وكان هناك صلة بين القيروان ومصر والمغرب الأوسط والأندلس وصقلية[6].

وصفوة القول: إن القيروان بلغت درجة كبيرة من التقدم الحضاري وحظيت بنصيب كبير من العلم والعلماء وأصبحت قبلة للعلم والعلماء والمسلمين وحلقة اتصال بين مراكز الإشعاع الحضاري الإسلامي في المشرق والمغرب والأندلس.

---

(1) نقولاً زيادة، المرجع السابق، ص 340.
(2) محمد زيتون، المرجع السابق، ص 411.
(3) النويري، المرجع السابق، 58/24.
(4) المرجع نفسه، 22/24.
(5) محمد زيتون، المرجع السابق، ص 425.
(6) السيد سالم، المغرب الكبير، 197/2.

ثانياً: تونس

بناء تونس

مدينة كبيرة محدثة بإفريقية على ساحل بحر الروم عُمّرت على أنقاض مدينة كبيرة قديمة بالقرب منها يقال لها قرطاجنة، وكان اسم تونس في القديم ترشيش وهي على ميلين من قرطاجنّة، وهي الآن قصبة بلاد إفريقية بينها وبين صفاقص ثلاثة أيام، ومائة ميل بينها وبين القيروان وليس بها ماء جارٍ، إنما شربهم من آبار، ومصانع يجتمع فيها ماء المطر في كل دار مصنع، وآبارها خارج الدّيار في أطراف البلد وماؤها ملح، ولها غلّة فائضة وهي من أهم بلاد إفريقية هواء[1].

وبدأ حسان بن النعمان "74ه /693م – 85ه /704م" والي إفريقية يبحث عن موضوع مناسب على البحر يستطيع أن ينشئ فيه ميناءه الجديد، فوجد إلى الجنوب من قرطاجنة بلداً قديماً يطلّ على سبخة فسيحة لا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير فاستدعى هذا الموضع انتباهه، لأن وقوعه على شاطئ السبخة أي إلى الداخل قليلاً يجنّب العرب في سكن المدينة، لأنهم لم يكونوا آنذاك مطمئنين كثيراً إلى سكن المدن الساحلية، ثم إن موقعها هذا يجعلها بمأمن من غارات الروم المفاجئة، فيكفي حراسة مدخل السبخة لكي ينذر الحراس أهل الميناء إلى الخطر قبل وقوعه، كما أن الأرض السبخة هي مراع طبيعية للإبل[2].

وكان هذا البلد ميناء يوناني قديم، فأصبحت قبل الإسلام قرية صغيرة في جنوب قرطاجنّة تدعى ترشيش، وكان يسكنها البربر والروم، وهي على سفح جبل، وعلى ربوة يحيط بها خندق طبيعي هو كالحصن لها، والسور الذي يمنع الأعداء عنها، وفي شرقيها بحيرة جميلة تلطّف جوّها وتزيد في جمالها، وحواليها سهول للزراعة، وقد نزلها حسان بجيشه في حصاره لقرطاجنّة فأعجب بموقعها وجمال مكانها[3].

فبدأ حسان يخطّط المدينة من جديد، ويبدوا أن ترشيش اليونانية قد اضمحل أمرها، ولم يبق منها إلا دير يقيم فيه بعض الرهبان، فبدأ حسان يحفر البرزخ الذي يفصل البحيرة عن البحر ويحفر في ماء البحيرة قناة عميقة تسير فيها السفن حتى تصل إلى البلد وبهذا تتصل البحيرة بالبحر[4].

وأنشأ بها دراً لصناعة السفن، وأرسل في طلب من لهم خبرة بإنشاء دور الصناعات وبناء السفن، فأرسل له الخليفة عبدالملك بن مروان "65 – 76ه /685 – 705م) ألف قبطي بأهلهم وولدهم، وأمر البربر بجرّ الخشب لإنشاء المراكب، وأن يصنع المراكب لجهاد الروم في البحر، وأن يغير على ساحل الروم فيشغلهم عن القيروان[5].

بهذا استطاع حسان أن ينشئ مدينة ثابتة بإفريقية وإذا كانت القيروان قد أصبحت محرساً برياً، فإن تونس أصبحت محرساً بحرياً للمسلمين، ورباطاً يحمي القيروان، وميناء جديداً للبلاد يقوم مقام قرطاجنّة، ولو

---

(1) ياقوت الحموي، شهاد الدين بن عبدالله: معجم البلدان، تحقيق: فريد عبدالله الجندي، دار الكتب العلمية (بيروت، 1990م) 70/2.

(2) البكري، أبوعبيد الله بن عبدالعزيز: المسالك والممالك، تحقيق: البارون ذي مملان، (تونس، 1987م) 697/2.

(3) ياقوت الحموي، المرجع السابق، 70/2.

(4) المرجع نفسه، 71/2.

(5) السيد سالم، المرجع السابق، 249/2.

أعطي حسان وقتاً أطول من ذلك لتعهد المدينة وأكمل إنشائها، ولكن عزله لم يجعله يتم ما بدأ فيه، فأكمله من بعده عبيد الله بن الحُبحاب والي أفريقية لهشام بن عبدالملك "105 – 125 ه / 724 – 742م"[1] بعد ثلاثين سنة، فأتمّ المدينة، واتسع عمرانها، وأقبل إليها الناس يستوطنونها، وأقيم بها مسجد جامع المعروف بجامع الزيتونة وخطط المدينة ونظّم أمورها واتخذ لها دار الصناعة لإنشاء المراكب البحرية[2].

وبإنشاء هذه المدينة حيل بين الروم وبين إفريقية فلم يعودوا يستطيعون النزول إلى أراضيها، فأَمِن العرب المسلمون شرّهم، وأصبح جهدهم متفرقاً إلى تنظيم البلاد وتمهيدها للإسلام، دون أن يزعجهم الروم بهجماتهم المفاجئة بين الحين والحين[3].

وقد قال عنها أحد الرحالة في القرن السابق الهجري/ الثالث عشر الميلادي: "ثم وصلنا إلى قرية تونس مطمح الآمال وحصب كل برق، ومحط الرجال من الغرب والشرق، وملتقى الركاب والفلك، وناظمة فضائل البريّن في سلك، فإن شئت أصحرت في موكب، وإن شئت أبحرت في مركب"[4].

الحياة الثقافية والعلمية بتونس

أما إذا تحدّثنا عن الحياة الثقافية في مدينة تونس باعتبارها أحد مراكز الثقافة الإسلامية في إفريقية، فتونس إحدى منارات العلم في المغرب يقول البكري: "ومدينة تونس دار علم وفقه، ولِّي منها قضاء إفريقية جماعة كثيرة"[5].

ولعلّ أبلغ دليل على ذلك وجود الجامع الكبير فيها كمركز علمي هام، كما يوجد بها بيت الحكمة الذي أنشأه الأمير "إبراهيم بن الأغلب التميمي" تاسع أمراء الأغالبة بتونس[6].

وقد اعتمد بيت الحكمة التونسي على العديد من علماء بغداد، كما جلب الأمير إبراهيم العلماء والكتب من الشام ومصر، في وقت بدأت فيه العلوم تصطبغ بالصبغة العربية، وقد جلب هؤلاء العلماء معهم من بلدانهم الكثير من العلوم والكتب والمصنّفات في مختلف أصناف العلوم المعروفة آنذاك، وكان يرسل السفارات إلى بغداد لإقتناء نفائس الكتب والمصنّفات، وخلفه ابنه زياد الله الذي كان محبًّا للعلوم حريصاً على استقدام العلماء من بغداد والشام والفسطاط ومن بلاد اليونان، ورتّب لهم الأعطيات السخيّة ليحبّبهم في البقاء في هذه المؤسسات العلمية[7].

([1]) ياقوت الحموي، المرجع السابق، 72/2.
([2]) ابن خلدون، المرجع السابق، 188/4.
([3]) السيد سالم، المغرب الكبير، 249/2.
([4]) نقولا زيادة: دراسات في المغرب العربي والسودان والغربي، دار النهضة العربية (بيروت، 1991)، ص 182.
([5]) البكريّ، المرجع السابق، 298/2.
([6]) ابن عذاري، المرجع السابق، 122/1.
([7]) معروف، ناجي، أصالة الحضارة العربية، دار الثقافة (بيروت، 1975م)، ص 450.

وقد بقيت هذه المؤسسة مزدهرة وفي تقدّم مستمر حتى انهارت الدولة الأغلبية على أيدي الفاطميين، وكذلك رحل في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي عدد كبير من أهل العلم في الأندلس إلى تونس، وقد نقل المؤرخون أن أبا العباس أحمد بن شعيب الفاسي انتقل إلى تونس فأخذ بها الطب[1].

والجدير بالذكر أنّ "أبي زكرياء يحيى" أوّل الحفصيين ابتنى جامع القصبة بتونس سنة (630ه / 1233م)، وأنشأ غيره من المساجد والمدارس، وأنشأ في قصره بالقصبة داراً للكتب كما أنّ التعليم في العهد الحفصي انتشر بواسطة الكتاتيب والزوايا وتطوّر جامع الزيتونة بحيث أصبح أكبر مؤسسة عرفها المغرب الأدنى والأوسط، وأنبث علماء أفذاذاً، وأسس الحفصيّون نساءً ورجالاً، مدارس كثيرة جلبوا لها الأساتذة من الأندلس والمهدية، وأسكنوا بها الطلبة وتقوت مكتبة الزيتونة التي عرفت باسم المكتبة العيدلية ووضعت فيها نفائس الكتب[2].

وقد ظهر في تونس العديد من العلماء والفقهاء منهم: أبو زيد شجرة بن عيسى، وقيل ابن عبدالله التونسي، قاضيها "ت 262ه/875م) وعبدالوارث بن عبدالغني بن علي بن يوسف بن عاصم أبو محمد التونسي المالكي الأصولي الزاهد وكان عالماً بالكلام له قدم في العبادة، وكان يتردد بين دمشق وحمص وحلب، وكان له أصحاب ومريدون ومات عبدالوارث سنة "550ه/ 1155م" بحلب[3].

جامع الزيتونة كمركز من مراكز الثقافة العربية الإسلامية:

تأسيسه:

يعتبر هذا الجامع من أهم مساجد إفريقية لقدم عهده، واحتفاظه بعناصره المعمارية والزخرفية الأولى منذ نشأته، ثم لشهرته كجامعه قديمة؛ وتاريخ هذا الجامع يكتنفه الغموض لإغفال المؤرخين وصفه، كذلك لأنه كان مغلقاً في وجه الأجانب من غير المسلمين، فلم تقم حوله أي دراسة أثرية علمية[4].

ويعتبر مؤسس هذا الجامع عبدالله بن الحبحاب سنة 114ه/732م، ثم تواصلت عمليات الزيادة والبناء من بعده، "فيذكر النويري أن: "أبا إبراهيم أحمد بن محمد بالأغلب قام بإصلاحات وزيادات في الجامع سنة 248ه/ 863م.

إلا أنّه توفّي بعد ذلك بسنة واحدة دون أن يتمّ ما شرع فيه من البناء، فأتمه أخوه "زيادة الله الثاني" وكانت أعمالهما داخل نطاق جدران المسجد القديم، الذي ظل يحتفظ منذ إنشائه بحدوده الخارجية واقتصرت هذه الأعمال الإنشائية بحدوده الخارجية واقتصرت هذه الأعمال الإنشائية على زيادة ثلاثة أساليب في بيت الصلاة وقبة الإمام والمحراب[5].

---

(1) نقولا زيادة، دراسات في المغرب العربي، ص 188.
(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، 73/2.
(3) ياقوت الحموي، المرجع السابق، 72/2.
(4) السيد سالم، المرجع السابق، 436/2 – 437.
(5) النويري، نهاية الأرب، 68/24.

وقام الخليفة العباسي "الواثق" بأعمال إصلاحية أيضاً في جامع الزيتونية سنة 676ه/1277م، ثم توالت الزيادات والإصلاحات؛ منها: أعمال السلطان يحيى بن زكريا الحفصي، الذي أمر بصنع أبواب خشبية ووضع جوائز خشبية في عرض المسجد، وزادت النقوش الموجودة في المسجد من معرفة تاريخ بناءه وتاريخ الإصلاحات والزيادات به، والتي نراها في واجهة الصحن القديمة وفي قبة البهو وعلى الباب الشرقي النافذ في صحن الجنائز[1].

والمسجد مربع في غير انتظام، يغطي مساحة من الأرض طولها 76 متراً، وعرضها 61 متراً، ويبلغ طول جدار المحراب 61 متراً والجدار الشرقي 56 متراً والغربي 76 متراً والشمالي 57 متراً وبيت الصلاة يشتمل على سبعة أساكيب موازية لجدار القبلة، ومتوسّط عرض كل من الأساكيب والبلاطات فيما بين الأعمدة ثلاثة أمتار، وعقود المسجد تتجه اتجاهين في آن واحد، عمودية على جدار القبلة وموازية لهذا الجدار[2]، ويتميز جامع الزيتونة بظهور عنصر زخرفي جليل يقوم على تناوب اللونين الأبيض والرمادي في كتل الحجارة التي تؤلف سنج العقود أو مداميك البناء داخل قبلة المحراب، ومن المحتمل أن يكون مهندس جامع الزيتونة قد استلهم فكرة تناوب اللونين من عقود جامع قرطبة التي تتناوب فيها قطع الحجارة البيضاء مع قطع الآجر[3].

وبجامع الزيتونة منبر يرجع إلى عام (250 ه /864م) يشبه إلى حد كبير منبر جامع القيروان، ولكنه أصغر منه حجماً، ولم يبق من حشواته التي كانت تؤلف كتفيه سوى اثنان وعشرين حشوة مستطيلة الشكل في كل من الكتفين[4].

لقد نوّه المؤرخون بمكانة جامع الزيتونة وقالوا عنه: "إنه ما ضاق صدر مهموم ودخله إلا انفرج، وانفتحت له بلطف عنايته أبواب الفرج"، وحكوا عنه حكايات غريبة، منها، أن عامة الناس قتلوا "هدّاج بن عبيد الكعبي" لأنه دخل الجامع بخفّيه، ولمّا عارضه بعض الناس قال: "دخلت بهما على السلطان" فاستعظم منه العامة جوابه وقتلوه ومثلوا به[5].

لهذا كان الأمراء الحفصيون يولون عناية كبيرة لجامع الزيتونة، قصد استجلاب عواطف السكان، فيجتهدون في تحسينه وتجميله وتعيين القراء به، وتنظيم الأحزاب وتخصيص الأوقاف للإنفاق على هذه المبرّات، فقد أمر المستنصر أبو عبدالله محمد بن أبي زكرياء بتخصيص جزء من ماء زغوان لسقاية جامع الزيتونة، والباقي لحقوله بجنّات أبي فهر[6].

---

(1) الحشائشي، محمد بن عثمان: جامع الزيتونة، تحقيق الجيلاني بن الحاج يحيى، مؤسسات عبدالكريم بن عبدالله، (تونس، 1973م)، ص 23.
(2) السيد سالم، المرجع السابق، 441/2.
(3) السيد سالم، المرجع السابق، 442/2.
(4) المعموري، الطاهر: جامع الزيتونة، الدار العربية للنشر والتوزيع والإعلان (طرابلس، 1980م)، ص46.
(5) ابن خلدون، العبر، 715/6.
(6) الطاهر المعموري، المرجع السابق، ص 50.

وقد حاول الحفصيّون أول الأمر إهمال هذا الجامع وسعوا لبناء مؤسسات دينية كجامع القصبة، والهواء، لتركيز مذهبهم الموحّدي، لكنّ رد الفعل من طرف الأهالي أجبرهم على تبنّي الجامع، وبناء مقصورة مخصصة للبيت المالك عندما يريد الأمير أداء صلاة الجمع أو العيدين[1].

وقد ظهر علماء كبار في جامع الزيتونة، وتكوّنت حولهم حركة علمية اجتذبت كثيراً من علماء القيروان، فرحلوا إليهم وأخذوا عنهم ومن أشهرهم: أبو محمد خالد التجيبي "م سنة (127 ه / 744م)" الذي سمع من القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومن سالم بن عبدالله بن عمر الخطاب؛ وعلي بن زياد العبسي التونسي، وأبي خليل هشام بن خليل، وعدد كبير من العلماء والفقهاء غير الذين ذكرناهم، ووجود هذا العدد الكبير من العلماء في جامع الزيتونة يوحي بكثافة النشاط العلمي والتدريسي الذي احتواه الجامع وجمع كل أولئك العلماء، وكان أمراء العهد الحفصي ينتدبون العلماء لمدارسهم من بين مشاهير علماء جامع الزيتونة وبذلك تكتسب المدرسة مكانة وتعجّ بطلاب العلوم المختلفة[2].

ومن صور النشاط العلمي بالجامع تأسيس المكتبات فلم يهتم الحفصيون في أول الأمر بتأسيس مكتبات بالجامع وإنما فكروا في مكتبات خاصة بهم، من ذلك أن أبا زكرياء الحفصي أحدث مكتبة بالقصر احتوت على ثلاثين ألف مجلّد وعيّن لها قيّماً هو الحسن الطرابلسي، وقد باعها بعد ذلك أبو يحيى زكرياء بن اللحياني، ولم تؤسس المكتبات بالجامع إلّا في عهد أبي فارس عبدالعزيز الذي أخرج خزانة القصر المشتملة على أمّهات الكتب في العلوم المختلفة، فبنى لها مقصورة بالجامع، ووقفها على الطلبة يقرؤونها وينسخون منها، واشترط عدم إخراج أي كتاب خوف الضّياع، وعيّن لها قيّمين لمناولة الكتب وإرجاعها، وكانت المطالعة فيها من أذان الظهر إلى العصر[3].

ويظهر أن إقامة القراء لتلاوة الكتاب بجامع الزيتونة وقراءة كتب الحديث وفتوى مفتي الجامع تعتبر من مظاهر النشاط العلمي لإرتباطها بإحياء ودراسة شتى الفنون والكتب ومن ذلك تعيين قراء من طرف الخليفة أبي إسحاق بن إبراهيم الثاني "770ه/1369م" لتلاوة أحزاب من القرآن الكريم يومياً وتابعه في ذلك أبو العباس أحمد بن أبي بكر فأنشأ قراءة يومية بالسبع في المقصورة الغربية من جامع الزيتونة[4].

وخير ما نختم به الكلام عن هذا الجامع الأعظم قول الإمام الحشائشي: "جامع الزيتونة هو أسبق المعاهد التعليمية للعروبة مولداً، وأقدمها في التاريخ عهداً، وقد حمل مشعل الثقافة العربية الإسلامية اثنى عشر قرناً ونصف القرن بلا انقطاع ولا انفصال، تجرّد في خلالها لدراسة العلوم وذلك منذ "120 ه /737م" وظل على مدّ العصور مناراً وهّاجاً للتعليم والبحث الإستنباط، فتخرج منه الفقيه واللغوي والأديب وأصبح أكبر جامعة

(1) السيد سالم، المغرب الكبير، 442/2.
(2) الحشائشي، المرجع السابق، ص 24.
(3) السلاوي، أبو العباس أحمد بن الناصري: الاستقصار لأخبار المغرب الأقصى (الدار البيضاء، 1968م)، 130/1.
(4) الطاهر المعموري، جامع الزيتونة، ص 48.

إسلامية عرفها المغرب بأسره، وتفرّع من دوحة الزيتونة المباركة أغضان علم وفقه، وفلسفة زانوا الثقافة البشرية في المغرب والمشرق..." [1].

وأخيراً نستخلص مما سبق أن مديني القيروان، وتونس كانتا لهما الدور في نشر الثقافة الإسلامية، وتعد إحدى منارات العلم آنذاك، ولهما شأن جليل في مسيرة الحضارة الإسلامية، فكانت هذه المنارات والمراكز تمثل المهد والحضن الذي احتضن بدايات معرفة العرب في العلوم بإفريقية، أو بالأحرى ببلاد المغرب العربي عموماً.

فقد كانت هذه المراكز والمدن قد أنارت البلاد الإسلامية بالعلوم المختلفة، وخرجت عديد الفقهاء والعلماء الذي تنقلوا بين المشرق والمعرب والأندلس.

ومما جعل وجود ونشر الثقافة الإسلامية، واللغة العربية، وعديد تلك العلوم الإسلامية، هو وجود علاقات فكرية بين مدينتي القيروان وتونس، بمكة والمدينة والعراق، لأنهما يمثلان النبع الأساسي، والأصلي للإسلام، وما كان لهما الأثر على بلاد المغرب الإسلامي وتنوع ومد الثقافة الإسلامية آنذاك.

وبالتالي كانت مدينتي القيروان، وتونس قد رفعتا لواء ومشعل الثقافة الإسلامية، وخاصة في عهد الأغالبة والحفصيون، حيث ظهر العديد من المساجد والمراكز التي كان لها الدور الأمثل، مثل: المسجد الأعظم بالقيروان، ومسجد الزيتونة بتونس، وما صحبهما ن تعليم في عديد العلوم، واللغة، والشعر، والتاريخ، والفلك وغيرها من العلوم.

(1) الحشائشي، المرجع السابق، ص 3.

انتشار مذهب الأمام مالك بن أنس في الأندلس وتأثيره على الحياة السياسية

138 – 755م / 316 – 939م

إعداد :

أ . محمد فرج جبريل

جامعة قاريونس.المرج.

ملخص الدراسة باللغة الإلإلإيزية

Abstract :

The Maliki sect is considered one of the Sunni Islamic sects that has been widely accepted and accepted by other doctrinal schools, especially in Andalusia. The people of Andalusia were inclined towar s the doctrine of Imam Malik, where they abandoned the Ouzai doctrine, which was often based on the provisions of jihad and fighting. Consistent with The Andalusians developed especially with the beginning of the second century AH, where their main concern was jihad and the expansion of the Islamic state in Europe, so it was natural that they tended to adopt this doctrine and adopt it, but with the beginning of the era of the Emirate in 138 AH, Ouzai, especially with the emergence of the doctrine of the owner began to lean towards him, and took their scientific trips heading towards the Hijaz to meet the owner of the doctrine, Imam Malik scientist and Imam of Dar al-Hijra Vnbhua knowledge and Vfahvh that suits their conditions and addresses the needs of their multi-spectral and gender So they needed Imam Malik and taught him to study and write his book, and when they returned to Andalusia began to publish everything they learned from the origins of Maliki's jurisprudence and modernized a new transfer in the religious life in Andalusia and formed the cornerstone of the Malik School, which has become one of the strongest schools of jurisprudence, and began the movement of renewal of jurisprudence and intellectual Especially with the arrival of Prince Hisham bin Abdul Rahman to power in the year 172 AH, where unleashed this doctrine in Andalusia and make it an official doctrine of his state, without the other, then reached the Maqiya power and dominated all joints of the Umayyad state, whether political or administrative And this was by the guidance and support of the sultans of the Umayyad state have been the protectors of the doctrine, and continued to care until the doctrine settled and managed in the hearts of the people of Andalusia and Ghadoa do not satisfy others alternative and their tongue says we know only the Book of God and the mole of Malik. The research included an introduction, three topics and a conclusion. The first topic dealt with a brief overview of the author of the doctrine, as well as the beginning of the entry of the Maliki school of Andalusia, and then we explained the stage of empowerment and stability of this doctrine Paying tribute to the most important Andalusian royalists who played a prominent role in the publication and the rites of the origins of the Maalikis. The second topic, we devoted to talk about the reasons for the spread of the Maliki school, where we focused on the internal and external reasons. The third topic is the uniqueness of the contributions of the Islamic jurists in the political life and the most prominent positions they held. The study concluded with a conclusion that included the most important results of this research.

ملخص الدراسة :

يعتبر المذهب المالكي من المذاهبالإإسسمية السنية التي لقت انتشا ااً واسعاً وقبـــولاً لم تحظ به المذاهب الفقهيةاخرىلأ لا سيما في إقليم الأندلس، فأهل الأندلس كانوا من أشدللياس ميولاً لمذهب الإمام مالك حيث تخلوا عن المذهب الأوزوعي الذي كان في الغالب منصباً على أحكام الجهاد والقتال وهذه التشريعات كانت تتماشى مع وضع الأندلسيين لا سيمـا مـع بداية القرن الثاني الهجري حيث كان شغلهم الشاغل هو الجهاد وتوسيع رقعة الدولة الإلإلإميـة فـي أووربا، لهذا كان من الطبيعي أن يميلوا لهذا المذهب ويتبنوه، ولكن مع بداية عصر الإمـ اة سنة 138 هـ خفت حملات الجهاد في أوربر وتقلصـت حـــدة تمسكهم بالمـذهب الأوزوعـي، لاسيما مع ظهور مذهب مالك فبدأوا يميلون إليه وأخذت رحلاتهم العلمية تتجه صوب الحجـاز للقاء بصاحب المذهب الإمام مالك -عالم وإمام دا الهجرة- فانبهـروا بعلمه وفقـهه الذي ييناسب أحوالهم ويعالج حاجيات مجتمعهم المتعدد الأطياف وولأجناس، بالتالي لازمـوا الإمـام مـالك وتتلمذوا على يديه ودوسوا كتابه الموطأ، وعندما رجعوا إلى الأندلس بدأوا في نشر كـل ما تعلموه من أصول الفقه المالكي، فأحدثوا نقلة جديدةً في الحياة الدينية في الأندلس، وكونوا حـجر الزاوية للمدرسة المالكية التي غدت من أقوى الهررس الفقهية، ومن هنا بدأت حركة التجديد الفقهي والفكري، لاسلأشد مع وصلألأ شلأمو هششم بن عبدالرحمن إلى سدة الحـكم سنة172 هـ، حيث أطلق العنان لهذا المذهب في الأندلس ًاجعله مذهباً رسمياً لدولته دون غيره، حينها بلغت المالكيةأوج نفوذها وهيمنت على كل مفاصل الدولة الأموية سواء السياسية أو الإدارية، فأصبح لا يُكلف أحدٌ في مجال التضوءوولإفتوء والحسبـة إلا من كـان مالكياًوحوفظاً لكتـاب الموطأ، وهذا كان بإيعاز وتأييد من حماة المذهب - سسطين الدولة الأموية - واستمـرت تلك الرعاية حتى استتر المذهب وتمكن في نفوس أهل الأندلس وغدوا لا يرضون غـيره بديـلاً، وكأن لسان حالهم يقول : لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك . وقد تضمن البحـث مقـدمة وثلاثة مبـاحث وخاتمة، المبحث الأول تناولنا فيه لمحة مختصرة عن صاحب المذهب، و بداية دخول مذهبه للأندلس، ووضحنا بعـدها مرحلة التمكين والاستقـ راا لهذا المـذهب، مع الإشادة بأهم الفقهاء المالكيين الأندلسيين الذين لعبوا دوراً بارزاً في نشر وذيوع أصول المالكية . أما المبحث الثاني فقد خصصناه للحديث عن أ سباب انتشا اا المذهب المالكي حيث ركزنا على ا سباب الداخلية والخارجية. أما المبحث الثالث فقد أفردناه لإسهـامات الفقهـاء المالكيين في الحيـاة السيـاسية وإبراز الوظائف العليا التي تقلدوها. وختمت الدراسة بخاتمة تضمنت أهم نتائـج هذا البحـث .

المقـــــــدمة :

لقد كان أهل الأندلس من أشد الناس اهتماماً بالدراسات الدينية والفقهية، فالفقه لديهم مقياس المنهج الصحيح في جميع مجالات الحياة، ولأهميته البالغة رغب الأندلسيون في تعلمه والتبحر فيه، وخصوا كل من يتصدر المجال الفقهي بمكانةٍ مرموقة. فالفقهاء عندهم كانوا يحتلون مكانة متميزة ويحظون بالتقدير والتبجيل لدرجة أن كل من يراد أن يلقب بلقب ذي مرتبة عُليا يطلق عليه فقهياً، وبالتالي فإن هذه الطبقة كانت قطب الرحى في عملية التغيير الفكري والفكري الذي طرأ على الأندلس ،فمن المعروف تاريخياً أن المذهب الأوزاعي كان أسبق المذاهب دخولاً إلى الأندلس، وظل معمولاً به مدة من الزمان، ومع بداية القرن الثاني الهجري حدث تحول كبير في المذهب حيث شهد أفول المذهب الأوزاعي وتلاشيه ودخول مذهب الإمام مالك، إمام دار الهجرة، حيث حظي بقبول واسع بين العامة والخاصة وذلك لإعجابهم بعلمه ووقاره وفقهه المعتمد على الكتاب والسنة النبوية، وبالتالي تشبثوا به دون غيره من المذاهب الأخرى، وقد برزت تجليات هذا التغيير عندما استقل الأمويون بالأندلس سنة 138 ه عن العباسيين في المشرق، وقد أبدى الأمويون انحيازهم التام لهذا المذهب. ومن هنا بدأ تصاعد النفوذ المالكي في المجتمع الأندلسي، فلم يمضِ وقت طويل حتى أصبح المذهب الرسمي للدولة الأموية ، ولاسيما مع تقلد الأمير هشام بن عبد الرحمن سدة الإمارة سنة 172 ه ومن هنا تكونت للمذهب المالكي مدرسة مستقلة في الغرب الإسلامي لها رجالها وأنصارها وخصائصها ومميزاتها .

ومن الجدير بالذكر أنه لا يتأتى فهم وذيوع وإقبال الناس على هذا المذهب بمعزل عن أعلام وفقهاء الأندلس، فهؤلاء لعبوا دوراً بارزاً في إعلاء صوت المالكية في كل ربوع هذا الإقليم، فقد كان دورهم مكملاً لدور السلطة الحاكمة، حيث سخروا كل مجهوداتهم لخدمة وإرساء قواعد المدرسة المالكية في الاندلس، فقد تكبدوا مشاق الترحال إلى الحجاز للقاء بالإمام مالك في المدينة المنورة، ونهلوا من معينه وعلمه الكثير، ونقلوا ذلك إلى الأندلس، وكان في مقدمة ذلك كتاب الإمام مالك "الموطأ". وتصدروا عند عودتهم مجالس التعليم والتدريس والتأليف ونقلوا كل ما تعلموه من صاحب المذهب إلى الناس، وبفضلهم لم ينتهِ القرن الثاني الهجري حتى أصبحت الاندلس بالكامل ملكاً لمالك، وغدت مدرسته من أقوى المدارس الفقهية ، ومن أهم الفقهاء الذين قاموا بهذا الدور الطلائعي : الغازي بن قيس ، وعبدالرحمن بن موسي الهواري، وزياد ابن عبد الرحمن المعروف بابن شبطون ، ويحيي بن يحيي الليثي، فهؤلاء هم أقطاب الفقه المالكي في الأندلس و الرعيل الأول الذين كان لهم الدور المؤثر في الحياة السياسية والعلمية، فقد وصلوا بسبب المكانة التي حظوا بها عند الخاصة والعامة إلى أعلى المناصب الإدارية والسياسية، وأصبحت لهم القدرة في التحكم في بعض مجريات الأمور كالأحكام القضائية والقرارات السياسية، وفرض كل ما يرون أنه يتماشى مع المذهب المالكي .

وسبب اختياري لهذا الموضوع هو ميولي الشديد إلى تاريخ الأندلس، فكل ما يتعلق بهذا الإقليم هو بالنسبة لي محل اهتمام وتركيز، فالأندلس قامت فيها أعظم حضارة للإسلام، حيث شيدت الجوامع الكبرى والقصور الفخمة وتطور فيها الأدب والفن والفقه والطب والعلوم العقلية كافةً، وفي الوقت نفسه كان ركناً من أركان الدولة الإسلامية، دافع عن الدعوة وصد أطماع وتطلعات الإسبان والفرنجة لمدة تزيد عن ثمانية قرون،

وكذلك كانت الأندلس أحد معابر الحضارة الإسلامية إلى أوربا، وبالتالي كل مواضيع الأندلس تثير اهتمامي وانتباهي، وتمثل عندي قيمة تاريخية وعلمية. وعلى هذا الاساس ركزت على أحد المواضيع الخاصة بهذا الإقليم وتطرقنت إلى الجانب الديني وتحديداً التغير والتحول الفقهي خلال القرن الثاني الهجري وتأثير ذلك على الحياة السياسية .

وتكمن أهمية هذا الموضوع في تتبع أعيان وأعلام المالكية ودورهم في إدخال هذا المذهب إلى الأندلس ودورهم الفعال في عصر الإمارة الأموية، ومدى تحكمهم في قلوب الحكام والناس مع ذكرٍ لأهم ثمراتهم العلمية التي قدموها لخدمة هذا المذهب .

وقد تضمن البحث مقدمة وثلاث مباحث وخاتمة، المبحث الأول تناولنا فيه لمحة مختصرة عن حياة الإمام مالك وبداية دخول مذهبه للأندلس، ثم الحديث عن مرحلة الإقرار والتمكين، وسرد لأهم الشخصيات الفقهية التي كان لها دور فعال في نشر وذيوع هذا المذهب. أما المبحث الثاني فقد خصصناه للحديث عن أسباب انتشار المذهب المالكي، حيث ركزنا على الأسباب الداخلية التي تكمن في دعم السلطة الحاكمة، والرحلات العلمية إلى الحجاز، والأسباب الخارجية وتضمنت اهتمام صاحب المذهب بالطلبة الوافدين إليه من الأندلس، وكذلك ارتباط مذهب مالك بالمدينة المنورة، وحب أهل الأندلس لشخصية الإمام مالك. أما المبحث الثالث ، فقد افردناه لإسهامات الفقهاء المالكية في الحياة السياسية، وابرازٍ لأهم الوظائف التي تقلدوها مثل خطة الشورى والحسبة والشرطة والقضاء. وكذلك توضيح لأهم الأحداث التي شارك فيها المالكيون، كالثورات الداخلية، أو مشاركتهم في حركة الجهاد ضد الإسبان في الشمال . وختمنا البحث بخاتمة اشتملت على أهم نتائج هذه الدراسة .

المبحث الأول

لمحة تاريخية عن حياة الإمام مالك رحمه الله :

هو أبو عبدالله مالك بن أنس بن أبي عامر من قبيلة ذي أصبح اليمنية، وأمه تدعى العالية بنت شريك الأزدية، التي تعود في الأصل إلي بنى حمير[1]، ولد سنة 93ه بالمدينة المنورة التى تعد مهد العلم ومبعث النور وبها الرعيل من علماء الصحابة، وقد ترعرع مالك في أسرة محافظة وزاخرة بالعلماء والفقهاء، فأبوه وأجداده كانوا من العلماء الصالحين والمهتمين بالحديث والفقه، فقد نقلوا العديد من الأحاديث عن عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، وعثمان بن عفان، وعائشة رضي الله عنهم جميعاً[2] ، ومن المعلوم أن المشتغلين والمهتمين بعلم الفقه خصهم الله بميزات لم ينلها غيرهم ، فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين " وبالتالي فإن البيئة التي عاش فيها الإمام مالك كان لها الدور والأثر الأكبر في صقل شخصيته، فمنذ نعومة أظافره حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، وتبّحر في الفقه حتي فاق

---

[1] – الذهبي ، شمس الدين محمد : سير أعلام البلاد ، (تحقيق : شعيب الأرنوط ، ومحمد بن أحمد العرقسوسي) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1982م ، جـ8 ، ص48 ، 49 .

[2] – عياض ، عياض بن موسي : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، (تحقيق : عبدالقادر الصحراوي) ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1968م ، جـ1 ، ص118 .

أقرانه وشيوخه، وأحتل الصدارة بين أئمة الإسلام وترك أثراً لا يزال المسلمين ينتفعون به إلي اليوم، وإلي أن يرث الله الأرض وما عليها[1] .

وكانت نعمة إقامته في المدينة أنه حظي بكوكبةٍ من العلماء التابعين وتربي على أيديهم، وتفيدنا مصادرنا التاريخية أنه أخذ العلم عن تسعمئة شيخ، ومن أشهرهم على سبيل المثال : ربيعة بن أبي عبدالرحمن[*] ،وابن هرمز[**]، والزهري[***]،وعبدالرحمن بن القاسم[****][2]، وبفضل ملازمته وتواصله المباشر لهؤلاء وغيرهم لم يمضي وقت طويل حتي اكتملت شخصية مالك العلمية والأدبية بعدما بذل الغالي والنفيس من أجل اقتطاف ما لدى هؤلاء الاقطاب من علم وفقه وحديث، فقد كان يقول : " كنت آتي ابن هرمز من بكرة فما أخرج من بيته حتي الليل "[3] فلم ينقطع عنهم حتي صار أهلاً للتدريس وشهد له سبعون شيخاً من أهل العلم ، وأتخذ مجلساً في المسجد النبوي وسط شيوخه الذين تلقى العلم منهم ، وفى المكان الذي كان يجلس فيه عمر بن الخطاب للشورى والقضاء ، فأصبح بذلك مقصداً لطلاب العلم والفقه من كل المدن والأقاليم ، وتخرج على يديه ألوف التلاميذ ، وترك للناس كتاباً عظيماً في الحديث والفقه وهو ، "الموطأ" وبهذا ذاع صيته وصار معلم دار الهجرة الأكبر ، وفقيه المسلمين وإمامهم على مدى ستين عاماً[4] .

بداية دخول المذهب المالكي إلي الأندلس :

كان المذهب السائد والمعمول به في الأندلس هو المذهب الأوزاعي[*] [5] الذي كان منصباً على أحكام الجهاد والقتال وهذه التشريعات كانت تتماشى مع وضع الأندلسيين لا سيما مع بداية القرن الثاني الهجري حيث

---

[1] – أبو زهرة ، محمد : مالك حياته وعصره وآراؤه الفقهية ، دار الثقافة العربية ، 1995م ، ص28 – 31 .

[*] – هو ربيعة بن عبدالرحمن بن فروخ الديلي ، ويكنى بأبي عثمان ، عاصر بعض الصحابة والعديد من التابعين ، أخذ منه الإمام مالك الكثير من علوم الفقه ، وكان مالك يكن له الأعجاب والتقدير فكلما تذكره كان يقول : ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة ، ت 136هـ ؛ المامي ، محمد مختار : المذهب المالكي مدارس ومؤلفاته خصائصه وسماته ، مركز زايد للتراث والتاريخ ، الإمارات ، 2002م ، ص39 .

[**] – هو عبدالله بن يزيد بن هرمز ، كنيته ابوبكر ، أحد شيوخ مالك ، وفقهاء المدينة المنورة ، توفي سنة 148هـ ؛ البخارى ، محمد بن إسماعيل : التاريخ الكبير ، (تحقيق : هاشم النووي ، وآخرون) ، دائرة معارف العثمانية ، 2009م ، جـ5 ، ص224 .

[***] – هو محمد بن مسلم بن عبيدالله بن شهاب الزهري القرشي ، روى عن عبدالله بن عمر بن الخطاب وكبار التابعيين ، كسعيد بن المسبب ، وكان الخليفة عمر بن عبدالعزيز يقول : لم يبق أحد أعلم بالسنة مثل الزهري ، ت 124هـ ، الدقر ، عبدالغني : الإمام مالك بن أنس ، دار القلم ، دمشق ، 2009م ، ص65 .

[****] – هو عبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر التميمي ، كان من كبار علماء وفقهاء المدينة المشهود لهم بالثقة ، ت 126م ؛ الدقر ، عبدالغني : الإمام مالك بن أنس ، ص66 .

[2] – المامي ، محمد مختار : المذهب المالكي ، ص31 .

[3] – عياض : ترتيب المدارك ، جـ1 ، ص132 .

[4] – ابوزهرة ، محمد : مالك حياته وعصره ، ص48 ، 49 .

[*] – ينسب هذا المذهب إلي عبدالرحمن بن عمر بن محمد الأوزاعي ، ولد في الشام سنة 88هـ ، اختلف في أصله فهناك من يقول بأنه عربي وآخرون ينسبونه إلي بلاد السند ، عاش الحقبة الأموية والعباسية ، أخذ علمه عن كبار التابعين مثل الزهري وغيره ، توفي سنة 157هـ ، ابن خلكان ، شمس الدين أحمد : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، (ت ، إحسان عباس) ، دار صادر ، بيروت ، 1970م ، جـ3 ، ص127 .

[5] – ابوزهرة : مالك حياته وعصره ، آراؤه فقهية ، ص488 .

كان شغلهم الشاغل هو الجهاد وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية في أوربا ، لهذا كان من الطبيعي أن يميلوا لهذا المذهب ويتبنوه[1] .

استمر أهل الأندلس على هذا المذهب إلي عصر الإمارة 138 – 316ه ، حيث بدأت رحلات بعض النخب من رجال العلم من الأندلس تتجه إلي المشرق لطلب الفقه والعلم والاتصال بكبار المشايخ والعلماء ، فالتقوا بإمام دار الهجرة " مالك بن أنس " فأعجبهم علمه ووقاره وفقهه المعتمد على الكتاب والسنة النبوية ، وميله إلي الناحية العلمية فهو يرى أن كل ما هو ناجع للمسلمين ويتفق مع مصالح جمهورهم فهو من الإسلام ما دام لا يتعارض مع أوامره ونواهيه وبالتالي لازموه وتتلمذوا على يديه ودرسوا كتابه الموطأ ، وعندما رجعوا إلي الأندلس أخذوا ينشرون أصول فقه مالك وكتابه الموطأ ، فأحدثوا نقله نوعيه في الحياة الدينية في الأندلس لما لمسوه من العامة من إقبال واهتمام وشغف[2] .

وفي مقدمة النخب التي روجت ونشرت مذهب مالك في الأندلس، الفقيه الغازي بن قيس ت 199ه ، حيث كان له شرف السبق في التعلم على يد مالك بن أنس، فقد صاحبه وهو يؤلف الموطأ ولم يرجع إلي الأندلس إلا بعد أن حفظ الموطأ كاملاً ، ويعود له الفضل في نشر الفقه المالكي والموطأ في الأندلس حيث يوصف بأنه واضع اللبنات الأولي للمدرسة المالكية في الأندلس[3] ،والشاهد في ذلك ما صرح به ابن الفرضي حيث أفاد بأن الغازي لما نهل من معين المدينة عاد إلي الأندلس "بعلمٍ عظيمٍ نفع الله به أهلها "[4] .

أيضاً ممن كان لهم الدور البارز في إدخال المذهب المالكي إلي الأندلس، عبدالرحمن بن موسي الهواري، من أهل أستجه، كان من طليعة المرتحلين إلي المشرق في بداية عصر الإمارة، جاء المدينة والتقى بالإمام مالك وتتلمذ على يديه وأخذ من علمه الكثير، ودرس كذلك على يد سفيان بن عينيه وغيره من رواة الغريب، وتجول في الحجاز ثم رجع إلي الأندلس عبر البحر، تعرض خلال ذلك لحادثة غرقٍ نجا منها بأعجوبة، فقد فيها مصادره وكتبه التي جمعها وأتى بها من الحجاز، ولما أتى "أستجه" أتاه أهلها يهنئونه بقدومه ويعزونه عن ذهاب كتبه فقال لهم : " ذهب الخرج وبقى الدرج "[5] .

أيضاً الفقيه سعيد بن أبي هند ، (ت . 110ه) ، حيث خرج إلي المدينة في عهد الأمير عبدالرحمن الداخل[*] والتقى بالإمام مالك وأخذ عنه الكثير ، وكان مالك معجباً به وبعلمه فقد كان يسميه الحكيم[1] .

---

[1] – السامرائي ، خليل إبراهيم ، وأخرون : تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، د. ت ، ص316 .

[2] – الهنتاتي ، نجم الدين : المذهب المالكي بالقرن الإسلامي ، تبر الزمان تونس ، 2004م ، ص37 .

[3] – ابن فرحون ، إبراهيم نور الدين : الديباج لمذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، (ت . مأمون بن محي الدين الجنان) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1996م ، ص314 .

[4] – عياض : ترتيب المدارك ، جـ3 ، ص114 ، 115 .

[5] – ابن الفرضي ، عبدالله بن محمد : تاريخ علماء الأندلس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2008م ، ص257 .

[*] – هو عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك الأموي الدمشقي المعروف بالداخل ، فر إلي الأندلس عند سقوط الدولة الأموية تفرد بحكم الأندلس بعد موقعة المصارة سنة 138هـ ، توفي سنة 178هـ ، ابن الخطيب ، لسان الدين : كتاب أعمال الأعلام ، (ت. ليفي بروفنسال) ، مكتبة الثقافة الدينية ، 2006م ، ص7 ، 8 ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ8 ، ص244 ، 245 .

وكذلك الفقيه قرعوس بن العباس الثقفي، كان على درجة عالية من التقوى والورع، لازم الإمام مالك ونقل من علمه الكثير[2] .

ومن خلال ما ذُكر يمكن القول بأن هؤلاء النخب هم الذين وضعوا اللبنات الأولي للمذهب المالكي في الأندلس منذ بداية عهد الأمير الأموي عبدالرحمن الداخل، ومن ثم بدأ هذا المذهب يتسرب ويترسخ بين العامة والخاصة حتي جاء عهد الأمير هشام بن عبدالرحمن، حيث نشطت في عهده شخصيات فقهية جديدة رحلت إلي المدينة ونهلت من علم مالك، ثم أتت وبدأت تدعو من جديد إلي تبنى هذا المذهب فلم يتردد الأمير هشام في اعتماد هذا المذهب مذهباً رسمياً للإمارة الأموية في الأندلس دون غيره، ومن هنا بدأت مرحلة الذيوع والانتشار بشكل عام وهذا ما سيتم التطرق له في الصفحات التالية .

مرحلة إقرار المذهب المالكي كمذهب رسمي في الأندلس :

إن أول من أقدم على خطوة إقرار تغيير مذهب الأندلس من الأوزاعية إلي المالكية هو الأمير الأموي هشام بن عبدالرحمن، الذي اشتهر بثقافته العالية وعلمه الواسع[3] وبتقواه التي أشاد بها الكثير من المؤرخين، فقد وصفه صاحب كتاب أخبار مجموعة في فتح الأندلس بأنه كان خيّراً فاضلاً كريماً حسن السيرة ، ينفق الأموال الطائلة في افتداء أسرى المسلمين[4] واشتهر بكثرة مجالسته لأهل العلم ولاسيما الحديث والفقه الذين نالوا مكانة غير مسبوقة في عهده، فارتفع نجمهم لدرجة أنه كان لا يتخذ أي قرار إلا بعد الرجوع إليهم ومشاورتهم فيه، فسيرته كانت شبيهة بسيرة الخليفة الورع عمر بن عبدالعزيز، وهذا كان له أبعد الأثر في تثبيت دعائم ملكه وتمكينه من السيطرة الفعلية على بلاد الأندلس حتي نال ثقة شعبه ورضاهم فغلب علب لقب "الرضى"[5] .

ومما يعزز حبه للإسلام وللغة القرآن إن جعل اللغة العربية لغة التدريس في معاهد النصارى واليهود وكان لذلك أثر عميق في التقريب بين اصحاب المذاهب المختلفة، وبث روح التفاهم والوئام بينهما[6] .

وكان الأمير هشام معجباً بإمام دار الهجرة وعالم المدينة المنورة مالك بن أنس لذلك سعى إلي تشجيع أهل العلم على الترحال والذهاب إلي مالك في المدينة للالتقاء به وتعلم أصول الحديث والفقه على يديه، فأبن حزم

---

[1] – الضبي ، أحمد بن يحيي : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2008م ، ص314 ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص159 .

[2] – عياض : ترتيب المدارك ، جـ3 ، ص325 ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص372 .

[3] – الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ8 ، ص253 ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص13 .

[4] – مجهول : أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها ، (ت. إبراهيم الأنباري) ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، 1990م ، ص109 .

[5] – المقري ، أحمد بن محمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، (ت. إحسان عباس) دار صادر ، بيروت ، جـ1 ، ص336 – 338 ؛ العبادي ، أحمد مختار : في التاريخ العباسي والأندلسي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، د. ت ، ص322 ؛ عبدالمنعم ، حمدي : تاريخ الدول الإسلامية ، دار المعرفة ، القاهرة ، 2010م ، ص116 .

[6] – زيتون ، محمد محمد : المسلمون في المغرب والأندلس ، دار الوفاء للطباعة ، القاهرة ، 1983م ، ص276 ؛ مؤنس ، حسين : موسوعة تاريخ الأندلس ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2009م ، جـ1 ، ص61 .

يشيد بصراحة بدور هشام المباشر في تمكين وترسيخ المذهب المالكي، حيث يقول : " مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان مذهب أبي حنيفة(*) --- ومذهب مالك عندنا بالأندلس "[1] ، فنتيجة تحفيز الأمير هشام على نشر مذهب مالك وتذليل الصعاب التي تواجه الرُّحل وطلاب العلم، تسابق العلماء إلي الحجاز والالتقاء بالإمام مالك والأخذ عنه مباشرة ونقل علمه وآراءه الفقهية إلي بلادهم، وقد نال هؤلاء الحظوة والصدارة في مجالس الإمام مالك العلمية فانبهر بهم لحرصهم الشديد على التعلم، وسألهم عن أحوال الأندلس وسيرة أميرهم فأعجب به، وتمنى لو كان بالمدينة مثله، فلما وصل ذلك إلي مسامع الأمير هشام فرح بدأ يلزم الناس جميعاً بالمذهب المالكي وصيّر القضاء والافتاء عليه[2] .

ولعل من أهم الأندلسيين الذين شدوا رحالهم إلي المدينة المنورة والتقوا بمالك مباشرة وتأثروا به ونهلوا من معينه، زياد بن عبدالرحمن المعروف بابن شبطون، تردد على الإمام مالك مرتين وتتلمذ على يديه وسمع منه الموطأ، وهو أول من أدخل إلي الأندلس علم السنن، وأتى بالموطأ كاملاً ومتقناً فالقاضي عياض يقول : " وكان زياد أول من أدخل إلي الأندلس موطأ مالك متفقهاً بالسماع منه "[3] ولزم جامع قرطبة وتصدر الإقراء مذهباً ونشر مبادئه وآرائه بين الناس ، فأخذ عنه خلق كثير، ونظراً لمكانة زياد العلمية وتقديره لدى العامة والخاصة كلفه الأمير هشام بتولي خطة القضاء بقرطبة، فرفض ولكي لا يقع في خلاف مع الأمير خرج هارباً من الأندلس، فقال هشام : ليت الناس كلهم مثل زياد، ثم أمنه فرجع إلي قرطبة[4] وأخذ هشام يؤثره على غيره من الفقهاء ويجالسه جل وقته ويسأله عما يعرض عليه من أمور دينية، فيأخذ برأيه ويبالغ في إكرامه[5].

ومن الذين أعقبوا زياد بن شبطون في الترحال إلي مالك في الحجاز وعملوا على نشر مذهبه وتدريسه بالأندلس :

- سعيد بن عبدون المعروف بالجدي : من أهل طليطلة، شد رحاله إلي المدينة المنورة، والتقى بالإمام مالك ودرس على يديه وأخذ منه العلم الوفير، ورجع بعدها إلي الأندلس، فأصبح من كبار المفتين في زمانه ، ت سنة 180هـ[6] .

---

* – أبوحنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، فقيه وعالم ، وأول الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة وصاحب المذهب الحنفي متوفي سنة 150هـ ، ابوزهرة ، محمد : ابوحنيفة حياته وعصره – آراؤه الفقهية ، دار الفكر العربي ، 1947م ، ص14 – 20 – 71.

1 – ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، (ت. شوقي ضيف) ، دار المعارف ، القاهرة ، 1964م ، جـ1 ، ص164 .

2 – خلاف ، محمد عبدالوهاب : تاريخ القضاء في الأندلس ، دار المعارف ، القاهرة ، 1992م ، ص38 ؛ العبادي ، أحمد مختار : في التاريخ العباسي والأندلسي ، ص326 .

3 – عياض : ترتيب المدارك ، جـ3 ، ص117 .

4 – النباهي ، ابوالحسن بن عبدالله : تاريخ قضاة الأندلس ، (ت. لجنة إحياء التراث) ، دار الأفاق ، بيروت ، 1983م ، ص12 ؛ زين العابدين : التراث المالكي في الغرب الإسلامي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الحسن الثاني ، 1998م ، ص119 .

5 – عياض : ترتيب المدارك ، جـ3 ، ص117 – 119 .

6 – ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص160 .

- شبطون بن عبدالله الأنصاري : سافر في بداية حياته إلي المدينة والتقى بالإمام مالك، ونهل من معينه الكثير حتي جمع علماً عظيماً، ثم رجع لبلاده الأندلس وباشر في نقل ما سمعه وتعلمه وكانت وفاته سنة 212ه [1].
- محمد بن بشير جعافري : كانت له رحلة التقى فيها بالإمام مالك وسمع منه وتتلمذ على يديه، وعند رجوعه للأندلس تولى خطة القضاء، ونال شهرة واسعة بفضل سيرته وأحكامه العادلة سواءً على الخاصة أو العامة ، فالأمير الحكم كان يقول : " رحم الله محمد بن بشير فقد أحسن فيما فعل بنا، كان في ايدينا شيء مشتبه فصححه لنا، وصار حلالاً طيباً "[2] .
- أبو محمد يحيي بن يحيي الليثي ، ت 234ه : هو من عاصمة الأندلس قرطبة، درس وتعلم فيها على يد زياد بن عبدالرحمن حتي صار أبرز طلابه، وعندما رأى فيه زياد الاجتهاد والشغف في طلب العلم والفقه أشار عليه بالرحيل إلي الإمام مالك بالمدينة المنورة ففعل وشد رحاله إليه والتقى به وتتلمذ على يديه وسمع منه كتابه الموطأ فحضي باهتمام وإعجاب الإمام مالك، حيث انبهر بذكائه وسرعة بديهته وتلهفه على مجالس العلم، حتي سماه الإمام مالك " عاقل الأندلس "، وانتقل يحيي بعدها إلي مكة وسمع من سفيان بن عينيه(*)، وبعدها عرّج على مصر والتقى بالليث بن سعد(**) ، وعبدالله بن وهب(***)، وعبدالرحمن بن القاسم(****) ، فجالسهم ونهل من معين علمهم ما نهل، وعاد إلي الأندلس بعلم منقطع النظير[3] حتي إنه يُقال : هو آخر من أخذ عن الإمام مالك، وروى عنه الموطأ، وفسّر وشرح للناس قول مالك وأصول علمه وفقه، حتي ذاع صيته وصار كبير الفقهاء في زمانه ونال حظوة ومكانه عظيمة عند الأمير هشام بن عبدالرحمن لم ينلها أحد من فقهاء الأندلس من قبل، فابن الفرضي يقول : " لم يُعطَ أحدٌ من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما أعطيه يحيي بن يحيي "[4] .

---

[1] – الحميري ، محمد بن فتوح : جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، (ت ، بشار عواد معروف ، وأخر) ، دار الغرب الإسلامي ، تونس ، 2008م ، ص334 ؛ عياض : ترتيب المدارك ، جـ3 ، ص344 ؛ ابن فرحون : الديباج ، ص208 .

[2] – الخشني : قضاة قرطبة ، ص75 ؛ عياض : ترتيب المدارك ، جـ3 ، ص327 .

[*] – هو كوفي الأصل وعاش في الحجاز واشتهر بسعة علمه وفقه وورعه وزهده ، روى عن أعيان العلماء مثل الزهري أبي اسحاق السبيعي ، وروى عنه الشافعي ، وقال عنه : لولا مالك وسفيان بن عينيه لذهب علم الحجاز ، ت 198هـ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جـ2 ، ص391 – 393 .

[**] – هو ابو الحارث الليث بن سعيد بن عبدالرحمن ، فقيه ومحدث وعالم الديار المصرية وصاحب أحد المذاهب الإسلامية المندثرة ، ت ، 175هـ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ8 ، ص136 ، 137 .

[***] – هو أبو محمد عبدالله بن وهب ، يلقب بشيخ الإسلام ، جالس وصاحب الإمام مالك أكثر من عشرين سنة ، من أهم كتبه الجامع في علوم القرآن ، وكتاب القدر ، ت ، 197هـ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ9 ، ص223 .

[****] – هو ابو عبدالله عبدالرحمن بن القاسم ، من علماء الديار المصرية ، وكان مما لازم الإمام مالك فترة طويلة ، ت ، سنة 132هـ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ9 ، ص120 .

[3] – ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص431 ، 432 ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، جـ1 ، ص163 ، 164 .

[4] – ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص558 .

ولم يقتصر اهتمام هشام الرضا على يحيي بن يحيي، بل شمل كل الفقهاء فرفع من مكانتهم واصبحوا في عصره محل تقدير واهتمام وموضع مشورته في كل ما يخص أمور الدولة، ولكن في عصر ولده الحكم بن هشام أراد أن يحد من نفوذ الفقهاء ورجال الدين فانقلبوا عليه وحرضوا أهل قرطبة ضده، مما أدي إلي قيام ثورة الربض الشهيرة بقرطبة، فلما فشلت هذه الثورة وتمكن الأمير الحكم من إخمادها فر يحيي بن يحيي الليثي إلي طليطلة، ثم أرسل إلي الأمير يستأمنه، فكتب له الأمير بالعفو والأمان فسارع بالعودة إلي قرطبة[1].

ويمكن القول إن هؤلاء الفقهاء الذين ظهروا في القرن الثاني الهجري قد مثلوا الدفعة الأولي التي التقت بالإمام مالك مباشرة وتعلموا وتشربوا على يديه أصول الحديث والفقه، ومن ثم عادوا إلي بلدانهم وجندوا أنفسهم لنقل تعليم ما تعلموه، فوقع على عاتقهم الدور التمهيدي في ترسيخ الأسس الأولي للمدرسة المالكية في الأندلس .

وقد سار على درب هؤلاء جيل آخر حملوا الرسالة وأدوا الأمانة في تمكين المذهب، صحيح لم يلتقوا بالإمام مالك مباشرة ولكنهم درسوا على يد تلاميذه، فلما عادوا إلي الأندلس ساهموا بشكل واضح في نشر وذيوع المذهب المالكي ، نذكر منهم على سبيل المثال :

- عيسي بن دينار ، ت 212ه : رحل للحجاز وصاحب بن القاسم وسمع منه ونهل من فقه الكثير ، ثم عاد للأندلس وجالس الناس في قرطبة ينقل ويعلم الفقه المالكي، صنفه بعض المهتمين بأنه أفقه من يحيي بن يحيي الليثي، على جلالة قدر يحيي وعظمته، له كتاب يسمي " الهداية " يقول فيه ابن حزم : من أرفع الكتب لما فيه من تفاصيل للمعاني الفقهية المالكية[2] .
- عبدالملك بن حبيب ، ت ، 238ه : فقيه الأندلس وعالمها في زمانه تلقى العلم من كبار علماء الأندلس، منهم الغازي بن قيس، وزياد بن عبدالرحمن، صعصعة بن سلام، ثم رحل إلي الحجاز فسمع من عبدالملك بن الماجشون[*] ، وإبراهيم بن المنذر[**] ، وغيرهم من اصحاب مالك ، وبعد رجوعه للأندلس صار بارعاً ومتمكناً في الإفتاء وتصدر مجالس العلم والتدريس، وتخرج على يديه ألوف التلاميذ، وصفه المقري : " بأنه شرف لأهل الأندلس، وبحر بالعلوم يذخره -- أقام للعلوم سوقاً نافقة، ونشر فها ألوية خانقة، وجلا عن الألباب صدأ الكسل، وشحذها شحذ الصوارم والأسل وتصرف في فنون العلوم، وعرف كل معلوم وسمع بالأندلس وتفقه، حتي صار أعلم من بها وأفقه ولقى أنجاب مالك، وسلك من مناظرتهم أوعر المسالك حتي أصبح عليه الاتفاق ---"[3] ، وقد تعددت تصانيفه العلمية حتي زادت على ألف كتاب

---

[1] – عبدالمنعم ، حمدي : دراسات في تاريخ الدول الإسلامية ، ص117 .

[2] – ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص279 .

[*] – هو ابو مروان عبدالملك بن عبدالعزيز بن الماجشون ، تفقه على يد الإمام مالك ، وعلى والده عبدالعزيز ، وكان مُفتى المدينة المنورة ، ت ، سنة 213هـ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ3 ، ص166 ، 167 .

[**] – هو إبراهيم بن عبدالله بن المنذر المغيرة ، كان من أقطاب علم الحديث والفقه ، وروى عن مالك وابن عيينه ، وله كتب ومؤلفات لم يكن لها نظير ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ10 ، ص689 – 691 .

[3] – المقري : نفح الطيب ، جـ2 ، ص5 .

من أشهرها "تفسير فضائل الصحابة" ، و"كتاب طبقات الفقهاء والتابعين" ، وكتاب "الواضحة" الذي كان له انتشار عظيم في الأندلس – المغرب – وإفريقيا[1].

- محمد بن أحمد بن عبدالعزيز العبتي ، ت 255ه ، قرطبي الأصل، درس وتلقى أصول الفقه في البداية في الأندلس على يد كبار الفقهاء مثل يحيي بن يحيي، وسعيد بن حسان، ومن ثم شد رحاله إلي الحجاز والتقى بمشائخ الفقه فيها، ونهل من معين علمهم ما نهل، ورجع بعدها للأندلس، بعدها جمع علماً واسعاً فتصدر التعليم والتدريس والتأليف، ولعل من أشهر كتبه كتاب يسمي " العتبة " وهي مستخرجة من الأسمعة المسموعة من الإمام مالك ، قال فيها ابن حزم : لها عند أهل إفريقية القدر العالي[2] .
- أبو زكريا يحيي بن إبراهيم بن مزين ، ت ، 259ه ، من فقهاء الأندلس الذين رحلوا إلي المشرق وقد جالس ودرس على يد أصحاب وتلاميذ الإمام مالك، كان شيوخ الفقه يصفونه بالفضل والنزاهة والتدين ، يقول فيه ابن لبانه : أفقه من رأيت في علم مالك وأصحابه، ومن مآثره العلمية كتاب " تفسير الموطأ " وكتاب " فضل العلم " ، وكتاب "في فضائل القرآن"[3] .
- يحيي بن اسحاق بن يحيي الليثي ، ت ، 303ه ، ورث العلم عن أبيه، وبعدها رحل إلي العراق وتونس وتعلم فيها، يصفه المؤرخون بأنه كان ضليعاً في اللغة العربية، والتفسير، ومن أشهر مؤلفاته العلمية " الكتب المبسوطة في اختلاف أصحاب مالك وأقواله "[4] .

المبحث الثاني

أسباب انتشار المذهب المالكي في الأندلس :

لم يمض وقت طويل على دخول المذهب المالكي للأندلس حتي تغلغل وانتشر بين عامة الناس وأصبح خلال عصر الإمارة مرجعهم في كل المجالات والمعاملات، وصيروا القضاء والإفتاء عليه حتي أصبح لا يفتى إلا به ولا يولى إلا من انتسب إليه[5]، وكان وراء هذا الانتشار والذيوع السريع مجموعة من الأسباب، يمكن تقسيمها إلي أسباب داخلية وخارجية .

1. **الأسباب الداخلية :-**

أ. **دعم السلطة الحاكمة :**

من الثابت أن دعم السلطان لفكرةٍ ما يعطيها الدفع والقوة والانتشار، وذلك بحكم الوسائل المتعددة التي يملكها الحاكم والتي تمكنه من تحقيق ما يميل إليه، وبالتالي فأن أمراء بنى أمية قد استخدموا نفوذهم السياسي

---

[1] – ابن خاقان ، ابى نصر الفتح : تاريخ الوزراء والكتاب والشعراء في الأندلس ، (ت ، مديحة الشرقاوي) ، مكتبة الثقافة الدينية ، 2007م ، ص109 ، 110 ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ12 ، ص102 ؛ عياض : ترتيب المدارك ، جـ4 ، ص122 – 128 .

[2] – ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص384 ، 385 ؛ عياض : ترتيب المدارك ، جـ4 ، ص253 ، 254 .

[3] – ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص436 .

[4] – عياض : ترتيب المدارك ، جـ5 ، ص160 ؛ ابن فرحون : الديباج ، ص434 .

[5] – المقري : نفح الطيب ، جـ2 ، ص10 .

الذي كان له أكبر الأثر في استقطاب وترسيخ المذهب المالكي في الأندلس، فمنذ دخولهم لهذا البلد سنة 138ه بقيادة عبدالرحمن ابن معاوية اظهروا ميولهم وتوجهم الواضح نحو فقه الإمام مالك ، وبالتالي أقبل الأندلسيين تدريجياً على اعتناق هذا المذهب ، وكما قيل الناس على دين ملوكهم، ولعل ما دفع السلطة الحاكمة إلي تبنى هذا المذهب هو تحقيق النزعة الاستقلالية عن المشرق والدولة العباسية التي كان مذهبها الرسمي المذهب الحنفي، إضافة إلي ذلك موقف الإمام مالك العدائي تجاه العباسيين لدرجة أنه أفتى ضدهم لصالح انضمام الناس إلي ثورة محمد ذي النفس الزكية(*) ، ولهذا الموقف أبدى هشام بن عبدالرحمن تعاطفاً كبيراً مع الإمام مالك وعمل على تبنى مذهبه وأخذ يدعوا العلماء إلي الاغتراب والترحال إلي الحجاز والاتصال به مباشرة والنقل عنه ما استطاعوا[1]، وعند التقائهم بالإمام، سمع منهم ما سَمَعَ عن سيرة هشام وعدله قال عبارته الشهيرة : نسأل الله أن يزين بلدنا بملك مثل هشام بن عبدالرحمن[2] ، فلما وصل ذلك إلي مسامع الأمير هشام زاد تعلقه بمالك ومذهبه وأصبح يختار قضاته وأصحاب الوظائف من الفقهاء المالكية، الذين احتلوا مكانة رفيعة ووصلت مكانتهم مرتبة الوزراء والقادة وحضوا بمزايا وامتيازات كبرى[3] ، ووصل بهم الحال إلي المشاركة في صنع القرار السياسي، وإعطاء آرائهم في بعض القضايا والمسائل الخاصة بالدولة، فمثلاً الفقيه يحيي بن يحيي الليثي كانت له مكانة مرموقة ويحظى باحترام من قبل هشام بن عبدالرحمن ، حيث كان يرجع إليه في العديد من القضايا ويسأله عما يعرض عليه من أمور مختلفة[4] . وفي عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم 206 – 228ه ، ارتفعت مكانته أكثر وأكثر حتي أصبح أبرز شخصيات الدولة الأموية في الأندلس، لدرجة أن الأمير عبدالرحمن " كان يلتزم من إعظامه وتكريمه وتنفيذ أموره ما يلتزم الولد لأبيه ، فلا يستقضى قاضياً، ولا يعقد عقداً، ولا يمضى في الديانة أمراً إلا عن رأيه ومشورته ---"[5] .

وخلاصة القول : إن تبنى واعتناق السلطة الحاكمة للمذهب المالكي في الأندلس أدى إلي نصرة ومساندة الفقهاء والمالكيين وتمكينهم في مفاصل الدولة وبالتالي أصبح على كل من يريد أن يحصل على وظيفة ومكانة مرموقة، أن يكون مالكياً وحافظاً لكتاب الموطأ، وهذا كان من أهم العوامل التي أدت إلي ذيوع وانتشار المذهب .

---

* – هو محمد بن عبدالله بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، ولد بالمدينة المنورة سنة 100هـ ، أعلن معارضته للعباسيين في عهد الخليفة ابوجعفر المنصور سنة 145هـ من المدينة وسانده أخيه في البصرة ، وانتهت بالفشل وعرفت في التاريخ بحركة الأخوين وأتهم العباسيين الإمام مالك بالميل إلي هذه الحركة ، لذلك ألحق به أذى كبير من وراء ذلك ، سالم ، السيد عبدالعزيز : العصر العباسي الأول ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، د. ت ، ص62 ، 63 ؛ السامرائي ، خليل ، وأخرون : تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، ص111 ، 112 .

1 – العبادي ، أحمد مختار : في التاريخ العباسي والأندلس ، ص325 ، 326 ؛ السامرائي ، خليل إبراهيم ، وأخرون : تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، ص111 ، 112 .

2 – ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، (ت ، إبراهيم الأنباري) ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، 1989م ، ص62 .

3 – زيتونة ، محمد محمد : المسلمون في المغرب والأندلس ، ص277 .

4 – بالنثيا ، آنخل : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة / حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2008م ، ص470 .

5 – ابن حيان : المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، (ت ، محمود علي مكى) ، وزارة الأوقاف ، القاهرة ، 1994م ، ص180 ؛ الحميري ، عمر : مباحث في المذهب المالكي بالمغرب ، ص36 .

ب. **دور الرحلات العلمية :**

لقد حرص المسلمون منذ صدر الإسلام الأول على الترحال والاغتراب إلي بلدان العلم والعلماء وذلك انطلاقاً من الوازع الديني، فطلب العلم من الأمور التي حث عليها الإسلام وذلك لما فيه من تهذيب للنفس وتشريف للإنسان وأجر عظيم ، فالرسول ﷺ يقول : ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة اجنحتها رضىً بما يصنع[1] .

وعند أهل الأندلس اعتبرت الرحلات من أهم مصادر العلم وكمال المعرفة وتنوع المذاهب، وجعلها البعض على رأس الأسباب التي ساعدت في ذيوع وانتشار الفقه المالكي في الأندلس، فالعالم المؤرخ ابن خلدون عقد فصل خاص للرحلة في مقدمته فقال : " وأما الإمام رحمه الله تعالي فأختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس ، وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل ؛ لأن رحلتهم كانت غالباً إلي الحجاز وهو منتهى سفرهم، و المدينة يومئذ دار علم --- فاقتصروا على الأخذ من علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك --- فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ---"[2] .

ومما يجدر الإشارة به في هذا المقام هو كثرة أعداد العلماء والفقهاء الذين رحلوا وتقاطروا على الحجاز لأخذ الفقه والعلم من منبعه ومصدره، فقد أورد المقري : " إن حصر أهل الارتحال – أي أهل الأندلس – لا يمكن بوجهٍ ولا بحالٍ ولا بعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المحال،ولو اطلقنا عنان الأقلام فيما عرفناه فقط من هؤلاء الأعلام لطال الكتاب ، ولكننا نذكر منهم لمعاً على وجه المتوسط من غير إطناب ---"[3] .

ومن أشهر أعلام الفقهاء الذين رحلوا إلي الحجاز وساهموا في نقل المذهب المالكي إلي الأندلس ونشره على نطاق واسع ، الفقيه يحيي بن يحيي الليثي ، كانت له رحلتان إلي المشرق ، التقى في الأولي بالإمام مالك ، والليثي بن سعد وابن وهب ، واقتصر في الأخرى على ابن القاسم[4] .

أيضاً ممن رحل للحجاز الفقيه عيسي بن دينار، زار المدينة المنورة وصاحب أبن القاسم وسمع ونهل من فقه الكثير[5] ، والغازي بن قيس[6] ، عبدالرحمن بن موسي الهواري[7] ، وسعيد أبن ابي هند ، وقرعوس بن العباس ، وابن شبطون[8] ، محمد بن بشير المعافري[9] ، وغيرهم .

---

[1] – البُستى ، محمد بن حيان : روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ،(ت ، محمد جابر)، مكتبة السنة المحمدية ، القاهرة ، د. ت ، ص33 .

[2] – ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، (ت ، خليل شحادة وسهيل زكار) ، دار الفكر ، بيروت ، 2001م ، جـ1 ، ص568 .

[3] – المقري : نفح الطيب ، جـ2 ، ص5 .

[4] – عياض : ترتيب المدارك ، جـ3 ، ص380 ، 381 .

[5] – الضبى : بغية الملتمس ، ص402 .

[6] – ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص314 .

[7] – ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص257 .

[8] – المقري : نفح الطيب ، جـ2 ، ص45 ، 46 .

[9] – الخشني : قضاة قرطبة ، ص75 .

هؤلاء كلهم تكبدوا عناء الترحال والاغتراب، وتتلمذوا في المشرق على يد مالك وأصحابه واخذوا العلم من مصادره ، فلما عادوا إلي بلدانهم أخذوا ينشرون ويدعون الناس إلي المذهب المالكي ، وذلك بالتدريس والفتيا والتأليف ، فلم ينتهى القرن الثاني الهجري حتي اصبحت الأندلس بالكامل ملكاً لفقه مالك واصبحت مدرسته من أقوى المدارس .

2. **الأسباب الخارجية :-**

أ. **اهتمام الإمام مالك بالطلبة الوافدين إليه من الأندلس :**

إن علاقة الإمام مالك بكل الطلبة الوافدين إليه هي علاقة تقدير وأعجاب، فقد كان يعامل الوافدين عليه من البلدان البعيدة معاملة حسنة لا سيما القادمين من الأندلس، فقد خصهم بعناية ومعاملة خاصة لأنه لاحظ عليهم تعلقهم الكبير بالكتاب والسنة، وولعهم الشديد في طلب العلم والمعرفة، وعلو اخلاقهم الكريمة وفطنتهم ونباهتهم، فلازمهم الإمام مالك عن قرب وناقشهم في كل أمورهم واستفسر عن أحوال بلادهم وسيرة أمرائهم، فلما سمع منهم ثنائهم على أمراء بنى أمية أعجب بهم ومدحهم وقال : " أسأل الله أن يزيد حرمنا بملكهم "[1] ،ونصحهم بالدعاء والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم[2]، وحثهم على نشر فقهه وعلمه بين الناس، فقد قال : " اتقوا الله في هذا العلم، ولا تنزلوا به دار مضيعة، وبثوه ولا تكتموه "[3].

ولشدة إعجابه بالطلبة الوافدين إليه من الأندلس كان يصفهم بأحسن الأوصاف وأنبل الألقاب، وذلك لتفوقهم على غيرهم من أقرانهم ، فقد أطلق على يحيي بن يحيي الليثي ، عاقل الأندلس ، وقيل في سبب هذه التسمية إنه في أثناء درس الإمام مالك حدث وأن مر فيل في شوارع المدينة المنورة فخرج جميع الطلبة من حلقة الدرس ليروه ما عدا يحيي بن يحيي الذي بقى في مكانه ولم يتركه ، فسأله الإمام مالك : لماذا لم تخرج لترى الفيل وهو لا يكون في بلادكم ، ؟ فأجابه يحيي ، إنما جئت من الأندلس لا نظر إليك واتعلم من علمك وليس لرؤية الفيل ، فأعجب به وسماه عاقل الأندلس[4] .

وكذلك أطلق الإمام مالك على يحيي بن مضر القيسي : لقّبه فقيه الأندلس ، لما راء فيه من سعة علم وورع ، وصدق حتي إنه كان يثق في روايته وينقلها للناس كما سمعها منه، وقد سئل مالك عن قول الله تعالي "**وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ**"[5] فقال:"أخبرني يحيي بن مضر فقيه الأندلس أنه سمع سفيان بن سعيد الثوري يقول : أنه شجر الموز "[6] .

---

[1] – العبادي ، أحمد مختار : في التاريخ العباسي والأندلس ، ص326 .

[2] – عياض : ترتيب المدارك ، جـ3 ، ص383 .

[3] – عياض : ترتيب المدارك ، جـ1 ، ص83 .

[4] – عياض : نفس المصدر السابق ، جـ3 ، ص382 ، 383 ؛ ابن سعيد : المغرب في حلي الغرب ، جـ1 ، ص163 ، 164 .

[5] – سورة الواقعية ، الآية (29) .

[6] – الخشني ، محمد بن حارث : أخبار الفقهاء والمحدثين ، (ت ، ماريا لويس ، وأخرون) ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، مدريد ، 1991م ، ص347 .

وأيضاً وصف الإمام مالك سعيد بن أبي هند ، بحكيم الأندلس، فقد كان يقول لمن يفد عليه من الأندلس : " ما فعل الحكيم الذي عندكم بالأندلس "[1] .

وبالتالي فإن هذا الاهتمام والتشريف الذي أبداه الإمام مالك للطلبة الوافدين إليه من الأندلس ترك أثراً بالغاً في نفوسهم فأعجبوا بسلوكه، واصبح عندهم الإمام الحق الذي لا يدانيه غيره ، واتخذوه قدوة لهم في حياتهم العلمية والعملية ، وعملوا على نشر علمه وفقهه ومذهبه في كل أرجاء الأندلس .

ب. ارتباط مذهب مالك بالمدينة المنورة :

كان انتساب الإمام مالك بن أنس إلي المدينة المنورة له أبلغ الأثر في إقبال الناس في الأندلس على مذهبه وتفضله على غيره من المذاهب الأخرى التي خرجت من العراق والشام ، فزيد بن ثابت[*] كان يقول : " إذا رأيت أهل المدينة على شيء فأعلم أنه السنة "[2] ، فالمدينة هي دار هجرة الرسول ﷺ ، وهي مهبط الوحي، وموصلين آلاف الصحابة التابعيين، ومنها انطلق الإسلام إلي الآفاق، وفيها نصر الله جنده ودينه ، وحسبها ثناء ودعاء الرسول ﷺ لها عندما قال : " اللهم بارك لنا في ثمارنا وبارك في مدينتنا --- اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك ، وإني عبدك ونبيك ، وأنه دعاك لمكة ، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة -- _ "[3] .

وبالتالي فإن هذه الخصائص المميزة جعلت للمدينة مكانة عالية في قلوب الأندلسيين ، فعندما وصلهم مذهب إمام دار الهجرة مالت مشاعرهم إليه واعتبروه أولي بالاتباع والانقياد من غيره ، وهذا ما عزز من انتشاره في الأندلس .

ج. حب أهل الأندلس لشخصية الإمام مالك :

لقد حظيت شخصية الإمام مالك بمكانة مرموقة عند المسلمين عموماً وأهل الأندلس خاصة ، حيث كانوا أشد الناس إعجاباً وانبهاراً بعلم مالك ومذهبه ، وذلك للفضائل والخصائص التي كان يتمتع بها دون غيره من أصحاب المذاهب الأخرى ، منها أنه مولود في المدينة المنورة[4] ونشأ وترعرع في رحابها الطاهرة ونسبه يعود لأسرة لها مكانتها في صدر الإسلام ، فجده أبو عامر من صحابة النبي ﷺ ، حضر كل المغازي إلا بدر ، وأبوه من التابعين[5] .

بالإضافة إلي ذلك فقد عرف عنه التزامه الصارم باتباع نصوص الكتاب والسنة ، ومحاربة البدع ، ومن هنا عم صيته كافة الأقاليم حتي الأندلس التي خرج منها أفواج من رجالها العلماء وقطعوا آلاف الأميال ليلتقوا

---

[1] – ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص159 .

[*] – هو الصحابي زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري من بنى النجار أخوال رسول الله ﷺ ..... بالمدينة ، من كتاب الوحى ، وجمع القرآن الكريم في عهد ابى بكر الصديق ، وروى الحديث عن النبي ﷺ ، وحدث عنه ابى هريرة وابن عباس توفي سنة 45هـ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ2 ـ ص426 .

[2] – الدقر ، عبدالغني : الإمام مالك ، ص40 .

[3] – الدقر : نفس المصدر السابق ، ص38 .

[4] – ابوزهرة ، محمد : مالك حياته وعصره ، ص25 .

[5] – عياض : ترتيب المدارك ، جـ1 ، ص113 ؛ الدقر ، عبدالغني : الإمام مالك ، ص26 .

به في المدينة وليأخذوا من علمه وفقه الذي كان الأقرب إلي روح السنة والشريعة لارتباطه بالمدينة ، ولما رجعوا إلي الأندلس نقلوا ووصفوا للناس سيرته وسعة علمه وفضله واستقامته وسلامة مذهبه ، فأعجبوا به وبأفكاره وسلوكه ، ومالت افئدتهم إلي مذهبه ومنهجه واتخذوه قدوة لهم في كل شيء[1] .

ولعل من أعظم مناقبه المشهورة الواردة في الأثر ، إن أبا هريرة ﷺ ، حدث إن رسول الله ﷺ قال : " يوشك أن تضرب أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون أعلم وأفقه من عالم المدينة "[2].

المبحث الثالث

أهم الوظائف والأعمال التي شارك فيها المالكيين خلال عصر الإمارة

1. الوظائف الحكومية :

لقد كان لفقهاء المالكية دورٌ وتأثيرٌ كبيرٌ على الحياة السياسية في الأندلس ، حيث حظوا بعدة مناصب هامة ورفيعة المستوي استطاعوا من خلالها أن يبرزوا دورهم الديني والسياسي، ولعل أهم هذه المناصب **ما يلي :-**

أ. خطة الشوري :

هي من الخطط الدينية المكملة لهيكل القضاء، وقد انفرد بها المغرب والأندلس عن بقية العالم الإسلامي[3] ، وكان ولي الأمر في الأندلس يختار المشاور من الفقهاء المالكيين الذين يمتازون بالعلم والنزاهة والعدالة ، فالمقري يقول : إن أمراء بنى أمية كانوا لا يقدمون وزيراً ولا مشاوراً ما لم يكن عالماً[4] ، وكان الذي يختار لهذا المنصب يسمي بالفقيه المشاور أو الشيخ المفتي ، وهو الذي يشاوره الأمير أو الخليفة في أمور الدين والسياسية ، وكان كل من يحظى بهذه الوظيفة يحتل مكانة خاصة عند الحاكم وفتاويه لها تأثير على بعض القرارات السياسية ، فابن عياض يذكر : " إن الأمير هشام بن عبدالرحمن كان يؤثر زياداً ويكرمه --- ويسأله عما يعرض له من أمور دينيه فيأخذ برأيه ---"[5] ، ويضيف المؤرخ إن زياد بن عبدالرحمن، دخل على الأمير هشام بن عبدالرحمن فوجده غاضباً على شخص من خاصته، أوصل إليه كتاباً استفزه ، فأمر بقطع يده ، فقال له زياد : أصلح الله الأمير فأن مالك بن أنس حدثني ، إن من كظم غيظاً ملأه الله أمناً وإيماناً يوم القيامة، فتأثر هشام بهذا الكلام ورجع عن قراره[6] .

وتزخر مصادرنا التاريخية بالعديد من الشخصيات المالكية التي شغلت خطة الشوري وكان لها تأثير بارز في الأندلس منهم على سبيل المثال : يحيي بن يحيي (ت ، 234ه) الذي يُعد أحد أقطاب الفقه المالكي في الأندلس، احتل مكانة رفيعة عند أمراء بنى أمية ولا سيما أيام الأمير هشام أبن عبدالرحمن ، والأمير

---

[1] – الحيدى ، عمر : باحث في المذهب المالكي في المغرب ، ص35 .
[2] – الدقر ، عبدالغني : الأمام مالك ، ص355 .
[3] – خلاف ، محمد عبدالوهاب : تاريخ القضاء في الأندلس ، ص326 .
[4] – المقري : نفح الطيب ، جـ3 ، ص214 .
[5] – عياض : ترتيب المدارك ، جـ3 ، ص119 .
[6] – عياض : المصدر السابق .

عبدالرحمن الأوسط، والذي كان لا يقدم على شيء في القضاء إلا بعد أن يرد عليه الرأي والمشورة[1] ، ولقد شبه المؤرخ ابن القوطية علاقة الأمير بالفقيه يحيي بن يحيي الليثي بالعلاقة الأبوية الودودة بين الابن وأبيه فقال:" وكان يلتزم من إعظام يحيي أبن يحيي وبره ما يلتزم الابن البار للأب الحاني "[2] .

أيضاً من الفقهاء الذين تولوا خطة الشوري الفقيه عبدالملك بن حبيب (ت ، 238ه)[3] ، والفقيه عبدالرحمن بن إبراهيم بن عيسي (ت ، 254ه)[4]، وإبراهيم أبن يزيد بن قلزوم (ت ، 268ه)[5]، ومحمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم[6]، وأحمد بن يحيي بن يحيي (ت ، 297ه)[7].

ب. **القضاء :**

تُعد خطة القضاء من أعظم الخطط الدينية والمناصب السامية في الأندلس وذلك لارتباطها بأمور الدين وردّ المظالم وأنصاف المظلومين[8]، وكان أمراء وحكام بنى أمية يقدرون قضائهم وينفذون أحكامهم حتي ولو جاء الحكم عليهم ، فابن سعيد يذكر أن القاضي مصعب بن عمران حكم على أحد أقرباء الأمير هشام بن عبدالرحمن بالخروج من منزلٍ كان قد سكنه من غير وجه حق ، فشكاه إلي الأمير طامعاً أن يتوسط له عند القاضي مصعب ، فقال الأمير والله لو حكم في ملكي هذا لخرجت منه[9] .

وهذا يبن لنا أن القضاء في الأندلس خلال عصر الإمارة كان محايداً ومستقلاً في ممارسة اختصاصاته عن السلطة السياسية ، واحكامه نافذة على الجميع الخاصة والعامة وهذا مما زاد من هيبة ووقار واحترام كل من شغل هذا المنصب .

وقد تولى هذا المنصب عدد كبير من الفقهاء المالكية حيث حققوا العدل وردوا المظالم لأهلها وبثوا الاستقرار الاجتماعي بين الناس ، ومن أهمهم على سبيل المثال :

- القاضي الفقيه : مصعب بن عمران ، الذي كلفه الأمير هشام بمنصب قاضي الجماعة في قرطبة ، ولشدة حرصه على نزاهة أحكامه القضائية كان يستشير بعض الفقهاء المالكية الكبار في بعض المسائل والقضايا ، مثل الفقيه صعصعة أبن سلام ، والفقيه الغازي بن قيس[10] .

وتولى القضاء بعد وفاته الفقيه محمد بن بشير المعافري، كان من خيرة القضاة حيث اشتهر بصرامته وشدته فى أحكامه ، ولم يقبل منصبه إلا بعد أن وافق الأمير الحكم بن هشام على شرطه وهو أن يكون

---

[1] – حسين ، مؤنس : موسوعة تاريخ الأندلس ، جـ1 ، ص85 ، 86 .
[2] – ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص75 .
[3] – ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص270 .
[4] – ابن الفرضي : المصدر السابق ، ص259 .
[5] – ابن الفرضي : نفسه ، ص9 .
[6] – عياض : ترتيب المدارك ، جـ4 ، ص248 ، 249 .
[7] – الضبي : بغية الملتمس ، ص210 .
[8] – الخشني : قضاة قرطبة ، ص25 .
[9] – ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، جـ1 ، ص144 .
[10] – النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص45 – 47 .

حكمه نافذاً على كل أحد من الأمير إلي حارس السوق[1] ، ثم تلاه في هذا المنصب ابنه سعيد بن محمد بن بشير ، الذي سار على نهج ابيه في الحكم بين الناس[2] .

أيضاً، ممن تولى خطة القضاء في قرطبة القاضي الفقيه المالكي الفرج بن كنانة ، ولاه الأمير الحكم بن هشام وكان على درجة عالية من الزهد والعدل والعلم ، وقد أشاد المؤرخ النباهي بالدور البارز الذي لعبه هذا الفقيه في إرجاع حالة الاستقرار السياسي إلي قرطبة بعد ثورة الربض سنة 202ه ، حيث استطاع أن يؤثر على الأمير الحكم ويأخذ منه الأمان لأهله والجلاء عن قرطبة[3] .

ومن خلال ذلك يمكن الإشارة بأن خطة القضاء في الأندلس خلال عصر الإمارة قد تقلدها وشغلها كبار فقهاء المذهب المالكي الذين هدفوا من خلال مركزهم تحقيق العدالة وتوجيه الدولة لما يحقق غايات ومقاصد الإسلام ومبادئه العامة .

ج. **الحسبة :**

لقد عرف المحتسب في الأندلس باسم صاحب الحسبة أو صاحب السوق، لأن عمله كان منصباً على ما يجري في الأسواق من غش وخديعة[4] .

والمحتسب لا يحل محل القاضي، ولكن مهمته إدارية أساسها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا ظهر تركه ، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله ، فليس بعد خطة القضاء أشرف من خطة الحسبة[5] .

وكان صاحب هذه الخطة يحظى في الأندلس بسلطة تنفيذية مفوضة من رأس الدولة ، والتي من خلالها يمارس عقوباته التأديبية كالردع والتوبيخ والجلد والتشهير، والحبس ودفع غرامات مالية والحرمان من مزاولة المهنة ونفى من البلاد[6] .

وبالرجوع إلي كتب التراجم الأندلسية نجد أن من تولى هذه الخطة هم من كبار العلماء والفقهاء المالكية ، ومن أبرزهم :

- الفقيه محمد بن خالد مرتنيل (ت ، 224ه) يعرف بالأشج القرطبي ، وقد اشتهر بصلابته في تطبيق العقوبات والحكام على المخالفين ، فكان لا تأخذه في الله لومة لائم[7] .
- الفقيه العباس بن قرعوي (ت ، 220ه) يقول ابن الفرضي : " كان رجلاً يضرب ضرباً شديداً " ومتتبعاً لأهل الغش والريب[8] .

---

[1] – ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، جـ1 ، ص145 ؛ عياض : ترتيب المدارك ، جـ3 ، ص328 .

[2] – ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص64 .

[3] – النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص53 .

[4] – الشيزري ، عبدالرحمن بن نصر : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، (ت ، السيد الباز العريني) ، دار الثقافة ، بيروت ، د. ت ، ص6 – 10 .

[5] – الماوردي ، علي بن محمد : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، (ت ، أحمد مبارك البغدادي) ، مكتبة دار ابن قتيبة ، الكويت ، 1989م ، ص315 ، 316 .

[6] – السقطي ، محمد بن ابي محمد : في آداب الحسبة ، (ت ، ليفي بروفنسال) ، باريس ، 1931م ، ص9 ، 10 .

[7] – الخشني : أخبار الفقهاء والمحدثين ، ص111 .

[8] – ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص372 .

- الفقيه إبراهيم حسين بن خالد بن مرتنيل (ت ، 232ه) وهو من أسرة تولت الخطط والمناصب الرفيعة في عهد الدولة الأموية[1] ، وتولي ولاية السوق في عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن (238 – 273ه)[2] .
- محمد بن الحارث بن ابي سعيد (ت ، 260ه) ، من أهل قرطبة وعلمائها تولى ولاية السوق والشرطة في عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط(206 – 238ه)[3].
- حسين بن عاصم بن كعب (ت ، 263ه) يذكر ابن الفرضي في ترجمته " ولي السوق في أيام الأمير محمد، وكان شديداً على أهلها في القيم، يضرب ضرباً مبرحاً ينكر عليه ---"[4] ، وتقلد هذه الخطة من عائلته ابنه إبراهيم (ت ، 256ه)[5] .
- ايوب بن سليمان بن هاشم المعافري (ت ، 302ه) ، تولى ولاية السوق في عهد الأمير عبدالله بن محمد 275 – 300ه ، وعزل عنها بسبب وشايات خصومه[6] .

ونرى من خلال ما ذكر أن أغلب من تولى هذه الخطة هم من كبار العلماء والفقهاء المالكية الذين تمتعوا بسلطات تنفيذية واسعة من السلطة الحاكمة ، وبالتالي مارسوا عملهم بكل نزاهة وعدالة وصرامة وامتازوا بسرعة البت في الفصل في القضايا التي تعرض عليهم ، وبالتالي برز تأثيرهم على الحياة الاقتصادية بأن جعلوا المعاملات السوقية في إطار قواعد الشرع الإسلامي وفي نطاق المصلحة العامة للدولة .

د. **الشرطة :**

تعتبر خطة الشرطة من الخطط التي تندرج تحت الوظائف الشرعية ، وقد أطلق أهل الأندلس على من يتولى أمرها اسم صاحب الشرطة[7] ، أو صاحب الليل[8] أو صاحب الأحكام[9] .

ومن الناحية الإدارية فهي تتبع المؤسسة القضائية، حيث تساعد في إثبات الذنب على المذنبين وتنظيم الأحكام التي يصدرها القاضي ، وتطبق الحدود النافذة[10] .

وقد كانت خطة الشرطة في الأندلس جزءاً من ولاية الحسبة ولكن في عهد الأمير عبدالرحمن بن محمد (300 – 350ه) جعلها كياناً إدارياً مستقلاً بذاته وفصل اختصاصاتها عن ولاية السوق[11] .

ومع مرور الوقت وكثرة مهامها وواجباتها انقسمت هذه الخطة على نفسها إلي ثلاث مراتب ، منها الشرطة الكبرى ، والشرطة الوسطي ، والشرطة الصغرى[1] .

---

[1] – الخشني : قضاة قرطبة ، ص127 .
[2] – عياض : ترتيب المدارك ، جـ4 ، ص244 .
[3] – الخشني : أخبار الفقهاء والمحدثين ، ص139 ، 140 .
[4] – عياض : ترتيب المدارك ، جـ4 ، ص262 ، 263 .
[5] – ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص86 – 8 .
[6] – الخشني : أخبار الفقهاء ، ص32 .
[7] – ابن خلدون : المقدمة ، ص311 .
[8] – المقري : نفح الطيب ، جـ1 ، ص218 .
[9] – عبدالوهاب ، محمد : تاريخ القضاة في الأندلس ، ص570 .
[10] – الرحموني ، محمد الشريف : نظام الحسبة في الإسلام ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1983م ، ص113 .
[11] – ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، جـ1 ، ص46 ؛ عبدالوهاب ، محمد : صاحب الشرطة في الأندلس ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد الثاني عشر ، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين ، بغداد ، 1990م ، ص63 .

ونظراً لأن هذه الخطة كانت من الركائز الأساسية التي يعتمد عليها الحكام في الحفاظ على الأمن وبسط هيبة الدولة على الناس، فقد كانوا يختارون لمن شغل هذا المنصب الرجال الأكثر علماً وفضلاً ونزاهة وحزماً[2] .

ومن أبرز الفقهاء المالكية الذين تولوا ولاية الشرطة : الفقيه حارث بن أبي سعيد (ت ، 220ه)[3] ، والفقيه محمد بن خالد بن مرتنيل (ت ، 224ه)[4] ، وكذلك إبراهيم بن حسين (ت ، 256ه) ، الذي جمع بين ولايتي الشرطة والسوق وقد اشتهر بصلابته في تطبيق الأحكام على الخارجين عن القانون فكان ينفذ عقوبة الإعدام دون الرجوع إلي السلطان[5] .

وأيضاً الفقيه محمد بن حارث بن أبي سعيد (ت . 260ه) ، الذي خلف أبيه في رئاسة هذه الخطة ، وقد زاده الأمير عبدالرحمن الأوسط ، ولاية السوق والإمامة[6] .

1- أهم الأحداث التي شارك فيها فقهاء المالكية :

أ. ثورة أهل قرطبة :

هذه الثورة نشب فتيلها في عهد الحكم بن هشام (180 – 206ه) ، الذي اتسم عهده بالانشغال وراء اللهو والترف والمجاهرة بالمعاصي[7] ، وكان يؤثر مجالس الشعراء وأهل الهوى على مجالس العلماء والفقهاء ، فشعر هؤلاء بأنهم حُرموا من نفوذهم القديم والمكانة الرفيعة التي كانوا يتمتعون بها في السابق ، فنقموا على الحكم وعددوا هفواته واخذوا يصفونه وينعتونه بأشنع الأوصاف[8] مما أثار أهل قرطبة عليه واتفقوا معهم على خلعه واستبداله بأمير أخر ، ووقع اختيارهم على ، محمد بن القاسم القرشي المرواني ، أحد أمراء بنى أمية وأخذوا له البيعة ، وتظاهر بالموافقة أمامهم وبعدها ذهب إلي الحكم واطلعه على ما دبر ضده من انقلاب ، فتحرك الحكم وقبض على رؤوس المدبرين وكان على رأسهم الفقهاء ، وقام بقتل وصلب كل من وقع في أسره وكان عددهم أثنين وسبعون رجلاً ، فيهم أخ الفقيه الشهير ، يحيي بن يحيي الليثي ، وأبن أبي كعب بن عبدالله ، ويحيي بن مضر القيسي[9] .

---

[1] – عبدالوهاب ، محمد : تاريخ القضاء في الأندلس ، ص471 .

[2] – ابن عبدون ، محمد التجيبي : ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، (ت ، ليفي بروفنسال) ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، 1955م ، ص65 .

[3] – الخشني : أخبار الفقهاء ، ص79 ، 80 .

[4] – الخشني : قضاة قرطبة ، ص127 .

[5] – عياض : ترتيب المدارك ، جـ4 ، ص254 .

[6] – ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص113 .

[7] – المراكشي ، عبدالواحد : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، (ت ، محمد زينهم) ، دار الفرجاني ، القاهرة ، 1994م ، ص30 ؛ مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ص127 .

[8] – مؤنس ، حسين : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص319 .

[9] – عبدالمنعم ، حمدي : دراسات في تاريخ الدول الإسلامية ، ص76 ، 77 .

وقد أثارت ردة فعل الحكم على هؤلاء الثائرين حفيظة العامة في قرطبة، ولم تمض فترة وجيزة على مجزرة الفقهاء حتي اشتعلت ثورة أخرى في ضواحي قرطبة عند الربض سنة 202ه ، نتيجة حادث بسيط كان بمثابة الشرارة التي اطلقت العقول من عقالها، فزحف أهل الربض على قصر الإمارة وحاصروه من كل ناحية ولم يستطع الحكم ردهم ألا بكمين محكم ، فتغلب عليهم وقتل منهم أعداداً كبيرة، وطارد الفارين حتي افنى منهم خلقاً كبيراً ، وقبض على ثلاثمائة منهم بينهم مجموعة من رجال الدين والفقهاء، فصلب أغلبهم على ضفة وادى الكبير، وتمكن بعض الفقهاء من الفرار مثل الفقيه يحيي بن يحيي الليثي ، وطالوت بن عبدالجبار[1] .

لقد هزت هذه الثورة عرش الأمير الحكم بن هشام، وشعر أن حكمه لا يمكن أن يستمر على البطش والقسوة والاضطهاد ، ورأي أنه من الضرورة بمكان أن يكسب رجال الدين ليستعيد ثقة وتأييد العامة ، وبالتالي تراجع عن أسلوبه السابق وندم على ما فعل واصدر عفواً عاماً واستدعى كل الفقهاء المالكيين وقربهم إلي جانبه واشركهم في إدارة البلاد ، ومن هنا علا نجم الفقهاء مرة أخرى واصبحت السيادة والكلمة العليا في الدولة لهم[2] .

ب. مشاركة الفقهاء في حركة الجهاد :

للجهاد مكانة عظيمة في الإسلام فهو ذروة سنامه وعزته ، ولهذا فقد دأب المسلمين عليه منذ بزوغ فجر الدعوة ، فكانت الجيوش الإسلامية تتجه حيثما حل الكفر والظلم ، حتي أطيح بأعتي عروش الكفر والبغي وعلت كلمة الله في الأرض وعمت كافة الأقطار والأنحاء .

ومن الأقاليم التي رفع فيها لواء الجهاد إقليم الأندلس ، لإحاطته بالأعداء من جميع الجهات ، وقد وضح المقري مدى جهاد أهل الأندلس ورباطهم في سبيل الله حيث قال : " أعلم أنه لو كان في الأندلس من الفضل سوى كونها ملاعب للجهاد لكان كافياً "[3] .

وبالتالي فأن عمليات الجهاد في الأندلس لم تتوقف في عهد من العهود، فقد كانت دائماً قائمة ضد النصارى في الشمال ، ويشارك فيها كافة شرائح ومكونات المجتمع على رأسهم طبقة الفقهاء المالكيين الذين كانوا في طليعة المبادرين ، ومن أهم أسماء الفقهاء الذين شاركوا في عمليات الجهاد ضد النصارى :

- الفقيه يحيي بن القصير ، يذكره المؤرخ ابن الفرضي ويقول : بأنه كثير الجهاد، وقد شارك في موقعة خاضها المسلمين ضد النصارى في الشمال سنة 263ه وقد استشهد فيها الكثير من أصحابه وعلى رأسهم الفقيه يحيي بن مجاج ، وكان لذلك ابلغ الأثر على نفسه ، واصر على أن يثأر لكل أصحابه ، وواتته

[1] – المقري : نفح الطيب ، جـ1 ، ص339 ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص15 ، 16 ؛ مؤنس ، حسين : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص320 .

[2] – زيتونة ، محمد : المسلمون في المغرب والأندلس ، ص283 ، 284 .

[3] – المقري : نفح الطيب ، جـ1 ، ص186 .

الفرصة عندما خرج المسلمين سنة 264ه لمحاربة الإسبان من جديد على الثغور ، فخرج معهم معلناً الشهادة ، فلما التقى الجمعان أبلى بلاءً حسناً حتي رزقه الله بالشهادة[1] .

- كذلك الفقيه سعيد بن محمد بن بشير ، (ت ، 210ه) ، كان ممن شارك في الحملة التي خرجت إلي أربونه[*] ، ويصاحبه الفقيه يحيي بن يحيي الليثي وكانوا بمثابة مستشارين لقيادة الجيش ويُرجع إليهم في كثير من الأمور ويأخذ برأيهم حتي تقسيم الغنائم لا يتم إلا تحت إشرافهم[2] .

ويذكر المؤرخ بن حيان أن الفقيه يحيي بن يحيي ، كان من السباقين والمبادرين وقت الزحف ، فكان لا يتأخر إلا بعذر ، فعندما طلب الأمير محمد بن عبدالرحمن (238 – 273ه) ، من الناس الاستعداد للخروج في غزوة من الغزوات ، جاء يحيي أبن يحيي إلي الأمير وقال : إني بلغت من العمر ما بلغت ، ومثلى لا يستطيع الغزو لوهني وضعفي ، ولكنى سأبعث أبنى عبدالله ، بسيفي الذي كنت اغزو به فأنه إن شاء الله أفضل وأقوى منى ، فقبل الأمير بعذره ، وشكره على ما قدم في السابق ، وهكذا كانوا لا يتخلفون إلا بعذر[3] .

وأيضاً من الفقهاء الذين تقدموا الصفوف في حركات الجهاد الفقيه الفرج بن كنانة ، الذي كلفه الأمير عبدالرحمن بن الحكم (206 – 238ه) على رأس جيش لغزو مدينة جليقية[*] فتحرك من ثغر شذونة[**] وعندما وصل جليقية تمكن من انزال الهزيمة بأهلها وقتلوا منهم اعداداً كثيرة ، وعاد ابن كنانة إلي قرطبة منتصراً[4] يصفه ابن عياض بأنه " فارساً شجاعاً يتصرف للسلطان في قود الخيل ، وسد الثغور وقيادتها "[5] .

---

[1] – عبدالوهاب ، خلاف : تاريخ القضاء في الأندلس ، ص354 .

[*] – أربونة مدينة على الحدود الفاصلة بين المسلمون وبلاد غالة من ناحية الشمال الشرقي ، وقد خرجت هذه المدينة من أيدي المسلمين سنة 330هـ ، الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، (ت ، ليفي بروفنسال) ، لجنة التأليف والترجمة ، 1937م ، ص12 .

[2] – مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ص121 ؛ الخشني : قضاة قرطبة ، ص91 .

[3] – ابن حيان : المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، ص181 ، 182 .

[*] – جليقية تقع في أقصى الشمال الغربي على ساحل المحيط الأطلسي ويعرف أهلها باسم الجلالقة وقاعدتهم مدينة أقش ، الحميري : الروض المعطار ، ص66 ، 67 .

[**] – شذونة هي من أعمال مدينة اشبيلية وتقع في جنوب الأندلس وهي كثيرة الخيرات وجامعة لمنافع البر والبحر ، قد لجأ إليها عامة أهل الأندلس سنة 136هـ ، عندما حل بالأندلس جفاف استمر ستة أعوام ، الحميري : الروض المعطار ، ص100 .

[4] – الخشني : قضاة قرطبة ، ص94 ، 95 .

[5] – عياض : ترتيب المدارك ، جـ4 ، ص145 .

الخاتمة :

بعد دراستي لهذا الموضوع يمكن استخلاص جملة من النتائج التي يمكن إجمالها فيما يلي :

- إن اللبنات الأولي للمدرسة المالكية في الأندلس تكونت منذ عهد الأمير عبدالرحمن الداخل ، حيث بدأت في عهده تدخل روايات وآراء الإمام مالك على يد مجموعة من الفقهاء والعلماء الكبار الذين التقوا به في المدينة المنورة واخذوا فقه وعلمه ، وتمكنوا عند رجوعهم إلي الأندلس من تكوين حجر الأساس لهذا المذهب ، ومن هنا بدأ هذا المذهب يمتد وينتشر داخل المجتمع الأندلسي ، وبلغ هذا المذهب أوج نفوذه وقوته عندما أرتقى الأمير هشام بن عبدالرحمن سدة الإمارة ، حيث تبنى فقه مالك بشكل رسمي وفرضه على عموم أهل الأندلس حكاماً ومحكومين وألزم القضاء والافتاء العمل به فتلاشت وانحسرت بقية المذاهب الأخرى.
- وجود علاقة إعجاب بين الإمام مالك وأهل الأندلس فالإمام مالك كان يوقر ويجل ويمدح كل الوافدين إليه من الأندلس ويصفهم بأنبل الأوصاف ، فمالت قلوبهم لمذهبه ، ولم يمض وقت طويل حتي ذاع صيته وانتشر بشكل سريع بين كل الأندلسيين .
- ارتباط صاحب المذهب بالمدينة المنورة كان من عوامل انتشار المالكية في الأندلس ، فالمالكية كانت بعيدة عن التشدد والتعقيد ، ومعظم الاجتهادات تستند في عمومها على روح القرآن والسنة المطهرة .
- لقد كان لأعلام وفقهاء المالكية تأثيرات هامة على الجوانب العلمية والثقافية وتجلى ذلك بإسهاماتهم العلمية سواء في التدريس وشرح أصول المذهب للناس واقناعهم بأنه أجدى بالاتباع ، أو التأليف حيث اصبحت كتبهم حجر الزاوية في الدراسات الفقهية .
- كذلك تبين الدراسة مدى النفوذ الواسع الذي حظى به الفقهاء المالكيين في الأندلس عند السلطة الحاكمة حيث اسندت لهم أعلى المناصب والوظائف في الدولة مثل خطة الشوري والقضاء والشرطة والحسبة وبالتالي لعبوا دوراً مؤثراً في الحياة السياسية والاقتصادية والإدارية .
- لقد كان للفقهاء المالكية دور بارز في ميادين الجهاد حيث تقدموا صفوف المجاهدين في محاربة النصارى في شمال الأندلس .
- وفي ختام هذه الدراسة فأن أهم ما نوصى به بأن هذا الموضوع فيه بعض الجوانب العلمية التي لازالت تحتاج إلي دراسة وبحث ، منها على سبيل المثال :

- دور فقهاء المالكية في تطور الحياة العلمية في الأندلس .
- كذلك دراسة بعض أعلام الفقه المالكي في الأندلس ، مثل الفقيه الغازي بن قيس ، والفقيه زياد بن عبدالرحمن المعروف بابن شبطون .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

1. **القرآن الكريم** .
2. **ابن الخطيب** : كتاب أعمال الأعلام ، " تحقيق / ليفي بروفنسال " ، مكتبة الثقافة الدينية ، 2006م .
3. **ابن الفرضي** : تاريخ علماء الأندلس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2008م .
4. **ابن القوطية** : تاريخ افتتاح الأندلس ، " تحقيق / إبراهيم الابياري " ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، 1989م .
5. **ابن حيان** : المقتبس في أنباء أهل الأندلس ، " تحقيق / محمود علي مكي " ، وزارة الأوقاف ، القاهرة ، 1994م .
6. **ابن خاقان** : تاريخ الوزراء والكُتاب والشعراء في الأندلس ، " تحقيق / مديحة الشرقاوي " ، مكتبة الثقافة الدينية ، 2007م .
7. **ابن خلدون** : المقدمة ، " تحقيق / خليل شحادة وسهيل زكار " ، دار الفكر ، بيروت ، 2001م .
8. **ابن خلكان** : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق / إحسان عباس " ، دار صادر ، بيروت ، 1976م .
9. **ابن سعيد** : المغرب في حلي المغرب ، " تحقيق / شوقي ضيف " ، دار المعارف ، القاهرة ، 1964م .
10. **ابن عبدون** : ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، "تحقيق/ ليفي بروفنسال" ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، 1955م .
11. **ابن فرحون** : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، " تحقيق / مأمون بن محي الدين " ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، 1996م .
12. **الحميري** : الروض المعطار في خبر الأقطار ، " تحقيق/ ليفي بروفنسال " ، لجنة التأليف والترجمة ، 1937م .
- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، " تحقيق / بشار عواد معروف ، وأخر " ، دار الغرب الإسلامي ، تونس ، 2008م .
13. **الخشني** : أخبار الفقهاء والمحدثين ، " تحقيق / ماريا لويس ، وأخر " ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، مدريد ، 1991م .
14. **الذهبي** : سير أعلام النبلاء ، " تحقيق / شعيب الأرنؤوط ، وأخر " مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1982م .
15. **السقطي** : في آداب الحسبة ، " تحقيق / ليفي بروفنسال " ، باريس ، 1931م .
16. **الشيزري** : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، " تحقيق / السيد الباز العريني" ، دار الثقافة ، بيروت ، د. ت .
17. **الضبي** : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2008م .
18. **عياض** : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، " تحقيق / عبدالقادر الصحراوي " ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1968م .
19. **لبستي** : روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، " تحقيق / محمد جابر " ، مكتبة السنة المحمدية ، القاهرة ، د. ت .
20. **الماوردي** : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، " تحقيق / أحمد مبارك البغدادي " ، مكتبة دار بن قتيبة ، الكويت ، 1989م .
21. **مجهول** : أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها ، " تحقيق / إبراهيم الابياري " ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، 1990م .
22. **مجهول** : ذكر بلاد الأندلس ، " تحقيق / لويس مولينا " ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، مدريد ، 1983م .

23. **المراكشي** : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، " تحقيق / محمد زينهم" ، دار الفرجاني ، القاهرة ، 1994م .
24. **المقري** : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، " تحقيق/ إحسان عباس " دار صادر ، بيروت ، د. ت .
25. **النباهي** : تاريخ قضاة الأندلس ، " تحقيق / لجنة إحياء التراث " دار الآفاق ، بيروت ، 1983م .
26. **النجاري** : التاريخ الكبير ، "تحقيق / هاشم النووي ، وأخرون" ، دائرة المعارف العثمانية ، د. ب ، 2009م .

ثانياً : المراجع :

1. **أحمد مختار العبادي** : في التاريخ العباسي والأندلسي ، دار النهضة العربية ، بيروت، د. ت.
2. **آنخل بالنثيا** : تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة / حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2008م .
3. **حسين مؤنس** : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، 2004م .
   - موسوعة تاريخ الأندلس ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2009م .
4. **حمدي عبدالمنعم** : تاريخ الدول الإسلامية ، دار المعرفة الجامعية ، السويس ، 2010م .
5. **خليل إبراهيم السامرائي وآخرون** : تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، د. ت .
6. **زين العابدين** : التراث المالكي في المغرب والأندلس ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الحسن الثاني ، المغرب ، 1998م .
7. **السيد عبدالعزيز سالم** : العصر العباسي الأول ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، د. ت .
8. **عبدالغني الدقر** : الإمام مالك بن أنس ، دار القلم ، دمشق ، 2009م .
9. **عبدالوهاب خلاف** : تاريخ القضاء في الأندلس ، دار المعارف ، القاهرة ، 1992م .
10. **عمر الجيدي** : مباحثات في المذهب المالكي بالمغرب ، ط1 ، د. ن ، 1993م.
11. **محمد ابوزهرة** : مالك حياته وعصره وآراؤه الفقهية ، دار الثقافة العربية ، بيروت ، 1995م .
    - ابوحنيفة حياته وعصره وآراؤه الفقيهة ، دار الفكر العربي ، 1947م .
12. **محمد الشريف الرحموني** : نظام الحسبة في الإسلام ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1983م .
13. **محمد محمد زيتون** : المسلمون في المغرب والأندلس ، دار الوفاء للطباعة ، القاهرة ، 1983م .
14. **محمد مختار المامي** : المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته خصائصه وسماته ، مركز زايد للتراث والتاريخ ، الإمارات ، 2002م .
15. **نجم الدين الهنتاتي** : المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي ، تبر الزمان ، تونس ، 2004م .

ثالثاً : الدوريات :

1. **محمد زيود** : نظام الحسبة في الإسلام ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان 29 – 30 ، تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب ، دمشق ، د. ت .
2. **محمد عبدالوهاب** : صاحب الشرطة في الأندلس ، مجلة المؤرخ العربي، العدد الثاني عشر، الأمانة العامة لأتحاد المؤرخين ، بغداد ، 1990م .

مظاهر الحياة الاجتماعية بمملكة سنغاي الإسلامية خلال الفترة

(873-1000 هـ/ 1468-1591 م)

إعداد :

د. حمد محمد الجهيمي

جامعة السيد محمد بن علي السنوسي.

Abstract :

Addressed this study manifestations of social life in the kingdom of Singh Islamic during the period 873,1000h-1468,1591m. came in boot and five axes's conclusion and confirm sources and references, in Poplar first Elmosum by the kingdom of Singh we find that the establishment of the kingdom of the importance of the largest in the history of the west Africa socially, either in the axis II Elmosum by the elements of the population of the Kingdom of Singh it turned out to US that those elements role essential in the establishment of the Kingdom and evolution of socially, and in the axis third Elmosum with layers society we find that the Kingdom know. System strata of society, and for each layer its social own, but in the axis fourth Elmosum with Customs and traditions, social and it turned out to US that the people of the Kingdom had inherited a lot of Customs and traditions social prevailed in the Kingdom of financial Islamic and other kingdoms, which existed in the West Africa, and in the axis fifth Elmosum to celebrate events religious it turned out our commitment to the people of Singh with their faith Islamic through celebration events Islamic Asacelebration Holy month of Ramadan and celebrate far the mushrooms However, Doha and other occasions religious Islamic.

الملخص :

تناولت هذه الدراسة مظاهر الحياة الاجتماعية في مملكة سنغاي الإسلامية خلال الفترة (873 – 1000 هـ/ 1468 – 1591 م) وقد جاءت في تمهيد وخمس محاور تتبعها خاتمة وثبت بالمصادر والمراجع، **ففي المحور الأول الموسوم ب" قيام مملكة سنغاى** " تبين لنا أن لقيام تلك المملكة أهمية كبرى في تاريخ منطقة غرب إفريقيا اجتماعياً، **أما في المحور الثاني الموسوم** ب" **عناصر سكان مملكة سنغاى** " اتضح لنا أن لتلك العناصر دور أساسي في قيام تلك المملكة وتطورها اجتماعياً، **وفي المحور الثالث الموسوم** ب" **طبقات المجتمع** " تبين لنا أن تلك المملكة عرفت نظام الطبقات في مجتمعها، وأن لكل طبقة نظامها الاجتماعي الخاص بها، **أما في المحور الرابع الموسوم ب" العادات والتقاليد الاجتماعية** " اتضح لنا بأن شعوب تلك المملكة قد ورثت الكثير من العادات والتقاليد الاجتماعية التي كانت سائدة في مملكة مالي الإسلامية، وغيرها من الممالك التي كانت قائمة في منطقة غرب أفريقيا، **وفي المحور الخامس الموسوم ب" الاحتفال بالمناسبات الدينية** " فقد تبين لنا التزام أهل سنغاى بعقيدتهم الإسلامية وذلك من خلال احتفالهم بالمناسبات الدينية الإسلامية كالاحتفال بشهر رمضان المبارك، والاحتفال بعيدي الفطر والأضحى وغيرها من المناسبات الدينية الإسلامية.

مقدمة :

إن المتتبع للمادة التاريخية في المصادر السودانية المحلية، يجدها مادة تاريخ سياسي للدول والممالك التي ظهرت في منطقة غرب أفريقيا، والتي من بينها مملكة سنغاي، إذ اهتم المؤرخون السودانيون في تلك المملكة بأيام ملوكهم وسلاطينهم وفتوحاتهم وأمجادهم، ولكن على الرغم من ذلك لم تخلُ تلك المصادر من بعض الإشارات التي أعطت فكرة عن التكوين الاجتماعي، وعادات وتقاليد ذلك التكوين وحياته اليومية بتلك المملكة وعبر مراحل تطورها التاريخي.

واستناداً إلى المنهج التاريخي الذي يعتمد على سرد الأحداث وتحليلها وإدراكاً منّا بأهمية الحياة الاجتماعية في صنع الأحداث التاريخية جاءت أهمية موضوع البحث وعنوانه "مظاهر الحياة الاجتماعية في مملكة سنغاي الإسلامية خلال الفترة 873–1000 ه / 1468 – 1591م.

ونأمل من خلال هذه الدراسة الإجابة على بعض التساؤلات الآتية :

ما هي الشرائح الاجتماعية التي تكونت منها مملكة سنغاي ؟ وهل كان لتلك الشرائح دور أساسي في قيام تلك المملكة ؟ وما هو دور تلك الشرائح في تطور مجتمع سنغاي اقتصادياً واجتماعياً ؟ وكيف كان المستوى المعيشي لتلك الشرائح ؟ وهل كان للحياة الأسرية دورٌ هامٌ في تطور حياة السكان بتلك المملكة ؟

وتعميماً للفائدة فقد تم تقسيم البحث إلى المحاور التالية:

المحور الأول : قيام مملكة سنغاي.

المحور الثاني: عناصر سكان المملكة.

المحور الثالث : طبقات المجتمع.

المحور الرابع : العادات والتقاليد الاجتماعية.

المحور الخامس: الاحتفال بالمناسبات الدينية.

المحور الأول / قيام مملكة سنغاي[1]:

شهدت منطقة غرب أفريقيا[2] قيام العديد من الممالك الإسلامية الأفريقية[3] لعل أهمها مملكة سنغاي والتي تعد أعظم ثلاث ممالك ازدهرت في المناطق الواقعة ما بين حوض نهر السنغال ونهر النيجر وذلك في منتصف القرن الأول الهجري / السابع الميلادي[4].

وعن نشأة وتأسيس مملكة سنغاي[5] فقد ذكرت بعض الروايات التاريخية إلى أنه خلال القرن الأول الهجري / السابع الميلادي أخذت بعض قبائل لمطة المغربية في التدفق والهجرة من الشمال الأفريقي والمغرب العربي إلى الضفة اليسرى لنهر النيجر عند مدينة دندى وقد تمكن هؤلاء المهاجرون البيض من أن يكونوا أسرةً حاكمةً في مدينة داي Dia السنغالية استمرت حتى القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي حيث اتخذوا من مدينة كوكيا[6]عاصمة لهم ومركز تجاري. استطاعوا من خلاله إقامة علاقات تجارية بينهم وبين مدن الشمال الأفريقي والمغرب العربي[7]. وعن التاريخ السياسي لمملكة سنغاي فقد بدأ في الظهور مع تولي زا الأيمن حكم المملكة حيث أشهر إسلامه خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، ثم خلفه أربعة عشر ملكاً[8] وكان هؤلاء الملوك ينتمون إلى عائلة ضياء التي جاءت من إقليم طرابلس الغرب واستقرت في جهات متفرقة من نهر النيجر[9].

---

(1) نسبة إلى قبيلة سنغاي والتي تسكن منطقة داندى Dandy الواقعة على شاطئ نهر النيجر شمال غرب نيجيريا الحالية، وشمال داهوى، أي ما بين انحناءات نهر النيجر ومصبه.
انظر: عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين 1493-1591م (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ت) ص25.

(2) يقصد بها المناطق الواقعة بين حوض نهر السنغال والحوض الأوسط لنهر النيجر ونهر غامبيا والمجرى الأعلى لنهر فولتا.
انظر: الشيخ الأمين عوض الله : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميين مالي وسنغاي (دار المجمع العلمي، 1979 م) ص41.

(3) من أهم هذه الممالك مملكة غانا والتي بلغت قوة مجدها ما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين التاسع والحادي عشر الميلاديين وكذلك مملكة مالي والتي ظهرت على مسرح الأحداث السياسية في منطقة غرب أفريقيا خلال الفترة من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي واستمرت حتى القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي.
للمزيد انظر : حمد محمد الجهيمي : دراسات في تاريخ مملكة غانا (مجلس الثقافة العام، بنغازي 2008، وكذلك الهادي الدالي : مملكة مالي وعلاقتها مع أهم المراكز بالشمال الأفريقي من القرن 13 إلى القرن 15م (مطابع الوحدة العربية، الزاوية، 1999 م).

(4) امطير سعد غيث : الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي (دار أويا، طرابلس، 2005 م) ص 72.

(5) للمزيد حول تأسيس مملكة سنغاي، انظر بحثنا الموسوم بالحياة الاقتصادية لمملكة سنغاي الإسلامية، والمنشور بمجلة المختار للعلوم الإنسانية، العدد (28)، 2015، جامعة عمر المختار، البيضاء.

(6) العاصمة القديمة لمملكة سنغاي الواقعة على نهر النيجر الأدنى.
للمزيد انظر : أحمد بابير الأروانى : جواهر الحسان في أخبار السودان (تحقيق الهادى الدالى، دار الكتب، بنغازى، 2001) ص 18.

(7) فاى منصور على : أسكيا الحاج محمد وأحياء دولة السنغاي الإسلامية (منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1997) ص 14.

(8) عبد الرحمن السعدى : تاريخ السودان (هوداس، باريس 1964) ص2،3.

(9) الهادي الدالى : مملكة مالى، ص 173.

كان ملوك مملكة سنغاي خاضعين لنفوذ مملكة مالى حتى عام 869 ه/ 1464 م حينما انتزع السلطان سنى على بن سليمان بن أدم والملقب بعلي الكبير عرش المملكة واستمر في الحكم خلال الفترة من عام 869 – 898 ه/ 1464 –1492 م[1] ثم خلفه نجله أبوبكر داعو الذي لم يستمر في حكم المملكة إلا بضعة أشهر لضعف حنكته الإدارية والعسكرية وهذا ما دفع بقائد جيشه محمد توري بن أبي بكر والملقب باسكيا[2] محمد إلى الاستيلاء على السلطة[3] وباستيلاء أسكيا محمد على حكم المملكة انتهت أسرة آل سنى من حكم سنغاي وبدأ عهد جديد لأسرة جديدة قدر لها أن تضع بصماتها على جميع جوانب حياة المملكة ومنها الاجتماعية[4].

كان لتأسيس مملكة سنغاي أهمية كبرى في تاريخ منطقة غرب أفريقيا أذ أحدث ذلك أثراً عميقاً في تغير مجرى حياة سكان تلك المملكة من الترحال إلى الاستيطان والاستقرار وبناء مجتمع إسلامى كانت له من العادات والتقاليد سواء في المسكن أو الملبس أو المأكل متشابهة إلى حد كبير للنمط العربي الإسلامي وهذا ما سوف نتناوله في المحاور التالية من هذه الدراسة .

المحور الثاني / عناصر سكان مملكة سنغاي :

كانت مملكة سنغاي بعد أن استكملت اتساعها تضم مجموعة من العناصر السكانية الرئيسية وهي :

1-قبائل السونغاي:

وموطنها الأصلي المناطق الواقعة على شاطئ نهر النيجر في جزئه الشرقي، الممتد من الانحناء إلى قرب المصب تقريباً، في أراضي داندى، شمال غرب النيجر حالياً وقاعدة بلادهم كوكيا، وقد انقسمت هذه القبائل إلى قسمين الأولى تعمل في الصيد وتعرف بسادة البحر أو الصيادين وهم رحل وتسمى السركو، والثانية تعمل في الزراعة، وتسمى بسادة الأرض، وقد قدر لهذه القبيلة وبحدود سنة 81 ه/ 700 م وبفعل هجرات قبائل لمطة المغربية إليها من تأسيس مملكة سنغاي في كوكيا، وقد ظهر من هذه القبيلة الملوك والسلاطين والأمراء والولاة والقادة والتجار، ومنهم من عاش مزارعاً أو صياداً وبحياة بسيطة[5].

---

(10) محمود كعت : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس (طبعة هوداس، باريس) ص 44.

(11) لقب سلاطين الأسرة الثانية التي حكمت مملكة سنغاي، وأول من اتخذه لقباً هو السلطان محمد أبوبكر الطورى الأول.

للمزيد انظر : السعدى تاريخ السودان، ص 72، دريد عبد القادر نورى : تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء (الموصل، 1985) ص 297.

(12) السعدى : المصدر السابق، ص 70، الحسن الوزان : وصف أفريقيا (ترجمة عن الفرنسية عبد الرحمن حميدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2005) ص 534.

(13) السعدى : المصدر السابق، ص 70، 74، سيكينى سيسوخو : تنبكت ومملكة السنغاي (دكار، 1974م) ص 77، نعيم قداح : أفريقيا الغربية في ظل الإسلام (كوناكرى، 1960) ص69-70.

(14) فاى منصور على : المرجع السابق، ص 15، 21، عطيه مخزوم الفيتوري : دراسات في تاريخ شرق أفريقيا، (منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1998م) ص 24.

وبهذا فقد قدر لهذه القبيلة أن تحمل مشعل الحضارة السودانية أيام دولتهم الكبيرة بعدما أطاحوا بمملكة مالي في عصر "سنى علي" وزادت هيبتها أيام الأسكيين حتى غدت شعلة منطقة غرب أفريقيا في شتى مجالات الحياة.

2- قبائل لمطة المغربية :

كان لها الفضل في تأسيس مملكة سنغاي منذ البدء، بعدما هاجرت تلك القبائل إلى منطقة كوكيا، استطاعت أن تتفاعل مع قبائل السنغاي حتى امتزجت وانصهرت فيها، ومنهم كان حكام مملكة السنغاي الأوائل أيام "زا الأيمن"، ثم انتقل بعد ذلك العرش إلى العناصر السودانية من قبائل السنغاي[1].

إن الشواهد والدلائل التاريخية كثيرة على هجرة قبائل لمطة المغربية إلى مملكة سنغاي، فهذا "ابن بطوطة" من أبناء القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي يؤكد عمق الهجرات والاتصالات بين الطرفين بقوله "بأنه التقى بعدد من هؤلاء المهاجرين بتلك المملكة، وقد أضافوه فيها نحو شهر"[2] ويؤكد كلاً من محمود كعت (ت العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي) والسعدى (ت 1066ه/ 1655م) ما ذكره "ابن بطوطة" عن عمق الهجرات والاتصالات بين مملكة سنغاي وتلك القبيلة بقولهم " بأن هناك أسماء لبعض أبناء تلك القبيلة خدموا في بلاط مملكة سنغاي واحتلوا المناصب المرموقة، كتاباً وحجاباً للسلاطين، ومنهم على بن عبدالله كاتب الاسكيا محمد الأول والكاتب إبراهيم الخضر الفاسى[3].

فضلاً عن ذلك بأن عائلات مغربية قد هاجرت إلى مملكة سنغاي واستوطنتها بأكملها، إما بدافع التجارة أو لنشر العلم، وقد تكاثرت تلك العائلات هناك حتى أصبحت أعدادها كثيرة وبعضهم قد دخل المملكة فرادى مثل الأمام محمد المغيلى (ت 909 ه/1504م) [4]، وكذلك العالم أبو القاسم التواتى[5]، والعالم عبد الله بن عمر الصنهاجي[6]، وغيرهم الكثير[1]. وهكذا يوضح لنا كلا من ابن بطوطة، وكعت والسعدى بأن مملكة

---

(15) حسن إبراهيم حسن : انتشار الاسلام في القارة الأفريقية (ط2، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1963م) ص 109، امطير سعد غيث : المرجع السابق، ص 72.

(16) رحلة ابن بطوطة (شركة الاعلانات الشرقية، القاهرة، د .ت) ص 452.

(17) تاريخ الفتاش، ص 15، تاريخ السودان، ص 68.

(18) ولد في مدينة تلمسان عام 790ه/1388م وهو ينسب إلى قبيلة مغيلة التي تقطن بنواحي تلمسان، وكان من المثقفين، له العديد من المؤلفات ففي مجال الفقه له كتاب "مصباح الأرواح في أصول الفلاح" وفي مجال اللغة له كتاب "مقدمة في اللغة"، أما فى مجال التفسير فله كتاب "تفسير فاتحة الكتاب".

للمزيد انظر : كعت : تاريخ الفتاش، ص 77، أحمد بابا التنبكتى : نيل الابتهاج بتطريز الديباج (تقديم عبد الحميد الهرامة، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989م) ص 577.

(19) من علماء وشرفاء بلدة تافيلات بالمغرب، رحل إلى تنبكت على عهد الأسكيا محمد وابتنى داراً بالقرب من المسجد الجامع كان يستقبل فيه طلبة العلم.

انظر : السعدى : تاريخ السودان، ص 58.

(20) من علماء "ولاته" ولد سنة 566 ه 1178م، كان متضلعاً في العلوم الشرعية، رحل إلى سنغاي وعمل مدرساً بتنبكت.

انظر : أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص 235، السعدى : تاريخ السودان ص 38.

سنغاي قد تميزت بمميزات جغرافية واقتصادية من شأنها أن تجعلها منطقة جذب لمختلف الهجرات، وبذلك يكون سكانها خليط من القبائل الأفريقية والعربية سمحت لهم طبيعة المكان الجغرافي حرية الانتقال والتنقل بكل انسيابية لعدم وجود حواجز طبيعية تعوق حركة تلك الهجرات .

3-قبائل الطوارق[2]:

تأتي بعد القبائل المغربية المهاجرة إلى مملكة سنغاي قبائل الطوارق وقد انتشرت هذه القبائل حول منحنى نهر النيجر بين تنبكت[3] وجاو[4]، وعلى ما يبدو أن عددهم كان أقل من بقية العناصر السكانية الأخرى فمعظمهم جاءوا ليعملوا في صفوف جيش مملكة سنغاي، اذ شُكل منهم سلاطين تلك المملكة فرق خاصة، نظراً لما عُرفوا به من القوة والبسالة في المعارك وكذلك في نقل البضائع بين البلدان على أبلهم، أما الباقين فكانوا أفرادا عملوا في القضاء، أو التعليم أو كانوا علماء وفقهاء[5].

4-القبائل السودانية :

شكلت القبائل السودانية العنصر الأخير من سكان مملكة سنغاي والتي نزحت إلى تلك المملكة أفراداً أو عائلات، إما طالباً للرزق أو للمتاجرة، أو جلبوا عبيداً وخدماً في البيوت والمزارع والأسواق والدكاكين، ومن أهم هذه القبائل قبائل الماندنجو، وهم قبائل زنجية موطنها الأصلي المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي، وحتى نهر النيجر، وإلى جانب قبائل الماندنجو هناك قبائل الفؤلان وقد عملت معظم هذه القبائل في الزراعة والرعي والصيد ومنهم من كان يتاجر في بعض المدن ومنهم من اشتغل في خدمة قصور السلاطين ومزارعهم وضياعهم كعبيد وشاركهم في هذه الخدمة قبائل "لملم" الوثنية والتي تقطن إلى الجنوب من حوض نهر النيجر قرب جزيرة ونقارة[6].

المحور الثالث / طبقات المجتمع :

يمكن القول أن طبقات المجتمع في مملكة سنغاي قد تميزت في التركيبة الاجتماعية، حيث كانت واضحة المراتب وبينة الحدود بين فئة وأخرى، وهذه التركيبة السكانية تتألف من ثلاث طبقات :

1-الطبقة الأولى :

---

(21) الهادي الدالي : المرجع السابق، ص 190.

(22) ينسب الطوارق إلى قبائل صنهاجة المصاقبة ديارها لمنطقة غرب أفريقيا والقاطنة بمنطقة الصحراء الكبرى الممتدة من المحيط الأطلسي في الغرب إلى واحة غدامس في الشرق.

انظر : أحمد الأرواني : السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية (تحقيق الهادى الدالي، بنغازي، دار الكتب الوطنية، 2001) ص 56 -57.

(23) من أهم المراكز الثقافية بمنطقة غرب أفريقيا نشأت في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادى عشر الميلادي وبلغت قوة الازدهار في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي.

انظر الحسن الوزان : وصف أفريقيا، ص 539، 540.

(24) إحدى المراكز الثقافية بمنطقة غرب أفريقيا وكانت العاصمة لمملكة سنغاي منذ عهد أسرة ضياء الأول.

انظر : محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي (مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، د.ت) ص 583، 584.

(25) السعدى : المصدر السابق، ص 25، 38 – امطير سعد غيث : المرجع السابق، ص49، 323، 324.

(26) امطير سعد : المرجع السابق، ص37، 44.

ويأتي على رأس هذه الطبقة العائلة الحاكمة والشريحة الأرستقراطية الرسمية، المتمثلة بكبار رجالات الدولة من أمراء وحكام أقاليم ووزراء وكبار قادة الجيش، حيث تمتعت هذه الطبقة بامتيازات كبيرة دون بقية الطبقات، إذ اختصت وحدها بأعلى الوظائف الإدارية في البلاد، وقيادة الجيش، وإدارة الأقاليم، حتى أن بعض المقاطعات قد تخضع لإدارة أسرة واحدة من الولاة بالإرث، وهذه الطبقة أقل أفراد المجتمع عدداً، لكنها أكثرها ثروة، ولهذا فهي تعيش في حالة ترف[1]، وقد أورد السعدي (ت 1066ه/1655م) بعض حالات الترف والبذخ في الأموال، فهم يصرفون آلاف المثاقيل الذهبية في مناسباتهم وأعطياتهم، قد تصل حد المبالغة[2].

بلغت هذه الطبقة من الامتياز بأن تتعطل القوانين إزائهم، فلم تُطبّق على أفرادها كما كانت تُطبّق على بقية أفراد المجتمع من غير الطبقة الأولى، فالسلطان في مملكة سنغاي هو الجهة المشرعة والمنفذة الوحيدة للعقوبات في البلاد، أما القاضي فليس له إلا النظر في الشؤون الاجتماعية[3].

2-الطبقة الثانية :

تنقسم هذه الطبقة إلى شريحتين، الأولى شريحة كبار التجار والملاكين الميسورين من غير الأسرة الحاكمة أو الطبقة النبيلة في البلاد، ومعظمهم من التجار العرب والمغاربة وكبار الملاكين المستوطنين في البلاد، ويتميز هؤلاء بقدر كبير من الثراء والجاه، يجعلهم في مصاف الطبقة الأولى، وكانوا يعاملون معاملة خاصة من قبل سلاطين المملكة[4]، لأنهم يشكلون قوة اقتصادية مهمة في بلادهم، فهم يعاملون باحترام وكنبلاء للبلاد .

يضاف إلى هذه الطبقة أيضاً التجار المحليين من ذوي الأصول السودانية، وهم في الأغلب أقل ثراء وإمكانية، لأنهم يتاجرون بسلع أقل قيمة وكمية من المستوردة التي يتعامل بها تجار المملكة من العرب والمغاربة[5].

أما الشريحة الثانية من هذه الطبقة فتضم القضاة، والفقهاء، والعلماء وأئمة المساجد والمعلمين، ومن متوسطي الحال من أصحاب التجارات أو الوكالات والملكيات التي تمكنهم من العيش بمستوى لا يحتاجون فيه لشئ، فإنتاجهم يفي لسد معظم متطلباتهم اليومية، وجلهم من فئة الموظفين الذين يتقاضون أجورهم من خزينة السلطان، فمنهم لا يملكون الملكيات الواسعة، ولم يكونوا ممن يشارك في إدارة البلاد، لا سيما الفقهاء والعلماء والمعلمين، وهم يتمتعون باحترام كبير، وكانوا يشكلون الطبقة المثقفة في البلاد[6].

3-الطبقة الثالثة :

---

(27) عبد القادر زبادية : المرجع السابق، ص113-115.
(28) تاريخ السودان، ص 73.
(29) زبادية : المرجع السابق، ص 115، 116.
(30) فاى منصور على : المرجع السابق، ص 178، 179.
(31) فاى منصور على : المرجع السابق، ص 178.
(32) عطيه مخزوم الفيتوري : المرجع السابق، ص 323.

وهذه الطبقة في أدنى سلم المجتمع بتلك المملكة وهم يشكلون أعداداً كبيرة، ويعيشون في ظروف معاشية صعبة يصفها الحسن الوزان مؤرخ القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي بقوله : "ويعيش فيها الفلاحون والرعاة مرتدين جلود النعام في الشتاء، أما في الصيف فيمشون حفاة عراة، غير أنهم يسترون عوراتهم بمئزر صغير، وينتعلون أحياناً بنعال جلد البعير، يعيش هؤلاء القوم في جهالة الجهلاء، حتى لا تكاد تعثر في مسافة مئة ميل على واحد منهم يعرف القراءة والكتابة"[1]، وأصحاب هذه الطبقة هم الباعة والمتجولين في الأسواق، وأصحاب الحرف من الجزارين والحدادين، وغيرهم من حرفي مختلف الصناعات، كما تضم هذه الطبقة أيضا شريحة العبيد، إذ ليس لهذه الشريحة أي قيمة اعتبارية في البلاد، فهم يشاركون فقط في تحمل أعباء قسم من الأعمال الشاقة والخدم في المنازل[2].

المحور الرابع / العادات والتقاليد الاجتماعية :

تصنع الشعوب نظم حياتها وتطبعها بطابعها الخاص، وقد صنعت شعوب وقبائل مملكة سنغاي في العصور الإسلامية الثقافة الخاصة بنظم حياتها، ولهذا فإن دراسة أى جانب حضاري إنما تكتمل صورته الحقيقية بإلقاء نظرة تصويرية لواقع حياة الناس في تلك المملكة وذلك من حيث الأحياء السكانية والملبس والمأكل وغيرها من وسائل الحياة الاجتماعية والتي هي على النحو التالي :

أ-الأحياء السكانية :

شكلت الأحياء السكانية في مملكة سنغاي أهم مظاهر الحياة الاجتماعية بها والتي ظهر بها التميز الواضح بين طبقات المجتمع في تلك المملكة ويؤكد ذلك ما ذكره الحسن الوزان[3] من أبناء القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي وأكده كعت[4] من أبناء القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي فالوزان عند وصفه لمنازل مدينة "جنى" عاصمة مملكة سنغاي أشار إلى وجود قرية كبيرة يسكنها الملك والأئمة والفقهاء، والتجار والأعيان، أما بقية دور المدينة فقد أخذت شكل أكواخ كانت مبنية من الطين ومغطاة بالقش والتبن، كما كانت دور "تنبكت" العاصمة الثقافية لتلك المملكة عبارة عن أكواخ كانت مبنية بالطين ومسقوفة بالتبن وكذلك الحال بالنسبة لمدينة "كبرة" التي لم تكن دورها تختلف عن الدور الموجودة في "تنبكت" و"جنى"[5].

لا يختلف حال الأحياء السكانية في مدينة "جاو" إحدى مقاطعات مملكة سنغاي عما كان عليه الحال في مدينتي "تنبكت" و"جنى" فقد كانت الأحياء السكانية بها –جاو– سيئة وبسيطة بالنسبة لعامة الشعب مقارنة

(33) وصف أفريقيا، 537، 538.
(34) زبادية : المرجع السابق، ص120، 123.
(35) وصف أفريقيا : ص 537، 538.
(36) تاريخ الفتاش، ص 109.
(37) وصف أفريقيا، ص 538، 544.

بمنازل الأسرة الحاكمة في حالة جيدة وتأتي مشاهدات الحسن الوزان موضحة لهذا الأمر، حيث أشار إلى قبح منازل عامة الناس في تلك المملكة، وأنها عبارة عن أكواخ بنيت من أغصان الأشجار[1].

وهكذا ومن خلال العرض السابق يتضح لنا أن الأحياء السكانية لمملكة سنغاي كانت تختلف من مكان إلى مكان ومن طبقة لأخرى حيث كانت مساكن الطبقة الحاكمة وكبار التجار في حالة جيدة قياساً بما كانت عليه مساكن عامة الشعب والتي كانت بسيطة وسيئة للغاية وإذا كانت مساكن عامة الشعب على هذه الحالة فكيف كان ملبسهم ؟

ب-الملبس :

اختلفت أنواع الألبسة وأثمانها بين أفراد سكان مملكة "سنغاي" نظراً لتباين قدراتهم المادية كأي مجتمع فالأساكى كانت لهم الألبسة الزاهية الفضفاضة المصنوعة من أجود أنواع الأقمشة الحريرية والقطنية المستورة شاعت فيها الألوان الداكنة مثل اللونين الأسود والأزرق[2]وقد أكد ذلك كعت بقوله : "ويلبسون قميص أسود والملحفة أسود"[3]، كما ارتدوا القميص السوسى والدرايع المغربية المصنوعة بدقة والمطرزة بخيوط الذهب[4].

أما لباس كبار رجالات المملكة وقادة الجيش وولاة الأقاليم، فكانت السراويل والبدل فضفاضة[5] ولبسوا معها في معظمهم الأساور الذهبية فمن زادت فروسيته في الجيش لبس معها أطواقاً من الذهب والسلاسل الذهبية والنحاسية في أيديهم وعلى صدورهم.

ولبس العلماء والأئمة القميص الأبيض مع العمامة الزرقاء، وشاع استعماله حتى صار شعار للمملكة وارتداه كبار الموظفين والقادة وإلى جانب العلماء في المناسبات الرسمية[6] حتى صار لباس قاد الجند والولاة وكبار التجار والميسورين والعلماء وأئمة المساجد من أفراد الفئة الوسطى شبيه إلى درجة كبيرة بلباس أهل المغرب جلباب ودرايع بلا تفريج، وأكد القلقشندى مؤرخ القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ذلك بقوله : "ولباسهم عمائم بحنك مثل العرب وقماشهم بياض من ثياب القطن تنسخ عندهم في نهاية الرقة واللطف وتسمى الكميما، لبسهم شبيه بلبس المغاربة جباب ودراريع بلا تفريج"[7] وفيما أصبحت القلسنوة الحمراء والقميص الأسود والملحفة السوداء الزي الرسمي لعمال الأساكى في زمن الاسكيا داود[8].

---

(38) وصف أفريقيا، ص 543.
(39) كعت : المصدر السابق، ص 144 – زبادية، المرجع السابق، ص 132.
(40) تاريخ الفتاش ، ص95.
(41) القلقشندى : صبح الأعشى (ترجمة وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987)، ج5، ص287.
(42) زبادية : المرجع السابق، ص132.
(43) محمد الغربي : المرجع السابق، ص610.
(44) صبح الأعشى، ج5، ص287.
(45) كعت : تاريخ الفتاش، ص97.

أما عن زي النساء في مملكة سنغاي فكان الحجاب والجيب باستثناء الجوارى، وزينتهن الودع ينظمنه في رؤوسهن وصدورهن مع الأقراط العريضة توضع في الأذن، وقد يتحلين بأشياء أخرى مصنوعة من الذهب أو النحاس، أو القطع الزجاجية في صدورهن[1].

أما لباس عامة الناس والفقراء القميص الممزق وقد يكتفون بلباس جبة واحدة وبُرنس كذلك شاع بينهم حتى عهود متأخرة من عصور المملكة لباس الأكسية المصنوعة من جلود الحيوان في فصل الشتاء وفي الصيف فهم أشبه بالعرى يغطون عوراتهم بالمئزر وقطع القماش[2].

ج-المأكل والمشرب :

وتأتي صور المأكل والمشرب فيظهر فيها اختلاف من منطقة لأخرى ومن مدينة لأخرى ولكن تبقى العادات والتقاليد الاجتماعية موجودة لدى جل سكان مملكة سنغاي ومدنها وقراها، خاصة بين الفئات البسيطة التي من الصعب أن تغير من عاداتها وتقاليدها، كما يبقى المستوى المادي محدداً أو مهماً لطبيعة الأطعمة والأشربة والتي تتناولها طبقات المجتمع، ففي مدينة "جنى" على سبيل المثال نرى كثرة الأسماك لوقوعها على عدة فروع لنهر النيجر، بينما كثرت المواشي في "تنبكت"، ومن ثم كثر اللحم والحليب، ولذلك استعمل أهل "تنبكت" السمن واللبن بكثرة وكان من أشهر طعامهم لبن الأغنام، وكانوا يخلطونه مع لبن البقر كما كانوا يخلطون السمن المستخرج من لبن البقر بالسمن المستخرج من لبن الغنم[3].

وإلى جانب مدينتي "جنى" و"تنبكت" كانت هناك مدينة "غاو" والتي كان أهلها يأكلون من الحيوانات كالسلاحف والأبقار والماعز، والأسماك، كما كانوا يأكلون الأرز والدخن والبطيخ، كما كان يوجد بها الخبز واللحم، والخيار والقرع بكميات ضخمة[4] ويضاف إلى ذلك مدينة تادمكة والتي ذكرها "الحميري" مؤرخ القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي بأن طعام أهلها كان من اللحوم والألبان، ومن بعض الحبوب التي تنمو طبيعياً دون زراعة[5] ولما كان الملح من السلع الغالية الثمن والنادرة في نفس الوقت، وقد أشار القلقشندي إلى ذلك عندما ذكر أن الملح معدوم في بلاد السودان[6] وأكد ذلك كل من ابن حوقل مؤرخ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي والوزان مؤرخ القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي عندما ذكر أن حمل الملح في دواخل بلاد السودان يباع من مائتين إلى ثلاثمائة دينار[7].

---

(46) الحسن الوزان : المصدر السابق، ص540.

(47) الوزان : المصدر السابق، ص 544 – زبادية : المرجع السابق، ص 132.

(48) الوزان : المصدر السابق، ص 540.
Mcintosh , Proderick, JAND Mcintosh , Susan Keech : The Inland Niger Delta, p.4

(49) الوزان : المصدر السابق، ص 544، زبادية : المرجع السابق، ص181، 184.

(50) الروض المعطار في خير الأقطار (تحقيق إحسان عباس، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة 1980)، ص128 – مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار (تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1958) ص 223.

(51) صبح الأعشى، ج5، ص 280.

(52) صورة الأرض (منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992) ص 98، وصف أفريقيا، ص 540.

ولذلك فإن غالبية سكان مملكة سنغاي لم يكونوا يضعونه على موائدهم، ولكنهم كانوا عندما يأكلون يمسكون بقطعة من الملح ويلعقونها[1] وهذا مما دفع بالفئات الفقيرة في تلك المملكة إلى استخدامه في حالات نادرة جداً[2].

وعلى ذلك يمكن القول بأن المأكل والمشرب لدى سكان مملكة سنغاي لم يكن يمثل مشكلة كبيرة بالنسبة لهم اللهم باستثناء بعض الطبقات الفقيرة والذين وفرت لهم الطبيعة ما كان يعينهم في مأكلهم ومشربهم.

ب-نظام الأسرة :

تميز مجتمع مملكة سنغاي سواء في المدينة أو القرية وبمختلف طبقاته بقوة الروابط الأسرية وكانت الأسرة هي العنصر الأساسي الذي ترك طابعه على مظاهر الحياة الاجتماعية وعلى الحياة اليومية[3].

يعد الزواج أول ركن من أركان قيام الأسرة ، وقد اختلفت عادات الزواج من منطقة لأخرى ففي مدينة "جنى" كانت طقوس الزواج تبدأ بأن يخطب الرجل الفتاة من وليها أو من ينوب عنها ، ويقدم العريس إلى عروسه صداقاً يختلف من شخص لأخر حسب القدرة المادية لكل شخص وكان مهر العروس بالنسبة للطبقة الموسرة عادة ما يكون من ستة إلى سبعة من الأبل مع أشياء أخرى مصاحبة للمهر متمثلة في ملابس وحلي وعطر العروس أما الطبقات الاقل فإن مهر الفتاة كان عبارة عن رأسين من الماعز ونحوه[4]، وكان الزواج في مملكة سنغاي له طقوس يغلب عليها الطابع الإسلامي، فمن عاداتهم أن يتقدم العريس، ويخطب العروس من أبيها، فإذا وافق أكمل الفرح[5].

أما عن الاحتفال بالمولود فهو يختلف هو الآخر من طبقة لأخرى، وكان الموسرون يقيمون لأبنائهم الولائم، وتحتفل الأسرة بعد نهاية الأسبوع الأول، ومنهم من يختن طفله في الأربعين، ومنهم من يصل عمر ابنه إلى الخامسة والسادسة ثم يختنه وبعد مضي أربعين يوماً على الولادة تحتفل الأسرة بمولودها الجديد، وكان يعرف في المملكة بيوم الأربعين[6].

وعن مآتم وأحزان أهل سنغاي فقد طبق أهالي تلك المملكة الشريعة الإسلامية في دفن موتاهم خاصة وأن عرفنا انتشار المذهب المالكي في تلك المملكة حيث كان أهالي تلك المملكة يدفنون موتاهم في رحاب مساجدهم وجوانبها، وكانت عائلة الإساكى لها مقبرة خاصة في مدينة "كاغ"، أما بقية أفراد المجتمع فلهم جميعاً مقبرة واحدة في كل مدينة وقرية[7] وفي المنزل كانت أسرة المتوفي تقيم مأدبة طعام لطلبة القرآن الذين كانوا

---

(53) Hodgkn, Tomas : West African Food in The Middle Ages Canadian Journal of African Studies ,Vol , 10, No 1 , (1976) p.186

(54) نبيلة حسن محمد : في تاريخ الحضارة الإسلامية (دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، د.ت) ص278.

(55) سيكيني سيسوخو : المرجع السابق، ص216.

(56) كرم الصاوى : البيت والعائلة السنغائية زمن أسرة الأسكيين (بحث ضمن ندوة المجتمعات الأفريقية ودورها الحضاري حتى مطلع القرن العشرين، مايو 2005، جامعة القاهرة، مصر) ص 414 – امطير سعد غيث : المرجع السابق، ص 368، 369.

(57) فاى منصور : المرجع الساق، ص187.

(58) كرم الصاوى : البيت والعائلة السنغائية (ندوة)، ص 41، فاى منصور : المرجع السابق، ص 187.

(59) زبادية : المرجع السابق، ص128، جميلة التكتيك : مملكة سنغاي في عهد الأسكيا محمد الكبير 1493 – 1528م (منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1998 م)، ص199.

يتلون آيات القرآن الكريم بمنزل المتوفي حتى وقت متأخر من الليل، وقد يستمرون على ذلك لعدة ليال، وتنتهي أعمالهم في الغالب بتوزيع صدقات عليهم من الألبسة والدخن أو النقود والتي لم تكن تعط إلا نادراً[1].

ه- الفنون :

كانت الموسيقى والغناء والرقص في مقدمة الفنون عند أهالي مملكة سنغاي حيث اشتهر عن أهل السودان الغربي أنهم أشخاص يتصفون بالليونة والطرافة وحسن المعاملة والبشاشة وكانوا يحبون الغناء والرقص على نغمات الطبول الصغيرة والمزامير[2].

وقد أشار الوزان إلى أن أهل "تنبكت" فطروا على المرح وأنهم كانوا يجوبون شوارع المدينة ليلاً يعزفون على آلات الطرب ويرقصون، وبذلك عُرف أهل سنغاي المزمار، والعود، والغناء، وكان هناك العديد من المغنيين كما عرفوا ضرب الدفوف، وآلات اللهو كلها[3].

وقد أشاركعت مؤرخ القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي إلى أن أسكيا محمد بنكن أول من مشى بالدفوف واخترع آلتي اللهو المعروفتين عند أهالي المملكة، فترف، وكبتند، والفترف يشبه البوق، والكبتند كالطبل إلا أن صوت الطبل أرفع منه[4].

المحور الخامس / الاحتفال بالمناسبات الدينية :

اهتم أهالي مملكة سنغاي بالأعياد والاحتفالات، خاصة الدينية منها، مثل الاحتفال بقدوم شهر رمضان، والاحتفال بليلة القدر، ثم الاحتفال بالعيدين الفطر والأضحى، والاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وسوف نعرض لكل احتفال منهم على حدة.

فقد كان أهالي تلك المملكة عندما يقبل شهر رمضان المبارك يستعدون له بمختلف أصناف الأطعمة والحلوى، ويحرصون على صيامه كاملاً[5] كما كان من مظاهر هذا الشهر الكريم هو تجمع الناس في بعض المساجد لسماع ما يقرأ عليهم من كتب السيرة حيث كان عدد من الفقهاء والعلماء حريصين على سرد وتدريس سيرة النبي – صلى الله عليه وسلم – في المساجد في شهر رمضان وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على شغف أهالي تلك المملكة بسيرة النبي – صلى الله عليه وسلم – لاسيما في شهر رمضان[6] وكان الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان يتم في المساجد المعروفة في تلك المملكة وفي ليلة القدر كان الأهالي يسهرون في هذه الليلة المباركة، ويحتفلون بها في ليلة السابع والعشرين من ذلك الشهر المبارك لما تحمله في النفوس من

(60) فاى منصور : المرجع السابق، ص 189.

(61) امطير سعد غيث : المرجع السابق، ص 382، الهادى الدالي : التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر (الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1999)، ص 39.

(62) وصف أفريقيا، ص 542.

(63) تاريخ الفتاش، ص84، زبادية : المرجع السابق، ص164، 165.

(64) Ellis, George, W: Negyro Culture in West aerica, The Neale Publis hiny, company, Now York, 1914, p. 97

(65) أحمد بابا : نيل الابتهاج، ص135، مجهول تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان (هوداس، باريس 1966)، ص، 15،17.

تعظيم وإجلال، فتزداد فيها العبادات بشكل كبير وملحوظ، فكانت مدن وقرى المملكة لا تنام ولا تهدأ، ويخرج الناس إلى الشوارع حاملين المصابيح والفوانيس في بهجة وسرور ويزورون بعضهم البعض وبعد ذلك يذهبون إلى المساجد للعبادة والذكر حتى طلوع الفجر[1].

أما احتفالهم بليلة عيد الفطر فكان يتم بمجرد رؤية هلال شهر شوال، فتنتهز المدن وخاصة "تنبكت" بالتهليل والتكبير، وزغاريد النساء تعبيراً عن فرحتهم وفي صباح يوم العيد كان الرجال ينطلقون إلى المسجد ليؤدوا صلاة العيد[2] وبعد الانتهاء من الصلاة يتصافح المصلون ويتزاورون، وكان للفقراء نصيب كبير فيما يتلقونه من الصدقات التي كان يوزعها المؤسرون ابتهاجاً بهذا اليوم[3] ولم تختلف طقوس عيد الفطر عن طقوس عيد الأضحى إلا في ذبح الأضاحي في عيد الأضحى وتوزيع جزء منها على الفقراء[4].

كما حرص أهالي تلك المملكة على الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في شهر ربيع الأول من كل عام، حيث كان الناس يخرجون في تلك الليلة إلى الشوارع ابتهاجاً وفرحاً بهذه المناسبة العظيمة، وكان المداحون يقومون بعد صلاة العشاء بتكوين حلقات المديح أمام المساجد لمدح النبي – صلى الله عليه وسلم – وكانت هذه الحلقات يؤمها جميع أهالي المملكة ويجلونها ويقدرونها[5].

(66) محمود كعت : نيل الابتهاج، ص 179–180.
(67) كرم الصاوى : البيت والعائلة السنغائية (ندوة)، ص32.
(68) امطير سعد غيث : المرجع السابق، ص 379.
(69) كرم الصاوى : البيت والعائلة السنغائية (ندوة)، ص 32.
(70) امطير سعد غيث : المرجع السابق، ص380،381.

الخاتمة :

من خلال هذا البحث توصلت إلى عدة نتائج :

- أكد البحث أن لقيام مملكة سنغاي الإسلامية أهمية كبرى في تاريخ منطقة غرب افريقيا إذ أحدث ذلك أثراً عميقاً تمثل في تغير مجرى حياة سكان تلك المملكة من الترحال إلى الاستيطان والاستقرار وبناء مجتمع إسلامي كانت له من العادات والتقاليد سواء في المسكن أو الملبس أو المأكل مشابهة إلى حد كبير للنمط العربي الإسلامي.
- أظهر البحث أن طبقات المجتمع في مملكة سنغاي قد تميزت في تركيبتها الاجتماعية وبشكل واضح في المراتب وبينت الحدود بين فئة وأخرى فالطبقة الأولى وهي طبقة الأسرة الحاكمة تختلف في امتيازاتها عن الطبقة الأكثر عدداً في المملكة كان يقع عليها أعباء قسم كبير من الأعمال الانتاجية في المملكة.
- أوضح البحث أن العادات والتقاليد الاجتماعية وثيقة الصلة بتطور حياة الإنسان والأفراد على مر العصور، كما أنها تعتبر نتاجاً لاختلاط الشعوب فيما بينها بحكم القرب الجغرافي والزواج والمصاهرة، وهذا ما حدث لدى سكان مملكة سنغاي حيث ورثوا الكثير من العادات والتقاليد الاجتماعية التي كانت سائدة في مملكة مالي.
- أكد البحث أن أهالي مملكة سنغاي مثلهم مثل أهالي مدن السودان الغربي لهم مناسباتهم وأعيادهم الاجتماعية والدينية والتي وحدتها التعاليم الإسلامية فقد كانت أفراحهم ومناسباتهم تجرى وفق التقاليد الإسلامية السمحاء.

المصادر والمراجع

أولاً / المصادر :

1. الأروانى (أحمد بابير، كان حياً خلال القرن الرابع عشر الهجري) : جواهر الحسان في أخبار السودان، تحقيق الهادي الدالى، دار الكتب الوطنية، 2001.
2. _____ : السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية، تحقيق الهادي الدالى، دار الكتب الوطنية، 2001.
3. ابن بطوطة (محمد بن عبدالله بن محمد، ت 779ه/1377م) : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المعروفة برحلة ابن بطوطة، شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، د.ت.
4. التنبكتي (أحمد بابا، ت 1036ه/1627م) : نيل الابتهاج بتطريز الديباج إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس1989.
5. التنبكتى (محمود كعت، ت العاشر ه/السادس عشر الميلادي) : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، هوداس، باريس، 1913.
6. الحميرى (محمد بن عبد المنعم، ت 866ه/1462م) : الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، 1980 م.
7. ابن حوقل (أبو القاسم النصيبى، ت 380ه/1990م) : صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992.
8. السعدى (عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران، ت 1066ه/1655م) : تاريخ السودان، هوداس، باريس، 1964.
9. القلقشندى (أبو العباس أحمد على، ت 821ه/1418م) : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، ج 5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987 م.
10. مجهول (ت السادس ه/الثاني عشر الميلادي) : الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1958 م.
11. مجهول : تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، هوداس ، باريس، 1966.
12. الوزان (الحسن بن محمد، ت 935ه/1540م) : وصف أفريقيا، ترجمة عن الفرنسية عبد الرحمن حميدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 2005 م.

ثانياً / المراجع :

13. التكتتك، جميلة أحمد : مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير 1493 م 1528 م، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1998 م.
14. الجهيمي، حمد محمد : دراسات في تاريخ مملكة غانا فيما بين القرنين الخامس والسابع الهجريين، منشورات مجلس الثقافة العام، ليبيا، 2008 م.
15. حسن، حسن إبراهيم : انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1963 م.

16. الدالى، الهادي المبروك : مملكة مالى وعلاقاتها مع أهم المراكز بالشمال الأفريقي من القرن 13 إلى 15، ط2، مطابع الوحدة العربية، الزاوية، 1999 م.
17. _____ : التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1999م.
18. زبادية ، عبد القادر : مملكة سنغاي في عهد الإسيقيين 1493 – 1591، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.
19. سبيسوخو، سبيكينى : تنبكت ومملكة السنغاي، دكار، 1975.
20. على، فاى منصور : أسكيا الحاج محمد وإحياء دولة السنغهاى الإسلامية، 889–935 ه/ 1493– 1529م، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1997 م.
21. عوض الله، الشيخ الأمين : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالى وسنغاي، دار المجمع العلمى، جدة، 1979 م.
22. الغربي، محمد : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، د. ت.
23. غيث، امطير سعد : الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، دار المدار الإسلامي، بيروت 2004 م.
24. الفيتوري، عطيه مخزوم : دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي 1993م.
25. قداح، نعيم : أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، كوناكرى، 1960.
26. محمد، نبيلة حسن : في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، د.ت.
27. نورى، دريد عبد القادر : تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء، جامعة الموصل.

ثالثاً / الدوريات :

28. باز، كرم الصاوى : البيت والعائلة السنغائية زمن أسرة الأسكيين، بحث ضمن ندوة المجتمعات الأفريقية ودورها الحضاري حتى مطلع القرن العشرين، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، مصر، 2005 م.
29. الجهيمي، حمد محمد : الحياة الاقتصادية لمملكة سنغاي خلال الفترة 873 ه/1000م، مجلة المختار للعلوم الانسانية، العدد (28)، جامعة عمر المختار، البيضاء، 2015 م.

رابعاً / المرجع الأجنبية :

30. Ellis, Georg . W: Negro culture in west aerica , The Neale Publis HingCompany , Now York , 1914.
31. Hodgkn, Tomas : West Africa n food in the middle Ages Canadian Journal of African studies, Vol, 10 , No. 1976.
32. Mcintosh, Roderick , JAND Mcintoshsusankeech : The Inland Niger Delta.

موقف منافقي المدينة من غزوات الرسول

ومنهجه – صلى الله عليه وسلم – في التعامل معهم

إعداد :

أ . عبدالسلام صالح يحيى الحجازي

جامعة السيّد محمّد بن علي السّنوسي

ملخص البحث باللغة الانجليزية :

The Attitude of the hypocrites of the madina from the invasions of the Prophet and his method (peace be upon him) of dealing with them.

Reviewing the attitude of the hypocrites towards prophet Mohammad (peace be upon him) and his invasions reveal that they posed a danger against Muslims than the outright enemy. they claimed converting to Islam to save their lives, so that the Allah the Almighty did not ordered to slew or torture them, nor imprison or exile them out of Al madina . On the contrary, Islam has protected them, which allowed them to practice their hypocrisy and evil against Muslims. But the Koran was every time exposing them to the Muslims, and reveal their management, and announce their secrets, and warns the Prophet and Muslims of them.

Therefore, the Prophet Muhammad was very cautious, and the caution of hypocrites required intelligence and wisdom in dealing with hypocrites and their deeds . And some hypocrites were favored by their relatives. and Muslims were also close to the age of ignorance and tribalism, so the severity of the Prophet (peace be upon him) in dealing with them may give the opposite result of fanatics to The hypocrites, Despite their knowledge that they are hypocrites and enemies of Islam, So they will lose their faith, This is not wanted by the prophet of mercy and guidance, Therefore, the Prophet (peace be upon him) followed the policy of leniency and mercy with the hypocrites, in addition to the policy of distress if necessary, This policy has succeeded to a large extent and its results were great and fruitful, The hypocrites lost the support of their relatives to the extent that some of their relatives asked the Prophet (peace be upon him) to kill them, The voice of the hypocrites is no longer heard by the people and their machinations are no longer finding their ways to hear people and their hearts, and thus weaken their power and management, and ended their abuse with Muslims because of the wise policy of the Messenger of Allah (peace be upon him) .

المقدّمة :

لم يكن من اليسير على رسول الله ﷺ أن يُقنع بني قومه من قريش والعرب بترك عبادة الأوثان وترك الكثير من العادات والتقاليد السيئة التي وجدوا آباءهم عليها، ويستبدلوا ذلك كله بدينٍ واحدٍ وربّ واحد، لذلك فقد عانى ﷺ الأمرّين من صدّهم له ولدعوته، وسخريتهم منه وممّن تبعه من المسلمين، فلما زادت صلابة القوم في صدّهم لدعوة الرسول ﷺ، واشتدّ أذاهم لأتباعه، أمرهم الله – عز وجلّ – بالهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة)، ليتخلصوا من أذى المشركين في مكّة، وليمارسوا عبادة الله، والدعوة إليه، بحريّة تامّة .

فلمّا استقرّ بهم المقام في المدينة المنورة، تعدّدت الجبهات المناوئة للإسلام، فكانت هناك جبهة المشركين من قريش وحلفائها الذين ما انفكّوا يهاجمون المسلمين في المدينة ويضيّقون عليهم الخناق، وجبهة اليهود الذين كانوا يتميّزون من الغضب والحَسَد لأن آخر الأنبياء والمرسلين كان من العرب ولم يكن منهم، فمارسوا حرباً خفيّة ضد المسلمين بإثارة الفتن والدسائس بين الأنصار والمهاجرين من جهة، ومن جهة أخرى بتأليب المشركين من العرب على المسلمين في المدينة على وعدٍ منهم بمناصرتهم إذا اقتربوا من المدينة .

وجبهة ثالثة، وهي الجبهة الأخطر، وقد تمثلت في مَن مردوا على النفاق من الأوس والخزرج. وتكمن خطورتهم في أنهم تستّروا بالإسلام في العلن، فأمنوا على أنفسهم من القتل والنفي أو التعذيب، ثم تفرغوا في اطمئنان كامل للكيد للإسلام والمسلمين .

لذلك فإن جبهة المنافقين كانت من أخطر الجبهات التي واجهها المسلمون، وكان التعامل معهم يتطلب حذراً شديداً، وحكمة بالغة، وسياسة تختلف عن سياسة المواجهة مع المشركين واليهود .

فكيف نشأ النفاق؟ ومن هم المنافقون؟ وما هي دوافعهم وغاياتهم؟ وما الذي فعلوه في سبيل تحقيق هذا الغايات؟ وكيف تعامل الرسول – صلى الله عليه وسلم – معهم؟ .

كل ذلك سيحاول هذا البحث مناقشته والإجابة عليه، مع ضرورة التنبيه إلى أن البحث سوف يتناول موضوع منافقي المدينة فقط، ويقتصر على موقفهم من الغزوات التي كان لهم موقف منها، لذلك فلن يكون البحث معنيّاً بمناقشة تفاصيل الغزوات باعتبار أن محور البحث هو دور المنافقين في الغزوة وليست الغزوة بكل تفاصيلها . فلا يتناول من أحداث الغزوة إلا بالقدر المتعلق بدور المنافقين فيها .

أهمية الدراسة :

تكمن أهمية الدراسة في كشف نشأة النفاق، وأدواته، ووسائله، وطريقة التعامل مع المنافقين في ظل السيرة النبويّة الشريفة، على اعتبار أن سيرة الرسول ﷺ معين لا ينضب من الدروس والعِبَر التي تمكننا – في حال الاقتداء بها – من معالجة قضايا مجتمعنا عامة، وقضايانا خاصّة، حتى نعود إلى ما كان عليه أسلافنا في واجهة العالم المتقدم المزدهر ، في ظلّ رضا الله – عزّ وجلّ – ورعايته .

المنهج المتبع في الدراسة :

على اعتبار أن سرد مواقف المنافقين ومحاولة معرفة الدوافع التي وراءها، وكذلك مناقشة المنهج الذي اتبعه الرسول ﷺ في التعامل معهم من حيث الشدّة واللين، فإن المنهج السردي التحليلي هو الأنسب لهذه الدراسة .

التمهيد

تعريف النفاق وبيان أسباب نشأته

أوّلاً – تعريف النّفاق :

النفاق لغة: نَفِقَ البيعُ نِفاقاً: راجَ. ونفِقَ الرّجلُ والدّابةُ نفوقاً: ماتا. ونَفِقَ الجُرح: تقشّر. ونَفَقَ: نفد وفَنيَ أو قَلَّ. ورجلٌ مِنفاق: كثير النفقة. والنَّفَقُ: سَرَبٌ في الأرض له مَخلَصٌ إلى مكان. والنّافقاءُ والنُّفَقَةُ: إحدى جِحَرَةِ اليربوع يكتُمُها ويُظهرُ غيرها فإذا أُتي من جهة القاصعاءِ ضربَ النافقاءَ برأسه فانفتقَ، ومن هذا المعنى اشتّق معنى النفاق[1].

النفاق اصطلاحاً :

هو إظهار الخير وإسرار الشرّ، وهو أنواع : اعتقادي، وهو الذي يُخلّدُ صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب، والمنافقُ هو مَن يخالفُ قوله فعله، وسرُّ علانيتَهُ، ومُدخَلُه مخرجه، ومشهدُهُ مغيبه[2]. والمنافق كذلك: هو من يُخفي الكفرَ ويُظهر الإيمان[3].

نشأة النِّفاق:

قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [4].

عندما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة أصبح المجتمع فيها يتكون من عناصر متباينة في عقيدتها، مختلفة في أهدافها، متفرّقة في اجتماعاتها. كما كانت لديهم خلافات بعضها قديم موروث، وبعضها حديث موجود، فكان هناك :

أ – المسلمون من الأوس والخزرج الذين دانوا بالإسلام .

ب – المسلمون المهاجرون من مكة إلى المدينة .

ج – اليهود، وهم عدّة قبائل، وكانوا يتحكمون في يثرب سياسيّاً واقتصاديّاً. وكانوا يثيرون الخلاف والحروب بين الأوس والخزرج حتى لا تتحد صفوفهم من جهة، ومن جهة أخرى حتى يشترون الأسلحة منهم وبذلك تكون استفادتهم مزدوجة .

د – المشركون من الأوس والخزرج الذين لم يدخلوا في الإسلام .

هـ – المنافقون ، وهم جماعة من مشركي الأوس والخزرج لم يدخلوا في الإسلام إلا بعد أن قويت شوكته بعد معركة بدر فأظهروا الإسلام نفاقاً حتى لا يفقدوا مركزهم الاجتماعي في قومهم .

كان اليهود أسبق من الأوس والخزرج في سكن يثرب ولذلك فإنهم كانوا يرون أن العرب يزاحمونهم في ديارهم ويُنازعونهم السيادة على يثرب. وحتى لا تكون للعرب شوكة توسِّعُ من سلطانهم على يثرب فإنَّ اليهود كانوا كثيراً ما يسعون إلى التفريق بين الأوس والخزرج بإثارة أسباب العداوة والبغضاء بين الحيَّين حتى استحكمت العداوة بينهما وترتب عليها حروب طاحنة كان آخرها (يوم بُعاث)[5] قبل الهجرة بنحو خمس سنين. وكان النصر فيه حليف الخزرج. فقرر الأوس أن يُبيدوهم عن آخرهم وأن يقتلوهم حرقاً في ديارهم. ولكن

زعماء الفريقين أدركوا أن مصلحتهم تكمن في نبذ خلافاتهم ووحدتهم، وأن المُستفيد الوحيد من فرقتهم هم أعداءهم اليهود. فسعى العقلاء منهم إلى المصالحة، واتفقوا على أن يُنصّبوا عليهم زعيماً واحداً منهم يجتمعون تحت لوائه فاختاروا لذلك رجلاً من الخزرج هو عبد الله بن أبيّ بن سلول، وهمّوا أن يُنصّبوه ملكاً عليهم، ولكن الله أراد بهم خيراً مما أرادوا لأنفسهم فهداهم إلى دينه القيّم وجعلهم أنصاراً لرسول الله ﷺ [6].

أمّا عبدالله بن أبيّ بن سلول الذي لم يكن بينه وبين المُلك إلا أياماً معدودات؛ فلم يكُن ليرضى عن الدين الجديد الذي سلبه مُلكه، ولا عن الرسول ﷺ الذي أصبح السيّد الأعلى للمدينة المنوّرة وكان يرى في نفسه أنه أحقّ بهذه السيادة من النبيّ عليه السلام، لذلك لم يكن ابن سلول يُخفي بُغضَه للرسول ﷺ وكان يُجاهر بعدائه وبالسخرية من كلامه، ومن مثل ذلك ما ذكره البخاري، عن عروة بن الزبير قال:" أخبرني أسامة بن زيد أن النبي ﷺ, ركب حمارًا و أردف وراءه أسامة بن زيد, وهو يعود سعدَ بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج, وذلك قبل وقعة بدر, حتى مرَّ في مجلسٍ فيه أخلاط من المسلمين وعبدة الأوثان و اليهود, وفيهم عبد الله بن أبي ابن سلول , وفي المجلس عبد الله بن رواحة, فلما غشيت المجلس عجاجة الدّابة, خَمَّر عبد الله بن أبيّ أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا, فسلم عليهم النبي ﷺ ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله, وقرأ عليهم القرآن, فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أيها المرء, لا أحسن من هذا إن كان ما تقول حقا, فلا تؤذنا في مجلسنا, وارجع إلى رحلك, فمن جاءك منا فاقصص عليه. فقال ابن رواحة: اغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك. فاسْتبَّ المسلمون والمشركون واليهود, حتى هَمُّوا أن يتواثبوا, فلم يزل النبي ﷺ يُخفِّضَهُم . فحكي النبي ﷺ لسعد بن عبادة ما ناله من إيذاء ابن سلول له, فما كان من سعد بن عبادة إلا أن قال:"اعفُ عنه واصفح يا رسول الله, فو الله لقد أعطاك الله الذي أعطاك, ولقد اصطلح أهل هذه البَحرَة على أن يُتوّجوه, فيعصّبونه بالعصابة, فلما ردَّ الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك, فذلك فعل به ما رأيت, فعفا عنه النبي ﷺ" [7] .

ولأن أكثر الأوس والخزرج قد أسلموا وأخلصوا الطاعة لله ولرسوله لم يعُد بوسع ابن سلول وأتباعه أن يَبقوا على شركهم فبقاءُهم على الشرك سيؤدي بهم حتماً إلى التصادم مع أبناء عمومتهم وإثارة البغضاء بينهم وهذا سيُفقد ابن سلول مكانته بين قومه فقد كان ابن سلول يعتقد أن الأمر لن يطول؛ وأن الإسلام سينتهي إما بموت الرسول ﷺ أو بحرب تشنّها قريش على المسلمين في المدينة فتستأصل شأفتهم ويعود الأمر إلى ما كان عليه قبل الهجرة النبوية الشريفة، ويعود ابن سلول ملكاً على يثرب كما ينصّ الاتفاق بين الأوس والخزرج عقب يوم بُعاث .

فلما غزا رسول اللَّه ﷺ بدرًا، فقتل اللَّه بها مَنْ قتل مِن صناديد الكفار وسادة قريش، وعادَ ﷺ وأصحابهُ منصورين غانمين، معهم أُسارى مِن صناديد الكفار، وسادة قريش، قال ابن أُبَيٍّ بن سلول ومن معه من عَبَدَةِ الأوثان: هذا أمرٌ قد تَوَجَّهَ – أي أقبل – ، فبايعوا رسول اللَّه ﷺ على الإسلام، فأسلموا[8].

اضطرّ ابنُ سلول إلى إظهار الإسلام وإبطان الكفر حتى حين، فظهر بذلك النفاقُ لأول مرة عند المسلمين إذ لم يكن معروفاً عند العرب لا في الجاهلية ولا بعد الإسلام في الفترة المكيّة، ففي مكّة كان المسلمون هم الحلقة الأضعف، وكان إظهار الإيمان يضرّ بالمسلمين ويعرضهم لفتك قريش، كما أن إبطان الإيمان لم تكن الغاية منه الوصول إلى عَرَضٍ دنيوي، وإنما كانت الغاية الوحيدة من ورائه هي السلامة من

أذى المشركين، لذلك لم يكن إبطان الإيمان نفاقاً، بينما كانت نيّة ابن سلول من وراء نفاقه تهدف إلى تحقيق عدّة غايات، منها:

– تحاشي التصادم مع أبناء عمومته والحرص على إرضائهم، حتّى إذا ما تمّ القضاء على الإسلام والرسول معاً كانوا عوناً له ونصّبوه ملكاً عليهم وهم عنه راضون .

– أن يكون عيناً لأعداء الإسلام من اليهود وكفار قريش، وعوناً لهم في حروبهم ضد الإسلام والمسلمين، باعتباره فرداً من المسلمين يطّلع على أسرار وأخبار لم يكن يستطع الاطلاع عليها لو كان مشركاً.

– أن يتمكن من ضرب الإسلام من داخله؛ فبصفته من المسلمين قد ينجح في الترويج للفتنة والإشاعات حتى يزعزع – حسب تفكيره – ثقة المسلمين في قوّتهم، وأن العرب سوف لن يصبروا عليهم طويلاً وأنهم سوف يهلكونهم إذا ما اتّحدوا على حربهم، ويُخذّلهم إذا ما استعدّوا للحرب، وبالطبع فإن النفاق وحده هو ما يحقق له هذه الغاية.

لكن آيات القرآن الكريم كانت تترا في فضحهم وفضح أسرارهم وأقوالهم وأفعالهم، لتبيّن للرسولﷺ وللمسلمين حقيقة عدوّهم المُندسّ بينهم حتى يأخذوا حذرهم منه، قال تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ*يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ*فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[9]

المبحث الأوّل

موقف المنافقين من غزوتي بني قينقاع وأحُد

وموقف الرسول ﷺ منهم

أوّلاً – موقف المنافقين من غزوة بني قينقاع :

كان رسول الله ﷺ عقب وصوله للمدينة بعد هجرته إليها، قد اتخذ عدة تدابير لتسيير الدولة الاسلامية الناشئة والحفاظ على أمنها واستقرارها بحيث تشمل هذه التدابير كل أطياف المدينة المنورة من المسلمين والمشركين واليهود، وكانت وثيقة المدينة من بين هذه التدابير التي اتخذها الرسول ﷺ فقد كانت بمثابة أول دستور في الإسلام ينظّم العلاقات بين عناصر المجتمع المدني على اختلاف مشاربهم وعقائدهم، وقد ضمنت هذه الوثيقة لليهود بالمدينة حرية العبادة والزراعة والتجارة، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من دهم أهل يثرب، وأن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون إثم[10].

نقضُ بني قينقاع العهد :

نقض بنو قينقاع عهدهم للرسول ﷺ وقد ذُكر في نقضهم للعهد سببين، أولهما: أن رسول الله ﷺ لما عاد منتصراً من معركة بدر حسده يهود بني قينقاع، فلما بلغه حسدهم جمعهم بسوق بني قينقاع. فقال لهم:"احذروا ما نزل بقريش وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنّي نبيٌّ مُرسل". فقالوا:"يا محمد لا يغرنّك أنّك لقيتَ قوماً لا علمَ لهم بالحرب، فأصبتَ منهم فرصة، أما واللّه لو حاربتنا لتعلمنَّ أنَّا نحن الناس". فنزل فيهم قوله تعالى :﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[11].

أما السبب الثاني، فقيل إن امرأة مسلمة جاءت إلى سوق بني قينقاع فجلست عند صائغ لأجل حُليٍّ لها فجعلوا يُريدونها على كشفِ وجهها، فأبَتْ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا منها، فصاحتْ. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، وتحصّن اليهود في حصونهم، فغزاهم الرسول ﷺ وحاصرهم خمس عشرة ليلة، حتى نزلوا على حكمه، على أنَّ لرسول اللّه ﷺ أموالهم، وأنَّ لهم النّساء والذرِّيَة، فأنزلهم فكتفوا، وكان يريد قتلهم، وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج[12] . فأجرهم ابن سلول من القتل .

موقف ابن سلول من هذه الحادثة :

عندما علم ابن سلول أن الرسول ﷺ يريد قتل بني قينقاع قام إلى رسول ﷺ فكلمه فيهم فلم يُجبه، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فرأى الغضب في وجه الرسول ﷺ فقال: ويحك أرسلني . فقال: لا أرسلك حتى تُحسن إلى مواليّ أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة وإني والله لأخشى الدوائر، فقال النبي ﷺ: هُم لك، خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم[13]. فعفا عنهم الرسول من القتل لكنه أمَر بإجلائهم، وأمر عبادة بن الصامت بالإشراف على جلائهم فلحقوا بأَذْرُعَاتٍ[14]. وأذرعات بلد في أطراف الشام يجاور عمان[15].

ويُذكر أنّ الصحابي عبادة بن الصّامت كان هو أيضاً حليفَ بني قيناع، لكنه – بعد ما رأى من تشبّث ابن سلول بحلفائه – تبرّأ إلى الله عزَ وجلّ، وإلَى رسوله ﷺ من حلفهم، وقال: يا رسول اللّه، أتولَى اللّهَ ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأُ من حلف هؤلاء الكفّار وولايتهم. وقيل إن هذه الآية نزلت فيه وفي ابن سلول[16]، قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ*فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[17].

موقف الرسول ﷺ من المنافقين في هذه الغزوة :

لم يمنع الرسول ﷺ عبدَالله بن أبيّ بن سلول من إبداء رأيه على ما فيه من الجرأة والانحياز لأعداء الله ورسوله، ثم قبل برأيه مُكرهاً ليُجنّب الدولة الإسلامية الناشئة الفوضى والخلاف فقد كان ابن سلول زعيماً وله أتباعه المخلصين كما أن هناك يهود آخرون في المدينة، ومن الممكن أن يكون ردّ فعل هؤلاء التعاضد والآمر على المسلمين وإثارة الشغب فيها، ثم قبل كلّ ذلك وبعده كانت غاية الرسول الأهم هي إنهاء الدسائس في المدينة ولم تكن قتل اليهود وإن كان قد أراد قتلهم ليرهب به غيرهم من اليهود والمشركين والمنافقين المتربّصين بالدولة الإسلامية الناشئة.

ثانياً – موقف المنافقين من غزوة أحُد (3هـ) :

بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر في العام الثاني للهجرة قويت شوكتهم وأصبحوا يشكلون خطراً حقيقيًّا على تجارة قريش، هذا بالإضافة إلى أن قتل السادة والأشراف من قريش في بدر كان له وقع كبير من الخزي والعار الذي يحل بهم، مما جعلهم يبذلون قصارى جهدهم في سبيل الاستعداد لمعركة أخرى يسترجعون بها هيبتهم التي انحدرت، ويتخلصون من خطر المسلمين على رحلتي الشتاء والصيف التجاريتان، ويأخذون بثأر

قتلاهم في بدر، فتجهزوا بعد معركة بدر بعام واحد، حتى وصلوا إلى ثلاثة آلاف مقاتل توجهوا مع أحلافهم من العرب لحرب المسلمين . فلما علم الرسول ﷺ بخروجهم استشار أصحابه في كيفية المواجهة، هل تكون بالخروج لملاقاتهم أم بالتحصّن في المدينة، وكان الرسول ﷺ يفضّل التحصّن بالمدينة وقد أخبر بذلك أصحابه فقال:"إنِّي قد رأيتُ بقَرًا فأَوَّلْتُهَا خيرًا، ورأيتُ في ذُبَابِ سيفي ثَلْمًا، ورأيتُ أنِّي أدخلت يدي في درع حصنيه فأوَّلتُهَا المدينة، فإن رأيتم أنْ تقيموا بالمدينة وتدَعُوهُم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرِّ مقام، وإن همْ دخلوا علينا قاتلناهم فيها". فدعَا رسول اللَّه ﷺ عبد الله بن ابى بن سَلُولٍ– ولمْ يدْعُهُ قطُّ قبلها– فاستشاره[18]، فقال:"يا رسول الله، كُنّا نقاتل في الجاهليّة فيها، ونجعل النساء والذّراريّ في هذه الصّيَاصي، ونجعل معهم الحجارة. والله، لربّما مكثَ الولدَانُ شهرًا ينقلون الحجارة إعدادًا لعدونا، ونشبِكُ المدينة بالبنيانِ فتكونُ كالحِصنِ من كلّ ناحية، وترمي المرأة والصبيّ من فوق الصّياصي والآطام، ونقاتل بأسيافنا في السّكك. يا رسول الله، إنّ مدينتنا عذراء ما فُضّتْ علينا قَطّ، وما خرجنا إلى عدوّ قَطّ إلّا أصاب مِنّا، وما دخل علينا قَطّ إلّا أصبناه، فدعْهُم يا رسول الله، فإنهم إن أقاموا أقاموا بشرّ محبسٍ، وإن رجعوا خائبين مغلوبين، لم ينالوا خيرًا. يا رسول الله، أَطعني في هذا الأمر واعلَمْ أني ورِثْت هذا الرأي من أكابرِ قومي وأهلِ الرأي منهم، فهُم كانوا أهلَ الحرب والتجربة[19]. فقال رجالٌ من المسلمين، ممّن فاتهم حضور غزوة بدر ورَجَوا أَنْ يُصِيبُوا مِنَ الفضيلةِ ما أصاب أهل بدر:"يا رسول اللَّه، اُخْرُجْ بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنَّا جَبُنَّا عنهم وضَعُفنا"[20]. فما زالوا برسول اللَّه ﷺ حتى نزل على رأيهم ولبِسَ أداتهُ وتجهّز للخروج . ثم ندموا وقالُوا: استكرهنا رسولَ اللَّه ﷺ، ولم يكن لنا ذلك. فلما خرج عليهم رسول اللَّه ﷺ قالوا: يا رسول اللَّه: استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى اللَّه عليك، فقال رسول اللَّه ﷺ : ما ينبغي لنبي إذا لبِسَ لَأْمَتَهُ أن يضعها حتى يقاتل، فخرج رسول اللَّه ﷺ في ألفٍ من أصحابه[21]. حتى إذا كانوا بين أُحُدٍ والمدينة أدركهم المساء، فصلى المغرب، ثم صلى العشاء، وبات هنالك، وانتخب خمسين رجلًا لحراسة المعسكر يتجولون حوله، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري[22].

تَمرُّدِ المنافقين وانسحابهم :

وقبل طلوع الفجر بقليل سار الرسول ﷺ حتى إذا كان بالشّوط صلى الفجر، وكان بمقربة جدًا من العدوِّ فقد كان يراهم ويرونه، وهناك تمرد عبد الله بن أُبيّ المنافق، فانسحب بنحو ثلث العسكر– ثلاثمائة مقاتل – [23]، وقال: " أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتلُ أنفسنا هاهُنا أيها الناس"، فرجعَ بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والرَّيب، واتبعهم عبد اللَّه بن عمرو بن حرام، أخو بني سلمة، يقول: يا قوم، أذكِّركم اللَّه ألَّا تخذلوا قومكم ونبيّكم عندما حضر من عدوِّهم، فقالوا: لو نعلمُ أنّكم تقاتِلونَ لما أسلمناكم، ولكنَّا لا نرى أنهُ يكونُ قتالٌ. قال: فلمّا استعصوا عليه وأَبَوا إلَّا الانصراف عنهم، قال: أبعدَكُمُ اللَّه أعداءَ اللَّه، فسيُغنِي اللَّه عنكم نبيَّه[24]. وفي هؤلاء قال الله عزّ وجلّ:﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[25].

وقفة مع تبريرات المنافقين لانسحابهم :

تناقضت حُجج المنافقين التي ساقوها لتبرير انسحابهم، فزعيمهم قال: "أطاعهم وعصاني" يقصد رسول الله ﷺ، وهو يعلم أن رأي رسول الله ﷺ كان يوافق رأيه في عدم الخروج من المدينة، غير أن تطبيق مبدأ الشورى الذي اتّبعه الرسول ﷺ هو الذي ألزمه بالخروج رغم أنه كان كارهاً له. فليس في الأمر عصيان، وإنما اتّباعٌ لرأي الأغلبيّة، وهذا لوحده درس مستفاد من دروس القيادة الحكيمة الراشدة. ثم قال:"ما ندري علام نقتلُ أنفسنا هاهُنا" وهو يعني أنه يعلم بقتال سيقع، لكنّه يرفض فكرة المشاركة في قضية لا يرى أنها تخصّه. وعلى ذلك كان عليه أن لا يخرج من البداية، لكنه إنما خرج وفي نيّته الانسحاب عند هذا التوقيت الحرج حتى يربك ضعاف المسلمين الذين ربما كانوا يعتقدون أن النَّصر بالكثرة بالإضافة إلى توفيق الله. وكاد أن ينجح الخبيث في ذلك لولا أن الله ثبّت المسلمين فخيّب مكره ومكيدته، وأغنى الله عنهم نبيّه كما قال الصحابي عبد اللّه بن عمرو بن حرام رضي الله عنه. قال تعالى: فَثَبَّتَهُما اللَّهُ تَعَالَى:﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[26]. عن جابر بن عبد الله قال: نزلت هذه الآية فينا:﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بني سلمة، وبني حارثة، وما أحب أنها لم تنزل والله يقول: ﴿وَاللهُ وَلِيُّهُمَا﴾[27].

ومن جهة أخرى فإن موافقة النبي ﷺ على الخروج نزولاً على رأي الأغلبيّة لعلّ فيها منجاة من أمر آخر قد يكون دبّره ابن سلول، فهو منافق ظاهر النفاق، وما يدرينا لعله كان قد أبدى رأيه بالبقاء في المدينة والتحصّن بها، ليخفي ما هو أعظم وأدهى، وهو انقلابه على المسلمين داخل المدينة وانحيازه لقريش وحلفائها وبذلك يكون الخطر أعمّ وأشمل وأكثر فداحة، والله أعلم.

أما المنافقون الذين مع ابن سلول فقد ساقوا حجّة أخرى تتناقض رأي زعيمهم فقالوا:"لو نعلمُ أنّكم تقاتِلونَ لما أسلمناكم، ولكنَّا لا نرى أنه يكون قتال". ولا يخفى أن هذه الحجّة تناقض نفسها، فليس من المنطق أن يتجهز جيش لقتال جيش آخر موتور يطلب ثأراً أن يكون هناك احتمال بعدم الاقتتال فما بالك إذا كانوا يتحدثون بلُغة اليقين:"ولكنَّا لا نرى أنهُ يكونُ قتالٌ". فمن أين جاءهم اليقين؟. والحقيقة أنهم إنما كانوا قد اتفقوا قبل خروجهم على الانخذال من أجل إرباك المسلمين والضغط عليهم تمهيداً لخسارتهم المعركة.

موقف المنافق مِرْبَع بن قيظيٍّ :

بعد انسحاب ابن سلول بمن معه، قال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه: من رجل يخرج بنا على القوم من كَثَب: أي من قُرب، مِن طريق لا يمُرُّ بنا عليهم؟ فقال أبو خَيثَمة وكان مولى لبني حارثة بن الحارث: أنا يا رسول اللَّه، فنفذ به في حَرَّةِ بني حارثة، وبين أموالهم، حتى سلك في مال لمربع بن قيظي، وكان رجلًا منافقًا ضرير البصر، فلَمَّا سمع حِسَّ رسول اللَّهِ ﷺ ومن معه مِن المسلمين، قام يحثِي في وجوههم التراب، ويقول: إن كنتَ رسول اللَّه فإني لا أُحِلُّ لك أن تدخل حائطي. وأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: واَللَّه لو أعلمُ أني لا أصيبُ بها غيركَ يا محمد لضربتُ بها وجهك. فابتدرهُ القوم ليقتلوه، فقال رسول اللَّه ﷺ: لَا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصر[28].

ولم يتوقف كيد المنافقين للمسلمين حتى بعد المعركة، فقد أظهروا الشماتة ولم يراعوا أحوال الناس بعدها. قال تعالى:﴿الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[29]. فجعلوا من تخلفهم حكمة ومصلحة، وجعلوا من طاعة الرسول ﷺ مغرمًا ومَضرّة .

موقف الرسول من المنافقين في هذه الغزوة :

لم يُعقّب الرسول على خذلان ابن سلول لهم ونكوصه عن المعركة بالثلاثمائة مقاتل الذين معه، ولم يعاقبه على انسحابه وخذلانه لهم، وربما ذلك راجع إلى سببين، أوّلهما: ثقته ﷺ في أنّ النصر من عند الله، وأن الكثرة العددية لن تغني شيئاً إذا لم تكن كلُّ القلوب مخلصة لله وتقاتل لأجل إعلاء كلمته ومتوكلة عليه وحده، ويدلّ على ذلك ما حدث في موقعة بدر في السنة الثانية الهجرية فقد كانوا أقلّ بكثير من قوات قريش لكنهم انتصروا بمشيئة الله – عزّ وجل – وإرادته. ويؤكد ذلك أيضاً عدم استجابة الرسول لطلب الْأَنْصَار عندما استأذنوه ﷺ حينئذ في الاستعانَة بحلفائهم من يهود المدينة فقال: لَا حاجة لنا فيهم[30]. فثقتُهُ ﷺ بنصر الله منعته من الاستعانة بقوّة اليهود رغم حاجته لمزيد من المقاتلين. أما السبب الثاني فربّما يكون الرسول ﷺ قد ترك عقابَ عبدالله بن أبيّ بن سلول لمجتمع المدينة، فازدراء المجتمع لفرد منهم هو أيضاً من أشدّ أنواع العقاب، وهذا ما حدث بالفعل، فقد كان عبد الله بن أبيّ بن سلول يقوم كلّ جمعة إذا جلس رسول الله ﷺ فيقول:"أيّها الناس هذا رسول الله بين أظهركم أكرمكم الله به فانصروه وعزّروه، واسمعوا له وأطيعوا". ثم يجلس، حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس يا عدوَّ الله لستَ لذلك بأهل، وقد صنعتَ ما صنعتَ ، فخرج يتخطَّى رقاب الناس وهو يقول: واللَّه لكأنّما قلتُ بَجْرًا (شرًا) أَن قمتُ أُشَدِّدُ أمره. فلقيهُ رجل من الأنصار بباب المسجد، فقال: مالك؟ ويلك! قال: قمتُ أُشَدِّدُ أمره، فوثب عليَّ رجال من أصحابهِ يجذبونني ويعنِّفونني، لكأنّما قلتُ بجرًا أن قمتُ أُشَدِّدُ أمره، قال: ويلك! ارجع يستغفر لك رسول اللَّه ﷺ، قال: واللَّه ما أبتغي أن يستغفر لي[31].

أما عن موقف المنافق مِرْبَعِ بن قيظيٍّ، فقد نهى الرسول ﷺ ولكن حسبه أنه وصفه بأنّه أعمى القلب، أعمى البصر .

المبحث الثاني

موقف المنافقين من غزوتي بني النضير والخندق

أولاً – موقف المنافقين من غزوة بني النضير(4هـ):

بنو النضير هم قبيلة من قبائل اليهود القاطنين بالمدينة، كانت مساكنهم بالعوالي في الجنوب الشرقي بالمدينة، على وادي مدينب[32]، وكان بينهم وبين المدينة نحو ميلين أو ثلاثة، وكانوا يمتلكون نخلاً كثيراً بجوار المدينة[33].

أسباب الغزوة:

من أهم الأسباب التي دعت الرسول ﷺ لغزو يهود بني النضير ما يلي:

1 – نقضُ بني النضير لعهودهم التي عاهدوا الله ورسوله على الالتزام بها فقد استقبلوا أباسفيان بعد معركة بدر وأرشدوه إلى مواطن الضعف بالمدينة. وكان أبوسفيان عندما عاد إلى مكة عقب هزيمة قريش في معركة

بدر قد نذرَ أن لا يمسّ رأسه ماء من جنابة حتى يثأر من الرسول ﷺ وأصحابه بمن أصيب من قومه فخرج في مائتي راكِب فجاءوا بني النّضير ليلًا، فاستقبلهم سلام بن مشكم، وأكرمهم، وزودهم بأخبار النبي ﷺ وأصحابه، وخرجوا منه بالسّحر، فمرّوا برجلٍ من الأنصار مع أجير له في حرثه فقتلوه وقتلوا أجيرَه، وأشعلوا النار في الزرع، وهربوا. وبلغ الرسول ﷺ الخبر فأرسل وراءهم أصحابه ليدركوهم، وحتى لا يدركهم الطلبُ بدأ أبوسفيان ورهطه يتخففون من أثقالهم، ومن بين هذه الأثقال جُرُبُ السّوِيق، وهي قمح أو شعير يُقلى ثم يطحن ويُخلط بالماء أو السمن أو العسل، وهي عامّة زادِهم، فكان المسلمون يمرّون بها فيأخذونها، ولهذا السبب سُمّيَت تلك الغزوة غزوَة السّوِيق[34].

2 – محاولة اغتيال النبيّﷺ: خرج النبيّﷺ مع بعض أصحابه إلى ديار بني النضير يستعينهم في ديّة لقتيلين من بني عامر قتلهما عمرو بن أميّة الضّمري وهو لا يعلم أن رسول اللهﷺ قد أجارهما، فوجبت ديتهما. ولما كان بين الرسولﷺ وبين يهود بني النضير عهداً حول أداء الديّات، فقد قصدَ الرسولﷺ ديار بني النضير لهذا السبب[35]، واستقبل بنو النضير رسولَ اللهﷺ فقالوا: نعم نُعينك على ما أحبَبْتَ، ثم خلا بعضهم ببَعض وتآمروا على قتلِه، وهو جالس إلى جنب جدار، فقالوا: مَن يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيقتله ويريحنا منه؟. فانتدب له عمرو ابن جحاش، فنهاهم عن ذلك سلام بن مشكم وقال: هو يعلم. فلم يقبلوا منه، وصعِد عمرو بن جحاش، فأتى الخبر من السماء إلى رسول اللّه ﷺ بما عزموا عليه، فقام وخرج راجعًا إلى المدينةِ، فأخبر المسلمين الخبر، وبَعَثَ إِلَيْهِمْ ﷺ محمد بن مَسْلمة أن اخرجوا من بلدي فلا تُساكنوني بها وقد هممتم بما هممتم به من الغدر وقد أجّلتُكُم عشرًا فمن رُئِيَ بعد ذلك ضَرَبتُ عنقَهُ، فمكثوا على ذلك أيامًا يتجهّزون[36].

موقف المنافقين من حصار بني النضير:

وبينما هم كذلك أرسل إليهم رهطٌ من بني عوفِ بن الخزرج، منهم عبد اللّه بن أبيٍّ بن سلول ووديعة ومالك بن أبي قَوقَل، وسويد، وداعس، أرسلوا إلى بني النَّضير: أن لا تَخرُجوا من دياركم وأقيموا في حصنكم فإن معنا ألفين من قومنا وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن آخرهم وتمدُّكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان. فطمع حُيَيٌّ بن أخطب فيما قال ابن أُبَيٍّ فأرسل إلى رسول اللّه،ﷺ: إنَّا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدَا لك[37]. وقد فضح الله –عز وجلّ– موقف المنافقين هذا قبل أن يغزوهم الرسولﷺ فقال جلّ شأنه:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ*لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[38].

ولمّا توجّه الرسولﷺ إليهم تحصّنوا منه في الحصون[39]. فأمر رسول اللهﷺ بقطع النخل، والتحريق فيها، فنادوْه: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟، فدخل في نفوس بعض المسلمين شيء من كلامهم، فأنـــزل الله عزّ وجلّ :﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾[40].

انتظر بنو النضير أن يحقّق ابنُ سلول ورهطه من المنافقين وعدَهم، لكن لم يتحقق منه شيء[41]، وقذف اللّه في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول اللّهﷺ أن يجلّيهم ويكفَّ عن دمائهم، على أنّ لهم ما حملت الإبل من

أموالهم إلَا الحلقَةَ[42]، ففعل. فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نِجَافِ بابه –العتبة الَّتِي بِأَعْلَى الْبَاب– فيضعهُ على ظهر بعيره فينطلق به[43]. وحملوا النساء والصبيان وتحمَّلوا على ستمائَة بعير، فلحِقُوا بخيبر وحزن المنافقون عليهم حزنًا شديدًا[44]. قال تعالى :﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾[45] .

موقف الرسول من المنافقين في هذه الغزوة :

كان موقف المنافقين خيانة واضحة للمسلمين الذين من المفترض أنهم منهم، فقد ألّبوا اليهود على المسلمين ووعدوهم بالمؤازرة والنُصرة، لكنّ خوفهم من غضب الرسول ﷺ وعقابه منعهم من تنفيذ وعدهم الذي قطعوه لليهود، وكان من المنتظر أن يتخذ الرسول موقفاً حازماً بشأنهم لا سيما بعد ما نزل فيهم قرآن يفضح دسائسهم ويؤكد فعلتهم التي فعلوها، لكنه ﷺ آثر السكوت عنهم حتى لا تستنزف قوة المسلمين في حرب بينهم .

ثانياً – موقف المنافقين من غزوة الخندق (5هـ) :

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[46] .

أراد يهودُ بني النضير – ممن أقاموا في خيبر – أن ينتقموا من المسلمين بسبب ما حدث لهم، فقرروا أن يؤلّبوا المشركين من العرب على القدوم إلى المدينة للقضاء على الرسول ﷺ ومن معه من المسلمين، فيخمدوا بذلك دين الله – عز وجلّ – فلا تقم للمسلمين بعدها قائمة . فأرسلوا وفداً منهم : عبدُ اللَّه بن سلَامِ بن أبي الحُقَيق، وحُيَيُّ بن أَخْطَبَ، وكِنَانَةُ بن الرَّبِيع بن أبي الحُقَيق، وغيرهم، فقدِموا على قريش بمكَّة فدعَوهُم إلى حرب رسول اللَّه ﷺ وقالوا: نكونُ معكم حتى نستأصِلَه[47].

وهنا لابد من توضيحٍ مختصرٍ لجغرافية المدينة للوقوف على خطر بني قريظة في حال نقضهم للعهد، فالمدينة محصورة بين جبلين، ففي الجنوب الغربي يوجد جبل (عير)، وفي الشمال يوجد جبل (أحد)، وتُحيط الوديان بالمدينة من جهاتها الأربع، فكانت بيوت المدينة ملتصقة بالجبال بحيث تصعب مهاجمة المدينة إلا من جهة الشمال، وكان يهود بني قريظة يسكنون في الشمال الشرقي من المدينة وهي الجهة التي يمكن الدخول منها[48]. وعلى أي حال ، فقد أجابت قريش طلب اليهود، ثم توجه اليهود إلى غطفان، فدعوهم إلى حرب رسول اللَّه ﷺ وأخبروهم أنَّ قريشًا معهم على ذلك، فأجابوهم، فخرَجَت قريشٌ وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عُيَيْنَةُ بن حِصْنٍ في بني فزارة، والحارث بن عوف المُرِّيُّ في مُرَّةَ، ومِسْعَر بن رُخَيْلَةَ الْأَشْجَعِيُّ في أَشْجَع[49]. وكان جميع من وافوا الخندق ممن ذُكر من القبائل عشرة آلاف، وهم الأحزاب، وكانوا ثلاثة عساكر، وقيادتهم بيد أبي سفيان[50].

لما سمع رسول الله ﷺ بتجمّع قريش وحلفائها، استشار أصحابه، فأشار عليه الصحابي سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة، وعلى الفور باشرَ الرسول ﷺ في ضرْب خندق على المدينة، وعمل مع المسلمين بنفسه تحفيزاً لهم على العمل، حتى ينجزوا الخندقَ قبل وصول المشركين، فكان المسلمون يعملون بجدّ واجتهاد، وكان كُلّ مَن عَرَضَت له حاجة لابدّ منها استأذن الرسول ﷺ في قضائها، فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير وطلباً للأجر. وهؤلاء قال فيهم جلّ شأنه:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[51].

لكن المنافقين كان لهم موقف آخر، فقد كانوا يعملون ببطء وتكاسل، وكانوا يتسلّلون إلى أهليهم بغير علم من رسول اللّه ﷺ، ولا إذن، فأنزل اللّه في ذلك:﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[52]. ومنهم مَن كان يُحرّض الأنصارَ من أهل يثرب على الانسحاب من معسكر الرسول ﷺ ليتركوا المهاجرين يقاتلون لوحدهم، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾[53]. ومنهم مَن كانوا يستأذنون الرسول ﷺ بحجّة أنّ بيوتهم عورة، وأنّهم يخشون عليها من العدو، لأنها حسب زعمهم مكشوفة للعدو، ولا تجد من يحميها منهم، يقولون ذلك ذريعة لهم للخروج من ساحة المعركة من جهة، ومن جهة أخرى ليبثُّوا الضعف والوهن في صفوف المسلمين، ففضحهم الله – عزّ وجلّ – فقال : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا﴾[54] .

ولما اشتدَّ الحصار على المدينة من قِبَل الأحزاب، وجدها المنافقون فرصة ليسخروا من رسول الله ﷺ قال أحد المنافقين لرجل من صحابة النبيّ ﷺ : "يا فلان أرأيت إذ يقول رسول الله ﷺ:" إذا هلكَ قيصرُ فَلا قيصرَ بعدهُ، وإذا هلكَ كسرى فلا كسرى بعدهُ، والّذي نفسي بيده لتنفقنّ كنوزهما في سبيل الله "؟. فأين هذا من هذا، وأحدُنا لا يستطيع أن يخرج يبول من الخوف؟ ما وعدنا الله ورسوله إلا غُرورًا"؟ فقال له: كذبت، لأخبرنّ رسول الله ﷺ خبرك، قال: فأتى رسول الله ﷺ ، فأخبره، فدعاه فقال :" ما قلت؟ " فقال: " كذب عليّ يا رسول الله، ما قلت شيئًا، ما خرج هذا من فمي قطّ "[55]. فأنزل الله تعالى قوله : ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾[56] .

ولا يخفى ما لهذه الكلمة (ما وعدنا الله ورسولهُ إلا غُروراً) من كُفرٍ صريح، وطعنٍ في صدق الرسول ﷺ ولا يخفى مالها من أثر سلبي على نفوس المسلمين في هذا الظرف العصيب جداً. لا سيما بعدما اشتدّ الخطب على المسلمين عندما نكث يهود بني قريظة العهد مع المسلمين، وقد كانت ديار بني قريظة في الجنوب الشرقي للمدينة، فكان موقعهم يُمكّنهم من إيقاع ضربة بالمسلمين من الخلف. وحكاية ذلك أن حُيَيّ بن أخطب – سيد بني النضير – نجح في إقناع كعب بن أسد – سيد بني قريظة – بنقض العهد مع المسلمين مبيناً له قوة الأحزاب وأنهم قادرون على القضاء على المسلمين مواعداً له إن رجع الأحزاب عن المدينة أن يدخل معه حصنه، فأعلنت قريظة نقض العهد وحتى يتثبّت رسول الله ﷺ أرسل الرسول سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وقال لهما: "انطلقوا حتى تنظروا أَحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًا فَالْحَنُوا لي لحنًا نعرفه، ولا

تفُتُّوا في أعضاد النّاس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فأجهروا به للناس". فخرجوا حتّى أتَوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا:"لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد"[57]. وشاع الخبر بين المسلمين، فخافوا على نسائهم وأطفالهم من بني قريظة. وحُقّ لهم أن يخافوا فالأحزاب جاءوا فوقهم وبنو قريظة من أسفل منهم والمنافقون ظنوا بالله الظنونا. فأصاب المسلمين زلزال شديد وبلاء عظيم. وقد وصف الله – عزّ وجلّ – هذا البلاء العظيم، فقال جلّ شأنه:﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[58].

فالمنافقون قد اختاروا توقيتاً حَرِجاً ليضغطوا على المسلمين بإرجافهم وسخريتهم ليؤثّر ذلك على معنوياتهم، ويزلزل ثقتهم في الله ورسوله، لكنّ الله – عزّ وجلّ – خيّب مسعاهم فأظهر لرسوله ﷺ معجزات تزيد المؤمنين إيماناً وتثبّت قلوب الذين وقعَ في قلوبهم شيء ممّا أثاره المنافقون، فثبت المهاجرون والأنصار عند الخندق، وهم موقنون من نصر الله وتأييده. ومن هذه المعجزات ما رواه البراء بن عازب ﷺ إذ قال: " لمَّا كان حين أمَرَنا رسول اللَّه ﷺ بحفرِ الخندق، عَرَضَتْ لنا في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة لا تأخذُ فيها المعاولُ، قال: فشكَينَا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ فلمَّا رآها ألقى ثوبَهُ وأخذَ المِعولَ، وقال: بسم اللَّه، ثم ضرَبَ ضربة، فكسرَ ثلثها، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشّام، واللَّه إني لأُبصِرُ قصورها الحُمر السّاعة، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر، فقال: اللَّه أكبر أُعطِيتُ مفاتيح فارس، واللَّه إنِّي لأُبصِرُ قصر المدائن الأبيض، ثمّ ضرب الثّالثة، وقال: بسم اللَّه فقطع بقية الحجر"[59] .

معجزة أخرى :

وعن جَابِرٍ ﷺ ، أنه قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاءوا النبي ﷺ فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق، فقال:أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيباً أهيل، فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر فعندك شيء؟. قالت : عندي شعير وعناق . فذبحتُ العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي قد كادت تنضج قلت: طُعَيِّمٌ لي فقُم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان قال: كم هو فذكرت له، فقال : كثير طيب. قال: قل لها: لا تنزع البرمة ولا الخبر من التنور حتى آتي". فقال: قوموا فقام المهاجرون والأنصار. فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم قالت: هل سألك قلت: نعم. فقال: "ادخلوا ولا تضاغطوا"، فجعل يكسرُ الخبزَ ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتّنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرفُ حتى شبعوا وبقي بقية. قال: كلي هذا واهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة"[60] .

ولما طال الحصار دون جدوى ينالها المشركون ضعفت معنوياتهم، خاصة وأن غاياتهم كانت مختلفة، فقريش غايتها القضاء على المسلمين انتصاراً لوثنيتها، وإنهاء الخطر القائم بقيام المسلمين على طرق تجارتها، والأعراب كانوا طامعين في ثروات المدينة وثمارها لذلك فقد كانوا يرغبون في نصر سريع فلمّا طال الحصار

انتابهم الملل، أما اليهود فعلى الرغم من أنهم نقضوا العهد إلا أنهم كانوا متردّدين بحيث لم يدخلوا القتال خوفاً من أن ينهي الأحزاب الحصار ويجعلونهم يقفون وحدهم وجهاً لوجه أمام المسلمين .

ثم استجاب الله – عزّ وجلّ – لنبيّه أثناء الحصار: " أَللّهمّ مُنزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللّهمّ اهزمهم وزلزلهم"[61]. فأرسل ريحاً شديدة على الأحزاب كَفَأت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وملأت قلوبهم رعباً، فانقلبوا خاسرين، وفرح المؤمنون بنصر الله .

ولمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية، مكث بها حوالي عشرين ليلة، ثُمَّ خرج منها غازيًا إلى خيبر[62]– حيث بنو قريظة – بأمر من الله تعالى[63]. فحاصرهم الرسول ﷺ شهراً وخمسة عشر ليلة، فلما طال عليهم الحصار نزلوا على حكم رسول الله فردّ ﷺ الحكم فيهم إلى حليفهم سعد بن معاذ ، فحكم عليهم بأن تُقتَل المُقاتِلَةُ، وتُسبَى الذّريّةُ والنساء، وتُقَسَّم الأموال، فقال له رسول اللّه ﷺ: لقد حكمتَ فيهم بحكم اللّه من فوق سبع سموات[64] .

موقف الرسول من المنافقين في هذه الغزوة :

لقد عاقب رسول الله ﷺ يهود بني النظير، أشد العقاب، ولم يُعاقب المنافقين رغم أنهم أخطر على المسلمين من العدو الظاهر، بل كان يقبل أعذارهم، ويمنحهم الإذنَ كلّما طلبوه، ويُعالجُ الآثار السلبية التي تخلفها أعمالهم المُشينة، فكان ﷺ يصبر عليهم صبراً عظيماً فمن جهة لأنهم من المسلمين رغم وضوح نفاقهم، ومن جهة أخرى فإن مقابلة رسول الله ﷺ لخيانات المنافقين وإساءاتهم المتكررة بالصبر عليهم يزيد من كراهة الناس لهم، ومن جهة أخرى يعرفُ الناسُ خطرهم فلا يصغون لشائعاتهم، وهذا بدوره سيزيد من تماسك الجبهة الداخلية للمدينة تتمكن بواسطتها من مواجهة التطورات المتلاحقة على المسلمين جرّاء تكالب الأعداء عليهم من الخارج.

المبحث الثالث

موقف المنافقين من غزوتي بني المُصطلق وتبوك

أوّلاً – موقف المنافقين من غزوة بني المصطلق (المريسيع) شعبان (5هـ) :

وسبب الغزوة أن الحارث بن أبي ضرار بن حبيب سيد بني المصطلق، جمع لحرب رسول اللّه ﷺ من قومه ومن العرب جمعًا كبيرًا، فتهيّأوا ليسيروا إليه، فبلغ خبرهم رسول ﷺ فندب الناس وأخبرهم خبر عدوّهم، فأسرعوا الخروج، وخرج كثير من المنافقين ليصيبوا من عرض الدنيا، وكان مع رسول اللّه ﷺ من نسائه عائشة وأم سلمة رضي اللّه عنهما. ووصل الرسول ﷺ إلى المريسيع – وهو ماء لخزاعة – فلما بلغ القومَ مسيرُ رسول اللّه ﷺ تفرق عن الحارث مَن كان قد اجتمع إليه من العرب، وهزمهم الرسول ﷺ شرّ هزيمة[65].

وتعتبر هذه الغزوة من الغزوات الفريدة المباركة، فعندما تزوج رسول الله ﷺ من جويرية بن الحارث – زعيم بني المصطلق – حرّر الصحابةُ – رضي الله عنهم – كلَّ الأسرى الذين أصابوهم في تقسيم الغنائم إكراماً للنبي ﷺ لأن بني المصطلق أصبحوا أصهاراً لرسول اللهﷺ . فلما أسلمت جويرية وأسلم أبوها أسلمت القبيلة كلها[66].

هذا، وقد أعقبت هذه المعركة حادثتان عظيمتان كان وراءهما المنافقون كادت إحداهما أن تُحدث فتنة عظيمة بين المسلمين فعالجها الرسول ﷺ بحكمته وحُسن تدبيره، أما الثانية فهي محنة الإفك التي تعرضت لها أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – فحَسَمَها الله – عز وجلّ – بوحي وقرآن يُتلى إلى يوم الدين .

الحادثة الأولى : لمّا انتهت المعركة تجمع المسلمون على ماء المريسيع فتخاصم على الماء رجلان أحدهما (جهجاه) أجير عمر بن الخطاب، والآخر (سنان بن فروة) حليف عبدالله بن أبيّ بن سلول، فتدافعا فدفع جهجاه سنانَ – وقيل ضربه – حتى سال دمه، فنادى سنانُ: يا معشر الخزرج؛ ونادى جهجاه: يا لكنانة يالقريش؛ فأقبل جمع من الفريقين؛ وشهروا السلاح حتى كاد أن تكون فتنة عظيمة، فخرج رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة[67].

وكان ابنُ أُبَيّ جالسًا في عشرةٍ من المنافقين من بينهم: مالكٌ، وداعسٌ، وسُويدٌ، وأَوسُ بن قَيْظِيّ، ومُعَتّبُ بن قُشَيرٍ، وزيدُ بن اللّصَيْتِ، وعبدُ الله بنُ نَبْتَلَ، وكان معهم زيدُ بن أرقم وهو غلام حدَث، فلما أخبروه خبر جهجاه غضب وقال:"أوقد فعلوها؟، والله، ما رأيتُ كاليوم مذلّةً! والله، إن كنتُ لكارهاً لِوَجْهِي هذا – أي لِوجهَتي – ولكن قومي غلبوني!، قد نافرونا وكاثرونا في بلدنا، وأنكروا مِنّتنا. والله، ما صِرنا وجلابيبُ قريش هذه إلّا كما قال القائل: سَمّنْ كلبكَ يأكُلك. والله، لقد ظننت أنّي سأموتُ قبل أن أسمعَ هاتفاً يهتف بما هتف به جهجاهٌ وأنا حاضر. والله لَئِنْ رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجَن الأعزُّ منها الأذلّ. ثمّ التفت إلى مَن معه، وقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتمُوهُم بلادكم فنزلوا منازلكم، وآسيتموهم في أموالكم حتى استغنوا ! أما والله؛ لو أمسكتم بأيديكم لتحوّلوا إلى غير بلادكم، ثمّ لم يرضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا، فقتلتم دونه، فأيتمتُم أولادَكم، وقَلَلْتُم، وكثُرُوا "[68] .

فمشى الغلام زيد بن أرقم – بعدما سمع كلام ابن سلول – إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب ، فقال عمر: مُر عبَّادَ بن بِشرٍ فليقتله، فقال له رسول اللَّه ﷺ : فكيف يا عمرُ إذا تحدث الناس أنَّ محمدًا يقتلُ أصحابهُ؟ لا ولكن أَذِّن بِالرحيلِ، وذلك في ساعةٍ لم يكن رسول اللَّه ﷺ يرتحِل فيها، فارتحل الناس[69]. وقامَ نفرٌ مِن الأنصار سمعوا كلام زيد فجاءوا إلى ابن أُبَيّ فأخبروه، وقال أوسُ بن خَوْلِيّ: يا أبا الحُباب، إن كنت قلته فأخبِر النبيّ يستغفرْ لك، ولا تَجحده فينزل ما يُكَذّبُك. وإن كُنت لم تَقُلهُ فأتِ رسول الله فاعتذِر إليه واحلِفْ لرسول الله ما قلته. فأتَى إلى رسول الله ﷺ فقال له الرسول: يا ابن أُبَيّ، إن كانت سلَفَت منك مقالة فتُب . فحلف بالله أنه ما قال ما قال زيد، فقال من كان حاضراً من الأنصار: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه[70].

فلما سار رسول الله ﷺ، لقيهُ أُسَيدُ بن حُضَير، فحيَّاه وسأله: يا رسول اللَّه، واللَّه لقد رُحْتَ في ساعة مُنْكَرَةٍ، ما كنتَ تروح في مثلِها؟. فقال له رسول اللَّه ﷺ : أَوَمَا بلغكَ ما قال صاحبكم؟. قال: أيُّ صاحب يا رسول اللَّه؟ قال: عبد اللَّه بن أُبَيٍّ. قال: وما قال؟ قال: " زعم أنه إنْ رجعَ إِلَى المدينة؛ أخرَجَ الْأَعَزُّ منها الْأَذَلَّ . قال: فأنتَ واللَّه يا رسولَ اللَّه، تُخرِجهُ إن شئتَ، هو واللَّه الذَّليلُ وأنت العزيز[71].

وسار رسولُ الله ﷺ بالناس، حتى أَمسَوا، وفي الليل حتى أصبحوا، وصَدْرِ اليوم التالي حتى اشتدَّ الضحى[72]، وهنا تتجلّى حكمة الرسول ﷺ وتدبيره للقضاء على الفتنة، فأراد أن يرهق الناس بمشقة المسير

فينشغلوا بها عن الحديث عن ما بدرَ من ابن سلول من إساءة لرسول الله ﷺ حتى إذ ما نزل بالناس ولمسوا الأرضَ ناموا، وهذا ما حدث. وفي هذه الأثناء نزلت سورة (المنافقون)، السورة التي فضحت ابنَ سلول ورهطه من المنافقين، قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ*يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[73] .

وقبل أن تنزل السورة على رسول الله ﷺ كان قد وقع على زيد بن أرقم من الهمِّ ما لم يقع على أحد، وقد عاتبه عمّه فقال:"ما أَرَدْتَ أنْ مَقَتَكَ رسول اللهﷺ وكذَّبكَ المسلمون؟"[74] . ويذكرُ زيدُ بن أرقم أن رسول الله ﷺ لما نزلت سورة (المنافقون) أخذ بأذنه وهو يقول: "وَفَتْ أُذُنُك يا غلام، وصَدّقَ الله حديثك "[75] .

وكان لابن سلول ولدٌ مؤمن مخلص لله ورسوله يُسمّى عبدالله، فلما بلغَه ما كان من أمر أبيه، أتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنتَ فاعلاً فمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، وأخشى أن تأمر غيري بقتله، فلا تدعني نفسي أنظُر إلَى قَاتل أبي يمشي في النَاس فأقتلُه، فَأقتلُ مؤمنًا بكافِر فأدخلُ النّار . فقَال النَبي ﷺ:"بل نرفقُ به، ونُحسن صحبته ما بقي معنا"[76] .

ولما وصل المسلمون مشارف المدينة تصدى عبد الله لأبيه عبد الله بن أبيّ، وقال له : وراءك، فقال: مالك ويلك؟ قال: والله لا تجوز من ها هُنا حتى يأذن لك ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك، فأذن له[77] .

موقف الرسول – صلى الله عليه وسلم – من هذه الحادثة :

غضب رسول الله ﷺ من مقالة ابن سلول لأنها كادت أن تعصف بوحدة المسلمين، وبإيمان مَن جرفتهم العصبية منهم، لكنه ﷺ استمر في سياسته المعهودة تجاه المنافقين وهي سياسة الصبر والرفق، وكثيراً ما كان يجني من ورائها ثماراً عظيمة، فلما أشار عليه عمر بن الخطاب– رضي الله عنه – بقتل ابن سلول أجابه؛ بأن الناس سيتحدثون بأن محمداً يقتل أصحابه، فالمتربصين بالإسلام من العرب كُثُر، والمشوّشين على الدعوة الإسلامية كُثُر، ولن يفرّطوا في فرصة كهذه ليثبتوا لعرب الجزيرة أنّ الرسول ﷺ يقتل من يعارضه. ولما جاء عبدالله بن عبدالله بن أبيّ بن سلول إلى الرسول ﷺ يستأذنه أن يقتل أباه إن كان لابد من قتله فأجابه الرسول ﷺ بمنتهى الرفق: (بل نرفقُ به، ونُحسن صحبته ما بقي معنا) وكان لهذا الردّ من قِبَل الرسول ﷺ أثره الطيبُ في نفس عبدالله بن عبدالله بن أبيّ بن سلول مما جعله يبادر إلى منع أبيه ن دخول المدينة إلا بإذن من رسول الله ﷺ.

أما ابن سلول فقد اهتزت هيبته – بعد هذه الحادثة – في قلب ابنه قبل قلوب أتباعه حتى أنه إذا أحدث حدثاً كان قومه يعاتبونه ويعنّفونه، فقال رسول اللّه ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ، حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أمَا والله لو قتلتُهُ يوم قُلتَ لي اُقْتُلْهُ، لأُرْعِدَتْ له آنُفٌ، لو أمرتها اليوم بقتلهِ لقتلتْه. قَال عمر: قد واللّه عَلِمتُ لَأَمْرُ رسول اللّه ﷺ أعظم بركة من أمري[78] .

الحادثة الثانية (محنة الإفك) :

كان من عادة الرسول ﷺ كلما توجه إلى غزوة أن يُقرع بين نسائه ومن يقع عليها الاختيار ترافقه في الغزوة، وفي غزوة بني المصطلق وقع الاختيار على عائشة وأم سلمة – رضي الله عنهما – . وكانوا يجهزون لكل منهن هودجاً – وهو ما تركبه المرأة فوق الدابة بالسفر، أي غرفة صغيرة من خشب توضع فوق الدابة، وتركب فيها المرأة من أجل ألا ترى، وكان ذلك بعد أن نزلت آيات الحجاب – فذهبتا – رضي الله عنهما – مع الرسول إلى المعركة، وبعد انقضائها، نزل الرسول ﷺ وهو في طريق العودة إلى المدينة وقد شارف على الوصول إليها بالجيش بعض الوقت من الليل للرّاحة، وليقضي كل ذي حاجة حاجته، وكانت سيدتنا عائشة – رضي الله عنها – قد مضت لقضاء حاجتها وكانت تلبس عقداً أهدته لها أختها أسماء – رضي الله عنها – فانسلّ العقدُ من رقبتها دون أن تشعر به، ولم تفقده إلا عند وصولها إلى هودجها فرجعت من حيث أتت تطلب عقدها حتى وجدته، فلما عادت إلى الرّحلِ كان الجيش قد مضى، وحملوا هودجها على ظهر البعير وهم يظنّون أنها بداخله لخفة وزنها. فبقيت في مكانها لا تبرحه علّهم يفقدونها فيرجعون إليها، فغلبها النوم، ولم يوقظها إلا قول الصحابي صفوان بن المُعطّل – وكان قد تخلف لبعض حاجته – : إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ظَعينةُ رسول الله ﷺ. ما خلّفك يرحمك الله؟. لكنها لم تكلمه، فنزل عن ناقته وطلب منها أن تركب، واستأخر عنها، فركبت وأخذ برأس البعير وانطلق سريعاً يطلب الناس، حتى بلغ بها الجيشَ في قيظ الظهيرة، فرأى ابنُ سلول صفوان آخذا بزمام ناقة عائشة فقال: امرأةُ نبيِّكم باتتْ مع رجل، وَاللَّه ما نَجَتْ منه ولا نجا منها[79]. ونشأت من قول ابن سلول فتنة كبيرة، فنهش المنافقون من سمعة السيدة عائشة، وتكلم المتكلمون، وتعفف المتعففون، وتألم منه الرسول ﷺ أشدّ الألم . وتأثر به تأثراً بالغاً.

لم يكن لدى رسول الله ﷺ شكّ في عفاف عائشة – رضي الله عنها – وكان موقناً من براءتها وطهارتها، وأنها أنقى من ماء السماء، ولكن لا يليق به أن يشهد ببراءتها مع علمه بها؛ ثم ما الحجّة التي يثبت بها للناس أن كلَّ ما قيل إفكٌ افتراه المنافقون؟. هل يكفي أن يُذكّرهم بمنزلته عند الله – عزّ وجلّ – وأنّه أكرم عند الله من أن يُهدر عِرضُه؟. هل كانت هذه الحجّة البالغة كافية لتُلجم أفواه المنافقين؟. كان رسول الله ﷺ يعلم أن الأمر يحتاج إلى برهان قاطع يُخرس المتقوّلين، ولذلك كظم غيظه، وآثر الصمتَ حتى يجعل الله له ولها مخرجاً. غير أنّه ﷺ لم يعد مع عائشة – رضي الله عنها – كما كان من اللطف والبشاشة .

تقول أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – في معرض حديثها عن الإفك:"فقدمنا المدينة فاشتكَيتُ حينَ قدِمتُ شهرًا، والناس يُفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعرُ بشيءٍ من ذلك، وهو يَرِيبُنِي في وجعي، أنِّي لا أعرفُ من رسول اللَّه ﷺ اللطف الذي كنتُ أرى منه حين أشتَكي، إنما يدخلُ عليَّ رسولُ اللَّه ﷺ فيُسلِّمُ ثم يقول: "كيفَ تيكُمْ؟" ثمّ ينصرف، فذاك الذي يرِيبُني ولا أشعرُ بالشر حتى خرجتُ بعدما نَقَهْتُ"[80] . لم تعلم عائشة – رضي الله عنها – بما أحدث أصحاب الإفك من ضجّة بالمدينة إلا بعدما شفيت من مرضها . وعلمت أيضاً أن رسول الله ﷺ قد كتم عنها الخبر، وعرفت السبب وراء غياب بشاشته ولطفه معها، فاستأذنته ﷺ أن تمضي إلى بيت أبيها فأذِن لها . وفي بيت والدها علمت أن أبويها أيضاً كانا يعلمان الخبر ويكتمانه عنها، فضاقت عليها الأرض بما رحُبت، وحزنت حزناً شديداً، وتصف السيدة عائشة حالتها بعدما أدركت أن الكل

كان يعلم ما عداها، فتقول: "فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأُ لي دمع ولا أكتحلُ بنوم، ثم أصبحتُ أبكي"[81] .

ولما استبطأ رسول الله ﷺ الوحي استشار أصحابه، واستشار بُريرة مولاة عائشة – رضي الله عنها –، فشهدوا أنهم لا يعلمون منها إلا كلّ خير، وأن ما يُشاع عنها كذب وباطل . فاستعذر رسول الله ﷺ وهو على المنبر من رأس النفاق عبدالله بن أُبيّ بن سلول، فقال ﷺ : " يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي". فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقام سعد بن عبادة – وهو سيد الخزرج– وكان رجلًا صالحًا، ولكن أخذته الحميّة، فقال لسعد بن معاذ: كذبتَ لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله. فقام أسيد بن حضير – وهو ابن عم سعد ابن معاذ – فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنّه فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيّان الأوس والخزرج، حتى هَمُّوا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، وسكت[82] .

نزول الوحي بتبرئة عائشة رضي الله عنها :

وفي نزول الوحي بشأنها تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: " واللَّه ما كنتُ أظنّ أنّ اللَّه مُنزلٌ في شأني وحيٌ يُتلَى، ولشأني في نفسي كان أحقرَ من أن يتكلّم اللَّهُ فِيَّ بأمرٍ يُتلَى، ولكن كنتُ أرجو أن يرى رسول اللَّه ﷺ في النوم رُؤيا يُبرِّئُني اللَّه بها"[83]. فلما غشي رسول الله ﷺ ما كان يغشاه من الوحي، ثم سُرّي عنه، كانت أول كلمة قالها:" يا عائشة، إن الله قد أنزل براءتك"[84]. ثم تلا عليها رسول الله ﷺ قول الله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ* لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَـذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ*لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَـئِكَ عِندَ اللَّـهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ*وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ*إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّـهِ عَظِيمٌ*وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـذَا سُبْحَانَكَ هَـذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ*يَعِظُكُمُ اللَّـهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ*وَيُبَيِّنُ اللَّـهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّـهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[85]. وبذلك انطفأت نار الفتنة، وخزي الله الشيطان والمنافقين، وميّز الطيّب من الخبيث، بقرآن يُتلى إلى يوم الدّين، وألهَمَ المسلمين درساً من الدروس العظيمة في الصراع بين الحقّ والباطل . لذلك وصف الله هذا الأمر بقوله:﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فقد أسفرت هذه المحنة عن كثير من الحِكَم والحقائق إذ أظهرت أن النبي ﷺ لم يخرج بنبوته ورسالته، عن بشريته، يصيبه ما يصيب البشر من الابتلاء، كما أظهرت أن الوحي ليس خاضعاً للرسول ﷺ يستجيب له كلما طلبه، فقد غاب عن الرسول ﷺ وهو في هذه المحنة شهراً كاملاً، كما أكدت هذه المحنة على وجوب التثبت من الأقوال قبل نشرها، والتأكد من صحتها, حتى لا يقع الإنسان في الكذب والظلم، كذلك فقد ترتب على هذه الحادثة تشريع حد القذف وأهميته في المحافظة على أعراض المسلمين .

موقف الرسول ﷺ من المنافقين في هذه الحادثة :

بعد أن فشلوا في إثارة النعرة الجاهلية لإيقاع الخلاف والفرقة بين المهاجرين والأنصار حاول المنافقون الطّعن في عِرض النبي ﷺ بالافتراء على عائشة – رضي الله عنها – للنيل من النبي ﷺ ومن أهل بيته الأطهار، لإحداث الاضطراب والخلل في المجتمع الإسلامي . وكان عند رسول الله ﷺ من القرائن التي تشهد ببراءة الصِّدِّيقَة أكثر ممّا عند المؤمنين، ولكن لكمال صبرِهِ وثباته ورفقه وحُسنِ ظنه بربّهِ وثقته به، وَفَّى مقامَ الصّبر والثبات وحُسن الظَّنِّ باللّه حقَّهُ حتى جاءه الوحيُ بما أقرَّ عينَه، وسَرَّ قلبَهُ وعَظَّمَ قدرَهُ وظهَرَ لأُمَّتِهِ احتفالُ ربِّهِ به واعتناؤُهُ بشأنه[86].

وبعد أن نزل الوحي بتبرئة أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – أقام الرسول ﷺ حدَّ القذفِ على الصحابة الذين خاضوا في الإفك وساهموا في إشاعته وذلك بسبب ضعف نفوسهم، بينما لم يُقِم الحدَّ على عبدالله بن سلول، وقد قيل في سبب ذلك عدّة احتمالات، منها : أنّ الحدود تخفيفٌ عن أهلها وكفَّارةٌ، والخبيثُ ليس أهلاً لذلك، وقد وعَدَهُ اللّه بالعذاب العظيم في الآخرة، فيكفيه ذلك عن الحدِّ. ومنها أن الرسول ﷺ ترك حدَّه لمصلحة هي أعظم من إقامته كما تَرك قتلَه مع ظهور نفاقه وتَكلّمِهِ بما يُوجبُ قتلَهُ مِرَارًا، وهي تَأْليفُ قومه، وعدم تنفيرهم عن الإسلام، فقد كان مُطاعاً فيهم رئيساً عليهم[87] .

وحتى يُزيل الرسول ﷺ أثر الفتنة بين السّعدين (سعد بن مُعاذ وسعد بن عُبادة) وقومهما عقِبَ المُشادّة الكلاميّة التي جرت بينهما إثر استعذار الرسول من ابن سلول؛ أخذ رسول الله ﷺ بيد سعد بن مُعاذ مع نفر من قومه، فخرجَ به حتى دخلوا على سعد بن عُبادة ومن معه، فتحدّثا عنده ساعة، وقرّبَ سعدُ بن عُبادة طعاماً، فأصاب منه رسول الله ﷺ وسَعدُ بن مُعاذ ومن معه، ثم خرج رسول الله ﷺ فمكثَ أياماً، ثم أخذ بيد سعد بن عُبادة، ونَفَرٍ معه. ومضى به حتى دخل منزل سعد بن مُعاذ، فتحدثا ساعة وقرّبَ سعدُ بن معاذ طعاماً . فأصاب منه رسولُ الله ﷺ وسعدُ بن عُبادَة ومن معهم، ثم خرج رسول الله ﷺ[88] بعد أن اطمئنَّ إلى جلاء الضغينة بين الطرفين، وهنا أيضاً تتجلى حكمة رسول الله ﷺ وحُسن إدارته .

ثانياً – موقف المنافقين من غزوة تبوك (9هـ) :

سُمّيَت غزوة تبوك نسبة إلى عين تبوك بالأردن – وهي المكان الذي عسكر به جيش المسلمين – وسُمّيَت كذلك بغزوة العُسرة بسبب جدب البلاد، وشدّة الحرّ، وكان هذا الوقت أيضاً هو وقت نضج الثِّمَارُ، وَالناس يُحبّون المقام في ثمارهم وظِلالهم، ويكرهون الشّخوص إلى أي مكان في هذا الوقت[88]، ولذلك كانت هذه الغزوة اختباراً حقيقيّاً للمؤمنين، فبُعد المسافة، وشدّة الحَرّ، وعُسر الحال، يجعل من هذه الغزوة أمراً صعباً للغاية، وفيه الكثير من المشقّة، لا سيما وأنّ العدوَّ هذه المرّة هم الرّوم بما عُرف عنهم من حُسن إعدادهم للمعارك، وحسن تجهيزهم، وتنوّع أسلحتهم، وتطوّرها، وكثرة عديدهم. وهذه كُلّها عوامل تَميز الخبيث من الطيب، فتُظهر إيمان المؤمنين، ونفاق المنافقين، ولهذا سُمّيت هذه الغزوة كذلك الفاضحة لأنها فضحت أساليب المنافقين الخبيثة[89] .

علم الرسول ﷺ بتجمّع الروم مع بعض القبائل العربية لقتال المسلمين، فأراد أن يتوجّه لملاقاتهم بدلًا من انتظارهم بالمدينة، وكان من عادته ﷺ إذا أراد التوجه إلى غزوة ما أن يواري وجهته فلا يعلن عنها إلا في

حينه حتى لا يتسرب الخبر للأعداء فيأخذوا عدّتهم لذلك، إلا في هذه الغزوة فقد أعرب الرسول ﷺ عن وجهته وذلك لبُعد الطريق، وشدّة العدوّ؛ ليتأهّب الناس ويأخذوا عدّتهم، وبعث إلى القبائل يستنفرهم إلى عدوِّهم، وحثّ على النفقة والجهاد ورغّب فيه[90] .

وتبرّع الصحابة بأموالهم كُلٌّ حسب استطاعته لتجهيز الجيش، فلما اكتمل حشد الجيش الذي بلغ عدده ثلاثون ألفاً[91] توجّه بهم إلى تبوك، ولما وصلها لم يَرَ ﷺ بتبوك جيشاً كما كان قد سمع، فأقام هناك عشرين يوماً[92] ثم عاد أدراجه إلى المدينة دون أن يحدث صدام بين المسلمين والروم. وكان خروجهﷺ في رجب ورجوعه إلى المدينة في رمضان، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يوماً. أقام منها عشرين يوماً في تبوك، وبقية الأيام كانت بين ذهاب الجيش ومجيئه، وهي آخر غزوة غزاها الرسول ﷺ[93].

وقد أثبت الرسول ﷺ بهذه الغزوة قوّة الإسلام، وأمَّن الجبهة الشماليّة لشبه الجزيرة العربية، وبثّ الهيبة في النفوس، ومهّد لفتوح الشام التي استعد لها رسول الله ﷺ بإعداد جيش أسامة قبيل وفاته، فأنفذه أبوبكر الصدّيق – رضي الله عنه – بعد توليه الخلافة .

هذا؛ وقد وقعت الكثير من الأحداث في هذه الغزوة ولكنّ المجال لا يتّسع لذكرها، باعتبار أن هذه الدراسة تتمحور فقط حول دور المنافقين فيها، لهذا فإن المهمّ هنا هنا هو كشف أدوار المنافقين في هذه الغزوة، هذه الأدوار التي وقف الرسولﷺ وقفة حازمة رادعة بسبب خطورتها التي لا ينفع معها الصبر والمداراة .

انقسمت أدوار المنافقين في هذه الغزوة حسب مراحلها : مرحلة الإعداد للغزوة – مرحلة التوجه إلى تبوك – ومرحلة العودة إلى المدينة. ففي المرحلة الأولى بدأ المنافقون بتخذيل الناس، ودعوتهم إلى البقاء في المدينة، بحجّة أن الجوّ شديد الحرّ، وأنّ هذا الموسمَ موسمُ قطف الثمار[94]، وكان أول من فعل ذلك الجدّ بن قيس بن صخر عندما قال له الرسولﷺ: يا جَدُّ: هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟. قال أو تأذنُ لي ولا تفتنّي؟ فو اللَّه لقد عرف قومي ما أحدٌ أشدّ عجبًا بالنساء منّي، وإني لأخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهنّ. فقال ﷺ: قد أذنت لك . فجاءه ابنه عبد الله بن الجَدّ– وكان بدريًّا – فقال لأبيه : لِمَ ترُدّ على رسول الله ﷺ؟ فو الله ما في بني سلمة أكثر مالًا منك، ولا تخرج ولا تحمل أحدًا. قال: يا بنيّ، ما لي وللخروج في الريح والحرّ والعُسرة إلى بني الأصفر؟ والله، ما آمن خوفًا من بني الأصفر وإنّي في منزلي بخُرْبَى، فأذهبُ إليهم فأغزوهم، إنّي والله يا بنيّ عالمٌ بالدوائر. فأغلظَ له ابنه، فقال: لا والله، ولكنّه النفاق، والله، لينزلنّ على رسول الله ﷺ فيك قرآناً يقرأونه[95]. فنزل قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[96]. فلمّا نزلَتْ هذه الآية جاء ابنه إليه فقال: ألَم أقُل لك إنه سوف ينزلُ فيك قرآن يقرأه المسلمون؟. قال: اُسكت عني يا لُكَعُ، وَاللهِ؛ لا أنفَعُك بنافعة أبدًا، والله لأَنتَ أشدّ عَلَيّ من محمد[97]. ولم يكتفِ الجدّ بن قيس بالحصول على إذن رسول الله ﷺ بل مضى يُثبط قومه ويقول: لا تنفروا في الحرّ[98]. وقد ذكر القرآن هذا الموقف فقال تعالى :﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[99] .

موقف المنافق الجُلاس بن سويد :

وهو ممّن تخلّفَ من المنافقين في غزوة تبوك، فكان يُثبّط الناس عن الخروج، وكان يكفل ابناً لزوجته اسمه عُمير، وكان عمير حسن الإسلام، فسمع الجلاسَ يقول: والله؛ لئن كان محمد صادقًا لنحن شرّ من الحمير. فقال له عمير: يا جلاس، قد كُنتَ أحبّ الناس إليّ، وأحسنهم عندي أثراً، والله؛ لقد قلتَ مقالة لئن ذكرتها لتفضحنّك، ولئن كتمتُها لأهلِكنّ، وإحداهما أهون عليّ من الأخرى. فذكر للنّبيّ ﷺ مقالة الجُلاس، وكان رسول الله ﷺ قد أعطى الجُلاس مالًا من الصدقة لحاجته وكان فقيراً، فبعث النبي ﷺ إلى الجُلاس فسأله عمّا قال عمير، فحلف بالله ما تكلّم به قطّ، وأنّ عميرَ الكاذب – وَ كان عمير حاضرٌ عند النبي ﷺ فقام وهو يقول: اللهمّ، أنزِلْ على رسولك بيان ما تكلمتُ به. فأنزلَ الله تعالى على نبيه ﷺ:﴿يَحلِفونَ بِاللَّـــهِ ما قالوا وَلَقَد قالوا كَلِمَةَ الكُفرِ وَكَفَروا بَعدَ إِسلامِهِم وَهَمّوا بِما لَم يَنالوا وَما نَقَموا إِلّا أَن أَغناهُمُ اللَّـــهُ وَرَسولُهُ مِن فَضلِهِ فَإِن يَتوبوا يَكُ خَيرًا لَهُم وَإِن يَتَوَلَّوا يُعَذِّبهُمُ اللَّـــهُ عَذابًا أَليمًا فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ وَما لَهُم فِي الأَرضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصيرٍ﴾[100]. فقال الجُلاس لقد عرض الله عليّ التوبة، والله لقد قُلتُ ما قال عمير. واعترف بذنبه وحسُنت توبته ولم يمتنِع عن خير كان يصنعه لابن زوجته عمير، فكان ذلك ممّا قد عرفت به توبته[101].

وكان نفرٌ من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يُثبّطون الناس عن الغزو فبعث رسول اللّه ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر، وأمرهم أن يحرقوا عليهم الْبَيْت، ففعل ذلك طلحة[102]. لكن دعوتهم كانت قد تسربت إلى ضعاف القلوب فاستجاب لها كثيرٌ من المنافقين، فتخلّف منافقو الأعراب، وتخلف أغلب منافقي المدينة، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ يستأذنونه في التخلف مُبدين الأعذار الكاذبة، وكان الرسول ﷺ يأذن لهم في كل مرة، حتى عاتبه ربّه مُبيّناً نواياهم، فقال عز وجلّ:﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾[103].

ولم يكتفِ المنافقون بتخلفهم عن الغزوة وتثبيطهم للناس؛ بل كانوا يسخرون من صدقات الفقراء والأغنياء على حدّ سواء، فمثلاً لما تصدّق عبدالرحمن بن عوف بنصف ماله، قالوا : ما أعظم رياءه . ولما تصدّق أحد فقراء الصحابة ويُدعى أبوعقيل بنصف صاع من تمر، قالوا : إنّ الله لغنيٌّ عن صدقة هذا[104]. فقال فيهم الله عز وجلّ:﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[105] .

ولما أجمع الرسول ﷺ على المسير بالجيش، خلّف عليَّ بن أبي طالب – رضي الله عنه – على أهله وأمره بالبقاء فيهم، ثم سار فأقام عسكره على ثنيَّة الوداع، فقال المنافقون : ما خلّفه ألا استثقالاً له وتخففاً منه. فلمّا قالوا ذلك أخذ عليٌّ سلاحه، ثمّ خرج حتَّى لحق برسول اللَّه ﷺ فأخبره بِمَا قَالُوا، فَقَالَ : " كذبوا ولكنِّي خلَّفتك لِمَا تركتُ ورائي، فارجِع فاخلُفني في أهلي وأهلِكَ، أفلا ترضى يا عليُّ أن تكون مِنِّي بمنزلة هارون من موسى، إلَّا أنَّه لا نبيّ بعدي"؟. فرجع عليٌّ ومضى رسول اللَّه ﷺ في سَفَره [106] .

وفي المرحلة الثانية من الغزوة، استهل المنافقون نفاقهم بانسحاب عبدالله بن أبيّ بن سلول بجيشه وعاد إلى المدينة مبرراً فعلته هذه بقوله: "يغزو محمّد بني الأصفر مع جهد الحال والحرّ والبلد البعيد، أيحسب محمّد أن قتال بني الأصفر معه اللعب؟ والله لكأنّي أنظر إلى أصحابه مقرّنين في الحبال"[107]. ثم تخلف عن الجيش

عبدالله بن نبتل ورفاعة بن زيد وكانوا من عظماء المنافقين[108]. وكل مرة كان يتخلف رجل من المنافقين، فيقول المسلمون : يا رسول الله تخلَّف فلان، فيقول: دعوه إن يَكُ فيه خير فسيُلحِقه الله بكم، وإن يَكُ غير ذلك فقد أراحكم الله تعالى منه[109] .

وسار مع الجيش جماعة من المنافقين كانوا يقتنصون الفرصَ للكيد والتثبيط والإرجاف، فمثلاً كان المنافق وديعة بن ثابت ومعه رجل يقال له مَخشِي بن حُمَيِّر، يسيرون مع الجيش المُنطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض بحيث يسمع الجنود كلامهما:"أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم؟ واللَّه لكأنّي بكم غدًا مُقرَنين في الحبال". ثم ندم مخشي بن حُمَيِّر على مقالته، فقال: واللَّه لَوَدَدْتُ أني أُقاضَى على أن يُضربَ كلّ رجل منّا مائة جلدة، وأنّا نَنْفَلِتُ أن يُنزلَ اللَّه فينا قرآنًا لمقالتكم هذه. وأبلغ الله – عزّ وجلّ – رسوله ﷺ بمقالتهم، فقال الرسول ﷺ لعمَّار بن ياسر: أدرِك القومَ، فإنهم قد احترقوا – أي هلكوا في النار – ، فَسَلهُم عمّا قالوا، فإن أنكروا فقل : بلى قد قُلتُم كذا وكذا. فلما قال لهم عمّار ذلكَ، أتوا رسول اللَّه ﷺ يعتذرون إليه، فَقَال المنافق وديعة بن ثابت : يا رسول اللَّه، كُنّا نخوض ونلعب، فأنزل اللَّه – عَزَّ وجَلَّ – فيهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ*لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[110]. ويبدو أن نَدَمَ مَخشي بن حُمَيّر على مقالته قد نفعه عند الله – عزّ وجلّ – فقيل إنه هو الذي عُفي عنه في هذه الآية. وقال مَخْشِيٌّ: يا رسول اللَّه، قَعَدَ بي اسمي واسم أبي – أي وضَعَ من قدري وقيمتي – فسُمِّي عبد الرحمن، وسأل اللَّه أن يقتله شهيدًا لا يُعْلَمُ مكانه، فقُتِلَ يوم اليمامة فلم يوجد له أثر[111].

موقف المنافق زيد بن اللصيت:

ولما توقف الجيش للراحة وهو في الطريق إلى تبوك، فُقدت ناقة رسول اللَّه ﷺ (القصواء) من بين الإبل وهي سارحة، فتفرق المسلمون في كل وجه لطلبها، فقال المنافق زيد بن اللصيت: أليسَ يزعمُ أنه نبيّ ويُخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟، فأنكر المسلمون قوله وكادوا أن يبطشوا به لولا أنه لاذ برسول الله ﷺ وكان قد جاءه الوحي يخبره بمقالة المنافق ، فقال الرسول ﷺ والمنافق يسمع : إن رجلاً من المنافقين شَمَتَ أن ضلّت ناقة رسول اللَّه وقال: ألا يخبره اللَّه بمكانها؟ فلعمري أن محمداً ليُخبرُ بأعظم من شأن الناقة، ولا يعلم الغيب إلا اللَّه، وإن اللَّه قد أخبرني بمكانها، وأنها في هذا الشعب: مقابلكم، قد تعلق زمامها بشجرة، فاعمدوا عمدها . فذهبوا فأتوا بها من حيث قال رسول اللَّهﷺ[112] .

أما في المرحلة الثالثة – مرحلة العودة إلى المدينة – فقد بدر من المنافقين ما هو أبشع من كل مواقفهم السابقة، فقد وصل بهم الأمر إلى التفكير في اغتيال الرسول ﷺ بدفعه من رأس عقبة في الطريق إلى قاع الوادي. وقد رسموا خطتهم على أن راكبي الخيل والإبل سيتزاحمون حول الرسول ﷺ في هذه العقبة، وسيكون من السهل عليهم في غمرة الازدحام وتحت جنح الليل أن يُسقطوا النبي ﷺ من على ظهر الناقة إلى الوادي . فإذا ما سقط في الوادي ومات بدا الأمر كأنه قضاء وقدر. لكنّ الله – عزّ وجلّ – أخبر نبيّه ﷺ بما يحيكه المنافقون ضدّه، فعمل الرسولﷺ على إحباط مؤامرتهم، فأمر الجيش كله بأن يسلك الوادي، وسلك هو ﷺ طريق العقبة ومعه عمّار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، ورغم ذلك استمر المنافقون في تنفيذ مخططهم فقد ظنّوا

أن أمْرَ الرسول للجيش بالمسير عبر الوادي قد سهل عليهم مهمتهم، فظلمة الليل ستساعدهم في مفاجأة الرسول في طريق العقبة ومن ثم يزحموا جميعهم ناقته بركابهم ويلجئوها إلى حافة الوادي حتى يقع النبي من عليها إلى قعر الوادي، وهذا ما حاولوا فعله، فقد تلثموا حتى لا يتمكن أحد من معرفتهم، فلما مرّ الرسول من على العقبة، دَنَوا بركابهم، وكان عددهم اثنا عشر وقيل ثلاثة عشر، فأمر الرسول ﷺ حذيفة بمهاجمتهم، فهاجمهم حذيفة وأخذ يضرب وجوه رواحلهم، فخافوا أن يعرفهم أو يعرف أحداً منهم فانسحبوا سريعاً حتى خالطوا الناس في بطن الوادي، ولذلك قال الله تعالى : ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾[113] . فلما خرج الرسول ﷺ من العقبة سأل حذيفة إن كان قد عرفهم أو عرف أحدهم، فأخبره حذيفة أنّهم كانوا ملثّمين، وأنّه عرف راحلة واحد أو اثنين منهم. فقال الرسول ﷺ لحذيفة وعمار: هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟ قالوا: لا والله يا رسول الله، قال: فإنهم مَكرُوا ليسيروا معي حتّى إذا أظلمت في العقبة طرحوني منها، فسمّاهم لهما، وقال: اكتماهم[114] .

فلما أصبح رسول اللّه ﷺ قال له أسيد بن الحضير: يا رسول اللّه، ما منعك البارحة من سلوك الوادي، فقد كان أسهل؟ فقال: يا أبا يحي؛ أتدري ما أراد البارحة المنافقون وما همّوا به؟، قالوا: نتبعه في العقبة، فإذا أظلم الليل قطعوا أنساع[115] راحلتي ونخسوها حتى يطرحوني عن راحلتي؟. فقال أسيد: يا رسول اللّه، فقد اجتمع الناس ونزلوا، فمر كلّ بطن أن يقتل الرجل الّذي همّ بهذا، فيكون الرجل الّذي يقتله من عشيرته، وإن أحببت فنبّئني بهم، فو الّذي بعثك بالحق لا تبرح حتى آتيك برءوسهم، وإن كانوا في النّبيت[116] كفيتهم، وأمرت سيد الخزرج فكفاك من ناحيته، فإن مثل هؤلاء لا يتركون يا رسول اللّه. حتى متى نداهنهم، وقد صاروا اليوم في القلّة والذلّة وضرب الإسلام بجرانه؟ فما تستبقي من هؤلاء؟. قال: يا أسيد إني أكره أن يقول الناس إن محمدًا – لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين– وضع يده في قتل أصحابه. فقال: يا رسول اللّه، وهؤلاء ليسوا بأصحاب. قال: أو ليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا اللّه؟ قال: بلى، ولا شهادة لهم. قال: أوليس يُظهرون أنّي رسول اللّه؟. قال: بلى، ولا شهادة لهم . قال: فقد نهيت عن قتل أولئك[117] .

مسجد الضّرار :

شيّد المنافقون مسجداً لهم في ضاحية قباء التي تبعد عن المدينة حوالي ميلين لما فيها من الهدوء، ولبعدها عن المدينة[118]، وذلك بناء على طلب أبي عامر الراهب الخزرجي النصراني الذي ناصب اللهَ ورسولَه العداء، ورفض دعوة الرسول ﷺ له إلى الإسلام، وحرّض قريشاً وحلفاءها على محاربة الرسول، وانتهى به المقام في أرض الشام حيث توجّه إلى هرقل قيصر الروم يستنجده ويطلب منه العون والمؤازرة على إجلاء المسلمين عن المدينة، فلما وعده قيصر بالنصرة أرسل إلى المنافقين في المدينة يعدهم ويمنّيهم، وطلب منهم أن يتّخذوا معقلاً يقدم فيه عليهم مَن يقدم من عنده بكتبه، ويكون مكاناً يجتمعون فيه ويرصدون حركة النبي وصحبه وأخبارهم[119] .

ولما بنوا المسجد أتوا إلى رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك وأخبروه أنهم بنوا مسجداً لذي الحاجة، والعلّة والليلة المطيرة، وأنّهم يرغبون في أن يصلي رسول الله ﷺ فيه، ويدعو له ولهم بالبركة. وما فعلوا ذلك

إلا ليأخذوا موافقة النبي ﷺعلى أن يكون لهم مسجدهم يتآمرون فيه بحريّة تامة، ولا يشكّ المسلمون فيهم. وأجابهم الرسول ﷺ بأنه الآن على سفر وأنه إذا قدم من تبوك فسوف يصلي في مسجدهم. فلما عاد الرسول ﷺ ووصل إلى مكان اسمه ذِي أوان- بينه وبين المدينة ساعة من نهار – أخبره الله – عزّ وجلّ – خبرَ المسجدَ وأهله وغايتهم من وراء تأسيسه[120]، قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ* لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ*أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ*لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[121]. فما كان من الرسول ﷺ إلا أن أمرَ أصحابه بهدمه وحرقه، فهدموه وأحرقوه، وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً [122] .

ولما دخل الرسول ﷺ المدينة، صار الناس يُعرضون عن المنافقين، حتى إن الرجل ليُعرض عن أبيه وأخيه وعمه، فجاء المخلفون إلى النبي ﷺ واعتذروا له بالحُمّى والأسقام، فقبل علانيتهم وأيمانهم، واستغفر لهم، ووكَلَ سرائرهم إلى اللّه[123] . لكنّ ذلك لم يُجدِ معهم شيئاً فقد سخروا من الرسول ﷺ لأنه غفر لهم، وقال عنه المنافق نبتل بن الحارث: إنما محمد أُذُنٌ، مَن حدَّثه شيئًا صدّقَهُ[124]. ففضحهم الله- عز وجل – بقوله:﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[125]. وأما عن استغفار الرسول ﷺ لهم؛ فقد قال تعالى مخاطباً نبيه الكريم:﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[126] .

موت عبدالله بن أبيّ بن سلول:

وفي شهر ذي القعدة من السنة التاسعة للهجرة مات عبدالله بن أبيّ بن سلول، فجاء ابنه عبدالله إلى الرسول ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام ليصلي عليه، فاعترض عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وأخذ يعدّد للرسول ﷺ أقوال ابن أبيّ وأفعاله ليمنعه من الصلاة عليه، فقال الرسول ﷺ لعمر: أخِّر عني يا عمر، فإنّي خيرت فاخترت، وقد قيل لي:﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ولو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له زدت عليه. فصلّى عليه. فما مكث رسول الله ﷺ بعد صلاته على ابن سلول كثيراً حتى نزلت الآية من سورة براءة[127]: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾[128] .

وقفة مع موقف الرسول من المنافقين في هذه الغزوة :

اختلفت ردود فعل الرسول ﷺ حول أقوال المنافقين وأفعالهم، فتراوحت بين الصبر والأناة والرفق تارة، وبين الحزم والشدّة تارة أخرى فعندما يكون عمل المنافقين أو أقوالهم تمسّ الرسول وحده كان يصبر ويحتمل، ولا يعاقبهم لا بالقتل، طاعة لله – عزّ وجلّ – الذي لم يأمره بقتلهم، ولا بما هو دون القتل أملاً في

لِين قلوبهم، أو مراعاة لأبنائهم وأقربائهم، أو خوفاً من أن تقول عنه العرب أنه يقتل أصحابه أو يؤذيهم، لذلك فقد كان يرفض مشورة أصحابه بقتل المنافقين، بل كان يقبل من المنافقين أعذارهم، ويقيل عثراتهم، ويُصدّق علانيتهم، ويترك سرائرهم إلى الله عز وجل. حتى إنه ﷺ صلّى على عبدالله بن أبيّ بن سلول – الذي آذاه في عِرضه بالوشاية – ودعا له بالرحمة والمغفرة .

وقد كانت هذه السياسة التي اتبعها الرسول ﷺ تفضي إلى نتيجتين لا ثالثة لهما، فإما أن تظهر حقيقة المنافقين واضحة جليّة لدى الناس فيُعرضوا عنهم، وينبذونهم، ويعذرون الرسول ﷺ في حال اتخذ أي إجراء ضدهم، فلا يتعصبون لهم. وإما أن يكون لهذه السياسة اثرها في توبة بعضهم، مثلما حدث مع الجُلاس بن سويد، ومخشي ابن حميّر، وغيرهم .

وأما عن سياسة الحزم فلا يتبعها الرسول ﷺ إلا إذا ظهر من المنافقين ما قد يؤثر على المسلمين ووحدتهم فإن فعلوا اتخذ الرسول ﷺ موقفاً حازماً يقطع به دابر تدبيرهم ومكرهم، مثلما فعل ببيت سويلم اليهودي الذي كان يجتمع فيه المنافقون المثبّطون للمسلمين عن الالتحاق بجيش العسرة. ومثلما فعل بمسجد الضرار الذي كاد أن يكون مأوى لأعداء الدّين من المنافقين .

الخاتمة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، والحمد لله حتى يرضى ، أما بعد ..

فإن الدارس لمواقف المنافقين من غزوات الرسول ﷺ يُدرك أنّهم أخطر على المسلمين من العدو الصّريح، فهم قد حفظوا أرواحهم بادّعاء دخولهم في الإسلام بحيث يجري عليهم ما يجري على المسلمين من أحكام في الدنيا، فلم يأمر الله – عز وجلّ بقتلهم، ولا بتعذيبهم، ولا بسجنهم، أو نفيهم عن البلاد، ممّا وفّر لهم الحماية التي بدورها وفّرت لهم مرتعاً خصيباً لممارسة نفاقهم وأذاهم للمسلمين. لكن القرآن الكريم كان في كل مرّة يفضحهم للمسلمين، ويكشف تدبيرهم، ويُعلن عن أسرارهم، ويحذر الرسول والمسلمين منهم، قال تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[129] . وكان الحذر منهم يتطلب من الرسول الكريم ﷺ الحكمة البالغة في التصرف حيال أقوالهم وأفعالهم، فكثير من المنافقين كانوا ذوي حظوة عند بني قومهم، وكان المسلمون ما يزالون قريبي عهد بالجاهلية والعصبية القبليّة، لذلك فإن حدّة الرسول ﷺ في التعامل معهم قد تعطي نتائج عكسية فيتعصب قوم المنافق له رغم معرفتهم بنفاقه وعدائه للإسلام فيخسرون الدنيا والآخرة، وهذا ما لم يكن نبي الهداية والرحمة يهدف إليه من وراء دعوته لله عز وجل . وعلى ذلك فقد اتبع الرسول ﷺ سياسة اللين تارة والحزم تارة أخرى، وكانت نتائج هذه السياسة عظيمة ومثمرة، فقد هانوا على قومهم إلى الحد الذي طلب فيه بعضهم من الرسول ﷺ أن يقتلهم، ولم تعد مكائدهم تجد من يصغي لها، فكفّ الله – عز وجل – أذاهم عن المسلمين بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعها الرسول ﷺ معهم .

النتائج :

من خلال هذه الدراسة يمكن أن نستخلص من منهج الرسول ﷺ في التعامل مع المنافقين عدّة نتائج ، منها : الصبر على أذى الآخرين حتى يجعل الله مخرجاً – عدم التشهير بمن نظن بهم السوء– الحكم على ظاهر الناس وليس على باطنهم ونواياهم – الاستماع إلى آراء الآخرين وقبولها إن لم يكن في قبولها ضرر أو كان في قبولها دفع لشرّ أو أذى – أسلوب التدرج من اللين إلى الشدّة ومن التسامح إلى المواجهة– وأسلوب الحزم إن لم يكن من الحزم بُدّ .

التوصيات :

إن سيرة الرسول ﷺ تُعين على فهم شخصته ﷺ من خلال حياته وظروفه التي عاش فيها . و تجعل بين أيدينا صورة للمثل الأعلى في كل شأن من شؤون الحياة، وتُعين على فهم كتاب الله ومقاصده، فقد جعل الله تعالى الرسولَ محمداً ﷺ قدوة للإنسانية كلها حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**﴾[130]. لذلك فإن هذه الدراسة توصي بالتوسع في تدريس مادّة السيرة النبويّة بحيث تشمل كافة التخصصات في المراحل الجامعية المختلفة سواء في العلوم الإنسانية أو التطبيقية ، حتى نكسب أجيالاً تتخذ من منهج الرسول الكريم ﷺ منهاجاً في الحياتين العلمية والعمليّة، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من صحوة عامّة في المجتمع وفي كل مؤسسات الدولة، ممّا يخلق أرضية متينة، وبيئة صالحة للبناء والنهضة والحضارة .

هوامش البحث :

1– الفيروزآبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب " ت : 817هـ " (2005م): القاموس المحيط ، تح : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، ط8 ، بيروت ، ص 926

2 – ابن كثير ، أبوالفداء إسماعيل بن عمر " ت : 774هـ" (1999م): تفسير القرآن العظيم ، تح : سامي بن محمد السّلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط2 ، الرياض ، 1 / 176

3 – ضيف ، شوقي ، وآخرون (2003م): المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ، ط4 ،القاهرة ، ص 942

4 – سورة التوبة ، الآية 101

5 – يوم بعاث : هو اليوم الذي تقول فيه عائشة رضي الله عنها كما في الصحيح «كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله صلّى الله عليه وسلّم في دخولهم في الإسلام، فقدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقد افترق ملؤهم وقتلت سراتهم» يعني الأوس والخزرج، ومعناه أنه قتل فيه من أكابرهم من كان لا يؤمن أن يتكبر ويأنف أن يدخل في الإسلام لتصلبه في أمر الجاهلية ولشدة شكيمته حتى لا يكون تحت حكم غيره، وقد كان بقي منهم من هذا النمط عبد الله بن أبيّ بن سلول . = السمهودي ، نورالدين علي بن عبدالله بن أحمد " ت : 911هـ" (1419هـ) : وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 172/1

6 – ينظر حسن ، علي إبراهيم (1963م) : التاريخ الاسلامي العام ، مكتبة النهضة المصرية ، ط 3 ، القاهرة ، ص ص 118– 119

7 – البخاري, محمد بن إسماعيل أبوعبدالله الجعفي " ت : 256هـ" (1422هـ) : صحيح البخاري , تح : محمد زهير بن ناصر ، دار طوق النجاة، ط1 ، بيروت،كتاب الاستئذان, باب: التسليم في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين,6/8 رقم الحديث 6254

8 – ينظر البخاري : المصدر السابق ، 45/8 باب كنية المشرك ، رقم الحديث 6207

9 – سورة البقرة : الآية 8 – 10

10 – ينظر ابن هشام ، عبدالملك بن هشام بن أيوب " ت : 213هـ" (1955م) : السيرة النبويّة ، تح : مصطفى السقا ، وآخرون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ط2 ، القاهرة، 1 / 503 – 504 .

11 – سورة آل عمران : الآية 13

12 – ابن سيد الناس ، محمد بن محمد بن محمد اليعمري " ت : 734هـ " (1993م) : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، تح : إبراهيم محمد رمضان ، دار القلم ، ط1، بيروت ، 1/ 343–344

13– ينظر ابن الأثـــير , عزّ الدّين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبدالكريم : ت : 630 هـ" (1987 م) : الكامل في التاريخ ، تح : أبوالفداء عبدالله القاضي ، دار الكتب العلمية ، ط1، بيروت, 33/2

14 – ابن سيد الناس : المصدر السابق ، 1 / 344

15 – الحَـمـــــوي , شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت " ت : 626 هـ "
(1977م) : معجم البلدان , دار صادر ، بيروت, 130/1

16 – ينظر ابن هشام : المصدر السابق ، 2/ 48

17 – سورة المائدة ، الآيتان 51–52

18 – الطبري ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب "ت:310هـ" (1387هـ) : تاريخ الرسل والملوك ، دار التراث ، ط2 ، بيروت، 502/2

19 – الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد السلمي " ت : 207هـ" (1989م) : المغازي ، تح : مارسدن جونس ، دار الأعلمي ، ط3، بيروت، 210/1

20 – البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى " ت:458هـ" (1405هـ) : دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت ، 205/3

21 – ابن هشام : المصدر السابق ، 2 / 63

22 – المباركفوري ، صفيّ الرحمن (د . ت) : الرحيق المختوم ، دار الهلال ، ط1، بيروت ، ص 229

23– المرجع نفسه ، ص 229

24– ابن هشام : المصدر السابق ، 2 / 64

25 – سورة آل عمران ، الآية 167

26 – سورة آل عمران ، الآية 122

27 – ابن كثير : المصدر السابق ، 100/2

28 – ابن هشام : المصدر السابق ، 2 / 65

29 – سورة : آل عمران الآية 168

30 – ابن كثير : البداية والنهاية ، 350/5

31 – ابن هشام : المصدر السابق ، 105/2

32– الأنصاري، عبدالقدوس بن القاسم بن محمد بن محمد " ت: 1906م" (1393هـ) : آثار المدينة المنورة، دار العلم للملايين، بيروت، ص 65

33 – آل عابد، أبو بدر محمد بن بكر (1994م) : حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، دار الغرب الاسلامي، ط1 تونس، 242/1

34 – ينظر الواقدي : المصدر السابق ، 182/1

35 – ينظر الطبري : المصدر السابق ، 2 /551

36 – ابن سعد، أبو عبدالله محمد " ت: 230هـ" (1968م) : الطبقات الكبرى، تح : إحسان عباس، دار صادر ، ط1، بيروت، 57/2

37 – المصدر نفسه ، 57/2

38 – سورة الحشر : الآيتان ، 11 – 12

39 – ينظر ، ابن الأثير : المصدر السابق ، 60/2

40 – سورة الحشر : الآية 5

41 – ينظر ابن هشام : المصدر السابق ، 191/2

42 – الحلقة : السلاح كله، أو خاص بالدروع .

43 – ابن هشام : المصدر السابق ، 191/2

44 – ابن سعد : المصدر السابق ، 58/2

45 – سورة الحشر : الآية 2

46 – سورة الأحزاب : الآيتان ، 9 – 11

47 – شاكر، عبدالحميد (1996م) : غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، دار جروس برس ، ط1، طرابلس ، ص 70

48 – عبيد ، منصور الرفاعي (2001م) : غزوة الأحزاب ومابعدها ، الدار الثقافية للنشر ، ط1، القاهرة ، ص19

49 – ابن الأثير : المصدر السابق ، 65/2

50 – سورة النور ، الآية 62

51 – سورة النور : الآية 63

52 – سورة الأحزاب : الآية 13

53 – سورة الأحزاب : الآية 13

54 – الطبري (2001م): جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، تح : عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، دار هجر للطباعة والنشر ، ط1، الجيزة 39/19

55 – سورة الأحزاب : الآية 12

56 – الطبري : المصدر السابق ، 52/2

57 – سورة الأحزاب : الآية 10

58 – ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد " ت : 597هـ" (1992م) : المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تح : محمد عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، 229/3

59 – البخاري : المصدر السابق ، 108/5

60 – البخاري : المصدر السابق ، 44/4

61 – البيهقي : المصدر السابق ، 195/4

62 – الواقدي : المصدر السابق ، 497/2

63 – ينظر ابن الأثير : المصدر السابق ، 71/2

64 – ينظر المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر " ت : 845هـ" (1999م) : إمتاع الأسماع بما للنبي من الأموال والأحوال والحفدة والمتاع ، تح : محمد عبدالحميد النميسي ، دار الكتب العلمية ،ط1 ،بيروت، 1/ ص ص 203- 204 .

65 – ينظر الصلابي، علي (2007م) : غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم دروس وعبر ، مؤسسة اقرأ ، ط1، القاهرة، ص 174

66 – ينظر الحلبي ، علي بن إبراهيم بن أحمد : ت : 1044هـ" (1427هـ) : السيرة الحلبية ، دار الكتب العلمية، بيروت، 387/2 .

67 – الواقدي : المصدر السابق ، 2/ ص ص 416- 417

68 – ابن هشام : المصدر السابق ، 291/2

69 – المصدر نفسه ، 417/2

70 – ابن كثير : البداية والنهاية ، 6/ ص ص 185 – 186

71 – ابن هشام : المصدر السابق ، 292/2

72 – سورة المنافقون : الآيتان 7 – 8

73 – البيهقي : المصدر السابق ، 55/4

74 – الواقدي : المصدر السابق ، 420/2

75 – ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، 77/2

76 – القحطاني ، محمد بن سعيد بن سالم (1990م) : الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف، دار طيبة، ط1، الرياض ، ص 209

77 – ابن هشام : المصدر السابق ، 293/2

78 – القرطبي، أبوعبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر "ت: 671هـ" (1964م) : الجامع لأحكام القرآن ، تح : أحمد البردوني، دار الكتب المصرية ، ط2، القاهرة، 199/12

79 – البخاري : المصدر السابق ، 101/6

80 – النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري "ت: 261هـ" (د . ت) : صحيح مسلم ، تح: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، 2129/4 كتاب التوبة ، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف ، رقم الحديث 2770

81 – العلي، إبراهيم بن محمد بن الحسين "ت : 1425هـ" (1995م) : صحيح السيرة النبوية ، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط1،عمان، ص 259

82 – البخاري : المصدر السابق ، 101/6

83 – الواقدي : المصدر السابق ، 434/2

84 – سورة النور : الآيات 11 – 20

85 – ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد " ت : 751هـ" (1994م) : زاد المعاد في هدي خير العباد ، مؤسسة الرسالة، ط27، بيروت، 235/3

86 – المصدر نفسه ، 236/3

87 – الواقدي : المصدر السابق ، 435/2

88 – الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، 101/3

89 – الزرقاني ، أبوعبدالله محمد بن عبدالباقي بن يوسف بن أحمد "ت:1122هـ" (1996م): شرح الزرقاني على المواهب اللدنّية بالمنح المحمدية ، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 66/4

90 – ينظر المقريزي ، 47/2

91 – الصلابي ، علي محمد : المرجع السابق، ص 319

92 – أحمد ، مهدي رزق الله (1992م) : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصليّة، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية، ط1، الرياض، ص 636

93 – البماركفوري : المرجع السابق ، ص 349

94 – ابن هشام : المصدر السابق ، 517/2

95 – الواقدي : المصدر السابق ، 992/3

96 – سورة التوبة : الآية 49

97 – الواقدي : المصدر السابق ، 993/3

98 – ينظر ابن سيد الناس : المصدر السابق ، 267/2

99 – سورة التوبة : الآية ، 81

100 – سورة التوبة : الآية 74

101 – الواقدي : المصدر السابق ، 1005/3

102 – ابن عبدالبر ، يوسف بن عبدالله النمري "ت: 463هـ" (1404هـ) : الدرر في اختصار المغازي والسير، تح : شوقي ضيف، دار المعارف، ط2، القاهرة، ص 238

103 – سورة التوبة : الآية 43

104 – القرطبي : المصدر السابق ، 215/8

105 – سورة التوبة : الآية 79

106 – ابن كثير : البداية والنهايى ، 154/7

107 – الواقدي : المصدر السابق ، 995/3

108 – الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، 103/3

109 – البيهقي : المصدر السابق ، 221/5

110 – سورة التوبة : الآيتان ، 65 – 66

111 – ينظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، 108/3

112 – ينظر الزرقاني : المصدر السابق ، 89/4 = ابن هشام : المصدر السابق ، 523/2 . = ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ، 467/3 .

113 – سورة التوبة : الآية 74

114 – ينظر الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان " ت : 807هـ" (1994م): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، تح: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي ، القاهرة، 109/1 . = البيهقي : المصدر السابق : 257/5 . = ابن كثير : البداية والنهاية ، 183/7

115 – أنساع : جمع نسعة وهي سير مضفور .

116 – النبيت : لقب عمرو بن مالك جد الأوس .

117 – المقريزي : المصدر السابق ، 2/ 74– 75

118 – باشميل، محمد بن أحمد (د.ت) : موسوعة الغزوات الكبرى غزوة تبوك ، دار الفضيلة،الرياض، 2/ 1854

119 – ينظر القرطبي : المصدر السابق ، 253/8

120 – ينظر البيهقي : المصدر السابق ، 260/5

121 – سورة التوبة : الآيات 107 – 110

122 – القرطبي : المصدر السابق ، 253/8

123 – المقريزي : المصدر السابق ، 80/2

124 – الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، 535/11

125 – سورة التوبة : الآية 61

126 – سورة التوبة ، الآية 80

127 – النسائي، عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي " ت:303هـ" (2001م) : السنن الكبرى، تح: حسن عبدالمنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 439/2

128 – سورة براءة : الآية 84

129 – سورة المنافقون : الآية 4

130 – سورة الأحزاب : الآية 21

قائمة المصادر والمراجع

أولاً – المصادر:

– القرآن الكريم .

– **ابن الأثـــير**, عزّ الدّين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبدالكريم "ت : 630هـــ" : الكامل في التاريخ، تح : أبوالفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1987م .

– **البخاري**, محمد بن إسماعيل أبوعبدالله الجعفي"ت:256هـــ" : صحيح البخاري, تح : محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، ط1، بيروت، 1422هـــ .

– **البيهقي**، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى "ت:458هـــ": دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1405هـــ .

– **ابن الجوزي**، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد "ت:597هـــ": المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تح : محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1992م .

– **الحلبي** ، علي بن إبراهيم بن أحمد "ت: 1044هـــ" : السيرة الحلبية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1427هـــ .

– **الحَـمـــــوي**, شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت "ت :626هـــ " : معجم البلدان, دار صادر، بيروت، 1977م .

– **الزرقاني**، أبوعبدالله محمد بن عبدالباقي بن يوسف بن أحمد "ت:1122هـــ": شرح الزرقاني على المواهب اللدنّية بالمنح المحمدية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت،1996م .

– **ابن سعد**، أبو عبدالله محمد "ت: 230هـــ" : الطبقات الكبرى، تح : إحسان عباس، دار صادر، ط1، بيروت، 1968م .

– **السمهدوي**، نورالدين علي بن عبدالله بن أحمد"ت:911هـــ": وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، دار الكتب العلمية، بيروت ، (1419هـــ).

– **ابن سيد الناس**، محمد بن محمد بن محمد اليعمري "ت:734هـــ" :عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير،تح : إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، ط1، بيروت، 1993م .

– **الطبري**، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب "ت:310هـــ" : تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، ط2، بيروت، 1387هـــ .

ـــــــــــــــــ ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط1، الجيزة ،2001م .

– **ابن عبدالبر**، يوسف بن عبدالله النمري "ت: 463هـــ" : الدرر في اختصار المغازي والسير، تح : شوقي ضيف، دار المعارف، ط2، القاهرة،1404هـــ .

– **الفيروزآبادي**، مجد الدين محمد بن يعقوب "ت: 817هـــ ": القاموس المحيط، تح : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط8، بيروت، 2005م .

– **القحطاني**، محمد بن سعيد بن سالم : الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف، دار طيبة، ط1، الرياض، 1990م .

– **القرطبي**، أبوعبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر "ت: 671هـــ" : الجامع لأحكام القرآن، تح : أحمد البردوني، دار الكتب المصرية ، ط2، القاهرة، 1964م .

- **ابن قيم الجوزية**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد "ت:751هـ" : زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، ط27، بيروت، 1994م .
- **ابن كثير**، أبوالفداء إسماعيل بن عمر"ت:774هـ": تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد السّلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، الرياض،1999م .
- **المقريزي**، تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر"ت:845هـ":إمتاع الأسماع بما للنبي من الأموال والأحوال والحفدة والمتاع، تح: محمد عبدالحميد النميسي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت،1999م .
- **النسائي**، عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي"ت:303هـ": السنن الكبرى، تح: حسن عبدالمنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 2001م .
- **النيسابوري**، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري "ت: 261هـ": صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت .
- **ابن هشام**، عبدالملك بن هشام بن أيوب "ت:213هـ" : السيرة النبويّة، تح : مصطفى السقا، وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط2 ، القاهرة، 1955م .
- **الهيثمي**، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان " ت : 807هـ": مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تح: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1994م .
- **الواقدي**، محمد بن عمر بن واقد السلمي"ت:207هـ" : المغازي، تح: مارسدن جونس، دار الأعلمي، ط3، بيروت، 1989م .

ثانياً – المراجع العربية :

- **أحمد** ، مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصليّة، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية، ط1، الرياض، 1992م .
- **الأنصاري**، عبدالقدوس بن القاسم بن محمد بن محمد " ت: 1906م": آثار المدينة المنورة، دار العلم للملايين، بيروت،1393هـ .
- **باشميل**، محمد بن أحمد : موسوعة الغزوات الكبرى غزوة تبوك ، دار الفضيلة،الرياض، د.ت .
- **حسن** ، علي إبراهيم : التاريخ الاسلامي العام ، مكتبة النهضة المصرية ، ط 3 ، القاهرة، 1963م .
- **شاكر**، عبدالحميد : غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، دار جرّوس برس ، ط1، طرابلس، 1996م .
- **الصلابي**، علي : غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم دروس وعبر ، مؤسسة اقرأ ، ط1، القاهرة، 2007م .
- **ضيف**، شوقي، وآخرون: المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ، ط4 ،القاهرة، 2003م .
- **آل عابد**، أبو بدر محمد بن بكر : حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، دار الغرب الاسلامي، ط1 تونس، 1994م .
- **عبيد** ، منصور الرفاعي : غزوة الأحزاب ومابعدها ، الدار الثقافية للنشر ، ط1، القاهرة،2001م .
- **العلي**، إبراهيم بن محمد بن الحسين "ت : 1425هـ" : صحيح السيرة النبوية ، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط1،عمان، 1995م .
- **المباركفوري**، صفيّ الرحمن : الرحيق المختوم، دار الهلال، ط1، بيروت، د.ت .

دور العلماء في تشكيل الهوية الدينية والمذهبية لبلاد المغرب خلال القرن الثاني والثالث الهجري.

إعداد :

د. بن بوزيد لخضر

جامعة محمد خيضر بسكرة – الجزائر

الملخص:

لقد حمل صحابة الرسول« صلى الله عليه وسلم »لواء نشر الاسلام في الاصقاع البعيدة، فأدوا الامانة ونصحوا الأمة، ولم يكن هدفهم هو الغزو مثلما يدعي المستشرقون، بل كان الهدف هو اخراج الناس من الظلمات الى النور، وورث بعدهم العلماء هذه المهمة فبذلوا جهود كبيرة في خدمة الاسلام، والدفاع عن العقيدة الصحيحة في وجه البدع، وفي تشكيل الهوية الاسلامية لبلاد المغرب.

Abstract :

Les compagnons de prophète Mohammed « que la paix et la bénédiction de Dieu soient sur lui » portaient la bannière de la propagation de l'islam dans les contrées lointaines, ils faisaient preuve d'honnêteté et conseillaient la nation, leur but n'était pas d'envahir les pays comme le prétendent les orientalistes.

L'objectif était de faire sortir les gens de l'obscurité à la lumière. et après eux, les savants ont hérité de cette mission, ils ont fait des grands efforts au service de l'islam, défendu la foi correcte face aux innovations et façonné l'identité islamique du Maghreb.

الكلمات المفتاحية:

العلماء، بلاد المغرب، الاسلام، المذهب المالكي، البدع، الضلم.

مقدمة:

لقد تعجب بعض المستشرقين لسرعة تخلي البربر عن المسيحية ودخولهم في الاسلام ، كما تعجبوا لسرعة الفتح الاسلامي فقدموا في ذلك تفسيرات مختلفة، وزعموا أن الفاتحين العرب كانوا ينظرون الى البربر نظرة احتقار، والواقع أن البربر عرفوا الاسلام من خلال أخلاق الفاتحين الذين قدموا المثال على سماحة الاسلام، إذ لم يكن يفرق القادة بين العرب وبين البربر الذين انخرطوا في عملية الفتح، فجيش زهير بن قيس البلوي كان ثلثه من البربر، وموسى بن نصير كان عدد جيشه من البربر يقارب أثني عشر ألف جندي يقودهم طارق بن زياد الذي كان والياً على طنجة.

ولم يتوقف الفاتحون والولاة والخلفاء المسلمون عن دعوة البربر للإسلام، ولنا في عمر بن عبد العزيز خير مثال، فقد أرسل رسالة الى سكان المغرب عن طريق الوالي الذي عينه يدعوهم للاسلام، وتضافرت بعد ذلك جهود العلماء والولاة المسلمين في خدمة الاسلام، والدفاع عن العقيدة الصحيحة في وجه البدع، وفي تشكيل الهوية الاسلامية لبلاد المغرب، فماهو الدور الذي قام به العلماء في هذا المجال؟ وماهي أهم أساليبهم؟

جهود الفاتحين في نشر الإسلام ببلاد المغرب:

دخل جمع كبير من الصحابة الى بلاد المغرب في فترة الفتوحات، ففي سنة 27 ه دخل 20 ألف من المسلمين أغلبهم من الصحابة مع عبد الله بن ابي سرح، حيث تذكر المصادر منهم: عبد الله بن ابي سرح، أبا ذر الغفاري، عبد الله بن العباس، مسور بن مخرمة، عبد الرحمان بن الاسود بن عبد يغوث، عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق، عبد ارحمان بن صبيحة، عبد الله بن عمر بن الخطاب واخوبه عاصم وعبد الله، السائب بن أبي وداعة، السائب بن عامر بن هشام، بسر بن أرطاة...، وكان هؤلاء من المعلمين والدعاة وحملة كتاب الله ومجاهدين في سبيله.

ومع بداية الفتوحات كان أول عمل قام به عقبة بعد بناء القيروان هو بناء مسجد اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن هذا المسجد انطلقت الدعوة الى الاسلام في بلاد المغرب ومنه تخرج المعلمون الدعاة، كما ركز موسى بن نصير هو الأخر على التعليم، حيث سخر سبعة وعشرين رجلاً من العرب ممن ساهموا في الفتح لتعليم الناس أمور دينهم[1]، وقيل بأنه ترك مجموعة من اصحابه يعلمون الناس القرآن ويفقهونهم في الدين، وجعل على راسهم شاكر بن عبد الله صاحب الرباط المشهور على بعد مراحل من مراكش[2].

أما حسان بن النعمان الغساني فقد ترك ثلاثة عشر فقيهاً من كبار التابعين لتعليم القرآن وأصول الاسلام واللغة العربية للبربر، والى جانب هؤلاء كان هناك الكثير من المتطوعين من المسلمين ممن نذر نفسه لنشر الاسلام، ومنهم عبد الرحمان بن نافع التنوخي الذي استقر بالقيروان وأصبح قاضياً لموسى بن نصير سنة 80 ه، ومنهم صالح بن منصور المعروف بالعبد الصالح الذي دخل المغرب في عهد الوليد بن عبد الملك، فنزل بني تمسمان وأسلم على يديه بربر صنهاجة وغمارة، وحفيده هو سعيد بن ادريس بن صالح الذي بنى مدينة نكور.[3]

عصر الولاة في المغرب الاسلامي:

أصبحت بلاد المغرب ولاية إسلامية وقسمت بدورها الى ولايات فعندما أتم موسى بن نصير الفتح هو وأولاده أنشأ ثلاث ولايات جديدة هي ولاية المغرب الاقصى ويشمل النصف الشمالي من المملكة المغربية، والنصف الجنوبي منها هو ولاية سجلماسة أما الولاية الثالثة فهي ولاية المغرب الاوسط التي تمتد الى حدود افريقية[4].

ومما لا شك فيه أن الاسلام قد دخل في قلوب سكان بلاد المغرب بفضل الجهود التي قام بها القادة الفاتحون، والدور الذي قام به الصحابة والتابعون والعلماء الذين دخلوا المنطقة، ونشروا الاسلام فيها بالدعوة قبل السيف وبأخلاقهم وعدالتهم قبل سلطتهم.

---

[1] ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، تحقيق خليل شحاده –سهيل زكار، ج1، دار الفكر، بيروت، 2000، ص126

[2] محمد بن حسن شرحبيلي، تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية عصر المرابطين، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2000، ص11

[3] محمد بن حسن شرحبيلي، المرجع السابق، ص11

[4] محمد زنهم محمد عزب، الامام سحنون، دار الفرجاني، القاهرة، 1992، ص28–29

وعندما تولى هشام بن عبد الملك الخلافة ولي على افريقية عبد الله بن موسى بن نصير ثم عزله وولى مكانه محمد بن يزيد القرشي سنة 97 ه، وكان محمد بن يزيد من أفضل الولاة، وعندما ولاه سليمان ولاية افريقية والمغرب قال له: "يا محمد بن يزيد، اتّق الله وحده لا شريك له، وقم فيما ولّيتُك بالحق والعدل! وقد ولّيتكَ إفريقية والمغرب كله"، فجعل محمد بن يزيد يقول: "مالي عُذْرٌ عند الله إن لم أَعدل"، وقد كان عادل حسن السيرة[1]، وعندما تولى عمر بن عبد العزيز، عزل محمد بن يزيد وولى مكانه اسماعيل بن عبيد الله سنة 100ه، وأوصاه عمر على افريقية بان يبذل كل ما يملك من جهد في سبيل اسلام البربر[2]، وكان عمر قد بعث معه تسعة وقيل عشرة من الفقهاء من التابعين، وقد تتلمذ على أيديهم نفر من اهل افريقية منهم سوادة الجرامي وعبد الرحمان بن سياد.[3]

وكان أهل المغرب يأتون الى القيروان للتعلم ثم يعودون إلى قبائلهم فيتولون وظائف الدين والقضاء ويعلمون الناس أصول الدين، فقد جاء في سيرة أسد بن الفرات أن أباه قدم به الى افريقية وأمه حامل به، فولد بتونس سنة 145 للهجرة، وقرأ على بن زيادة وانتفع من علمه، ثم تصدى بعد ذلك للتعليم وقرأه القرآن في بعض قرى مجردة[4].

العلم والعلماء في المغرب في القرن الثاني الهجري:

يجمع معظم المؤرخين أن عهد العلماء ببلاد المغرب بدأ مع "البعثة العمرية"، فقد قدم إسماعيل ابن عبيد الله ابن أبي المهاجر (99هـ-101هـ) والياً من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز، وكان هذا الرجل من أفضل الولاة الذين حظيت بهم بلاد المغرب، فقد أسلم عامة البربر في ولايته، وكان حسن السيرة[5] يشهد له بالتقوى فقد قال فيه معن التنوخي: ما رأيت في هذه الامة غير اثنين: عمر بن عبد العزيز واسماعيل بن عبيد الله[6]، وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عموم البربر كتاباً يدعوهم فيها إلى الإسلام فقرأها إسماعيل عليهم في النواحي[7]، وأقبل البربر على الاسلام يسمعون حديث رسول الله (ص) ويتعلمون الفقه.

وقد ساهم العلماء الذين أرسلهم عمر في تفقيه أهل إفريقية ونشر العلم في ربوعها، وكانوا جميعهم أهل علم وفضل، فقد بنى كلا منهم داراً ومسجداً بالقيروان لتعليم البربر وأبنائهم اللغة العربية ومبادىء الإسلام

---

[1] ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب، تحقيق ج س. كولان، ليفي برفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ط2، ص47

[2] حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة الآداب للنشر والتوزيع، القاهرة، 1947، ص296

[3] المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية، ج1، تحقيق: بشير البكوش-محمد العروسي المطوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ص 116

[4] حسين مؤنس، المرجع السابق، ص297

[5] الذهبي محمد بن احمد بن عثمان، سير اعلام النبلاء، ج 5، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1996، ص 213

[6] المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 116

[7] البَلَاذُري أحمد بن يحيى بن جابر بن داود، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال-بيروت، 1988، ص233

فانتفع على أيديهم خلق كثير[1]، وقد استقر هؤلاء التابعون بالقيروان حتى اصبحوا من أهلها، فقد اعتبرهم المالكي الطبقة الأولى من علماء القيروان، ومنهم من زادت إقامته بها على ثلاثين عاما كبكر بن سوادة وجعثل بن عاهان وحبان بن جبلة وسعد بن مسعود وطلق بن جعبان وعبد الرحمن بن رافع وعبد الله بن المغيرة وعبد الله بن يزيد وموهب بن يحي [2] .

وقد بنى كل هؤلاء مساجد قرب بيوتهم يقيمون فيها مجالسهم وكتاتيب يعلمون فيه أطفال المسلمين القرآن واللغة فنهل أهل افريقية من علمهم وانتفعوا انتفاعا عظيما، ومنهم من تولى منصب القضاء كعبد الرحمان بن رافع التنوخي(ت113 ه)، و قد كان الوالي نفسه أحد العلماء وكان حريصا على اسلام البربر فأسلم على يديه خلق كثير، وكان لهذه البعثة أثر كبير في نشر السنة وتفقيه أهل المغرب أمور دينهم، والى جانب نشاطهم الدعوي والعلمي كان لهم نشاط سياسي، فقد وقفوا إلى جانب حنظلة بن صفان والي القيروان لما ثار ضده ميسرة المدغري الصفري في طنجة، وكتبوا لاهل طنجة رسالة يدعونهم فيها إلى العودة إلى جادة الصواب[3].

والى جانب ذلك كان الحكام ينفقون على بناء المكتبات وجلب الكتب، فقد كان الأمراء الأغالبة يرسلون بعثات إلى المشرق لاقتناء الكتب وتضم تلك البعثات علماء، ومن تلك البعثات: بعثة ابراهيم الثاني (261-289 ه)، وبعثة زيادة الله الثالث (290-296 ه) [4] ، والائمة الرستميون أيضا كانوا يفعلون ذلك، فالإمام عبد الوهاب أرسل لإخوانه في البصرة ألف دينار ليشتروا له بها كتبا، فاقتضى نظرهم أن يشتروها ورقاً، وتطوعوا بالمداد وأجرة النساخ والمفسرين، فنسخوا له كتباً كثيرة يقال أنها كانت وقر أربعين جملاً وبعثوا بها إليه [5]، وكان للخوارج نشاط علمي على مذهبهم فقد قاموا بكتابة العديد من المصنفات ومن أكبر علماء الإباضية محمد بن أفلح وأبو خرز الحامي ولهما مؤلفات عديدة في مذهبهم [6] .

جهد العلماء في مقاومة الخوارج والمعتزلة:

كان فقهاء المالكية متشددين في حكمهم على الخوارج حيت اعتبروهم كفار، فقد قال أحد الفقهاء منتقداً الخوارج في قولهم بوجوب الخروج عن الإمام الجائر، إذ يقول إن من يقول هذا القول: أما غير مؤمن أو خارجي من مجوس هذه الأمة[7]، ولم يكتف العلماء بمواجهة البدع بالموعضة، بل حملوا السلاح في وجه الخوارج، فقد شارك العلماء في الحرب ضد الخوارج كمقاتلين وواعظين، فعندما استنجد حنظلة بن صفوان

[1] المالكي، رياض النفوس، ج1، ص99 -100

[2] الحميدي محمد بن فتوح بن عبد الله، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الاندلس، دار الغرب الاسلامي بيروت، 2008، ص196.

[3] ابراهيم التهامي، جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة اهل السنة: دراسة في الصراع العقدي في المغرب العربي من الفتح الاسلامي الى القرن الخامس الهجري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005، ص 32-37

[4] ابن عذارى المراكشي، المرجع السابق، ج1، ص 137

[5] أبو زكرياء يحي بن ابي بكر الورجلاني، ي سير الأئمة واخبارهم، دار الغرب الاسلامي، بيروت ،1982، ص99-100

[6] ابن حمدة عبد المجيد، المدارس الكلامية بإفريقية الى ظهور الاشعرية، مطبعة دار العرب، بيروت، 1986، ص 144، 146.

[7] الشهرستاني محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، ج1، تحقيق أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، القاهرة، 1992، ط2، ص57

بمن تبقى من بعثة عمر بن عبد العزيز لما ثار عليه الخوارج[1]، التحق بجيشه عدد من العلماء، وقد استشهد أبو كريب قاضي القيروان وجماعة كثيرة من العلماء في قتال الصفرية سنة 139هـ[2] .

أما المعتزلة [3] الذين دخل ومذهبهم مبكراً لبلاد المغرب كما هو معلوم فقد أرسل واصل بن عطاء (ت 131ه) عبد الله ابن الحارث داعيا الى بلاد المغرب فتمكن الرجل من اجتذاب البربر إلى مذهبه، وقد انتشر المذهب حتى قيل إنه كان لهم مجمع قرب تاهرت وكان عددهم نحو ثلاثين الف[4]، والى جانب الدعاة الذين قدموا من المشرق أخذ بعض المغاربة الدعوة من علماء المعتزلة بالمشرق، ومنهم: سليمان بن ابي عصفور (ت269 ه)، وعبد الله بن الاشج، وابو الفضل المعروف بابن ظفر، ومحمد الكلاعى المعروف بالمسحي، وكان للمعتزلة علاقة كبيرة بالدولة فقد تولى بعضهم القضاء للأغالبة ، ومنهم ابن ابي الجواد ومحمد بن الاسود الصديني وسليمان بن محمود العراقي.

والمعلوم أن مذهب الاعتزال كان قريباً من السلطة العباسية فقد كان كل من المأمون والمعتصم والواثق على هذا المذهب، وقد اشتد أذاهم على العلماء فيما عرف بفتنة خلق القرآن، وفي بلاد المغرب كان الكثير من الأغالبة على هذا المذهب وأجبروا الناس على القول بخلق القرآن، وتعرض الكثير من العلماء للسجن والضرب وحتى القتل بسبب ذلك، ومن الذين تعرضوا للأذى في بلاد المغرب أبو جعفر موسى بن معاوية، وابو اسحاق بن البردون، وابراهيم بن محمد الضبي الذي قتل بايعاز من محمد الكلاعي وابن الظفر وهم من علماء المعتزلة الذين كانت لهم صلات بالسلطان، وتعرض ، كما عزم ابن الأغلب على قتل سحنون بن سعيد ثم تراجع عن ذلك، ومحمد بن سحنون بدوره تعرض للأذى على ايدي المعتزلة الذين كانوا بطانة للامراء الاغالبة[5] .

وقد كان علماء أهل السنة وخاصة المالكية يكفرون المعتزلة، فقد قال ابن رشد «المعتزلة مجوس هذه الأمة»[6]، وفي القيروان كان هناك صراع بين المعتزلة والمالكية وقد كان المعتزلة هم الأقرب للحكام الأغالبة

---

[1] المالكي، رياض النفوس، ج1، ص103

[2] الدباغ عبد الرحمان بن محمد، معالم الايمان في معرفة اهل القيروان، تحقيق عبد المجيد الجبالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص 299

[3] المعتزلة كمذهب ظهرت على يد واصل بن عطاء الذي كان من تلامذة الحسن البصري ، حيث يُروى أن رجل جاء الى مجلس الحسن البصري وقال له: فقال: يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يُخرج به عن الملة، وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يُرجُون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركنًا من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مُرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادًا؟، فتفكر الحسن في ذلك، وقبل أن يُجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من إسطوانات المسجد، يُقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فسُمي هو وأصحابه معتزلة"، ينظر: الشهرستاني ، المصدر السابق ،ج1، ص42

[4] ابراهيم التهامي، المرجع السابق، ص201

[5] نفسه، ص 208-209

[6] محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في المغرب الإسلامي حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، المغرب، 1985، ط2، ص 178-177

من المالكية، فلَمَّا عزلَ محمدُ بن الأغلب القاضيَ المعتزليَّ ابن أبي الجَواد، قال سحنون للأمير: "لقد عزلتَ فرعونَ هذه الأمَّة وجبَّارها وظالمها ، ثم ولَّى هذا الأمير سحنونَ بن سعيد سنة 234ه، وبعد توليه القضاء أودع السجنَ ابن أبي الجواد الذي كان قبله، وكان يضربُه عشرةَ أسواط كلَّ جُمُعة، وأبى أن تفديَه زوجتُه بمالها إلى أن مَرِض ومات، وذلك بسبب مبلغ يقدر ب500 دينار كان وديعة تركها عنده رجل يدعى ابن القلقاط [1].

دور العلماء في الحفاظ على مقومات المجتمع:

لقد عرف المجتمع الاسلامي في بلاد المغرب تكافلاً كبيرًا وتضامنا بين أفراده، فقد كان العلماء والفقهاء وصلحآء الأغنياء يواسون الفقراء ويعتنون بأمر المحتاجي ويتفقدون أحوالهم، ولا أدل على ذلك مما فعله البهلول بن راشد (ت 183ه)[2] فعندما أخذ من أحد أصحابه مائة دينار وعزم أن يحج بها وكان الناس في ضيق، هو نفسه ضعيف الحال إلا انه مع ذلك قام بتوزيعها على المحتاجين.

وكان ابن ابي زيد القيرواني[3] كثير الانفاق على طلبته وأصحابه المعوزين فقد أرسل ألف دينار إلى القاضي عبد الوهاب البغدادي شيخ من شيوخ المالكية لما بلغه من عوزه[4]، ولم يتوان عن تجهيز بنت صاحبه أبي الحسن القابسي لعلمه بضعف حال أبيها، وقد أعطى صديقه ابن شبلون في مرضه خمسين دينارا ذهبا لينفقها على أهله وعلى علاجه.[5]

وكان العلماء بالمرصاد لكل المفاسد، فقد قطع القاضي ابن طالب (ت 275 ه) الملاهي، وهدم الإمام سحنون دار امرأة عرفت بالفساد ونقلها إلى دار بين قوم صالحين[6]، وجعل للبنات كتاتيب خاصة لأن الإمام سحنون كره اختلاطهن بالغلمان كما أن المحدث عيسى بن مسكين (ت 295 ه)[7] قد خصص فترة ما بعد العصر لتدريس بناته وبنات أخيه[8].

---

[1] ابن عذارى، المرجع السابق، ج1، ص44

[2] هو أبو عمرو البهلول بن راشد الحجري ثم الرعيني من كبار التابعين، روى عن مالك بن انس والثوري والليث بن سعد، ويونس بن يزيد، وموسى بن علي بن رياح التخمي، وغيرهم وسمع منه: سحنون بن سعيد، وعبد الله بن مسلمة القعنبي، وأبو زكريا الحفري، ويحى بن سلام وغيره، ولد سنة 128 ه ومات سنة 183ه، ينظر: الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص264 -278

[3] وهو ابو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني النفزي ولد بالقيروان سنة 310 ه، وأخذ بها العلم عن عدد من العلماء منهم ابن اللباد وابو الحسن الخولاني وابو العرب وغيرهم، ذاع صيته حتى لقب بمالك الصغير توفي سنة 386 ه، ينظر: الدباغ، المصدر السابق، ج3، ص135-151

[4] محي الدين سليمان إمام مديلي، ابن أبي زيد القيروان، عقيدته وموقفه من الفرق ومقاومته للبدع، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة، المجلد الاول، 2001، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية، ص51

[5] المرجع نفسه، ص39

[6] المالكي، رياض النفوس، ج1، ص476

[7] عيسى بن مسكين شيخ المالكية بالمغرب صاحب سحنون وأخذ عنه العلم كل من تميم بن محمد، وحمدون بن مجاهد الكلبي، ولقمان الفقيه، وعبد الله بن مسرور بن الحجام، وكان ثقة ورعا عابدا مجاب الدعوة، ولي القضاء مكرها في عهد ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب، وله تصانيف عديدة، ينظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، الجزء 13، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، المغرب، 1983، ط2، ص 573

[8] المرجع نفسه، ج 3، 227

كما عرف عن العلماء التسامح فمدينة القيروان كانت تضم أخلاط من الناس ومن مذاهب شتى، وفي ذلك يقول اليعقوبي: "... في مدينة القيروان أخلاط من الناس من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان وبها أصناف من العجم من أهل خراسان ومن كان وردها مع عمال بني هاشم من الجند وبها عجم من عجم البلد البربر والروم وأشباه ذلك" [1] ، ولم يكن هناك تعصب بين اتباع المذاهب بل كانت تنشط المناظرات في جامع القيروان مما يدل على التعايُش والتسامح، بل أن أكبر المناصب في الدولة وهي القضاء كان تارة يتولاه حنفي وتارة أخرى مالكي أو معتزلي .

والاباضيين في تيهرت[2] ضربوا أروع الامثلة في التسامح وتقبل المخالفين لهم، فقد أشار ابن الصغير إلى "أن من أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة ، وكذلك من أتى من الإباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك "، وابن الصغير نفسه كانت له مناظرات مع علماء الدولة الرستمية من الإباضية[3]، وكانت مدينة تيهرت ملجأ لكل المذاهب فليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله، حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين..."[4]، وقد عاش في تيهرت اتباع المذاهب الإسلامية الاخرى كالمعتزلة والصفرية والحنفية والمالكية والشيعة وغيرهم، وسكن معهم اليهود والنصارى أيضا[5].

علاقة العلماء بالحكام:

كان النصح لولي الامر هو أهم ما دأب عليه العلماء في علاقتهم بالحكام، فقد كان على بن رياح اللخمي من التابعين وقد نصح موسى بن نصير، فانكسر موسى وانقاد له في مسألة الاسرى[6]، وعندما ثارت الخوارج على حنضلة بن صفوان بطنجة، جمع حنضلة جميع علماء افريقية، وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز الى افريقية ليتفقهوا في الدين، منهم سعد بن مسعود وحبان بن أبي جبلة وطلق بن جابان وغيرهم، فكتبوا الى الخوارج موعظة بليغة[7].

---

[1] اليعقوبي أحمد بن اسحاق، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، ص 348

[2] يصفها المقدسي فيقول: " هي بلخ المغرب ، قد أحدقت بها النهار والتفت بها الأشجار وغابت في البساتين، ونبعت حولها العيون، وجل بها الإقليم وانتعش فيه الغريب واستطابها اللبيب، يفضلونها على دمشق وأخطئوا ، وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا، هو بلد كبير كثير الخير رحب ، رقيق طيب رشيق الأسواق غزير الماء، جيد الأهل، قديم الوضع ، محكم الرصف، عجيب الوصف ...، "ينظر: المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان ، 1987م ، ص228 ، كما وصفها ياقوت الحموي بانها كانت توصف بعراق المغرب، ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان، دار صادر ، بيروت ، ج2، 1977، ص08

[3] ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وابراهيم بحاز، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1986، ص117، 118

[4] ابن الصغير، المرجع السابق، ص36.

[5] ابراهيم بحاز، الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية 160-296هـ / 777-909م ، جمعية التراث الجزائر ، ط2، 1988، ص329 – 342 .

[6] المالكي، رياض النفوس، ص120

[7] نفسه، ج1، ص103

وذكر المالكي في رياض النفوس ان البهلول بن راشد (128ه– 183 ه) لما سمع أن محمد ابن مقاتل العكي والي أفريقية قد أقام صلات مع ملك النصارى وأنه قد أرسل له السلاح والعتاد، ذهب إليه بهلول ووعضه ونصحه، ولكن هذا الامير حقد على بهلول فأمر بحبسه وضربه بالسياط حتى مات[1].

وقد ثار بعض العلماء على ولاة الامور فقد ثار تمام بن تميم والى تونس على محمد بن مقاتل العكي وخلعه[2]، لكن ابراهيم بن الاغلب التميمي سار الى القيروان وتمكن من هزيمة تمام، وأعاد محمد بن مقاتل الى الحكم فترة وجيزة قبل أن يطلب الولاية لنفسه من الخليفة هارون الرشيد[3].

وكان العلماء يعظمون منصب القضاة ويشترطون في ذلك كون الحاكم عادل، وكانوا يعارضون تولي الوظائف للحكام الظلمة، فقد قال سحنون أن ابن فروخ وابن غانم اختلفا في مسالة "هل ينبغي للقاضي إذا ولاه أمير غير عادل أن يتولى"، فقال ابن غانم يجوز له أن يتولى، وقال ابن فروخ لا يجوز له، فأرسلوا المسألة الى مالك، فأقر ابن فروخ على فتواه[4].

افريقية وبلاد المغرب على مذهب مالك وقراءة نافع:

قبل دخول المذهب المالكي والحنفي إلى بلاد المغرب، كان مذهب سفيان الثوري ومذهب عبد الرحمان الأوزاعي هما المذهبان المنتشران بإفريقية، فقد قال الذهبي : " قبل شهرة هذين المذهبين عرف مذهب سفيان الثوري ومذهب عبد الرحمان الأوزاعي شيئا من الانتشار بإفريقية "[5]، وجاء في ترتيب المدارك ما يدل على ذلك: " أما افريقية وما وراءها فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين إلى أن دخل على بن زياد وغيره بمذهب مالك، وبقي هذا المذهب يفشوا الى أن جاء الامام سحنون فغلب في أيامه وفض حلق المخالفين واستقر المذهب بعده في اصحابه فشاع في تلك الاقطار[6].

وقد انتشر المذهب المالكي عن طريق طلبة العلم الذين قصدوا الحجاز للحج أو طلب العلم فألتقوا بالإمام مالك بن أنس إمام المدينة، ومن أوائل الذين قصدوه علي بن زياد التونسي المتوفى سنة 183 ه[7]، وهو يعتبر من الطبقة الأولى من أصحاب الإمام مالك من سكان إفريقية، ويعتبره الكثير من المترجمين أ أول من أدخل الفقه المالكي للمغرب[8]، وقيل بأن أول كتاب ظهر بالمغرب بعد كتاب الله كان موطأ مالك الذي أدخله ابن زياد[9] ، كما يعد أول من كتب مسائل في الفقه والفتاوى التي تكلم بها مالك بن أنس[10]، وقد انتقل المذهب

---

[1] نفسه، ج1، 142–143

[2] ابن الابار أحمد بن عبد الله القضاعي، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985، ج1، ص69–70

[3] ابن الاثير عز الدين، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ج5، دار الكتاب العربي، بيروت –لبنان، 1997، ص318

[4] المالكي، المرجع السابق، ج1، ص177

[5] الذهبي، المرجع السابق، ج7، ص117

[6] القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج1، ص54

[7] محمد الطالبي، تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض، تحقيق محمد الطالبي، الجامعة التونسية، 1978، ص 49

[8] محمد الطالبي، المرجع السابق، ص44، المالكي، المرجع السابق، ص134

[9] شرحبيلي حسن، المرجع السابق، ص32–33

[10] محمد الطالبي، المرجع السابق، ص21–23

المالكي من مصر إلى بلاد المغرب، وكان في مصر من علماء المالكية اشهب وابن القاسم وابن وهب واصبغ وعبد الله بن الحكم وسواهم [1].

ومن الأوائل الذين نشروا المذهب أسد بن الفرات وهو العالم المجاهد الذي مزج بين المذهبين المالكي والحنفي في رسالة سميت ب "الأسدية"، على أن أول من ترسخ المذهب على يديه هو الإمام سحنون الذي كان شيخ المالكية في زمانه بافريقية، وبعده تمسك المغاربة بالمذهب المالكي وألفو فيه عشرات التآليف.

والمعلوم أن المذهب المالكي ليس هو أول مذهب دخل المغرب فقد دخلها قبله المذهب الحنفي، وانتشر بكثافة بايعاز من السلطة فالدولة الأغلبية التي كانت تحكم افريقية كانت على المذهب الحنفي الذي يعتبر مذهب الخلافة العباسية، وقد أشار ابو العرب إلى أن أول من أدخل المذهب الحنفي هو عبد الله بن المغيرة الذي عاش في النصف الاول من القرن الثاني الهجري(ت190هـ) وعبد الله بن فروخ [2]، وهذا الاخير التقى بأبي حنيفة وأخذ عنه ثم نشر مذهبه في بلاد المغرب[3]، كما ساهم في نشر المذهب اسد بن الفرات (ت213هـ) وهو من أهل افريقية روى عن مالك بن أنس " الموطأ " ، وغلب عليه علم الرأي فكتب بعلم أبي حنيفة[4].

ومن بين اسباب اتباع المغاربة للمذهب المالكي ما ذكره ابن خلدون على أن طابع البداوة في بلاد المغرب أقرب إلى الحجاز منه الى العراق، بالإضافة الى مكانة المدينة في نفوس المغاربة ومكانة علماءها وما ورد في فضلهم، كما أن بنو أمية في الاندلس كانوا ينافسون العباسيين الذين تبنوا المذهب الحنفي، وربما كان هناك بعض الجفاء بين المدينة والعراق، بالإضافة الى علاقة مالك بن انس السيئة بالعباسيين[5].

كما أن رحلة المغاربة كانت الى الحجاز وهي يومئذ دار علم، ولم يكن العراق في طريقهم ، وشيخهم يومئذ مالك فاقتصروا على الاخذ منه، كما أن طلاب اندلسيون ذكروا خصال الامير هشام بن عبد الرحمان الى مالك فأعجب به، فلما سمع هشام ثناء مالك عليه جعل هذا الامير يقرب فقهاء المالكية ويقتصر عليهم في اعمال الدولة، كان زياد بن عبد الرحمان المعروف باسم "شبطون" تلميذ للامام مالك وثيق الصلة بالأمير هشام، وهو الذي أدخل الموطأ الى الاندلس [6]، وتابع بعده يحي بن يحي الليثي ذلك الامر حين انتهت اليه الرِّياسةُ بالفقه بالأندلس فنشر مذهبُ مالك هناك [7].

---

[1] عبد الغني الدقر، الامام مالك بن انس إمام دار الهجرة (93ه 179 ه)، دار القلم، دمشق، ط3، 1998، ص279

[2] ابن فروخ ولد بالأندلس سنة 115ه وسكن القيروان، كان من أشهر علماء المالكية، وكان مالك يقدمه، وكان معاصر للبهلول بن راشد ، توفي سنة 185ه، ينظر: المالكي، المرجع السابق، ج1، ص177 -178

[3] أبي العرب، محمد بن أحمد بن تميم، طبقات علماء افريقية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج3، ص107، 162

[4] الذهبي، المرجع السابق، ج 10، ص227

[5] محمد بن حسن شرحبيلي، يحي بن يحي الليثي وروايته للموطأ، منشورات جامعة القرووين، كلية الشريعة، أكادير، 1995، ص13

[6] المرجع نفسه، ص11

[7] الحميدي، المرجع السابق، 360

عناية علماء المغرب بالقرآن والحديث:

اهتم أهل المغرب بالقرآن وعلومه اهتمام كبير، فقد قيل: إن القرآن نزل بلغة العرب ففسره العجم وحفظه المغاربة ونطق به أهل مصر وأحسن الاستماع إليه الترك وعمل بالقسم الأخرى منه أهل اليمن[1]، ففي النصف الثاني من القرن الثاني الهجري دخل القيروان الإمام أبو عبد الله محمد بن خيرون المعافري الألبيري الأندلسي، فوجد بلاد المغرب مهيأة لاستقبال قراءة نافع، فقد كان الامام سحنون يتولى القضاء وقد مهد للمذهب المالكي، وحمل الناس على قراءة نافع ايضا، فقد أشار محمد بن سحنون في رسالة آداب المعلمين« إن القراءة الحسنة السنية هي قراءة نافع لحسن طريقتها وأيضا لأن مالك أخذ عن نافع ، وأهل المغرب عموما مولعون من قديم بقتفاء أثر امامهم مالك بن انس وتقليد سننه حتى في غير آراءه الفقهية» [2].

وكان إمام القيروان في عهد سحنون هو أبو عبد الرحمن محمد بن برغوث الذي أخذ القراءة عن أبي يحيى زكرياء بن يحيى المعروف بلقب "الوقار" الذي قرأ القرآن على نافع[3]، وقد تلقى أمر من أبي العباس عبد الله ابن طالب قاضي القيروان بأن لا يقرئ الناس إلا بحرف نافع، وهو ما يعني أن قراءة نافع أصبحت هي القراءة الرسمية في افريقية والقيروان وما يتبعها، ومن بين من ساهموا في إدخال قراءة نافع إلى المغرب الإسلامي أبي محمد غازي بن قيس الأندلسي (ت 199هـ)، الذي رحل من قرطبة إلى المدينة فأخذ القراءة مباشرة عن الإمام ورش[4].

فقد اختار المغاربة تلاوة كتاب الله تعالى برواية ورش عن نافع من طريق الأزرق منذ دخولها إلى الأقطار المغربية على أيدي الرواد الأولين إلى يومنا هذا، تماشيا مع اختبارهم لمذهب الإمام مالك الفقهي، فقد جمعوا بين فقه عالم المدينة المنورة مالك ومقرئ المسجد النبوي بها وهو نافع.

وترجع بعض الدراسات أسباب اختيار المغاربة لقراءة ورش تسهيل الهمز الذي تتميز به قراءة نافع عن غيرها من القراءات، فقد روي عن الإمام مالك أنه كان يكره القراءة بالنبر (أي بتحقيق الهمز)، باعتبار ما جاء في السيرة من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن لغته الهمز (أي لم يكن يظهر الهمز في الكلمات المهموزة مثل: مومن، ياجوج وماجوج، الذيب...[5]، بالاضافة إلى أن مالك بن أنس شهد للإمام نافع بالعلم، حيث قال فيه: " نافع إمام الناس في القراءة" [6] .

---

[1] محمد عبد الحي الكتاني، نظام الحكومة النبوية المسماة التراتيب الادراية، ج2، دار الارقم، بيروت، ط2، 2001، ص302

[2] محمد بن سحنون، آداب المعلمين، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، الشركة التونسية لفنون الرسم، 1972، ط2، ص42

[3] ولد نافع سنة أربع وسبعين ومِئَة ومات في جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومئتين، عاش اثنتين وثمانين سنة، قال عنه ابن يونس: كان فقيها صاحب حلقة من الصلحآء العباد الفقهاء نزح عن مصر أيام محنة القرآن إلى طرابلس الغرب كان مشايخ مصر يثنون عليه في العبادة والاجتهاد والفضل، ينظر: أحمد بن على بن حجر العسقلاني، لسان الميزان، تحقيق عبد الفتاح أبي غدة، مكتبة المطبوعات الاسلامية، 2000، ص485

[4] الحميدي، المصدر السابق، 305 .

[5] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984، ج1، ص 62

[6] شهاب الدين القسطلاني المصري، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق وتعليق عامر السيد، عبد الصبور شاهين، مطابع الأهرام، القاهرة، ج1، 1973، ص94

ومن علوم القرآن التي أهتم بها المغاربة التفسير فقد ألفوا فيها كتب منذ القرن الثالث، ومن تلك الكتب : كتاب تفسير القرآن ليحيى بن سلام البصري الإفريقي ت(200هـ) وهو أقدم التفاسير الموجودة اليوم، ألفه بالقيروان، وهو يعتبر مؤسس طريقة التفسير النقد ، أو الأثري النظري، التي سار عليها بعده ابن جرير الطبري و اشتهر بها، ومن التفاسير أيضا تفسير القرآن لأبي موسى عبد الرحمن بن موسى الهواري الأندلسي، قال ابن الفرضي عنه :" كان له كتاب في تفسير القرآن قد رأيت بعضه، و كان له كتاب آخر في القراءات، ومن التفاسير القديمة تفسير بقي بن مخلد (ت 276هـ)، قال عنه ابن حزم :"و في تفسير القرآن كتاب أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد ، فهو الكتاب الذي أقطع قطعا أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله، ولا تفسير محمد ابن جرير الطبري ولا غير" .

وكانت عناية علماء المغرب بالحديث لا تقل عن اهتمامهم بالقرآن وعلومه، فقد ادخل يحي بن يحى الليثي (ت 234هـ)[1] رواية لموطأ الامام مالك اصبحت فيما بعد هي اشهر رواية وهي المتداولة اليوم، وكان هذا الاخير مقربا من أمراء الاندلس هو وشيخه عبد الرحمان بن زياد المعروف باسم "شبطون".

إسهام المغاربة في دراسة أيام العرب وأنسابهم:

برز نخبة من المؤرخين المغاربة تخصصوا في دراسة أخبار العرب في الجاهلية وأنسابهم، كوسيلة لاستكمال معلوماتهم الدينية واللغوية، فهناك عدد كبير من المؤرخيين المغاربة والكثير منهم ربما لم تصل الينا كتاباتهم، ولا شك ان علم التاريخ قد بدا في المشرق، إلا ان المؤرخيين المغاربة استطاعوا بلوغ مراتب عليا في هذا العلم، ومن هؤلاء:

عبد الله بن أبي حسان اليحصبي (ت226 ه)[2]، عبد الملك بن قطن المهري (ت253 ه)، فرات بن محمد العبدي (ت292 ه)، أحمد بن شريس القيرواني (ت297 ه)، أبو محمد المكفوف (ت 308ه)، أبو عبد الله محمد بن زرزر (ت291 ه)، أبو العرب (ت 333ه)، الفقيه والمؤرخ عيسى بن مسكين (ت 281 ه).

ومن الذين تركوا تآليف في التاريخ أبو عبد الملك الملشوني الف كتاب كبيرا في "تاريخ الأنبياء، أما ابنه اسحاق (ت 242 ه) فهو من المؤرخين الكبار في زمنه، وكان يؤرخ للأغالبة الذين كانوا يستمعون الى حديثه عن أخبار الامم السابقة، اخذ عنه كل من المالكي وأبو العرب.

وكان الإمام سحنون بن سعيد (ت 240 ه) وابنه محمد الذي أخذ مغازي عبد الله بن وهب الفقيه المصري (ت 197ه) ونقلها إلى القيروان وتولى تدريسها هنالك للطلبة المغاربة، وقد ألف محمد بن سحنون كتاب في التاريخ يقع في ستة أجزاء لم يصل إلينا، اعتمد عليه المالكي[3]، وربما يكون قد اعتمد عليه القاضي عياض في التأريخ لوفيات بعض العلماء، وابن فرحون في الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب.

---

[1] هو يحي بن يحي بن كثير بن وسلاسن المصمودي الليثي بالولاء، أسلم جده على يد يزيد بن عامر الليثي فانتسب اليه بالولاء، توفب سنة234 ه، ينظر: حسن بن يحي شرحبيلي، يحي بن يحي الليثي ...، ص31

[2] محمد الطالبي، المرجع السابق، ص73-75

[3] المالكي، المصدر السابق، ص 70

كما ألف أبو عثمان سعيد بن الحداد (ت 302ه) كتاب في التاريخ أسماه "عصمة النبيين"، بينما ألف سليمان بن أبي عصفور المعروف بالفراء " المعتزلي " (ت 269 ه) كتاب سماه أعلام النبوة، ويعتبر هؤلاء هم أوائل المؤرخين وكُتاب المغازي والسير الذين ظهروا في القرن الثاني والثالث، ومع مطلع القرن الرابع بدأ علم التاريخ في الازدهار بظهور المؤرخين الكبار أمثال أبو العرب التميمي، وابن الجزار القيرواني (ت 360 ه).

وظهر مؤرخيين للدول المستقلة فمن مؤرخي الدولة الرستمية نذكر " إبن سلام بن عمرو" الذي ألف كتاب بعنوان شرائع الدين، على أن أشهر مؤرخ في تيهرت هو ابن الصغير المالكي وهو من سكان تيهرت، كان معاصرا للأئمة الرستميين المتأخرين، ويعتبر كتابه "أخبار الأئمة الرستميين أقدم وثيقة وصلت إلينا حول تاريخ الأئمة الرستميين الإباضيين.

وفي الأخير يمكن القول إن علماء المغرب قد بذلوا جهود كبيرة في نشر العلم، وسعوا لمنافسة المشرق في علومه وجعلوا لأنفسهم ولبلاد المغرب خصوصية وهوية في كل ضرب من ظروب العلم، فحاربوا البدع ونشروا العقيدة الصحيحة واتخذو المذهب المالكي شعار لهم، وعندما دخلت البلاد ضمن الدولة الفاطمية، لم يستكينوا إلى الراحة ويرضوا بالوظائف بل قاوموا المذهب الشيعي ورفضوه ودفعوا في ذلك ثمناً غالياً، ورغم بقاء الفاطميين مدة طويلة الا أن مذهبهم لم يسد وكانت الرمال تتحرك تحت أرجلهم في كل حين، فما إن خرجوا حتى عادت البلاد للمذهب المالكي .

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- ابن الابار، أحمد بن عبد الله القضاعي: الحلة السيراء، ج1، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985.
- ابن الاثير عز الدين: الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ج5، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، 1997.
- ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وابراهيم بحاز، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1986،
- ابن خلدون عبد الرحمان: العبر، تحقيق خليل شحاده –سهيل زكار، ج1، دار الفكر، بيروت، 2000.
- ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب، تحقيق، ج س، كولان، ليفي برفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983.
- أبو زكرياء، يحي بن ابي بكر الورجلاني: سير الأئمة واخبارهم، دار الغرب الاسلامي، بيروت ،1982.
- البَلَاذُري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود: فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال–بيروت، 1988.
- الحميدي، محمد بن فتوح بن عبد الله: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الاندلس، دار الغرب الاسلامي بيروت، 2008.
- الدباغ، عبد الرحمان بن محمد: معالم الايمان في معرفة اهل القيروان، ج1، تحقيق عبد المجيد الجبالي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الذهبي، محمد بن احمد بن عثمان: سير اعلام النبلاء، ج 5، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1996.
- الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل، ج1، تحقيق أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، ط2، القاهرة، 1992.

- القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، الجزء 13، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، المغرب، ط2، 1983.
- المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية، ج1، تحقيق: بشير البكوش محمد العروسي المطوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت.
- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان، 1987.
- اليعقوبي، أحمد بن اسحاق: البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001.
- القسطلاني المصري، شهاب الدين: لطائف الإشارات لفنون القراءات، ج1، تحقيق وتعليق عامر السيد وعبد الصبور شاهين، مطابع الأهرام، القاهرة، 1973.
- الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج2، 1977.

المراجع:

- ابراهيم التهامي، جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة اهل السنة: دراسة في الصراع العقدي في المغرب العربي من الفتح الاسلامي الى القرن الخامس الهجري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005.
- ابراهيم بحاز، الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية 160-296هـ / 777-909م، جمعية التراث الجزائر، ط2، 1988.
- ابن حمدة عبد المجيد، المدارس الكلامية بإفريقية الى ظهور الاشعرية، مطبعة دار العرب، بيروت، 1986.
- أبي العرب، محمد بن أحمد بن تميم، طبقات علماء افريقية، ج3، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، لسان الميزان، تحقيق عبد الفتاح أبي غدة، مكتبة المطبوعات الاسلامية، 2000.
- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة الآداب للنشر والتوزيع، القاهرة، 1947.
- عبد الغني الدقر، الامام مالك بن انس إمام دار الهجرة (93ه-179 ه)، دار القلم، دمشق، ط3، 1998.
- محمد الطالبي، تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض، تحقيق محمد الطالبي، الجامعة التونسية.
- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
- محمد بن حسن شرحبيلي، يحي بن يحي الليثي وروايته للموطأ، منشورات جامعة القرووين، كلية الشريعة، أكادير، 1995.
- محمد بن حسن شرحبيلي، تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية عصر المرابطين، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2000.
- محمد زنهم محمد عزب، الامام سحنون، دار الفرجاني، القاهرة، 1992.
- محمد عبد الحي الكتاني، نظام الحكومة النبوية المسماة التراتيب الادراية، ج2، دار الارقم، بيروت، ط2، 2001.
- محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في المغرب الإسلامي حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، المغرب، ط2، 1985.

الرسائل الجامعية:

- محي الدين سليمان إمام مديلي، ابن أبي زيد القيروان، عقيدته وموقفه من الفرق ومقاومته للبدع، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة، المجلد الاول، 2001، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية.

طبقة الفرسان في اوروبا خلال العصور الوسطى

ودورها في الحروب الصليبية.

إعداد :

أ . علي حماد محمد

جامعة السيد محمد بن علي السنوسي.

Research summary:

This research entitled ((Equestrian in Europe and the Medieval Ages)) it is divided in to three Chapters in addition to the introduction and conclusion .
The first chapter .which is entitled by the Knights class at the end of the Roman era ,and talked about the status of this period during the last time of the empire and the privileges and status it obtained especially during the reign of Emperor Galianos .
The second Chapter , entitled : The Equestrianism in Europe in the Medieva Ages , it included many stages in which the knight has passed through Europe , as well as the duties that he must abide by and the clothing and fighting tools they have . also the role of the Church in supporting the cavalry by intervening in the inauguration ceremony . and to compel the knight to practice Christian morality and defend religion and the rest of society .

The third chapter . entitled ((the Role of knights in the Crusades Wars)) . it dealt with the definition of cavalry teams that arose during the crusades war , and its role in strengthening the presence of crusaders at the holy land and enable the crusaders to prolong their existence in the Islamic East and in establishing the kingdoms and the crusader emirates , and how they benefited
From the wealth of which they obtained during the wars or through the support of the church and how the end of these military organizations after the victory of the battle of hit tin subsequent change in the style of fighting .
Then , the conclusion and the list of sources and references has followed .

المقدمة :

في كل الحضارات القديمة تقريبًا عرفت الفروسية "فن ركوب الخيل" ،فقد عرفها العرب والفرس وبعدهم الرومان، فقد وجدت فرق من الفرسان في الجيش الروماني منذ الزمن الملكي مروراً بالجمهوري والإمبراطوري ، وخلال فترة العصر الوسيط اتّخذ العديد من النبلاء لأنفسهم فرساناً لينجزوا لهم الواجبات المنزلية في زمن السلم، وليقاتلوا في وقت الحرب. وكان النبيل هو الذي يَمُد فرسانه بالسلاح والخيول. وفي الفترة ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين تحوّل معظم الفرسان إلى تابعين للنبلاء الذين كانوا يزودونهم بقطع من الأراضي. وبسبب ارتفاع أسعار الأسلحة وخيول الحرب لم يعد بإمكان غير الرجال الأثرياء تجهيز أنفسهم ليحاربوا كفرسان، وهكذا، أصبح الفرسان طبقة منفصلة عن بقية المجتمع، كما أصبح الدخول في صفوفهم علامة على الشرف والتميز. وعلى الرغم من أن كل رجل كان بإمكانه أن يكون فارسًا، إلا أن معظم الفرسان الجدد كانوا إما من آباء كانوا هم أنفسهم فرساناً، أو كانوا ينتمون إلى طبقة النبلاء. ويدعى عصر الفرسان "عصر الفروسية"، وهذه الكلمة مشتقة من كلمة فرنسية قديمة تعني الجندي الخيّال. إلا أن هذا التعبير أصبح يعني مجموعة القواعد الخاصة بالسلوك والأخلاق التي يجب على الفرسان الالتزام بها.

أصبحت الفروسية جزءًا من النظام الإقطاعي في العصور الوسطى، واستمرت مع اعتماد الحروب على سلاح الفرسان والمبارزة بين الأفراد، إلا أن الفرسان قلّت أهميتهم في حروب القرن الخامس عشر الميلادي بسبب تغيُّر الفنون العسكرية واستخدام البارود .

المبحث الاول: طبقة الفرسان في أواخر العصر الامبراطوري، تحدث عن وضع هذه الطبقة خلال الفترة الأخيرة من عصر الامبراطورية، وما حصلت عليه من امتيازات ومكانة، خصوصاً في عهد الامبراطور جاليانوس، والمبحث الثاني وعنوانه " الفروسية في أوروبا (العصور الوسطى)" واحتوى على العديد من المراحل التي يمر بها الفارس في أوروبا، كذلك الواجبات التي يجب على الفارس الالتزام بها، ولباس وأدوات القتال لديهم، وكذلك دور الكنيسة في دعم طبقة الفرسان عن طريق التدخل في مراسم تدشين الفرسان واعطاء الشرعية لهذه العملية والزام الفارس بالأخلاق المسيحية والدفاع عن الديانة وباقي طبقات المجتمع، أما المبحث الثالث والذي كان بعنوان " دور فرق الفرسان في الحروب الصليبية " وتناول التعريف بفرق الفرسان التي نشأت في فترة الحروب الصليبية ودورها في تعزيز الوجود الصليبي في الاراضي المقدسة وتمكين الصليبيين من إطالة عمر وجودهم في المشرق الإسلامي وإنشاء الممالك والامارات الصليبية، ومدى استفادتها من الثروات التي حصلت عليها خلال الحروب أو عن طريق الدعم من الكنيسة، وكيف تمت نهاية هذه التنظيمات الحربية بعد انتصار حطين وانتقالها إلى أوروبا وانتهى أمرها وفيما بعد تغيرت أساليب القتال، أما المنهج الذي اخترناه للدراسة,هو المنهج السردي التاريخي حيث نقوم بجمع المادة العلمية من المصادر والمراجع، وبعد ذلك نقوم بالتحليل والمقارنة بين جميع المعلومات الواردة في المصادر والمراجع ,وتأثيراتها المباشرة وغيرالمباشرة بغية الوصول واستخلاص ومعرفة ظهور وتأثير طبقة الفرسان في المجتمع الاوروبي خلال العصور الوسطى ودورها في الحروب الإقطاعية في الداخل والخارج خصوصاً الحروب الصليبية، وتلي ذلك الخاتمة ثم قائمة المصادر والمراجع .

المبحث الأول التمهيدي : الفروسية في أواخر العصر الروماني :

يشمل التاريخ البنائي للقوة العسكرية الرومانية(1) تحولات عديدة طرأت علي بنية وتنظيم جيش روما القديمة، الذي يعد "أكثر مؤسسة عسكرية مؤثرة وطويلة الأمد عرفها التاريخ، خضعت في روما القديمة إلي تغيرات كبيرة منذ تأسيسها عام 753 ق.م وحتى حلّها بالكامل عام 476 م،وذلك نتيجة لانهيار الامبراطورية الرومانية الغربية(2)، فقد انقسمت القوة العسكرية الرومانية بداية إلى جناحين: بري وبحري، (3) .وقد وجدت مراحل عدة لبناء القوة العسكرية الرومانية يمكن تحديدها فيما يلي :-

المرحلة الأولى : اعتمد الجيش في نشأته في هذه المرحلة علي الخدمة العسكرية الإلزامية السنوية، التي فُرضت على المواطنين لكونها جزء من واجباتهم تجاه الدولة، فقد كان الجيش الروماني يقوم أثناء تلك الفترة بشن حملات موسمية ضد خصوم الدولة.

المرحلة الثانية : مع خضوع المزيد من الأقاليم لهيمنة الرومان وازدياد حجم قواتهم أصبح الجيش تدريجياً يتضمن المزيد من الجنود المحترفين الذي يتقاضون أجوراً لغرض خدمتهم، ممّا أدى إلى إطالة مدة الخدمة العسكرية الإلزامية للفئات الدنيا من الشعب (التي لا تتقاضى أية أجور)، وقد تميزت الوحدات العسكرية الرومانية في تلك الفترة إلى حد كبير بتجانسها وتنظيمها رفيع المستوى (4)، وقد انقسم الجيش إلى فئتين أساسيّتين: وحدات نظامية من المدنيين الذي يعرفون بـــ"الفيالق الرومانية" (باللاتينية: Legiones) ووحدات غير منظّمة من القوات الأجنبية المساعدة (Auxilia) والتي كانت في الغالب تُستدعى لدعم الجيش بالوحدات الإضافية، مثل المشاة خفيفي التسليح والمساعدات اللوجستية والفرسان الخيالة.

المرحلة الثالثة : كانت مهمة القوات العسكرية في ذروة قوة الإمبراطورية الرومانية – تشمل إدارة وتأمين حدود الأقاليم الضخمة التي خضعت لنفوذ روما، وقد قلّت في هذه الفترة الأخطار الاستراتيجية على الدولة، واقتصر الاهتمام علي حماية الأراضي المكتسبة قديماً، وقد خضع الجيش لتغييرات نابعة من الحاجات المستجدة، وأصبح أكثر اعتماداً على الحاميات العسكرية الثابتة من المخيمات المؤقتة للحملات والحروب الجارية (5) .

المرحلة الرابعة : ظلت الخدمة العسكرية قائمة لأنها مهنة بأجور ضمن القوات النظامية، وذلك في الوقت الذي كانت روما منهمكة فيه بالحفاظ علي هيمنتها على الأقاليم المترامية الأطراف التي احتلّتها، وقد شاع تعيين عناصر من المرتزقة أو الأجانب الحليفين حتى أصبحوا يمثلون نسبة ضخمة من الجيش، وقد اضمحلّت في الوقت ذاته؛ نتيجة لذلك الوحدة التي تمتعت بها قوات روما العسكرية في سابق عهدها، تراوح الجنود في هذا العصر من الفرسان الرماة خفيفي التسليح إلى المشاة ثقيلي التسليح، فأصبحوا متفاوتين إلى حد بعيد في الكفاءة والأعداد(6) وقد غلب وجود سلاح الفرسان بشكل متزايد وأكثر من فرق المشاة كما جاء ذلك بالحاجة للمزيد من الحملات العسكرية على الدول المجاورة، خاصة في أواخر عهد الإمبراطورية الرومانية، ففي عهد المملكة الرومانية، كان يتولّى ملك روما بنفسه قيادة سلاح الفرسان إلى ساحة المعركة، وإذ لم يكن قادراً أو لم

يشأ فإنه يستطيع نقل هذه المسؤولية إلى أحد مساعديه الكبار، وفي ذلك الحين لم تكن وظيفة سلاح الفرسان الوحيدة هي القتال، بل كان الحرس الشخصي للملك ؛ ولأنه كان من السائد في ذلك الحين مبدأ أنه لا يجب لرجلٍ واحد تولي السلطة كلها، لينتخب قنصلين على ان يكون أحدهم من العامة (7) وظهر منصب الدكتاتور الروماني(8)، الذي لا يمكن الاعتراض على أوامره و تفنيدها بأيّ طريقةٍ في ظلّ حالات الطوارئ، وظهر معه بالمثل منصب قاضي الفرسان الذي تمتع بنفس السلطة، وهو قاضٍ روماني كان يُعيَّن كنائبٍ للدكتاتور، كانت مهامّه العادية هي قيادة سلاح الفرسان الروماني في الحروب .

و كان من الممكن أحياناً أن يُرشّح لتولي مسؤوليات أخرى والعمل على مهامٍ عسكرية أو سياسية خارج نطاق سلاح الفرسان، كان منصب قاضي الفرسان لذلك منصباً عسكرياً وسياسياً في الآن ذاته. أما في العصر الامبراطوري فقد كانت طبقة الفرسان في الأساس تنتمي الى الطبقة الارستقراطية وأصحاب رؤوس الاموال، وبمرور الوقت أضحى عدد من الفرسان أوفر ثراءً من النبلاء معتدلي الثراء غير أنه لم يكن للفرسان أي اثر محسوس في الحياة السياسية إلا في عهد الامبراطور جاليانوس (251 – 253م)، فقد انتهج هذا الامبراطور سياسة خاصة كان الهدف منها حرمان أعضاء مجلس السناتو من الوظائف العسكرية وإتاحة الفرصة لعناصر أكثر كفاءة وقدرة من طبقة الفرسان ليصبح جميع قادة فرق الجيش من الفرسان، كما حل الفرسان محل مندوبي الامبراطور في الولايات ، وكذلك حذا خلفاء جاليانوس حذوه في الرفع من مكانة الفرسان ، واهتموا بزيادة أعدادهم واصبحت ميلانو (9) قاعدة لقوة الفرسان الذين اصبحوا على قدم المساواة مع الحرس الإمبراطوري (10) نتيجة لذلك الاهتمام اكتسبت طبقة الفرسان كياناً سياسياً واضح المعالم وتمتعت بنفوذ كبير في الدولة بالإضافة الى زيادة هائلة في ثرواتهم (11) وكان أهم نشاط مالي لطبقة الفرسان هو التعاقد مع الدولة على تزويدها باحتياجات الجيش ،وإقامة المنشآت العامة ، وجباية الضرائب والمكوس ، واستغلال المحاجر ومصائد الاسماك ، بالإضافة إلى الاشتغال بالتجارة واقراض الاموال في كل المناطق الخاضعة لسيطرة الامبراطورية الرومانية ، وكان من الطبيعي أن تساعد وفرة الثروة على أن يحذو الفرسان حذو النبلاء في حياة الترف والبذخ(12) لتصبح هذه الطبقة من أبرز طبقات المجتمع الاوربي الوسيط ، وهذا ما سنتناوله في المبحث الثاني .

المبحث الثاني – ظهور طبقة الفرسان في أوروبا(العصور الوسطى) :

كان النظام الإقطاعي (13) من معالم العصور الوسطى، وكانت الفروسية من معالم النظام الإقطاعي (14)، وعرفت طبقة الفرسان في اوروبا العصور الوسطى على أنهم الرجال الذين يحاربون على ظهور الخيل (15)، ويتبع الفارس سيد أقطاعي يرتبط به، يحلف يمين الولاء والطاعة بموجب التزامات النظام الإقطاعي، حيث نشأت فروسية العصور الوسطى مع ظهور الإقطاع في أوروبا، وكان للفرسان مكانة كبيرة في أعمال القتال، فقد كان الفارس الغربي ثقيل العدة يرتدي الدرع المصفح ويتسلح بالرمح الخطي الطويل إلى جانب أسلحة أخرى يحملها أتباعه، ويقي الحصان أيضاً درع من صفائح معدنية وجلدية، وتمنح رتبة فارس في احتفال تشارك به الكنيسة(16)، ويرافق الفارس سبعة من الأتباع راجلين أو راكبين، وفيهم نبّالة، وحملة

الأسلحة وغلمان الخدمة ،وكان الفارس يتبع سيداً يرتبط به بيمين الولاء وبمختلف التزامات التبعية ،وقد ارتبط نظام الفروسية ارتباطاً بالنظام الإقطاعي ، بل أن النظام الاقطاعي هو الأم للفروسية، ذلك لأن أبناء النبلاء كانوا أمام خيارين لا ثالث لهما، أما ــأن يدخلوا سلك رجال الدين الديريين ، وأما أن يصبحوا فرساناً محاربين (17) .

الجذور التاريخية للفروسية في أوروبا :

كانت للفروسية جذور تاريخية اتصلت بتقاليد الشعوب الجرمانية(18) من جهة، وبتقاليد العرب في اسبانيا من جهة اخرى، وقد شكّل هؤلاء الفرسان طبقة اجتماعية لها خصائصها وتقاليدها وقوانينها المحددة، وفي بداية ظهور النظام الاقطاعي كان الاقنان ينخرطون في سلك الفروسية بشرط إثبات جدارتهم الشخصية . ولكن القوانين الإقطاعية اللاحقة منعت رسمياً قبول الأقنان فرساناً .

وقد بين لنا المؤرخ كولتون في كتابة " عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة " وصف المؤرخ الروماني تاكيتوس الشعوب الجرمانية بأنها تقوم بأعمالها المهمة كافة وهي تحت السلاح ، فإذا بلغ الصبي السن التي تؤهله لخوض غمار الحرب قلد الاسلحة التي كانت في انتظاره في حفل رسمي ، وابتداءً من ذلك الحفل ينسلخ الصبي عن أسرته التي لم يعد ملكاً لها بل ملكاً للدولة، وكان الشبان الطموحون يميلون إلى الالتحاق بمحارب عظيم، يأكلون على مائدته ويشاركونه معاركه ليتعلموا منه فنون القتال وحياة الفروسية (19) .

أما عن اتصال الفروسية في اوروبا بالعرب في أسبانيا فقد انتقلت إلى أوروبا قواعد واخلاق الفروسية العربية ،والتي كان لها شروط وآداب، ولايكون الرجل فارساً إلا إذا تحلى بعدد من الصفات منها الصلاح ،والكرامة ورقة الشمائل والقريحة الشعرية وركوب الخيل ،ومهارة استعمال الاسلحة كالسيف والرمح والنشاب ، ولقد اقتبست الامم النصرانية في اوروبا هذه الخصائل عن العرب المسلمين فأثرت في نفوسهم واصلحت من طبائعهم وهذبتها (20) وعن ذلك يتحدث المؤرخ البريطاني جورج كولتون في كتابه (عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة) ما يأتي– قد عزز هذه الأفكار عن الفروسية التشبه بالعرب في اسبانيا الذين اعتنقوا المثل الاعلى نفسه وبقدر ما امكن معرفته ،كان العرب متفوقين عليهم بلا شك ، وكانت حضارتهم أرقى من حضارة الشعراء المتجولين في جنوب فرنسا ، وبدافع من من موسيقى الحب والحرب ،بل وبدافع من حسن الاحتفاء بالسيدات بدافع من كل هذا وذاك يبدوا ان هؤلاء المغاربة "العرب المسلمين " قد أعطوا المجتمع الاسباني أكثر مما أخذوا منه) (21) وكان للفارس في أوروبا العصور الوسطى نوعان هما فارس السيف وفارس الحمام، أما فارس السيف فهو الذي أخذ ذلك اللقب في ميدان القتال نظير بسالته في القتال ، أما فارس الحمام فقد مر بمراحل عدة منذ صباه ليكون فارساً (22) ومن هذه المراحل :

المرحلة الأولى – في هذه المرحلة يتم إبعاد الصبي عن بيته، وأسرته وهو في سن السابعة من عمره ، ويرسل إلى بلاط سيد إقطاعي صديق لوالده ، وإذا كان الصبي ابن أحد النبلاء يرسل الى بلاط الملك ،

والهدف من إرسال الصبي الى هذا البلاط او ذاك هو أن يكتسب خبرة الحامية الأرستقراطية ويتعلم الآداب والسلوك في مجتمع النبلاء ، حيث كان هذا الصبي يعيش في قصر السيد كوصيف خاص يسهم في إعداد المائدة، ويقف وراء كرسي السيد في أوقات الطعام ، كما يعمل كمراسل بين سيدات البلاط، ومساعداً للفرسان على تجهيز خيولهم وإعدادها ، وينال الصبي في هذه المرحلة التدريبية الأولى لقب (الوصيف).

المرحلة الثانية – تمتد هذه المرحلة ما بين السنة الخامسة عشرة والعشرين من عمر الصبي ، وفيها يرافق الصبي أحد الفرسان في حله وترحاله ، فيسهر على خدمته ويهتم بأسلحته وحصانه ، وبذا يتدرب على ركوب الخيل واستخدام السلاح، ويرتقي الصبي في هذه المرحلة إلى مرتبة مساعد فارس ، كما ينال لقب حامل الترس (23).

المرحلة الثالثة – في هذه المرحلة يجهز مساعد الفارس بسيف ورمح ، ويتدرب مع أنداده من الشبان على القتال واستخدام السلاح بالرمي على الشواخص ، كما يشترك مع الفرسان في خوض بعض المعارك إلى جانب السيد عندما يطلب منهم ذلك ، ضد غيره من الإقطاعيين، فإذا أثبت كفاءته وصلاحيته يتقرر تنصيبه فارساً ،ويكون ذلك عادة في السنة العشرين أو الإحدى والعشرين من عمر الشاب (24). حيث يتم منح مرتبة الفروسية في حفل له طقوس خاصة ، ويدعى (حفل تقليد السلاح) حيث يبدأ الفارس هذا الحفل بالاستحمام ويرتدي قميصاً أبيضاً دلالة على نقاء الخلق ،ويضع فوق القميص رداء أحمر دليلاً على الدم الذي قد يسال في سبيل الرب أو الشرف ،ويقضي الفارس ليله في الكنيسة يصلي ويعترف بذنوبه (25)وفي يوم الحفل يركع الشاب أمام سيده أو فارس مجرب، فيسأله السيد قائلاً : إذا كنت تبغي المال والراحة والشرف دون أن تقوم بما يشرف الفروسية ، فأنت غير خليق بها ، ويجب على الشاب أن يرد على السيد مؤكداً له استعداده للقيام بما يفرضه عليه نظام الفروسية من واجبات ، وبعدها يتلقى الشاب ضربة خفيفة رمزية على كتفه بصفحة سيف السيد ،ثم يتناول منه سلاحه الكامل ، وبهذا يصبح فارساً كاملاً (26)، وكانت مدة الخدمة في سلاح الفرسان خمسة وعشرون عاماً (27) .

كما سعت الكنيسة إلى احتضان الفروسية بحكم مطالبتها ببسط حمايتها على وجوه النشاط الانساني كافة ، لذلك شجع رجال الدين استخدام الطقوس الدينية في تقليد الفرسان ، وأقاموا لهذا الغرض شعائر وطقوساً خاصة ، ومنها قيام الفارس في ليلة العيد بصلاة خاصة ، ثم التطهر بالاغتسال المقدس في صباح يوم العيد (28).

لباس الفرسان :

*– كان الفرسان في أوقات السلم يرتدون الملابس الآتية :

أ – القميص : وهو صدارة يربطها حزام في الوسط .

ب – السروال : وهو لباس مشدود على الساقين والفخذين بإحكام .

ت – المعطف : وهو لباس يرتديه الفارس فوق القميص في حالات البرد، أو الاحتفالات، ويربط المعطف من أعلاه حول الكتف الأيمن حتى لا يعوق السيف.

ث – العباءة : في حالات البرد القارس كان الفارس يرتدي عباءة يطوى على طرفها الأعلى فوق الرأس للوقاية من شدة البرد .

ج – الحذاء : وهو عبارة عن صندل مصنوع من الجلد .

* – أما لباس الحرب فقد يكون من القطع الآتية :

أ – الخوذة : وهي لباس الرأس مصنوع من الحديد ، مخروطية الشكل تمتد مقدمتها إلى أسفل لتحمي أنف الفارس .

ب – الدرع : وهي صدارة مزردة ، تتألف من حلقات متداخلة من الحديد ، وتكون مشقوقة من أسفلها حتى لا تعوق الفارس عن امتطاء فرسه .

ت – الجرمون أو الألشين : وهو أربطة من القماش أو الجلد تمتد من الركبة إلى القدم(29) .

سلاح الفرسان :

تشكل سلاح الفرسان في الغالب من :

أ – السيف : وهو طويل مطلي صليبي المقبض مربوط بحزام على الجانب الأيسر.

ب– الحربة: طولها ثمانية أقدام يمسكها الفارس بيده اليمنى .

ت – الترس : وهو مستطيل الشكل ، طوله أربعة أقدام ، يحمله الفارس في ذراعه اليسرى . الحربة : طولها ثمانية أقدام يمسكها الفارس بيده اليمنى .

ث – البلطة : وهي قصيرة المقبض تشبه الفأس الحادة ، يحملها الفارس على جانبه الأيمن أو خلف ظهره .

ج – الفرس : كان الفرس الذي يمتطيه الفارس مطهماً مزوداً بالسرج، والركاب واللجام ، وكان المجتمع الإقطاعي لا يعد المقاتل فارساً دون الفرس (30).

المبارزة :

كانت حياة السلم تعني البطالة للفرسان الأوروبيين في العصور الوسطى ،لذا ابتكر هؤلاء الفرسان تقليد المبارزة لمقاومة الملل الذي قد يعتريهم في حالة عدم وجود حرب حقيقية ، حيث كانت تلك المبارزات تتم بطريقة تمثيلية استعراضية ،الهدف منها إظهار المهارة الحربية بأقل قدر من الإصابات والدماء (31) وهناك تقاليد أخرى يجب إتباعها ، وشروط معينة يتوقف عليها الطرفان قبل المبارزة ، ويتم تحديد يوم معين للنزال بين فريقين من الفرسان يمثلان ضاحيتين أو أسرتين ،ويكون الحكم أحد الفرسان المحايدين ، وينتظم المتبارون بملابس الحرب صفوفاً ، وهم على ظهور خيولهم على طول جانبي ساحة المعركة ،وعند إعطاء إشارة معينة يبدأ القتال ، وإذا تكسرت السهام والرماح يواصل المتبارون المعركة بسيوفهم إلى أن ينتصر أحد الفريقين على الآخر ويجرده من سلاحه ، وينال الفريق الغالب شرفاً كبيراً ، فضلاً على الغنائم ، إذ كان من حقه الاستحواذ على خيل المغلوب وسلاحه ، مالم يستردها الأخير مقابل مبلغ من المال (32) حيث كانت حلبة البرجاس هي المكان المناسب للتدريب وإظهار مهارة الفارس (33).

واجبات الفارس الأخلاقية :

كان على الفارس أن يتمتع بمزايا أخلاقية متميزة ، فالفروسية الإقطاعية القائمة على تبعية الفارس للسيد طالبت الفارس أن يكون مخلصاً لسيده ، يقاتل في سبيله بشجاعة وإقدام ، فالرجل الذي جعل القتال مهنته الأولى لابد أن يكون شجاعاً شديد البأس في المعركة ،ولكي تكون الحرب أكثر قبولاً عند المشتركين فيها، نشأت لديهم الفكرة بأنه لايجوز مهاجمة فارس غير مسلح ، بل ينبغي أن يتاح له الوقت الكافي لارتداء درعه وتجهيز نفسه للقتال (34) ونشأ أيضاً العرف الذي يعد الفارس الأسير ضيفاً ،ويسمح بقبول ابنه رهينه إلى أن يقوم الأسير بجمع فديته ، وفي القرن الثالث عشر جرت العادة بإطلاق سراح الفارس لجمع الفدية ، على ان يعد بالعودة للأسر إذا لم يوفق في جمع الفدية ، واعتمد الشعراء والمنشدون ورواة القصص الذين يطوفون على قلاع الفرسان وحصونهم ومنازلهم في حياتهم على سخاء هؤلاء السادة وجودهم ، لذا صار الكرم في قصصهم واناشيدهم الفضيلة الأساسية عند الفرسان (35) فقد كانت الحروب الإقطاعية في الواقع عبارة عن مناوشات بين فريقين ومحاولة لتدمير أراضي العدو ، أكثر منها حرباً منظمة بالمعنى الذي نعرفه ،وقد دار الجزء الأكبر من هذه الحروب الإقطاعية في الحصون أو حولها (36).

آثر الكنيسة في الفروسية :

أما الفروسية الدينية فإنها تمثل مفهوم الكنيسة عن الفارس المثالي ، لقد طالبت الفارس بأن يكون مسيحياً تقياً ، غرضه الأساسي أن يحمي الكنيسة ويدافع عن عقيدتها (37)، كذلك طالبته بأن يبتعد عن ارتكاب الجرائم ، وأن يرعى الضعفاء والعجزة ويحميهم ، وأما فروسية الغزل والعشق فقد طالبت الفارس باحترام المرأة وحمايتها ، ففي النصف الثاني من القرن الحادي عشر ظهر غي جنوب فرنسا شعراء اتخذوا اسم التروبادور(38)أخذوا يمجدون في قصائدهم الغزلية للسيدات ، ويصفون ما يترتب على التشبب بهن من الفوائد ،وصار الفارس المتيم بسيدة لا يفكر في شيء سوى العمل على إرضائها وجلب السرور لها ، ولم يمجد شعراء التروبادور المرأة فحسب بل جعلوها في مرتبة أعلى من مرتبة الفارس المحب المتواضع (39) ولقد انتشرت أشعار وأغاني الملاحم بصور متعددة عن حياة الفرسان في العصور الوسطى ،ومن أمثلة ذلك انشودة رولان والتي دونها قسيس نورومانى في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، والتي تتحدث عن شخصية رولان الفارس الذي سقط صريعاً في إحدى حملات الأمبراطور شارلمان ضد المسلمين في أسبانيا ،فقد ابرزت هذه الاغنية بطولات رولان واظهرت فكرة التبعية الاقطاعية وارتباط التابع بسيده وإخلاصه له ودفاعه عن الديانةالمسيحية (40) .

عيوب الفروسية والفرسان :

ظهرت بعض العيوب في نظام الفروسية الاوروبي كان منها ما يأتي :

1 – إنهم لم يطبقوا فضائل واخلاق الفروسية إلا فيما بينهم ، أما بقية الطبقات الدنيا في المجتمع التي منها طبقة الاقنان أو العبيد فقد عاملوها باحتقار وازدراء ، فلم يتوان الفارس أحياناً عن رمي الخادم بالحربة إذا تأخر عن تقديم الشراب له .

2 –لم يتصف الفرسان الأوروبيين بالمروءة في علاقتهم مع أعدائهم ، فالفرسان الصليبيون ارتكبوا أبشع الاعمال عندما احتلوا بعض المدن العربية

3 – اتصف الفرسان بالغطرسة الإقطاعية ، كما استخدموا أساليب شاذة أحياناً لتحقيق اهدافهم .

4 – مارس الفرسان في أوقات السلم بعض أعمال القرصنة التي منها قطع الطريق واغتصاب متاع المسافرين وأموالهم ، والاستيلاء على سلع التجار ومتاجرهم(41).

وبحلول نهاية القرن العاشر الميلادي بدأت تنتشر بعض الحركات الداعية إلى السلم يتحد أعضاؤها مع بعضهم بقسم يلزمهم بالامتناع عن الأعمال الحربية في بعض أيام الأسبوع ، وكذلك الامتناع عن الإساءة إلى الاشخاص وأملاك الكنيسة وعدم القسوة مع الضعفاء من النساء والأولاد والشيوخ ورجال الدين والفلاحين ، وانتشرت هذه الجمعيات في أقاليم مختلفة في كل من فرنسا والمانيا ، وأقر الملوك والامراء قوانين فرضوا تطبيقها بالتعاون مع الأساقفة ،وأعد في القرن الحادي عشر مبدا يفرض على الفارس ألا يكون فظاً مع الضعفاء فحسب بل يجب عليه حمايتهم والدفاع عنهم وهو ما سمي "بهدنة الله " (42) ، كما تقرر أن تكون الأماكن المقدسة التي منها الكنيسة وساحتها مناطق حياد ،وعلى الجميع الامتناع عن القتال في مواسم الحصاد (43)،

وفي نهاية القرن الحادي عشر أصبحت البابوية على رأس العالم المسيحي ،وأخذت على عاتقها قضية السلام في اوروبا ،فعممت جميع القرارات التي أصدرتها المجامع الدينية في غالة (فرنسا) بخصوص المنع والتنديد بالحروب الإقطاعية و تطبيق عقوبة الحرمان على كل مخالف لقرارات هذه المجامع (44)،هذا التطور جعل من الفرسان الحماة الطبيعيين للفئات الاجتماعية الاخرى ،والمدافعين عن الدين المسيحي ،غير أن هذا السلام في الداخل لايمنع من الحرب في الخارج واتضح هذا في استجابة الفرسان إلى الدعوة للحرب الصليبية (45) على المشرق الإسلامي ،والراجح ان رجال الكنيسة قد أرادوا تحويل نشاط الفرسان إلى قتال المسلمين (46) كذلك خطاب القديس برنار إلى بعض الفرسان سنة 1120 م والذين أسسوا فرق الفرسان فيما بعد (47).

المبحث الثالث – دور فرق الفرسان في الحروب الصليبية :

ظهرت فرق عدة من الفرسان الأوروبيين خلال فترة العصور الوسطى، و كان لها دور مهم في الحروب الصليبية ومنها ،فرسان الهيكل ، وفرسان الاسبتارية ، وفرسان التيوتون :

1 – فرسان الهيكل (الداوية) :

هم فرسان المعبد الملقبون بـــالجنود الفقراء للمسيح ومعبد سليمان، عرفوا أيضًا بالداوية أو تنظيم الهيكل وهو اسم لأول منظمة عسكرية وأشهرها والمنظمة الأم التي كانت كل الفرق العسكرية فروعاً منها (48) ، كانوا أحد أقوى التنظيمات العسكرية الدينية التي تعتنق الفكر المسيحي الغربي، وأكثرها ثراءً ونفوذًا وأحد أبرز ممثلي الاقتصاد المسيحي. ودام نشاطهم قرابة قرنين من الزمان في العصور الوسطى ،و ذاع صيت التنظيم في العالم المسيحي بعد أن صادقت عليه الكنيسة الكاثوليكية(49) رسميًا حوالي سنة 1129م، و أخذ

يزداد نفوذا و قوة و عدداً بخطى متسارعة، ثبت إقدام فرسان المعبد في حلتهم البيضاء المميزة بالصليب الأحمر وهي إحدى أمهر وأخطر الوحدات العسكرية المشاركة في الحملات الصليبية ، كما أدار أعضاء التنظيم المدنيون بنية تحتية اقتصادية واسعة النطاق في كافة أنحاء العالم المسيحي، كما أنهم شيدوا الحصون وأقاموها في كل مكان في أوروبا(50) أما في المشرق الإسلامي فقد كانت مهمة الفرسان هم من يحمون الحجاج المسيحيين، ولكن بحلول سنة 1150م تحولوا إلى حماية أموالهم وممتلكاتهم ، حيث طور الفرسان مهارات ليصبح استثمار الاموال المعاملات الاقتصادية مقدمة عندهم على القتال الذي هو مصدر صيتهم وشرعيتهم (51) وقد تكونت هذه الفرقة وأصبحت تشكيلاً عسكرياً باركه البابا(52)وتَحصَّلوا على امتيازات كثيرة بمساعدة الكنيسة (53) .

فقد كان في المملكة النصرانية الصليبية الناشئة الكثيرُ من أسباب الضَّعف، ولكنها كانت تتلقى المعونة من نظام من الرهبان الحربيِّين (54)، ووضع لهم القديس برنار الاب الروحي للتنظيم(55) نظامًا صارمًا، لم يُطيعوه زمنًا طويلاً، وكان مما أثنى عليهم به أنهم "أكثر الناس علمًا بفن الحرب"، وأمرهم "ألا يغتسلوا إلا نادرًا"، وأن يقصّوا شعر رؤوسهم، وكتب القديس برنار إلى فرسان المعبد بقوله: "إنَّ على المسيحي الذي يقتل غير المؤمن في الحرب المقدسة أنْ يثقَ بما سينال من ثواب، وعليه أن يكونَ أشدَّ وثوقًا من هذا الثواب إذا قتل هو نفسه، وإن المسيحي ليبتهج بموت الكافر؛ لأن المسيح يبتهج بهذا الموت"، ومن الواجب على الناس أنْ يقتلوا وهم مرتاحو الضمير، إذا كانوا يُريدون النَّصر في الحروب، ومع أنَّ فرسان المستشفى كانوا حوالي 1180مقاتل ، فقد كان لهم جميعًا شأنٌ ظاهر في معارك الحروب الصليبية، وذاعت شهرتهم الحربية، وقاموا بحملة واسعة لجمعِ المال، فتوالت عليهم الإعانات من الكنيسة والدولة، ومن الأغنياء والفقراء على السواء، فلم يحل القرن الثالث عشر حتى تَملكوا في أوروبا ضياعًا واسعة تشمل أديرة، وقرى، وبلدانًا أدهشت النصارى والمسلمين بما أنشأت من الحصون الواسعة في بلاد الشام؛ حيثُ كانوا يستمتعون بالترف مجتمعين وسطَ متاعب الحروب وكدحها، مع أنَّهم قد نذروا أنفسهم فرادى للفقر(56) فقد وجدوا في الحرب الصليبية متنفساً لهم ومجالاً لاء شباع غريزتهم في الحرب وسفك الدماء خصوصاً العناصر الجرمانية التي تعد القتال غريزة متأصلة في دمائهم، وهذا ما جعل الكنيسة تحاول تخفيف حدة هذه النزعة بما عملت على فرضه باسم " هدنة الله " كما أشرنا إلى ذلك سابقاً(57)

ولطالما نشب الخلاف بين فرسان الهيكل ونظيرتيها من التنظيمات العسكرية المسيحية التي منها فرسان الإسبتارية وفرسان تيوتون مثلا لسنين عديدة فتت فيها العداوة المستعرة عضد الجانب المسيحي سياسيًا وعسكريًا، علاوة على ذلك، أدت هزيمة فرسان الهيكل في العديد من المعارك إلى استعادة جيش صلاح الدين القدس عام 1187م في معركة حطين الحاسمة، اضطر فرسان الهيكل إلى نقل مقرهم إلى مدن أخرى في الشمال، ووقع اختيارهم على ساحل عكا الذي استقروا فيه قرابة قرن من الزمان، حتى خسروه عام 1291 م تتابعت خسارة ما تبقى لهم من حصون ومعاقل أمثال (طرطوشة) طرطوس في سوريا حاليا، بعدها انتقل مقرهم إلى ليماسول في قبرص(58) وحاولوا الإبقاء على حامية لهم في جزيرة أرواد(59)، على مقربة من ساحل طرطوشة، كما وسعوا في عام 1300م إلى التحالف العسكري مع المغول (60) وإنشاء قوة غازية

جديدة في أرواد، غير أن الهزيمة لحقت بهم على يد المماليك (61) في موقعة حصار أرواد وخسروا المدينة على إثره، وبهذه الهزيمة لم يبق موطئ قدم لفرسان الهيكل في الأراضي المقدسة (62)وارتبط مصير فرسان الهيكل بشدة بالحملات الصليبية وعندما لحقت الهزيمة بالحملات الصليبية في القدس، خسر التنظيم كثيراً من الدعم وشاعت الأقاويل حول الاجتماعات والاحتفالات السرية التي يعقدونها، الأمر الذي أثار الريبة تجاههم وانتهز فيليب الرابع ملك فرنسا(63) هذه الفرصة حيث أثقلته ديونه المالية للتنظيم. على إثر ذلك أُعتقل الكثير من أعضاء التنظيم في فرنسا عام 1307م وأُكرهوا تحت وطئ التعذيب على تقديم اعترافات مختلقة لينتهي مصيرهم بالإعدام في المحرقة ، و قام البابا كليمنت الخامس تحت ضغط الملك فيليب بحل التنظيم عام 1312م (64) .

2 – فرسان الإسبتارية :

وهم فرسان القديس يوحنا، أو فرسان مالطا(65)، أو فرسان رودوس ، تنظيم عسكري ديني صليبي أسس في القرن الحادي عشر الميلادي في القدس، وكانت رئاسته في روما، وقد أخذوا لقبهم (الإسبتارية) من لفظ المستشفى، حيث تم تأسيس التنظيم من قِبل عدد من التجار من مدينة أمالفي الإيطالية كانوا قد حصلوا من المسلمين منذ عام 1048م على إذن ببناء مستشفى في بيت المقدس لإيواء الفقراء أو المرضى من الحجاج المسيحيين ثم نظم ريمند دوبي Raymond du Puy موظفي هذا المعهد تنظيماً جديداً فجعلهم هيأة دينية تكرس حياتها للعفة، والطاعة، وحماية المسيحيين في فلسطين بالدفاع عنهم دفاعاً عسكرياً؛ (66) ومن ثم أصبح هؤلاء الفرسان فرسان مستشفى القديس يوحنا ، ويعد نفسه تنظيمًا دينيًّا إنسانيًّا، وهذا التنظيم العسكري الديني الكاثوليكي الذي بدأ في الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي كان فاعلاً في ساحة الأحداث في القرون الوسطى وحتى مطلع العصر الحديث، وقد أطلق عليهم اسم فرسان المستشفى)الإسبتارية والهوسبتارية) تمييزًا لهم عن هيئات الفرسان التي كانت موجودة في القدس آنذاك مثل: فرسان المعبد، والفرسان التيوتون، وكانت أهم مهامه الأساسية دعم الوجود المسيحي في الأراضي المقدسة، وحماية الحق المسيحي في الحج إلى القدس .

وقد كان تشكيل تنظيم الإسبتاريين ينقسم الى فئات عدة هي :**فرسان العدل:** الذين هم من أصل نبيل (نبلاء)،وأصبحوا فرساناً **القساوسة:** الذين يقومون على تلبية الاحتياجات الرُّوحية للتنظيم، **إخوان الخدمة:** وهم الذين ينفذون الأوامر الصادرة إليهم. **الجوادين:** الذين يُسْهِمون بتقديم الأموال والأملاك للتنظيم (67) واتجهوا في البداية إلى مدينة صور ،ثم الى برقة (مدينة المرج بليبيا حالياً) ومنها إلى مدينة عكا، ثم استقروا في جزيرة قبرص(68)،إلا أن المقام لم يطب لهم هناك فعمد رئيسهم (وليم دي فاليت) للتخطيط لاحتلال جزيرة رودس (69) وأخذها من العرب المسلمين وهو ما قام به أخوه وخليفته (توك دي فاليت) في حرب صليبية خاصة سنة 1310م ليصبح اسم نظام الفرسان الجديد بمسمى (النظام السيادي لرودوس) ،أو (النظام السامي لفرسان رودس وفي رودس أنشأ تنظيم الإسبتاريين مراكزه الرئيسة وازدادت قوته ونفوذه خاصة بعد أن تم حل تنظيم فرسان المعبد وآلت بعض ثرواته للإسبتاريين، ولأن أرض جزيرة رودوس كانت بمثابة نقطة استراتيجية مهمة في البحر المتوسط(70)، فقد عمد العثمانيون(71) بدورهم للاستيلاء عليها خصوصاً مع

تزايد قرصنة الصليبيين لسفنهم، وذلك بعد حصار وضغط متواصلين (لأهم حصارين سنة 1310،وحتى سنة 1480م) مما أجبر رئيسهم فيليب ري ليل آدام على الاستسلام في 1522 م والهجرة عن الجزيرة في أول يناير سنة1523م(72) بين مدن إيطاليةعدة منها روما ، إلى أن منح الملك (شارل الخامس) للإسبتاريين السيادة على جزيرة مالطا في 1535 م ،وبجانب سيادتهم على مالطا و(وثيقة شارك كنت) كانت لهم السيادة كذلك على جزر صغيرة تابعة لمالطا، (73) أما في الشمال الإفريقي فقد تدخّلت الكنيسة لأستبدال الجيوش الإسبانية في طرابلس بمحاربين من فرسان القديس يوحنا، وتم وضع طرابلس تحت عرش صقلية، وصادق البابا (كليمنت السادس) على ذلك في 25إبريل 1530م، ومن ثم أصبح النظام يَمتلك مقرًّا وأقاليم جديدة أدَّت إلى تغيير اسمه في 26 أكتوبر عام 1530م، إلى "النظام السيادي لفرسان مالطا"، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مالطا بمثابة وطنهم الثالث (74) ومنها استمدوا اسمهم "دولة فرسان مالطا"، واستطاع رئيسهم (جان دي لافاليت) أنْ يقوي دفاعاتِهم ضد العثمانيين مصدر خوفهم، وأنْ يبني مدينة فاليتا(75) عاصمة مالطا حاليًّا التي أطلق عليها اسمه.

ومما ساعد على ترسيخ وجودهم في مالطا وقوع معركة ليبانتوا في سنة 1571م (76) بين الروم والعثمانيين؛ مما أبعد خطر العثمانيين، ووفَّر لنظام الفرسان جوًّا من الهدوء ،وقد تميز هذا النظام منذ إقامته في مالطا بعدائه المستمر للمسلمين، وقرصنته على سفنهم، حتى كوَّن منها ثروة، لا سيما في الحصار التاريخي سنة 1565م، الذي انتهى بمذبحة كبيرة للعُثمانيِّين، كما توسَّع النظام كثيرًا، حتى إنَّ الملك لويس الرابع عشر تنازل له في سنة1652م عن مجموعة من الجزر في الأنتيل، منها: سان كيرستوف، سان بارتليلي، سان كوزوا، وصادق على ذلك في 1653م، إلاَّ أن صعوبة المواصلات بهذه الجزر أجبر النظام للتنازُل عنها لفرنسا سنة 1655م، وظلَّ النظام في مالطا تحت حماية إمبراطور الدولة الرومانية والبابوية وفرنسا وإسبانيا ، وانتشر سفراؤه في بعض الدول، وهو ما كان يعني اعترافًا بالسيادة الشخصيَّة للسيد الكبير "للنظام أو رئيس الفرسان

وبعد قيام الثورة الفرنسية وغزوها إيطاليا اضمحل دور فرسان مالطا وخسروا مقرهم في جزيرة مالطا على يد نابليون(77) أثناء حملته على مصر سنة 1798 م ،وفي سنة 1799 م اعلن حل التنظيم (78) .

3 – فرسان التيوتون :

ترجع نشأة جماعة فرسان التيتون أو فرسان القديسة ماريا الألمان إلى سنة 1198 م على يد الرهبان الالمان حين اقاموا مستشفى صغير وكنيسة ومضيفة في عهد الملك بلدوين الأول ملك القدس ، وذلك لرعاية الحجاج الالمان إلى بيت المقدس ، لكنها تحولت إلى نمط فرسان المعبد وفرسان الإسبتارية وشاركت في الحروب الصليبية مثلهم وظهر نشاطهم خلال الحملة الصليبية الثالثة ،وكان لها مقر في عكا، اعترف بها البابا سنة 1199م (79)، كان فرسان التيوتن يلبسون أزياء بيضاء عليها صليب لاتيني، وأهم مراكزهم كانت في بلاد الشام في أنطاكيا(80) وطرابلس ، وفي سنة 1210م قتل معظم فرسانهم وقوادهم فعزلوا على عكا ودخلوا في منافسة مع فرسان المعبد والإسبتارية الذين كانت مكانتهم أعلى.

ومن ناحية أخرى أجمعت المصادر الإسلامية، والأجنبية على أنه أثناء حصار القدس حشدت الجماعة عند أسوار المدينة كل الرجال القادرين على القتال، بما فيهم رجال الدين على الرغم أن ذلك يتعارض مع وظائفهم، إلا أنهم قاموا بدور الجنود طبقاً للحالة الطارئة وقاتلوا باستماتة دفاعاً عن القدس. ومن الطبيعي أن يشارك أخوة المستشفى الألماني بدور ما بحكم وجودهم أثناء الحصار، وبعد خسائر الصليبيين في الشرق وطرد كل هذه الفرق على يد السلطان صلاح الدين الأيوبى عندما استعاد بيت المقدس سنة 583هـ/1187م، (81) وحول مصير المستشفى الالماني والذي أسسه فرسان التيوتون بالقدس فقد تباينت الآراء حول ذلك فأشارت بعضها لتوقف العمل به؛ لأن سيطرة المسلمين على القدس وضعت حداً لوجود هذه الطائفة ،ويقول رأي أخر أن المستشفى ظل يعمل في ظل السيادة الإسلامية على المدينة(82) ونقلوا نشاطهم الى مدينة عكا واستقروا بها حتى سنة 1310م ثم طردهم السلطان العثماني سليمان القانوني ، فمنهم من ذهب إلى جزيرة مالطا بأمر شارلكان إمبراطور البرتغال وأسبانيا وغيرها ثم جزيرة رودس ومكثوا بها حتى سنة 1523م وفى سنة 1525م أعلن رئيسهم اعتناق البروتستانتية (83) ثم غزوا بروسيا(84) سنة 1226م وأبادوا سكانها بحجة تحويلهم للمسيحية وأقاموا فيها مستعمرات يسكنها ألمان ،و بقوا فيها حتى قضى عليهم نابليون بونابرت سنة 1798م.

الخاتمة :

من خلال البحث تبين الآتي :

إن الفروسية كانت قد عرفت في أغلب الأمم والشعوب قديماً ،وكان الرومان من الشعوب التي استخدمت فرق الفرسان في الجيوش ،وكان الأباطرة الرومان هم من تولوا قيادة سلاح الفرسان ،وأصبح لهذه الطائفة من الفرسان شأن كبير في العهد الإمبراطوري وخصوصاً عهد الإمبراطور جاليانوس الذي مكن بعض الفرسان من الوصول لمراكز سياسية وعسكرية مثل قيادة الفرق في الجيش ،و حكم ولايات تابعة للإمبراطورية الرومانية

وقد أتاح ذلك الفعل الفرصة لطبقة الفرسان أن تنافسة طبقة النبلاء ،وبعد سيادة النظام الإقطاعي على المجتمع الأوروبي نتيجة للظروف التي مرت بها أوروبا آنذاك من حروب أهلية وهجمات خارجية ليكن النظام الإقطاعي القائم على التبعية وحيازة الأرض مقابل الخدمة العسكرية هو طوق النجاة لأ وروبا .

ومن خلال البحث اتضح أنه في زمن الاقطاع اصبح لهذه المهنة شروطاً وقوانيناً التزم بها الفارس وكذلك السيد الإقطاعي ، كذلك أعطت للفروسية وطبقة الفرسان شأن عظيم في المجتمع الإقطاعي، وجعلها اهم مظاهر الحياة في أوروبا "العصور الوسطى .

كما أن المثل الأخلاقية التي كسبتها الفروسية تمثل في الواقع محاولة لوضع قانون عملي للأخلاق والسلوك في أوروبا العصور الوسطى ولو أن هذه الأخلاقيات كانت تخص طبقة واحدة دون باقي طبقات المجتمع .

وقد قامت الكنيسة الغربية بتبني الفروسية ،والتي ينتمي عدد كبير من الفرسان إلى سلك الفرسان الرهبان وحاولت إصباغها بصبغة دينية وجعلت من الفارس المسيحي حامياً للديانة ومدافعاً عنها، وهذا يظهر

في رعاية الكنيسة للاحتفالات التي تقام لتنصيب الفرسان الجدد ،غير أنه وبمرور الوقت اصبح الفرسان أنفسهم من الإقطاعيين بعد أن امتلكوا الأراضي وزادت ثرواتهم الشخصية .

ومع انطلاق الحروب الصليبية كان لفرق الفرسان التي تكونت في أوروبا دور مهم في هذه الحروب على المشرق الإسلامي ، فقد ظهرت هذه الفرق في بداية أمرها للعمل في المجال الخيري مثل المستشفيات لعلاج المسيحيين الوافدين لزيارة الأماكن المقدسة ومساعدتهم لتتحول هذه الفرق إلى مقاتلين كان لهم دور مهم في تثبيت أقدام الصليبيين لما لهم من خبرة بالبلاد الإسلامية وخير دليل على ذلك هو إنشاء ممالك وإمارات صليبية مثل مملكة القدس وإمارة الرها وإنطاكية ،بعد الحرب الصليبية الاولى ، فقد ادت هذه التنظيمات الدينية العسكرية دوراً حربياً مع الصليبيين ،وخاضت معارك عديدة مع المسلمين وتمكنت من تحقيق الأهداف التي انيطت بها ، والتي سعت إليها من أجل خدمة المشاريع العدائية الصليبية في الأراضي الإسلامية .، وعلى الرغم من ذلك الدور الذي أطال الوجود الصليبي لقرنين من الزمن ،إلا أن هذه الفرق أسهمت في إضعاف الدولة الصليبية بسبب التصارع على المكاسب المادية بينها مما يدل على إفلاسها الروحي كونها فرق وتنظيمات قامت أول الأمر على مبادئ الفروسية والرهبنة والزهد والتقشف .

وبعد هزيمة الصليبيين انتقلت أغلب هذه التنظيمات الى أوروبا وبعض جزر المتوسط لتستقر هناك ومارست أعمال القرصنة ضد المسلمين .

ويلاحظ أنه بعد انتهاء وهزيمة هذه الفرق خلال الحروب الصليبية تم الغاؤها أو القضاء عليها بشكل أو بأخر بعد ان كثرت حولهم الاشاعات والتهم ووصفهم بالمهرطقين والمفسدين وصدرت الاحكام عليهم بالإعدام من قبل البابا نفسه رأس الكنيسة الغربية فقد حكم على فرسان الهيكل وأعدم الكثير منهم بما فيهم قادة هذه الفرقة ،وهو الذي اعترف بهم في بداية تكوينهم وذلك لاستعمالهم والاستفادة منهم في الحرب الصليبية ضد الإسلام.

وخاتمة القول فإن الفروسية شأنها شأن أي ظاهرة أخرى في العالم سرعان ما تدهورت بعد أن فقدت مثاليتها الأولى فغلب عليها الاسراف والمبالغة والعواطف المصطنعة والشجاعة المفتعلة حتى تلاشت آخر الأمر .

الهوامش :

1- موسوعة الحضارات القديمة (الميسرة) جماعة من المختصين، ط1 ، رئيس التحرير محمد سهيل طقوش، دار النفائس، بيروت، (1432ه 2011 /م)، ص 17

2 – الامبراطورية الرومانية الغربية : الإمبراطورية الرومانية هو مصطلح أطلق على المرحلة التي تلت الجمهورية الرومانية التي حكمت روما، فهي تطور للحكم السياسي لروما، وقد تميزت مرحلة الحكم الإمبراطوري لروما في تلك الفترة بـــالحكم الاستبدادي، وقد خلف الحكم الإمبراطوري 500 عام من الحكم الجمهوري لروما (510 ق. م – القرن الأول قبل الميلاد John D. Durand, Historical Estimates of World Population: An Evaluation, 1977, pp. 253–296

3 – نعيم فرح : – نعيم فرح ، الحضارة الاوروبية في العصور الوسطى ، ط2 ،دمشق ، 2000 م . ص57 .

4 – نعيم فرح ، المرجع نفسه ص 58 .

5 – نعيم فرح ، المرجع السابق ، ص 59

6 – إبراهيم صحي ، تاريخ الرومان ، الجزء الثاني ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ص 200 .

7 – سيد أحمد علي الناصري ، تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ط2 ،دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1991 ، ص29

8 – منصب الدكتاتور : هو لقب قائد الجيش في روما خلال العصر الجمهوري : سلمى محمد هوساوي ، التنظيمات العسكرية في الولاية العربية الرومانية (106 – 305 م) مكتبة الملك فهد الوطنية ، الطبعة الاولى ، السعودية ، 2017 م ، ص 41 .

9 – ميلانو تعدّ ميلانو (Milan Milano) ثاني أكبر مدينة بإيطاليا بعد العاصمة روما، لكن ميلانو الكبرى أكبر من روما الكبرى، وتشغل المرتبة الأولى من حيث الحجم في إيطاليا. وميلانو عاصمة لومبارديا Lombardia أحد أقاليم إيطاليا الإدارية، وهي المركز الرئيسي للمال والأعمال والصناعة والتجارة الدولية في إيطاليا. لمحة تاريخية أسس السلت الذين قدموا من غرب أوربا مدينة في موقع ميلانو المعاصرة في عام 400 ق.م، وفي عام 222 ق.م. احتلها الرومان، وسموها مديولانيوم ، ثم اختصر الاسم لاحقاً إلى ميلانو، وكانت قاعدة عسكرية رومانية ومركزاً تجارياً. الموسوعة العربية العالمية ، المجلد العشرون ، ص 278

10 – سيد الناصري ، المرجع السابق ، ص 286 – 287 .

11 – إبراهيم نصحي ، تاريخ الرومان ، الجزء الثاني 133 – 44 ق.م ، منشورات الجامعة الليبية ، كلية الآداب ، 1973 ، ص 740 .

12 – إبراهيم نصحي ، تاريخ الرومان ، المرجع السابق ، ص 741 –742 .

13 – النظام الإقطاعي :هو النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي ساد في أوروبا العصور الوسطي : مفيد الزيدي ،موسوعة تاريخ اوروبا الحديث والمعاصر (476 –1500م) ج 1 ،دار اسامة للنشر ط 1 ،2004 م، ص 108 .

14 – محمود سعيد عمران، حضارة اوروبا في العصور الوسطى ،دار المعرفة الجامعية، القاهرة ، 1998 ، ص 85

15 – ج كرمب إ جاكوب ،تراث العصور الوسطى ، ترجمة محمد بدران و محمد مصطفى زيادة ، الجزء الاول ،مؤسسة سجل العرب، القاهرة ، 1965 ، ص 20 .

16 – الكنيسة : يعتقد أن أصل الكلمة يعود إما إلى اليونانية إكلسيا بمعنى "تجمع" أو "دعوة"، أو "حشد من البشر، أما أصل كلمة كنيسة فهو عبراني، مأخوذ من كلمة "كنيسي"، ومعناها "مجمع "أو "محفل". والبعض يقول أن أصلها يوناني من الكلمة اليونانية (إكليسيا) ومعناها جماعة أو دعوة وهي مؤسسة كهنوتية تخدم جماعة القديسين وترشدهم روحياً وتدير شؤونهم .صبحي حموي اليسوعي ،معجم الإيمان المسيحي ، دار المشرق ، بيروت ، 1998 .ص 403

17 – إسماعيل دوري الربيعي ،تاريخ اوروبا العصور الوسطى ، دراسة في توزيع القوى السياسية ، دار المواسم ، بيروت ، ص 106 – 107 .

18 – الشعوب الجرمانية : اطلق عليهم لقب البرابرة وهذا اللفظ يعنى في واقع الحال مرحلة من التنظيم السياسي والقبلي لهذه الشعوب :ج ،م ،ولش هارديل ،تاريخ أوروبا العصور الوسطى 400– 1000 م ، ترجمة وتحقيق : حياة ناصر الحجي ، الكويت ،1979 ،ص 13 .

19 – ج.ج كولتون ، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ،ترجمة جوزيف نسيم يوسف ، دار النهضة العربية ، 1981م ، ص134 .

20 – غوستاف لوبون ، حضارة العرب ،ترجمة عادل زعيتر ، مؤسسة هنداوي للعلوم والثقافة ، القاهرة، ص 278 – 280 .

21 – ج.ج كولتون ، المرجع نفسه ، 135 .

22 – محمود سعيد عمران ، المرجع السابق ، ص 85 .

- لقِّب بذلك :لأنه في يوم الاحتفال بتدشينه فارساً، يبدأ ذلك الحفل بالاستحمام رمزاً للتطهير الروحي والجسدي . عمران، حضارة أوروبا، المرجع نفسه ص86 .

23 – نعيم فرح ، المرجع السابق ، ص 57 –58 .

24 – هارتمان باركلاف ، ل .م هارتمان ج .باراكلاف ، ترجمةوتعليق جوزيف نسيم يوسف ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981 ، ص132 .

25 – محمود سعيد عمران ، المرجع السابق ،ص 85 –86 .

26 – محمد محمد مرسي الشيخ ، النظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، الشهابي للطباعة والنشر، القاهرة، 1998 م.ص41 .

27 – سلمى محمد هوساوي ، المرجع السابق ، ص 42 .

28– سعيد عبد الفتاح عاشور وأنيس محمد: ، النهضات الأوروبية في العصور الوسطى وبداية الحديثة، لجنة البيان العربي، القاهرة، ط 2 ، ص 402 .

29– نعيم فرح ، المرجع السابق ، ص 61 .

30–، محمد مرسي الشيخ ، المرجع السابق ، ص 43 .

31– سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ،النظم والحضارة ، الجزء الثاني ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1991م ،ص 69 .

32 – نعيم فرح ،المرجع السابق ، ص 62 .

33 – محمود سعيد عمران ، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، المرجع السابق ،ص86

34 – محمد محمد مرسي الشيخ ، النظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، الشهابي للطباعة والنشر، القاهرة، 1998م.ص41 – 42 .

35 – محمد عباسة ،الموشحات والأرجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور ،دار أم الكتاب ، ط1، 2012 م ،الجزائر ، ص 265 .

36 – سعيد عبد الفتاح عاشور ، النظم والحضارة ، المرجع السابق ، ص 69 .

37– نعيم فرح ، المرجع السابق ، ص 59 .

38 – التروبادور: هو شاعر أو موسيقي عاش في القرون الوسطى، وكان يؤدي أدواراً أو يخصص شخصاً لتأدية هذه الأدوار منشداً أشعاراً ألفها عند الملوك والسلاطين في الجنوب الشرقي لفرنسا وسرقسطة في مملكة أراغون وضواحيها : محمد عباسة ،الموشحات والارجال الاندلسية واثرها في شعر التروبادور ،دار أم الكتاب ، ط1، 2012 م ،الجزائر ، ص 265 .

39 – إسماعيل دوري الربيعي ،تاريخ اوروبا العصور الوسطى ، دراسة في توزيع القوى السياسية ، دار المواسم ، بيروت ، دط ، ص 107 .

40 – مرسي الشيخ ،النظم والحضارة ، المرجع السابق ،ص 42 .وللمزيد عن هذا الموضوع انظر : جوزيف نسيم يوسف ،دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ،مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1988م .ص 240 – 275 .

41 – مفيد الزيدي ، موسوعة تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، 476 – 1500 م الجزء الأول ، دار أسامة للنشر ، الاردن ، 2004م ، ص 142 .

42 – بيار غريمال ،وآخرون ،موسوعة تأريخ أوروبا من العصور القديمة وحتى بداية القرن الرابع عشر، ترجمة :انطوان الهاشم ، عويدات للنشر والطباعة ، 2012م ،ص 379 .السيد الباز العريني ، الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى، ق1 ، دار النهضة العربية، بيروت، 1963 م ص 50

43 –. محمود سعيد عمران ، حضارة أوروبا في العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية ، دط ، 1998 م، ص 85

44 – مفيد الزيدي :المرجع السابق ، ص 148

45 – الحرب الصليبية : ولمعرفة المزيد عنها الاطلاع على المراجع : – باركر ارنست ، الحروب الصليبية ، ترجمة ، السيد الباز العريني ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1967م .سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى ، التاريخ السياسي ، ج1 ، الانجلو المصرية ، 1982 م.

46 – السيد الباز العريني ، الحضارة والنظم الأوربية في العصور الوسطى ، القسم الاول ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، 1968م، ص 51 .

47 – بيار غريمال وآخرون ،موسوعة تاريخ أوروبا العام ، المرجع السابق ، ص 379 .

48 – بهاء الأمير ، اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية ، ط1 ، مكتبة مدبولي ،القاهرة ، 2013 م، ص 13 .

49 – الهيكل :يعتقد اليهود بأن المعبد المقدس (الهيكل) بناه نبي الله سليمان بعد أن هيأ له من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ما يمكنه من تشييده : صالح الرقب، قبل ان يهدم الاقصى ، ،ط 2 ،غزة ، فلسطين ، 2003م ، ص 7 .

50 – الكاثوليكية : كلمة اصلها يوناني وتعني عالمي أو عام ، الموسوعة الفلسفية ، ترجمة :سمير كرم، ط 4 ،دار الطليعة ، بيروت ، 1981 م، 384 .

51 – قصة الحضارة"، وول ديورانت، ج1، ص 86.

52 – بهاء الامير ، اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية ، المرجع نفسه ، ص 25 .

البابا : أسم أطلق في البداية على جميع الاساقفة لأبوتهم الروحية ،ثم اطلق في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي على أسقف الكرسي الإسكندري ، وفي الربع الاخير من القرن السادس الميلادي أطلق ايضاً على أسقف الكرسي الروماني .صبحي حموي اليسوعي ،المرجع السابق ، ص 91 .

53 – نبيله إبراهيم مقامي ،فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، مطبعة جامعة القاهرة ، 1994م ، ص 16 – 20 .

54 – ول ديورنت ، قصة الحضارة ، مملكة اورشليم اللاتينية 1099 – 1143 م ، الفصل الخامس ، ص 22 .

55 – بهاء الأمير ، اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية ، مكتبة مدبولي ، 2013 ، ص17

56 – جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ،1989 م،ص 87

57 – جزيرة قبرص : ثالث أكبر جزيرة من جزر البحر المتوسط بعد صقلية وسردينيا، إذ تبلغ مساحتها نحو9280كم2، ولاتبعد جزيرة قبرص عن تركيا سوى 70كم، وهي المسافة الفاصلة بين رأس كورماكيتي، الموسوعة العربية العالمية ، المجلد رقم 15 ، ص 215 .

58 – جزيرة أرواد : مدينة سورية صغيرة قامت على جزيرة تحمل الاسم نفسه. تقع أمام السواحل الشرقية للبحر المتوسط, قبالة البرّ السوري وعلى مسافة 4150 م جنوب غرب مدينة طرطوس[ر], وعلى مسافة 2450م عن خط الساحل السوري, والجزيرة شكل قريب الشبه بنصف دائرة غير منتظمة قطرها في الشرق وقوسها في الغرب وتمتد على محور شمالي غربي, جنوبي شرقي. طول الجزيرة نحو 750م وعرضها بحدود 450م, مساحتها 200,6 هكتار، الموسوعة العربية العالمية : المجلد 1رقم ، ص 970 .

59 – المغول : او التَّتار أو التَّتر كلمة أطلقها العرب على مجموعة القبائل المغولية التي اجتاحت الشرق العربي وبلاداً إسلامية أخرى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. الموسوعة العربية العالمية : المجلد رقم 19 ، ص 219 .

60– المماليك : يطلق اسم) المماليك (اصطلاحا، على أولئك الرقيق –الأبيض غالبا –الذين درج بعض الحكام المسلمين على استحضارهم من أقطار مختلفة وتربيتهم تربية خاصة، تجعل منهم محاربين أشداء، استطاعوا فيما بعد أن يسيطروا على الحكم في مصر و الشام وأحيانا الحجاز ما بين سنة 648 – 923 ه – 1250 – 1517م قرابة ثلاثة قرون من الزمان وكلمة) مماليك (لغة :جمع مملوك، وهو الرقيق الذي يباع ويشترى، مملوك ولكنه يختلف عن العبد الذي بمعنى الخادم ،والمماليك أسسوا في مصر والشام دولتين متعاقبتين كان مركز هما القاهر ة ،الأولى دولة المماليك البحري ة ،أما المماليك البرجية أو ما يطلق عليهم الجراكسة فهم الجيش الجديد الذي أنشاهم المنصور قلاوو ن (7)ليعتمد عليهم ضد منافس يه من كبار الأمراء وتكون سندًا له ولأولاده من بعده ضد الأمراء الأتراك: هاني فخري الجزار ، النظام العسكري لدولة المماليك (648– 923 ه) (1250– 1517 م) رسالة ماجستير منشورة ، الجامعة الاسلامية غزة ، 2007 م ص 16 .

61 – عمر محمد الباروني ،الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس ، مطبعة ماجي طرابلس ، 1952م ،ص 78 .

62 – فيليب الرابع: فيليب الرابع)بالفرنسية) (Philippe IV: بين أبريل ويونيو 29 – 1268 نوفمبر 1314 أو فيليب الوسيم أو الملك الحديدي كان ملك فرنسا من 1285 حتى وفاته في 1314. هو ابن الملك فيليب الثالث من زوجته الأولى إيزابيل آراغون، وهو الملك الحادي عشر ضمن سلالة الملوك الكابيتيين : الموسوعة العربية العالمية : المجلد رقم 15 ،ص56 .

63 – بهاء الأمير ، اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية ، المرجع سابق ، ص 42 .

64 – جزيرة مالطا: Malta جمهورية مستقلة وعضو في رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث)، عاصمتها مدينة ڤاليتا Valletta. تقع في جنوب أوربا وسط البحر المتوسط؛ وتبعد نحو 95 كم إلى الجنوب من سواحل جزيرة صقلية الإيطالية. تحيط بها مياه البحر المتوسط من جميع الجهات، وتبلغ مساحتها الكلية 316 كم2،:،: الموسوعة العربية العالمية : المجلد رقم 17 ، ص 529 .

65– وول ديورانت، قصة الحضارة"، المرجع السابق ص5301.

66 – ، وول ديورانت، قصة الحضارة" المرجع نفسه ص5336.

67 – جزيرة قبرص : :قبرص Cyprus جزيرة تقع في الجزء الشرقي من البحر المتوسط، وهي ثالث أكبر جزيرة من جزر البحر المتوسط بعد صقلية وسردينيا، إذ تبلغ مساحتها نحو 9280كم2، ولاتبعد جزيرة قبرص عن تركيا سوى 70كم، وعن سورية 110كم، وتعود تسمية قبرص بهذا الاسم إلى شهرتها القديمة بمعدن النحاس. الموسوعة العربية العالمية ، المجلد رقم 15 ، ص 215 .

68 – جزيرة رودس : رودس رودس Rodos جزيرة يونانية تقع إلى الجنوب الشرقي من اليونان في بحر إيجة، قرب الساحل الجنوبي ــ الغربي التركي، وهي أهم جزر أرخبيل الدوديكان، تبلغ مساحتها 1404 كم2،: الموسوعة العربية العالمية ، المجلد رقم 10 ، ص 47 .

69 – عمر محمد الباروني ،الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس ، المرجع السابق ،ص 76 .

70 – يوناثان رايلي سمث ،الاسبتارية فرسان بيت المقدس وقبرص من عام 1050 م– وحتى عام 1310م ،ترجمة صبحي الجابي ، ط1 1989 م ، ص 10 .

71 – العثمانيون :عرق أبيض عريض الجمجمة وغالباً ما يطلق عليهم لفظ طوراني وهم القوم الذين ينحدرون من فرع آلتاي من مجموعة أعراق أورال : تاريخ الدولة العثمانية ، يلماز اوزتونا ، ترجمة ،عدنان محمود سليمان ،مراجعة وتنقيح ،محمود الانصاري ،م1 ،استانبول ،1988م ،ص17 .

72 – كوستانزيو ،طرابلس من سنة 1510 م الى 1850 م ترجمة ،خليفة محمد التلبسي ،دار الفرجاني، طرابلس ليبيا ، 1969 ،ص 21 .

73 – عمر محمد الباروني ، المرجع نفسه ،ص 77 .

74 – مجلة البيان ، المرجع السابق ، الجزء 215 ، ص 27.

75 – فاليتا : فاليِّتا عاصمة مالطا والميناء الرئيس لها، وتقع على سهلٍ ضيق بين الموانئ على الساحل الشرقي لمالطا، يبلغ عدد سكانها 9,239 نسمة، وهي مركز الإدارة والتعليم والتجارة في مالطا، وبها مكتبة مالطا الملكية، أما جامعة مالطا الملكية، فهي الجامعة الوحيدة في الجزيرة، وتوجد بمدينة مسيدا بالقرب من فاليِّتا، ومن أهم معالم مدينة فاليتا كاتدرائية سانت جون، وقصر العظماء.أضحت فاليتا عاصمة لمالطا في سنة1571م، وكانت قد وُجدت قبل ذلك بخمسةِ أعوام، وسُميت بهذا الاسم نسبةً إلى جين باريسوت دي لا فاليت، وهو من كبار فرسان مالطا، احتفظ البريطانيون بقاعدةٍ بحرية في فاليتا، منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي، وحتى عام 1979م؛ "الموسوعة العربية العالمية"، ص1

77– معركة ليبانتوا: هي معركة بحرية وقعت في 7 أكتوبر– 1571 بين العثمانيين وتحالف أوروبي، وقد انتهت بهزيمة العثمانيين.: محمد فريد وجدي تاريخ الدولة العلية العثمانية– تحقيق إحسان حقي– دار النفائس–بيروت– الطبعة الثانية– 1983م.

76 – نابليون : نابليون بونابرت من عام1769 ــ وحتى عام1821م وُلد نابليون بونابرت Napoléon Bonaparte في مدينة آجاكسيو Ajaccio عاصمة جزيرة كورسيكا Corse la، أصبح قنصلاً أولاً لفرنسا بين عامي 1800ــ 1804م، ثم امبراطوراً بين عامي 1804ــ 1815م. كان نابليون الابن الثاني للمحامي شارل بونابرت Charles Bonaparte وليتزيا رامولينو Letizia Ramolino، انتسب إلى الجيش وأنهى دراسته العسكرية في مدرسة بريين Brienne العسكرية، وحين قامت الثورة الفرنسية في 14تموز/يوليو عام 1789م كان ملازماً أولاً بسلاح المدفعية وله

من العمر 20 عاماً. تميز نابليون نقيباً في سلاح المدفعية في أثناء الدفاع عن مدينة تولون Toulon وحصارها من قبل الأسطول الإنكليزي في عام 1793م، الموسوعة العربية العالمية ، المجلد رقم 20 ، ص 329 .

78 – عمر محمد الباروني ، المرجع السابق ،ص 86 .

79 – حسين محمد عطية ، امارة انطاكية الصليبية والمسلمون 117 – 1268م ، ط1 ، دار المعرفة الجامعية ، 1989م ص 288 .

80 – انطاكيا : أنطاكية أنطاكية Antakya في سورية واحدة من أشهر المدن التي أنشأها في مطلع القرن الثالث قبل الميلاد سلوقس الأول نيكاتور[ر] أحد القادة الذين خلفوا الاسكندر الكبير المقدوني، وهي واحدة من ست عشرة مدينة أقامها سلوقس وأطلق عليها هذا الاسم تخليداً لذكرى والده أنطيوخس .Antiocheia تقع المدينة في شمال غربي سورية عند الطرف الجنوبي لسهل العمق، يحدها شرقاً جبل حبيب النجار (سلبيوس Silpius) وهو جزء من الجبل الأقرع (كاسيوس Casius) كما يحدها غرباً نهر العاصي. وتبعد عن شاطئ المتوسط نحو 25كم. ولها عدة مسميات تميزها من غيرها أشهرها «أنطاكية على نهر العاصي» و«أنطاكية دفنة»، الموسوعة العربية العالمية ، المجلد رقم 3 ، ص 923 .

81– عمرو عبد العزيز منير ، القدس وفرسان التيوتون ،مجلة الحياة ، العدد رقم 16969 ،2009م ، ص 13.

82 – عمرو عبد العزيز منير ، المرجع السابق مجلة الحياة ، ص 13 .

83 – – البروتستانتية : البروتستنتية البروتستنتية Protestantism المذهب الثالث في المسيحية بعد الأرثوذكسية والكاثوليكية. نشأت في القرن السادس عشر مع حركة الإصلاح الديني المعروفة في أوربة. وتتكون من أربع حركات منفصلة تمثل قمة الدعوة إلى التجديد داخل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وهي: اللوثرية lutheran، الكالفينية calvinism، الأنغليكانية anglican، والمعمدانية baptism. وكلمة بروتستنت protestant لاتينية الأصل تعني المحتج. استخدمت أول مرة في مجمع شباير Speyer (سبير Spire) الذي عقد في نيسان عام 1529م، عندما احتج بعض الألمان على محاولة الكنيسة الكاثوليكية الحدّ من نشاط اللوثريين الإصلاحي. : الموسوعة العربية العالمية ، المجلد رقم 5 ، ص 5

84 – بروسيا : كانت بروسية) Prussia بالألمانية (Preussen واحدة من أهم الإمارات والدول الألمانية سابقاً. أُطلق الاسم في البداية على المنطقة الواقعة في الجنوب الشرقي من بحر البلطيق والتي عُرفت فيما بعد باسم بروسية الشرقية، ثم تطور مدلول الاسم واتسع مع تنامي الدولة البروسية ليشمل معظم المناطق الواقعة في شمالي ووسط ألمانية، حتى أصبحت بروسية أعظم ولايات الرايخ الألماني إذ وصلت مساحتها إلى 300ألف كم2 تقريباً، وبلغ عدد سكانها قرابة 40مليون نسمة. بدأ الاستيطان الألماني في بروسية منذ القرن الثالث عشر بعد أن أحتلها فرسان الرهبانية التيوتونية وقضوا على مقاومة سكانها الوثنيين : الموسوعة العربية العالمية ، المجلد رقم 5 ، ص 26 .

المصادر والمراجع :

1– إبراهيم صحي ، تاريخ الرومان ، الجزء الثاني ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1973 ، القاهرة .

2 – احمد غانم حافظ ،الامبراطورية الرومانية من النشأة الى الانهيار ،تقديم :حسن احمد الشيخ ،دار المعرفة الجامعية ،2007 م.

3 – إسماعيل دوري الربيعي ،تاريخ اوروبا العصور الوسطى ، دراسة في توزيع القوى السياسية ، دار المواسم ، بيروت ، ص 106 – 107 .

3 – الباروني عمر محمد ،الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس ، مطبعة ماجي طرابلس ، 1952م .

4 – السيد الباز العريني ، الحضارة والنظم الأوربية في العصور الوسطى ، القسم الاول ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، 1968م

5 – الشيخ محمد محمد مرسي ، النظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، الشهابي للطباعة والنشر، القاهرة، 1998م

6 – الناصري سيد أحمد علي ، تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ط2 ،دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1991 م.

7 – الزيدي مفيد ،موسوعة تاريخ اوروبا الحديث والمعاصر (476 –1500م) ج 1 ،دار اسامة للنشر ط 1 ،2004 م

8 – الموسوعة العربية العالمية ، مجموعة من العلماء والباحثين ،مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، ط 2 ، 1999 م

اليسوعي صبحي حموي ،،معجم الإيمان المسيحي ، دار المشرق ، بيروت ، 1998م .

9 –الأمير بهاء ، اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية ، مكتبة مدبولي ، 2013 م .

10 –باركر ارنست ، الحروب الصليبية ، ترجمة ، السيد الباز العريني ، دار النهضة العربية ، بيروت، 1967م . 8 – بهاء الأمير ، اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية ، ط1 ، مكتبة مدبولي ،القاهرة ، 2013 م .

10 – بيار غريمال ،وآخرون ،موسوعة تأريخ أوروبا من العصور القديمة وحتى بداية القرن الرابع عشر، ترجمة :انطوان الهاشم ، عويدات للنشر والطباعة ، 2012 م .

11 – جوزيف نسيم يوسف ،دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ،مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1988م .

8 – ج.ج كولتون ، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ،ترجمة جوزيف نسيم يوسف ، دار النهضة العربية ، 1981م .

9 – ج كرمب إ جاكوب ،تراث العصور الوسطى ، ترجمة محمد بدران و محمد مصطفى زيادة ، الجزء الاول ،مؤسسة سجل العرب، القاهرة ، 1965م

7– جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ،دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ،1989 م .

8– ج ،م ،ولش هارديل ،تاريخ أوروبا العصور الوسطى 400– 1000 م ، ترجمة وتحقيق : حياة ناصر الحجي ، الكويت ،1979م .

9 – حسن عبد الوهاب حسين ،معالم التاريخ الاوروبي الوسيط ،دار المعرفة الجامعية ،دط ،الاسكندرية، 1999 م .

10 – زهير عبد اللطيف غنايم، د. محمد عبد الكريم محافظ: لواء عكا ، الطبعة الثانية ، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية – إربد الاردن ،2001 م

10 – سمير كرم، الموسوعة الفلسفية ، ترجمة : ،ط 4 ،دار الطليعة ، بيروت ، 1981 م،

11 – صالح الرقب، قبل ان يهدم الاقصى ، ،ط 2 ،غزة ، فلسطين ، 2003م .

12 – عاشور : سعيد عبد الفتاح وأنيس محمد: ، النهضات الأوروبية في العصور الوسطى وبداية الحديثة، لجنة البيان العربي، ، ط 2 ، د ت . القاهرة .

13 – عاشور سعيد عبد الفتاح ، الحركة الصليبية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى ، التاريخ السياسي ، ج1 ، الانجلو المصرية ، 1982 م.

14 – عباسة محمد ،الموشحات والأرجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور ،دار أم الكتاب ، ط1 ، 2012 م ، الجزائر

15 – عمران محمود سعيد ، حضارة اوروبا في العصور الوسطى ،دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ، 1998م .

16 – عطية حسين محمد ، امارة انطاكية الصليبية والمسلمون 117 – 1268م ، ط1 ، دار المعرفة الجامعية ، 1989م .

17 – غوستاف لوبون، حضارة العرب ،ترجمة عادل زعيتر ، مؤسسة هنداوي للعلوم والثقافة، القاهرة، ص 278– 280 .

18 = كوستانزيو ،طرابلس من سنة 1510 م الى 1850 م ترجمة ،خليفة محمد التلبسي ،دار الفرجاني، طرابلس ليبيا ، 1969 م .

18 – منير عمرو عبد العزيز ، القدس وفرسان التيوتون ،مجلة الحياة ، العدد رقم 16969 ،2009م ،

19 – نبيله إبراهيم مقامي ،فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، مطبعة جامعة القاهرة ، 1994م .

19 – نعيم فرح : – نعيم فرح ، الحضارة الاوروبية في العصور الوسطى ، ط2 ،دمشق ، 2000 م .

20 – هارتمان باركلاف ، ل .م هارتمان ج .باراكلاف ، ترجمةوتعليق جوزيف نسيم يوسف ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981 م .

21 – هاني فخري الجزار ، النظام العسكري لدولة المماليك (648– 923 ه) (1250– 1517 م) رسالة ماجستير منشورة ، الجامعة الاسلامية غزة ، 2007 م .

22 – هوساوي سلمى محمد ، التنظيمات العسكرية في الولاية العربية الرومانية (106 – 305 م) مكتبة الملك فهد الوطنية ، الطبعة الاولى ، السعودية ، 2017 م .

23 – ول ديورنت ، قصة الحضارة ، مملكة اورشليم اللاتينية 1099 – 1143 م ، الفصل الخامس ، دت .

24 – يلماز اوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة : عدنان محمود سليمان ،مراجعة وتنقيح ،محمود الانصاري ،م1 ، استانبول ،1988م

25 – يوسف جوزيف نسيم ، تاريخ العصور الوسطى الاوروبية وحضارتها ، دار النهضة العربية ، ط 2 ، بيروت ، لبنان ، 1987 م .

26 – يوناثان رايلي سمث ،الاسبتارية فرسان بيت المقدس وقبرص من عام 1050 م– وحتى عام 1310م ،ترجمة صبحي الجابي ، ط1 1989 م .

27 - John D. Durand, Historical Estimates of World Population: An Evaluation, 1977, pp. 253–296

أثر اتفاقية سايكس _ بيكو، وتصريح بلفور على تقسيم المنطقة العربية

1917_1916

إعداد

م.د/ عبد الرحمن جدوع سعيد التميمي

الكلية التربوية المفتوحة / بغداد

Abstract :

World War I, which took place many of the events on the Arab region was directly affected, as Britain, France and Russia moved to this region to win the Arabs through Sherif Hussein bin Ali Sharif Mecca and correspondence with McMahon about Britain in 1915 and the result of those correspondence of the Declaration Revolution Arab revolution against the Ottoman Empire in 1916, a revolution that yielded results in favor of Britain, France and Russia, and the subsequent events of the agreements between Mark Sykes of Britain, George Pico of France and Sergey Sazonov of Russia, and known the Sykes-Picot Agreement of 1916, the agreement that divided the Arab region between Britain, France and Russia. Despite this tragedy, the Arabs struck a thunderbolt. The British Foreign Secretary Arthur Balfour expressed his sympathy for the Jews and gave them Palestine In 1917, and so on, only to make matters worse, and the Arabs have not been comfortable since.

المستخلص :

الحرب العالمية الأولى التي دارت كثيراً من أحداثها على المنطقة العربية فتأثرت بها بشكل مباشر، حيث تحركت بريطانيا وفرنسا وروسيا على هذه المنطقة لكسب ود العرب من خلال الشريف حسين بن علي شريف مكة ومراسلاته مع مكماهون عن بريطانيا عام 1915 وما نتج عن تلك المراسلات من إعلان ثورة عربية كبرى ضد الدولة العثمانية عام 1916، هذه الثورة التي صبت نتائجها لصالح بريطانيا وفرنسا وروسيا، وما تبع تلك الأحداث من اتفاقيات بين مارك سايكس البريطاني وجورج بيكو الفرنسي وسيرغي سازونوف الروسي وعرفت باتفاقية سايكس بيكو عام 1916، تلك الاتفاقية التي قسمت بموجبها المنطقة العربية بين بريطانيا وفرنسا وروسيا، ورغم تلك المأساة ضربت العرب صاعقة من العيار الثقيل، حيث صرح آرثر بلفور وزير الخارجية البريطاني بعطفه على اليهود وإعطائهم فلسطين عام 1917 وما ذلك إلا زيادة الطين بلة، ولم يذق العرب الراحة منذ ذلك الحين.

المقدمة :

الحرب العالمية الأولى 1914 التي اشتركت فيها كل دول العالم، وشهدتها المنطقة العربية التي كانت تابعة للدولة العثمانية مدة أربعة قرون تقريباً، حيث تكالبت عليها القوى والأطماع الغربية إضافة لأطماع الدولة العثمانية، وتصارعت للسيطرة عليها للاستفادة من خيراتها وموقعها الاستراتيجي المهم، ووقعت المنطقة العربية ضحية الحرب وصارت ساحة لتصفية حسابات الطامعين، وشهدنا ذلك من خلال تآمر بريطانيا وحلفائها على العرب، من خلال اتفاقهم المستميت لتقسيم المنطقة العربية وسلب ثرواتها وجعلها تابعة لها ادارياً وسياسياً واقتصادياً، لا سيما أنهم خاضوا الحرب من أجل ذلك، والعرب رغم ضعفهم كانوا يبحثون عن استقلالهم عن العثمانيين وعن بريطانيا بل كانوا في حيرة من أمرهم إلا انهم وقفوا مع الأخيرة ولكن خاب

ظنهم بمن وقفوا معها، وتبين بأن الاحتلال الثاني أبشع وأقسى من الأول وبالأحرى الاحتلالين طامعين ولا يهمهم غير مصالحهم الاستعمارية .

تم تقسيم البحث إلى ثلاث نقاط، جاءت الأولى بعنوان: العرب في الحرب العالمية الأولى حتى عام 1916، حيث تناولت فيها موقف العرب من أطراف الحرب واختيارهم الوقوف مع بريطانيا، والمراسلات التي تمت بين الشريف حسين بن علي وهنري مكماهون وكيف تم اقناع الأول بإعلان ثورة ضد الدولة العثمانية وذلك مقابل اعطائه دولة مستقلة، وهذا ما تم دون تطبيق الوعد من قبل بريطانيا، أما النقطة الثانية: اتفاقية سايكس_بيكو عام 1916، وتناولت فيها المباحثات التي تمت بين جورج سايكس البريطاني ومارك بيكو الفرنسي في روسيا لاقتسام ممتلكات الدولة العثمانية بعد الانتصار عليها وتوصلوا في مباحثاتهم سراً على الاتفاقية التي سميت باسمهما سايكس _ بيكو عام 1916، والتي تم فضحها من قبل شيوعيين روسيا فيما بعد، وجاءت النقطة الثالثة بعنوان: تصريح بلفور عام 1917، وتحدثت فيه كيف ساعدت بريطانيا الصهاينة على حساب العرب وبداية المباحثات البريطانية مع الصهاينة حتى إصدار تصريح بلفور المشؤوم عام 1917 والذي من خلاله زرعت بريطانيا جسماً غريباً في قلب المنطقة العربية أي الصهاينة وذلك للتخلص منهم من أوربا ولحماية مصالحها في المنطقة العربية، ومن ثم الخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع .

أولاً_ العرب في الحرب العالمية الأولى حتى عام 1916:

بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام 1914[1] كان أمام العرب طريقان إما الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية، وإما الثورة عليها وتحقيق استقلالهم عنها، وقد اتخذ الشريف حسين[2] قراراً يوفق بين الرأيين فأرسل ابنه فيصل[3] إلى بلاد الشام وإلى كبار الزعماء العرب ليطلعوا على حقيقة الجو العام ومدى الاستعداد للثورة، كما قرر إبقاء صلته بالمندوب السامي آرثر هنري مكماهون[4] في القاهرة الذي كان له علم بتوتر العلاقة بين الحسين والعثمانيين، وبعد عودة فيصل ابن الشريف حسين إلى مكة موقعاً ميثاق دمشق[5] الذي

(1) للمزيد عن تفاصيل الحرب العالمية الأولى، ينظر، نيل م. هايمان: سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ _ الحرب العالمية الأولى، ترجمة: حسن عويضة، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ط1، الامارات، 2011، ص23 .

(2) الشريف حسين: ولد عام 1854 في مدينة الطائف، مؤسس المملكة الحجازية الهاشمية، عين شريفاً لمكة عام 1908، وأول من نادى باستقلال العرب من حكم الدولة العثمانية، توفي عام 1931 في عمان، للمزيد ينظر، محمد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة، مؤسسة فرانكلين، ط2، دار الشعب، القاهرة، 1972، ص720 .

(3) فيصل: ولد عام 1885 ابن الشريف حسين بن علي شريف مكة، انتخب عضواً في مجلس المبعوثان العثماني، انضم إلى حركة الثورة العربية ضد الدولة العثمانية عام 1916، نصبه البريطانيون ملكاً على سوريا، وخلعه الفرنسيون في السنة نفسها، ولاه البريطانيون ملكاً على العراق 1921_1933، للمزيد ينظر، سعد سعدي: معجم الشرق الأوسط، دار الجليل، ط1، بيروت، 1998، ص310.

(4) آرثر هنري مكماهون: ولد عام 1862 في لندن، سياسي وعسكري وبريطاني من أصل أيرلندي، التحق بالجيش عام 1883، عمل في أفغانستان وإيران والهند، عين معتمداً بريطانيا على مصر عامي 1915 و 1916، كان مندوباً بريطانيا لشؤون الشرق الأوسط في مؤتمر الصلح في باريس عام 1919، للمزيد ينظر، صلاح عيسى: صك المؤامرة وعد بلفور، ص17 ... www.kotobarabia.com

(5) ميثاق دمشق: أو بروتوكول دمشق، وهي وثيقة أعطاها فيصل بن الحسين بواسطة زعماء الجماعتين العربيتين "العربية الفتاة، والعهد" في زيارته الثانية إلى دمشق خلال مهمته للتشاور مع المسؤولين الأتراك في القسطنطينية عام 1914، للمزيد ينظر، محمد عبد الرحمن عريف: فلسطين ضحية_بروتوكول دمشق عام 1914 وسايكس بيكو والتصريح المشؤوم، جريدة رأي اليوم: بتاريخ 11 أب عام 2018.

تعهدت فيه القوى العربية بدعم الثورة العربية ضد العثمانيين[1]، بدأ العرب آنذاك يقعون في فخ بريطانيا ووعودهم الكاذبة، وعلى نية العرب بدأوا ينفذون خطوات بريطانيا دون دراية بما يخطون.

وتبادل بعد ذلك الشريف حسين سلسلة من الرسائل مع هنري مكماهون في أواخر عام 1914، وبلغت المراسلات المتبادلة بين الشريف حسين وهنري مكماهون في نهاية المطاف ثمان رسائل خلال الفترة من 14 تموز عام 1915 حتى 30 كانون الثاني عام 1916، واختصت تلك الرسائل بمستقبل المكانة السياسية للمناطق العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية، وارتقت أساساً إلى مفاوضات على الشروط التي سيشجع بناءً عليها الشريف حسين العرب ويقودهم في ثورتهم ضد العثمانيين[2]، ومن الأسباب التي أدت إلى المفاوضات بين الطرفين:

1_ ارادت بريطانيا ان تضعف الدولة العثمانية من الداخل بتحريض العرب الذين كانوا تحت الحكم العثماني على القيام بالثورة, وبهذا يمكن التعجيل بالقضاء على الدولة العثمانية.

2_ استياء العرب من الاتراك، بسبب سياسة التتريك ومجازر جمال باشا[3] السفاح في سوريا.

3_ عدم القيام باصلاحات في الاقطار العربية.

4_ اطماع الشريف حسين الشخصية في ان يصبح ملكاً على العرب بمساعدة بريطانيا[4].

وكان العرب والبريطانيون على عجلة من أمرهم لابتداء شرارة الثورة، وذلك لأسباب خاصة فيما بينهم، وبعد تعهد بريطانيا بالتزاماتها نحو العرب في مراسلات الشريف حسين مع هنري مكماهون[5]، بعدها بادر الأول بإطلاق الطلقة الأولى للثورة العربية من قصره في مكة المكرمة ضد الترك باسم العرب جميعاً، ففي يوم 10 حزيران عام 1916 تناول أمير مكة بندقيته وأطلق النار لمرة واحدة على الثكنات العثمانية معلناً بدء الثورة، ونظر مخططوا الحرب البريطانيون والفرنسيون إلى الثورة العربية باعتبارها رصيداً مميزاً في الحرب العظمى، وفي الأول من تموز من العام نفسه وضعت لجنة الحرب أهدافاً إستراتيجية جديدة لقواتها التي تخوض الحرب في المنطقة العربية آنذاك بشكل خاص[6]، أن التعهد الذي ابرمته بريطانيا مع الشريف

---

(1) وئام شاكر: الاستراتيجية الغربية لتنفيذ تصريح بلفور عام 1917، مجلة التراث العلمي العربي، العدد 36، بغداد، 2018، ص403_404 .

(2) كرستيان كوتس أولريخسن: الحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط، ترجمة: طارق عليان، جروس برس ناشرون، ط1، لبنان، 2016، ص250 ؛ أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى، تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن المجلد الاول، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، د.ت، ص130_132.

(3) جمال باشا: ولد عام 1873 في اسطنبول، وانتسب إلى المدرسة الحربية وتخرج فيها ضابطاً في 1895، عضواً في جمعية الاتحاد والترقي عام 1906، عين باشا في سوريا عام 1915 وفرض سلطانه على بلاد الشام واصبح الحاكم المطلق فيها، اشترك في الانقلاب على السلطان عبد الحميد، وشغل منصب وزير الأشغال العامة عام 1913، للمزيد ينظر، وئام شاكر: مرجع سابق، ص426 .

(4) البلاد العربية خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها عام 1921، ص2 ... https://hauashle.ort.or

(5) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب العربية، د.ن، لبنان، د.ت، ص750.

(6) يوجين روغان: قرن على اتفاقية سايكس بيكو، جريدة الايام، العدد 7310، بتاريخ 17 آيار عام 2016، ص17 ؛ عمر الديراوي: الحرب العالمية الاولى "عرض مصور"، دار العلم للملايين، لبنان، 1999، ص484.

حسين هو حبر على ورق وخدعة بامتياز، الهدف منه تحفيز الشريف حسين على قيامه بالثورة ليقلب الموازين لصالح بريطانيا، وهذا ما حصل بالضبط .

أما الأسباب التي دفعت الشريف حسين إلى إعلان ثورته ضد الدولة العثمانية فهي:

1_ سياسة التتريك التي انتهجها العثمانيون الجدد تجاه العرب في الاقاليم العربية الخاضعة تحت الحكم العثماني خاصة سوريا، وتقضي هذه السياسة بفرض الحضارة واللغة التركية بالقوة على غير الأتراك في الدولة العثمانية وخاصة العرب.

2_ سياسة جمال باشا القمعية ضد الوطنيين العرب.

3_ نكث الوعود التي قطعتها الدولة العثمانية على نفسها اتجاه العرب حول اشراك الشباب العرب في إدارة المناطق العربية وانخراطهم في الجيش العثماني للخدمة في المناطق العربية أي تنفيذ توصيات مؤتمر باريس عام 1913[1]، ولم تف الدولة العثمانية بوعودها للعرب مما أدى الى استيائهم منها وخروجهم عليها في الحرب.

4_ أطماع الشريف حسين الشخصية، بأن يكون خليفة عربياً للمسلمين أو على الأقل ملكاً على العرب[2].

وكان وقع الثورة على تركيا مفزعاً، بأن الشريف حسين ضرب دعوة الجهاد المقدس، لا بل اتهم الاتحاديين بالالحاد والانحراف، وسببت أنباء الثورة ذهولاً في تركيا والمانيا وعملوا على إخفاء أخبارها عن الناس لعدة أسابيع، أما في الحجاز فقد قبض فخري باشا[3] بشدة على ناحية الأمور في المدينة وأخذ يستعد لقتال العرب، وفي الشام اصدر جمال باشا اوامره على الفور بتسيير بعض القوات من دمشق إلى الحجاز لتعزيز قوات فخري باشا، وحاول اقناع شيوخ القبائل العربية بالبقاء على الولاء للدولة والانضمام إلى جيوشها، أما في الاستانة فقد منعت الصحافة من نشر الخبر أول الأمر ثم نشر بعد شهرين ولكن بصورة تنم عن الاستخفاف، حيث قيل:"إن عاصياً دنيئاً تمرد على الدولة في الحجاز، فتولى القائد العسكري امر تأديبه، وها هو ولده علي يهرب من جدة ويلتجئ إلى باخرة انكليزية في البحر الاحمر وهذا جزاء حليف الكفار ضد خليفة الامة

---

(1) مؤتمر باريس عام 1913: أقيم المؤتمر في الفترة من 18 إلى 23 حزيران 1913 في قاعة الجمعية الجغرافية في باريس، وحضره عدد من المثقفين العرب، وتقرر أن يناقش أربع قضايا هي:

1_ الاحتلال الأجنبي والنظال الوطني.

2_ حقوق العرب في الدولة العثمانية.

3_ ضرورة الإصلاح والحكم الذاتي.

4_ المهاجرة من وإلى سوريا. للمزيد ينظر، ثائر دوري: مسار تصغير الأمة من مؤتمر باريس عام 1913 إلى إعلان دمشق 2003، الحوار المتمدن، بتاريخ 13 تشرين الثاني عام 2007 .

(2) البلاد العربية خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها عام 1921، ص2، مرجع سابق.

(3) فخري باشا: ولد عام 1868 ويعرف بنمر الصحراء، ولقبه الإنكليز بالنمر التركي، في مطلع الحرب العالمية الأولى عين وكيلاً لقائد الجيش الرابع المرابط في سوريا، هو آخر الأمراء العثمانين على المدينة المنورة، قائداً لحملة الحجاز في تموز عام 1916 وأضيف إليه منصب محافظ المدينة المنورة في نيسان عام 1917، وأدار العمليات العسكرية التي قاومت قوات الشريف حسين وحلفائه حتى سقوط تركيا بيد الحلفاء وتوقيع هدنة رودس في تشرين الأول عام 1918، توفي عام 1948، للمزيد ينظر، جريدة المصري اليوم: بتاريخ 18 تموز 2014 .

الاسلامية"[1]، وفي 22 حزيران عام 1916 نشرت رويتر برقية في مصر مصدرها لندن جاء فيها:" وصلت أنباء موثوق بصحتها بأن دولة شريف مكة جاهر باستقلال العرب وخروجهم على الترك الذين أوصلوا البلاد بتهاونهم إلى اقصى درجات الانحطاط"، وفي أول تموز من العام نفسه اذيع الخبر في لندن نفسها في بلاغ رسمي جاء فيه:" رأى شريف مكة وغيره من الزعماء في البلاد العربية، بأنه آن الاوان لرفع الحيف التركي والمناداة باستقلالهم"[2].

وتمكنت الثورة من طرد القوات العثمانية من الحجاز ومناطق شرق الأردن وساعد المجهود الحربي البريطاني عسكرياً وسياسياً في المشرق العربي، واقترب العرب من إقامة الدولة العربية الموحدة في الجزيرة العربية والمشرق، إلا أن بريطانيا بدأت تنفيذ مخططاتها في التجزئة والاحتلال بعقد اتفاقية سايكس _ بيكو[3].

من خلال ما سبق، يبدو أن الشريف حسين ضاع بين سياسة العثمانيين الطامعة بالولايات العربية والداعية بالخلافة الإسلامية، والتي أهملت العرب ومطالبهم وتوفير الخدمات اللازمة لهم، ما أدى إلى كره العرب لسياستهم التي لا تعرف غير ذكر اسمها عالياً في كل المنطقة العربية، وبين بريطانيا والتي لها اطماع أكثر من الدولة العثمانية والتي ضاع الشريف حسين بدهاليز سياستها الاستعمارية والتي تعهدت للأخير بدولة عربية مستقلة، لكن وراء تعهدها تحالف بينها وبين فرنسا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية، لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية مجرد الانتصار على الأخيرة، هذا ما جعل الشريف حسين تائهاً ما بين السياستين فاختار الوقوف مع بريطانيا الماكرة والتي استدرجته حتى اعلن ثورته عام 1916 وطردت العثمانيين من المنطقة العربية وحققت مكاسب للبريطانيين الذين خدعوا العرب باتفاقياتهم فيما بعد .

ثانياً_ اتفاقية سايكس _ بيكو عام 1916 :

بينما كان العرب يقاتلون إلى جانب الحلفاء من أجل الاعتراف بحقهم في إنشاء دولة عربية مستقلة، كانت المباحثات السرية تجري في مكاتب وزراء خارجية دول الحلفاء بهدف اقتسام الدول العربية، ولم يكن هناك في الحقيقة جديد بالنسبة لمطالب الدول الكبرى في املاك الدولة العثمانية، ولكن الخلاف الوحيد كان يتركز في أنهم شعروا عند اندلاع الحرب العالمية الأولى بحاجتهم إلى الاتفاق على هذه المطالب وإلى الالتزامات المحددة بينهم، ومنذ بدء الحرب وجدت الحكومة البريطانية أنه من الضروري أن تبلغ روسيا باستعدادها لحل مشكلة المضائق في صالحها، وعندما تسلمت روسيا تبليغ الحكومة البريطانية المعبر عن استعدادها لحل مشكلة المضائق[4]، وفي الرابع من آذار عام 1915 أسرع وزير خارجية روسيا سيرغي سازونوف Sergey Sazonov[5] فابرق برسالة إلى كل من سفير فرنسا وبريطانيا في العاصمة الروسية يقترح فيها تقديم

(1) فؤاد المرسي ابراهيم: موقف مؤتمر فرساي سنة 1919 من بلاد المشرق العربي، رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1970، ص144_145.

(2) أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى، مرجع سابق، ص158.

(3) وئام شاكر: مرجع سابق، ص410_411.

(4) فؤاد المرسي ابراهيم: مرجع سابق، ص163_164.

(5) سيرغي سازونوف Sergey Sazonov: وزير خارجية روسيا آنذاك والاسم الأول لاتفاقية سايكس _ بيكو عام 1916 والتي تعد من أشهر الاتفاقيات السياسية في تاريخ المنطقة، للمزيد ينظر، الخليج أونلاين ... alkhaleejonline.net .

موافقتهما المكتوبة على تسليم المضائق لروسيا في حالة النصر، ووافقت فرنسا على مطالب روسيا شريطة ان تعترف الاخيرة بحقوق فرنسا في سوريا ولبنان وكيليكيا، وكانت روسيا على استعداد لتقبل هذه التسوية أو الصفقة بتعبير ادق[1].

وفي آذار عام 1915 بدأت المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا وروسيا لاقتسام ممتلكات الدولة العثمانية، وتم التوصل فيما بينهم الى اتفاقية القسطنطينية، والتي وافقت فيها روسيا على مطالب تقدمت بها كلاً من بريطانيا وفرنسا، وتتلخص هذه المطالب في:

1_ جعل القسطنطينية ميناءً حراً للحلفاء وضمان الملاحة التجارية في المضائق .

2_ موافقة روسيا على الاعتراف بحقوق بريطانيا وفرنسا الخاصة في آسيا التركية بعقد اتفاقية منفصلة .

3_ اقتطاع البلاد الإسلامية المقدسة من تركيا، اضافة بلاد العرب إليها تحت حكم إسلامي مستقل[2]، وكان ذلك الاتفاق تمهيد لاتفاقية سايكس بيكو التي سنتطرق إليها في الآتي .

بعد موافقة الحكومتين البريطانية والفرنسية على مطالب روسيا في املاك الدولة العثمانية اقدمتا على اتخاذ ما يلزم من التدابير لتحديد مطالبهما في الاراضي الآسيوية من الدولة العثمانية، ولكسب تاييد روسيا عليها، عينت الحكومة البريطانية السير مارك سايكس Mark Sykes[3]، والحكومة الفرنسية جورج بيكو jurj bykw[4] لاجراء المفاوضات[5]، وفي آذار عام 1916 بدأت المباحثات في بتروجراد عاصمة روسيا بين بريطانيا وفرنسا مع الحكومة الروسية اسفرت في النهاية عن الاتفاقية التي عرفت باتفاقية سايكس_بيكو[6]، وظلت سرية حتى تم الكشف عنها بعد وصول الشيوعيين إلى سدة الحكم في روسيا عام 1917 مما أثار الشعوب التي مستها الاتفاقية فأحرج موقف فرنسا وبريطانيا[7].

ويمكننا إدراج الظروف التي هيأت توقيع هذه الاتفاقية بالتالي:

1- دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى الى جانب المانيا, فكان رد فعل بريطانيا ان اتفقت هي وحليفاتها فرنسا وروسيا على اعلان الحرب على الدولة العثمانية, وتوقيع اتفاقية سايكس_بيكو بهدف تقسيم املاك الدولة العثمانية بين الدول الثلاث .

---

(1) فؤاد المرسي ابراهيم: مرجع سابق، ص164.

(2) عمر الديراوي: مرجع سابق، ص519_521.

(3) مارك سايكس: ولد عام 1879، سياسي من حزب المحافظين، ومستشار دبلوماسي، فيما يتعلق بالشرق الأوسط في زمن الحرب العالمية الأولى، التحق بالجيش بعد تخرجه من جامعة كمبردج عام 1897، تحدث العربية والفرنسية والتركية وكتب بها، توفي عام 1919 للمزيد ينظر، Toynbee, Arnold J., The Western Question in Greece and Turkey, London,1922,P.48.

(4) جورج بيكو jurj bykw: ولد عام 1870 في باريس، محام ودبلوماسي، انضم للسلك الأخير عام 1895، واضحاً في تأييده المطلق للاستعمار، وللوجود الفرنسي في بلاد ما وراء البحار، اشتهر بتوقيعه على اتفاقية سايكس_بيكو، وكان مسؤولاً عن إلحاق مناطق المشرق العربي بالنفوذ الفرنسي والتأسيس للانتداب على سوريا، توفي عام 1951، للمزيد ينظر، وئام شاكر: مرجع سابق، ص427.

(5) عمر عبدالعزيز عمر: تاريخ المشرق العربي 1516_1922، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1984، ص467 .

(6) عبد الواحد المكني: اتفاقية سايكس _ بيكو أيار/ مايو 1916: الفاعلون وخلفياتهم، مجلة أسطور القطرية: العدد 6، تموز/ يوليو عام 2017، ص205 .

(7) وئام شاكر: مرجع سابق، ص411.

2- التقارب الفرنسي البريطاني والروسي في اوائل القرن العشرين, وتكوين معسكر الحلفاء كرد فعل على تكوين حلف دول المركز الامر الذي ادى الى تقارب وجهات النظر بين روسيا العدو التقليدي للدولة العثمانية وبريطانيا بشان تقسيم املاك الدولة العثمانية .

3- تخوف بريطانيا على مصالحها في الشرق الاوسط, وبخاصة بعد المحاولات العثمانية المدعومة من جانب المانيا اختراق قناة السويس في بداية الحرب العالمية الأولى, فقد قام الجيش العثماني بمحاولتين فاشلتين لاختراق قناة السويس في عامي 1915 و 1916 .

4- تخوف فرنسا على مصالحها في منطقة الشرق الاوسط, وبخاصة في سوريا ولبنان، لهذا قامت بالاتفاق مع بريطانيا للتأكيد على مصالحها[1].

وقد تم الاتفاق في اتفاقية سايكس _ بيكو بين كل من فرنسا وبريطانيا وروسيا سرا على اقتسام املاك الدولة العثمانية بعد القضاء عليها, واتفق على ان تحصل روسيا على منطقة ارمينيا التركية الغنية بالمعادن والمناجم والملح ومناطق حول اسطنبول, اما الاقاليم العربية, والتي تشمل منطقة الهلال الخصيب[2]، فقد اتفق على تقسيمها بين كل من بريطانيا وفرنسا, وذلك حسب ثلاثة مستويات، نفوذ مباشر, ونفوذ غير مباشر, ومنطقة دولية، وذلك كما يلي:

_نصيب بريطانيا:

أ- تحصل بريطانيا على القسم الجنوبي من العراق الذي يمتد من شمال بغداد حتى مصب دجلة والفرات بصورة مباشرة, وأطلق على هذه المنطقة اسم المنطقة الحمراء .

ب – تحصل بريطانيا على نفوذ مباشر في ميناءي حيفا وعكا في فلسطين, ويسمح لفرنسا استخدام هذين الميناءين.

ج- تحصل بريطانيا على نفوذ غير مباشر في شمال العراق ما عدا الموصل, هذا بالاضافة الى منطقة شرق الاردن, وتسمى هذه المنطقة بالمنطقة "ب", ويحق للعرب ان يقيموا في هذه المنطقة حكومة او حكومات, ولكن بالتشاور مع الدولة صاحبة النفوذ غير المباشر التي تستطيع استغلال واستخدام الموارد الطبيعية في هذه المنطقة[3].

_ نصيب فرنسا:

ا- تحصل فرنسا على نفوذ مباشر في شقة سوريا الساحلية, هذا بالإضافة إلى منطقتي اضنة وكليكيا التركيتين, وتسمى بالمنطقة الزرقاء، ومن الجدير بالذكر أن ميناء الاسكندرونة الذي يقع ضمن هذه المنطقة اتفق على أن يكون حراً ومفتوحاً أمام السفن البريطانية.

---

(1) البلاد العربية خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها عام 1921، ص5، مرجع سابق.

(2) منطقة الهلال الخصيب: كان أول من استخدم مصطلح الهلال الخصيب هو عالم الآثار الأمريكي جيمس هنري برستد، من منطلق جغرافي ليس إلا، على اعتبار أن هذه البقعة من العالم العربي غنية بالمياه والتربة والآثار، ويضم حالياً العراق وسوريا والأردن وفلسطين، للمزيد ينظر، ناصر زيدان: عن عروبة الهلال الخصيب، جريدة الأنباء: بتاريخ الثالث من كانون الثاني عام 2017 .

(3) وزارة الإرشاد القومي_ الهيئة العامة للاستعلامات: ملف وثائق فلسطين، مجموعة وأوراق خاصة بالقضية الفلسطينية، ج1، من عام 1937_1949، القاهرة، 1969، ص193_197.

ب- تحصل فرنسا على نفوذ غير مباشر في داخل سوريا, بالإضافة إلى منطقة الموصل في شمال العراق, وتسمى هذه المنطقة بالمنطقة "أ", وفي هذه المنطقة يسمح للعرب اقامة امارات عربية شبه مستقلة, ولكن بالتشاور مع الدولة الفرنسية صاحبة النفوذ غير المباشر, والتي لا تستطيع استغلال واستخدام الموارد الطبيعية في هذه المنطقة[1].

اما **المناطق الدولية**، فقد اتفقت الدول الثلاث: روسيا, بريطانيا, فرنسا على أن تكون فلسطين منطقة دولية ما عدا مينائي حيفا وعكا, وتسمى هذه المنطقة بالمنطقة السوداء[2].

أدت حقيقة أن البريطانيين والفرنسيين اقتسموا فيما بينهم الأراضي التي كان الشريف حسين يرغب بضمها إلى المملكة العربية المستقبلية إلى وصف الكثير من المؤرخين لاتفاقية سايكس _ بيكو على أنها مثال فاحش على الغدر الاستعماري الإمبريالي، وربما لن نجد وصفاً أكثر بلاغة للاتفاقية من ذلك الذي أطلقه المؤرخ الفلسطيني جورج أنطونيوس بقولة:"اتفاقية سايكس _ بيكو وثيقة مروعة، بل أنها نتاج للجشع المرتبط بالشك الذي قاد إلى حماقة، كما أنها تعبير مذهل عن ازدواجية المعايير"[3]، وكتبت كل الكتابات العربية عن هذه الاتفاقية وما تحمله من خيانة وغدر للعرب، وأنها ضربة قاصمة للثورة العربية[4].

المعاهدة قسمت الاقاليم العربية الى مناطق نفوذ فرنسية وبريطانية, ونلاحظ أن هذه الاتفاقية عكست مصالح هاتين الدولتين, فقد اهتمت بريطانيا بالعراق وفلسطين, أما فرنسا فقد اهتمت بمصالحها في سوريا ولبنان، ونلاحظ أن هذه الاتفاقية تتعارض كلياً مع تعهدات بريطانيا للعرب حسب ما جاء في مراسلات حسين مكماهون, تتعارض مع الأماني العربية التي تلخصت في اقامة مملكة عربية موحدة على الأجزاء العربية الآسيوية، وأظن أن كل كلمة جاءت بالمعاهدة فيها ما فيها من علل واشكاليات فيما يخص العرب، وبعد الانتهاء من عقد الاتفاقية بدأ الغرب يميلون كل الميل لتقديم مكافئة لليهود الذين ساعدوهم بمخططاتهم وذلك بانشاء وطن قومي لهم في فلسطين .

وليس كل ما يتمناه المرء يدركه فتأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد جاءت المعاهدة كالصاعقة على العرب، ولما يتمناها العرب لشدة خطورتها عليهم، وأعتبرت بداية الاستعمار واللعب بثروات وأراضي المنطقة العربية، وغدر وخيانة بريطانيا على العرب، ولعب على أمانيهم التي كانوا يحلمون بها، وظل العرب يعاني من هذه الاتفاقية حتى يومنا هذا، وكل ما مرت به الدول العربية حتى الآن هو من مخلفات هذه الاتفاقية المذلة، ودائماً نتباكى نحن العرب حول تآمر الاخرين، ونتحدث عن اشكاليات سايكس _ بيكو وانعكاساتها، ونتحدث عن رسمهم لاتفاقية سايكس بيكو جديدة، ويتضح من خلال ذلك أن تآمر الغرب على العرب تأمر تاريخي وصولاً لسيطرتهم على القرار والهيمنة على المنطقة في الوقت الحاضر.

(1) جامعة الدول العربية: الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين، المجموعة الاولى 1915_1946، القاهرة، 1957، وثيقة رقم 23، ص84_86.
(2) وزارة الإرشاد القومي_ الهيئة العامة للاستعلامات: ملف وثائق فلسطين، مرجع سابق، ص217_218 .
(3) يوجين روغان: مرجع سابق.
(4) عبدالواحد المكني: مرجع سابق، ص205.

ثالثاً_ تصريح بلفور عام 1917 :

دخلت الحكومة البريطانية في أول شهر شباط عام 1917 بمفاوضات مع المنظمة الصهيونية[1] حول مشروع إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، أجرى مارك سايكس وبتكليف من الحكومة البريطانية مفاوضات مع قادة اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية هادفاً من ذلك انضمام الأخيرة إلى جانب الحلفاء، وقد لخص مارك سايكس العقبات التي يمكن أن تعترض هذه المفاوضات بأنها تنحصر في شكوك روسيا والمعارضة العربية المتوقعة[2]، ودعا حاييم وايزمان[3] إلى ضرورة وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية وطلبت بريطانيا منه إجراء اتصالات مع فرنسا وايطاليا لتسوية الخلافات المتعلقة بفلسطين، وتم تسوية ذلك من خلال تنازل الحكومة الفرنسية والايطالية عن فكرة النظام الدولي في فلسطين وتم إطلاع الجانب الأمريكي على نتيجة المفاوضات[4].

بعد ذلك صدرت مذكرة رسمية موجهة بشكل خاص إلى يهود الولايات المتحدة الأمريكية توافق فيه بريطانيا على الاعتراف بفلسطين وطناً قومياً لليهود، وتعهدت بمنح يهود فلسطين كل الحقوق السياسية وفتح باب الهجرة وتعهدت كذلك بمنح اليهود استقلال ذاتي في كل الأمور الدينية والمدنية والثقافية في فلسطين[5].

كان وزير خارجية بريطانيا آرثر جيمس بلفور Arthur James Balfour[6] من أكثر المتحمسين للفكرة الصهيونية، وحاول إقناع أعضاء حكومته في اجتماعهم يوم الرابع من تشرين الأول عام 1917 بأن يهود روسيا وفرنسا يدعمون فكرته بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين معتمداً على تقارير من الصهاينة المقيمين في لندن ومتجاهلا التقارير الرسمية من مندوبي وسفراء الحكومة في قلب الحدث، وفي اجتماع الوزارة البريطانية في 31 تشرين الأول عام 1917 أوضح بلفور "وطن قومي لليهود ... يعني شكلا من أشكال الحماية البريطانية أو الأمريكية أو غيرهما ستتوافر لليهود في ظلها خدمات وتسهيلات كافية تتيح لهم بناء

---

(1) المنظمة الصهيونية: نشأت المنظمة عام 1897 بإسم "المنظمة الصهيونية" في مؤتمر بازل بسويسرا، وهدفت لإقامة وطن قومي لليهود، وكان من مؤسسي هذه المنظمة ثيودور هرتزل، الذي ساهم وبشكل كبير في الترويج لفكرة العودة لفلسطين، للمزيد ينظر، مركز المعلومات الوطني الفلسطيني – وفا، على الموقع الالكتروني، info.wafa.ps/atemplate.aspx?id=5010

(2) احمد طربين: محاضرات في تاريخ قضية فلسطين منذ نشأة الحركة الصهيونية حتى نشوب الثورة الكبرى عام 1936، معهد البحوث والدراسات العربية العالية، القاهرة، 1959، ص27_28.

(3) حاييم وايزمان: ولد عام 1874 في روسيا، كان فاعلا في الحركة الصهيونية منذ بدايتها، عام 1904 هاجر إلى بريطانيا وانهى دراسته الجامعية في قسم الكيمياء من جامعة مانشستر، له دور في اصدار تصريح بلفور عام 1917، تولى مناصب رفيعة إلى أن أصبح رئيساً لدولة إسرائيل، وتوفي عام 1952، للمزيد ينظر، أفرايم ومناحيم تلمي: معجم المصطلحات الصهيونية، ترجمة: احمد العجرمي، دار الجليل للنشر، ط1، عمان، 1988، ص171.

(4) نجيب صدقة: قضية فلسطين، د.ن، بيروت، 1946، ص24.

(5) احمد محمود السامرائي: تطورات القضية الفلسطينية بين عامي 1914_1939، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد 11، تشرين الثاني عام 2013، ص706 .

(6) آرثر بلفور: ولد عام 1848 في لندن، مفكر وسياسي بريطاني، كان زعيماً للمحافظين ورئيساً للحكومة البريطانية بين عامي 1902_1905، وفي الثاني من تشرين الثاني عام 1917 اصدر تصريح بلفور لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وواصل اهتمامه بالصهيونية إلى أن توفي عام 1930، للمزيد ينظر، أفرايم ومناحيم تلمي: مرجع سابق، ص70_71؛ وليد العوض: وعد بلفور، الحوار المتمدن، عام 2007 .

مقومات خلاصهم الذاتي فيرسون بالمؤسسات التربوية والصناعية قواعد مركز حقيقي للثقافة القومية"[1]، احتفظت بريطانيا بحمايتها لليهود وزادت من ذلك بتأييد فرنسا وروسيا لهم، والتزمتهم ومؤتمراتهم ودعمهم منذ بداية حركتهم الصهيونية وصولاً للتصريح المشؤوم الذي سنتطرق له أدناه.

وفي الثاني من تشرين الثاني عام 1917 تم إصدار تصريح بلفور بصيغة رسالة قدمتها الحكومة البريطانية عبر وزير خارجيتها آرثر بلفور إلى اللورد روتشيلد[2]، وجاء في التصريح:"إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين للشعب اليهودي وسوف تفرغ خير مساعيها لتسهيل بلوغ هذه الغاية وليكن معلوماً انه لا يسمح بإجراء شيء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين الآن، أو بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في البلدان الأخرى ومركزهم السياسي فيها"[3].

وبعد صدور تصريح بلفور، عمل المكتب العربي، الذي أسسته الحكومة البريطانية في القاهرة، على إصدار تقارير، هدفت إلى تهدئة مخاوف العرب تجاه التصريح، كما أكد على إمكانية توطين اليهود في فلسطين بجانب أهلها العرب[4]، أسسته بريطانيا من أجل مصلحتها ورده على التصريح خير دليل .

سارعت دول أوربا فرنسا، ايطاليا، الولايات المتحدة الأمريكية بتأييد هذا التصريح ومباركته، وصادق الرئيس الأمريكي توماس ولسن Thomas Wilson[5] رسمياً على تصريح بلفور في رسالته التي بعث بها إلى زعيم الصهيونية اليهودية في أمريكا قائلاً:" أغتنم الفرصة لأعبر عن الارتياح الذي احسست به نتيجة تقدم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية والدول الحليفة"[6].

وبهذا التصريح المكون من 117 كلمة حسب النص الإنكليزي، أو 72 كلمة حسب النص العربي، غير بلفور تاريخ وجغرافية منطقة بالكامل، حيث أدت نتائجه إلى اقتلاع شعب من أرضه من دون حق أو سند قانوني أو أخلاقي، ليزرع مكانه شعب أخر، عمل على جلبه من كل أصقاع الدنيا، برواية زيفت بمعنييها التاريخي والديني، وهذا ما دفع المؤرخ الكبير أرنولد توينبي Arnwld twynby إلى الإعلان إنه " كإنكليزي

---

(1) وئام شاكر: مرجع سابق، ص415 .

(2) اللورد روتشيلد: ولد عام 1845 في باريس، قام في عام 1900 بتسليم جميع مشاريعه في فلسطين إلى شركة يكا، واشتهر بلقب المتبرع السخي، ساعد حاييم وايزمان في حصوله على تصريح بلفور، وزار فلسطين خمس مرات بين عامي 1887_1925، انتخب رئيساً للوكالة اليهودية عام 1929، توفي عام 1934، للمزيد ينظر، أفرايم ومناحيم تلمي: مرجع سابق، ص425.

(3) حسني جرار: شعب فلسطين أمام التآمر البريطاني والكيد الصهيوني، دار الفرقان للطباعة والنشر، عمان، د.ت، ص15.

(4) علي أكرم مهاني: مرجع سابق، ص14 .

(5) توماس ولسن: ولد عام 1856 في وسط عائلة متمكنة في ولاية فرجينيا، عام 1879 انهى دراست الجامعية في جامعة برينستون، وبعدها حصل على شهادة الدكتوراه وبدأ الحياة العلمية من خلال دراسته القانون والتاريخ والفلسفة، في عام 1902 رئيساً لجامعة برينستون، اشتهر بمبادئه الأربعة عشر والتي منح بسببها جائزة نوبل للسلام عام 1919، توفي في عام 1949، للمزيد ينظر ... https://www.arageek.com/bio/woodrow-wilson

(6) وئام شاكر: مرجع سابق، ص422.

يشعر بالخجل والندم الشديدين على ازدواجية المعايير الأخلاقية التي حكمت سلوك حكومة بلاده في الإقدام على هذه الفعلة المنكرة"[1].

إن تصريح بلفور الذي منحته بريطانيا لليهود مهد لتأسيس دولة قمعية واستعمارية في المنطقة، وإن الهدف من إقامة تلك الدولة الصهيونية كان تفتيت المنطقة العربية، وأصبحت تلك الدولة الصهيونية الآن عبئاً ومصدراً للإرهاب، وما تصريح بلفور في الحقيقة إلا كارثة على الشعب الفلسطيني خاصة والعربي بشكل عام[2].

ومن الأسباب التي أدت إلى إصدار تصريح بلفور، هي الآتي:

1- المصالح البريطانية في الشرق الأوسط[3]، إذ قال هربرت صموئيل Herbert Samuel [4]:"ان اجبنا مطالب اليهود في فلسطين بهذا قد اوجدنا بجوار مصر وقناتها دولة موالية لنا"، هنا يكمن السبب الجوهري والرئيسي لإصدار تصريح بلفور, فقد ارادت بريطانيا المحافظة على مصالحها في الشرق الاوسط وحتى الشرق الاقصى, ارادت ان تضع في منطقة الشرق الأوسط دولة حليفة موالية لها تحافظ على مصالحها, وبخاصة في منطقة قناة السويس التي تربطها مع مستعمراتها في الشرق الاقصى والهند.

2- الضغوط التي مارسها اليهود في بريطانيا وخارجها, وبخاصة يهود أمريكا, اصحاب المراكز الهامة في الولايات المتحدة, وهؤلاء قاموا بالضغط على الرئيس الامريكي توماس ولسن Thomas Wilson والكونغرس الأمريكي للقيام بالضغط على حكومة بريطانيا لمنح اليهود وطنا قومياً في فلسطين.

3- مكافأة لليهود الذين وقفوا الى جانبها في الحرب.

4- العطف على اليهود، حيث يعتقد البعض ان التصريح كان بمثابة تصريح عطف على اليهود, وذلك بسبب تعاظم اللاسامية في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين, وبخاصة في شرق أوروبا وروسيا بخاصة في فترة القيصر اسكندر الثالث ونيقولا الثاني[5].

5- ارادت بريطانيا كسب يهود العالم الى جانب الحلفاء خلال الحرب العالمية الاولى, اي انها ارادت تأييد اليهود داخل حلف المركز, ورغبت بتاييد يهود روسيا كذلك, وبخاصة بعد الثورة الشيوعية, كما ارادت ايضا كسب ود يهود الولايات المتحدة الأمريكية, لهذا اسرعت باصدار هذا التصريح، لانها كانت تخشى ان تقوم المانيا باصدار تصريح مماثل, الامر الذي يؤدي الى فقدان تاييد يهود العالم لها[6].

---

(1) عبد الغني سلامة: المقدمات التاريخية والسياسية لوعد بلفور، مجلة قضايا إسرائيلية، العدد 65، د.ت، ص25.

(2) عقيل صلاح: فلسطين ما بين الوعدين وعد بلفور ووعد طرمب 1917_2017، ص11، ... www.caus.org.lb .

(3) ماهر الشريف: تصريح بلفور 1917_2017 حيثيات صدورة ومسؤولية بريطانيا، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، د.ت، ص2 .

(4) هربرت صموئيل: ولد عام 1870 في مدينة ليفربول، سياسي بريطاني يهودي، انتخب عام 1902 عضواً في مجلس العموم عن المحافظين، عين رئيساً للجنة المالية خلال الحرب العالمية الأولى، كان مندوباً سامياً لبريطانيا في فلسطين بين عامي 1920_1925، اصدر قوانين تسهل الهجرة اليهودية، اعترف بالوكالة اليهودية ممثلة لليهود، واعتبر اللغة العبرية لغة رسمية ثالثة، شجع عمليات بيع الأرض للمستوطنين اليهود وإقامة المستوطنات، توفي عام 1963، للمزيد ينظر، صلاح عيسى: مرجع سابق، ص50.

(5) ماهر الشريف: مرجع سابق، ص2.

(6) علي أكرم مهاني: العلاقات الصهيونية البريطانية في فلسطين 1918_1936، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية _ غزة، 2010، ص15.

تراكمت اطماع بريطانيا بفلسطين، وتبين بالنهاية بأنها تريد منحها لليهود الذين اعتبرتهم سداً منيعاً لها ولمصالحها في المنطقة العربية، حافظت بهم على مصالحها من دون تواجدها، منحت لهم ارضاً ليس لهم فيها حق، أرضا اغتصبتها من أهلها واعطتها إلى من لا يستحقونها، عملت بالاستحواذ على أراء دول ومنظمات لتأييدها باصدار تصريحها المشؤوم لليهود وذلك بمستندات ووثائق كلها مزورة، بسياستها الملتوية سيطرت على الجميع، واستغلالها لضعف العرب آنذاك قسمت المنطقة العربية واعطت اليهود أرضاً بطريقة غير قانونية كل ذلك من أجل الاستعمار والسيطرة على العالم وتم ذلك على حساب العرب، الذين لا حول ولا قوة لهم آنذاك، والغرض من اصدار الاتفاقيات والتصريح هو استغلال ثروات المنطقة العربية وعدم توحيدها، وجعلها منطقة تابعة لها بلا منازع .

مع خضوع بعض الدول العربية للحكم العثماني، وبعضها الآخر خاضعاً للاستعمار، أثناء صدور تصريح بلفور عام 1917[1]، إلا أنهم عارضوه بصفة عامة ورفضوا منح فلسطين لليهود، أما الفلسطينيون انفسهم الذين كانوا اكثر احتكاكاً باليهود شهدوا تخوفاً وقلقاً على مستقبلهم من بقية العرب، فناضلوا ضده وضد الهجرة اليهودية[2].

ويتناقض التصريح ايضاً مع الاماني العربية, ولانه ليس كما تم الاتفاق عليه في محادثات الشريف حسين مكماهون في عام 1915، ذلك لان بريطانيا كانت قد وعدت الشريف حسين باقامة دولة عربية على الاجزاء العربية, واعتبر الشريف حسين ان فلسطين هي جزء من الاقاليم العربية, لهذا اعتبر العرب ان تصريح بلفور غير شرعي، لانه تصريح بريطاني للشعب اليهودي على حساب الامة العربية او الشعب الفلسطيني، كذلك نلاحظ ان بريطانيا رات بالعرب طوائف وليس شعب كما ظهر في نص التصريح, هذا التصريح تعامل مع العرب الفلسطينيين كطوائف او اقليات في البلاد وليس شعب، وكانوا العرب في فلسطين يشكلون نسبة 91% من السكان في حين اطلق التصريح عبارة الشعب اليهودي على اليهود المشتتين في انحاء العالم، وهناك الكثير من الكلمات المبهمة الغامضة في نص التصريح, ويظهر ان الغموض وضع عن قصد, لكي يفسر بطرق مختلفة, وذلك حسب رغبات الاطراف المختلفة، وكذلك أكد الكثير من المؤرخين العرب برؤيتهم عن التصريح بانه غير قانوني وغير شرعي، ذلك لان بريطانيا لم تكن لها اي سيادة على فلسطين حين صدور التصريح, الامر الذي يجعله باطلا قانونيا[3].

التصريح المشؤوم الذي سلب أرض عربية واعطاها لاناس ليس لهم حق فيها، وضربت بريطانيا باماني العرب عرض الحائط في سبيل الحفاظ على مصالحها في المنطقة العربية، والتخلص منهم واخراجهم بشكل جماعي من أوربا ومن مشاكلهم هناك، كل ذلك على حساب العرب الذين كانوا ضعاف آنذاك، قاوموا العرب رغم ضعفهم التصريح ومن اصدره والهجرة اليهودية التي تبعته واعتبرتهم غير شرعيين ولا قانونيين، ورغم معارضة العرب لمخططات بريطانيا عليهم إلا أن الأخيرة ظلت بمسعاها لتقديم العون لليهود وتقويتهم في

(1) عبد الغني سلامة: مرجع سابق، ص35.
(2) فؤاد المرسي ابراهيم: مرجع سابق، ص338.
(3) البلاد العربية خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها عام 1921، ص8، مرجع سابق.

الأرض العربية وزرعهم بشكل جيد لخدمتهم، وظلت على هذه السياسة دون الاصغاء لمعارضة العرب، حيث أثر على خارطة المنطقة العربية سلبياً وذلك بزرع جسم غريب في قلب المنطقة وظل هذا الجسم يعذب ويقتل ويدمر من حوله ويبث سمه على العرب جميعاً، كل ذلك بمساعدة ودعم من بريطانيا والولايات المتحدة العربية وبسكوت من دول أوربية .

الخاتمة

شهدت أراضي المنطقة العربية تصفية حسابات الدولة العثمانية وبريطانيا وحلفائهم من خلال الحرب العالمية الأولى التي ليس للعرب فيها لا ناقة ولا جمل، فقط أنهم تحت سلطة الدولة العثمانية، فتحملوا كل ظروف الحرب ومآساتها، وأثناء الحرب حصلت مراسلات عربية مع بريطانيا حيث تعهدت الأخيرة بتخليص العرب من ظلم الدولة العثمانية التي استمر حكمها عليهم تقريباً أربعة قرون عجاف، واقناع الشريف حسين باعلان ثورة ضد الدولة العثمانية مقابل وعد بريطانيا باعطائه دولة عربية مستقلة وهذا ما تم بالفعل دون تحقيق بريطانيا لوعدها، كانت الأخيرة تهدف من المراسلات والثورة هياج العرب ضد الدولة العثمانية ليساعدوها على تحقيق هدفهم باضعاف الأخيرة، وبعدها يتحقق هدفها بالسيطرة على العرب ومقدراتهم التي تساعدها ايضا على زمام قيادة العالم اجمع، وأثناء فترة المراسلات ظهر تآمر بريطانيا الشر وفرنسا وروسيا على تقسيم المنطقة العربية من خلال عقدهم اتفاقية سايكس _ بيكو عام 1916 والتي حصل بموجبها كل منهم على حصته التي كان يطمع فيها أو يطمح في الحصول عليها، بل أنهم كانوا على خلاف فيما بينهم، ولكن مصالحهم في المنطقة العربية هي من جمعتهم وجعلتهم يتناسون الخلاف ويتوحدون من أجل الانتصار على المانيا والدولة العثمانية، والعرب آنذاك كانوا تحت الاحتلال ولا يستطيعون فعل شيء، لاسيما أنهم مغلوب على أمرهم ظلوا على أمل تحقيق هدفهم بالحصول على دولة مستقلة، وهذا بعد اتفاقية سايكس _ بيكو لم يكن سهل المنال، هكذا لعبت الاتفاقية دوراً في تقسيم المنطقة العربية بدون منازع واضعفتهم وجعلتهم تحت احتلال أخر بعد خروجهم من احتلال سابق لفترة طويلة، ولحد الآن تعاني المنطقة العربية من أثار اتفاقية سايكس بيكو اللعينة .

وبعد اتفاقية سايكس _ بيكو عام 1916، سار الغرب على تطبيقها بالنص، وبدأت بريطانيا تتلاعب بالمنطقة الدولية التي تشمل فلسطين، وأرادت مساعدة اليهود واعطاؤها لهم دون شرع ولا قانون، واقنعت الجميع بذلك، واصدر وزير خارجيتها بلفور وتصريحه الذي سمي على اسمه عام 1917 ذلك التصريح المشؤوم الذي زرع من خلاله جسم غريب في قلب المنطقة العربية، ألا هم الصهاينة الذين مارسوا منذ دخولهم فلسطين القتل والسلب والنهب بحق الفلسطينيون الذين فوق سلب أرضهم مورس عليهم ابشع عمليات الإرهاب الصهيوني وبدعم من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، ذلك التصريح الذي أثر بشكل مباشر على فلسطين خاصة والعرب عامة، وحتى الآن نعاني منه، ذلك التصريح الذي اعتبره المؤرخون العرب جميعاً بانه غير قانوني ولا شرعي وتم الاتفاق عليه من طرف واحد، وعارضه العرب عامة منذ صدوره وحتى يومنا هذا يرفضونه رفضاً قاطعاً لشدة ظلمه ووقعه على العرب .

لذا نوصي بكل من يكتب ويتطرق لاتفاقية سايكس _ بيكو وتصريح بلفور المشؤوم على أن لا يترك شاردة ولا واردة من ظلم للعرب فيهما إلا ويذكرها بالنص، ولا ينسى ذكر المراوغة واللعب البريطاني على اعصاب العرب بعقدهم الاتفاقية وما تبعها من تصريح باطل للصهاينة على حساب العرب، وواجب ومن الضرورة أن تدرس وتعرف الاجيال العربية على هذان الحدثان الذين من خلالهم تم نهب ثروات ومقدرات العرب، وفعلا كانت ولا زالت اثارهم سيئة على العرب جميعاً، وتذكير الاجيال العربية اللاحقة بأن يفقدوا المصداقية والثقه بسياسة بريطانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية، وتذكيرهم بأنهم سبب دمار وخراب العرب، وهم من اوصلونا إلى ما نحن عليه الآن .

_ المصادر والمراجع

أولاً_ الكتب

1_ أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى، تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن المجلد الاول، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، د.ت.

2_ محمد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة، مؤسسة فرانكلين، ط2، دار الشعب، القاهرة، 1972 .

3_ سعد سعدي: معجم الشرق الأوسط، دار الجليل، ط1، بيروت، 1998 .

4_ احمد طربين: محاضرات في تاريخ قضية فلسطين منذ نشأة الحركة الصهيونية حتى نشوب الثورة الكبرى عام 1936، معهد البحوث والدراسات العربية العالية، القاهرة، 1959 .

5_ عمر الديراوي: الحرب العالمية الاولى "عرض مصور"، دار العلم للملايين، لبنان، 1999 .

6_ حسني جرار: شعب فلسطين أمام التآمر البريطاني والكيد الصهيوني، دار الفرقان للطباعة والنشر، عمان، د.ت .

7_ ماهر الشريف: تصريح بلفور 1917_2017 حيثيات صدورة ومسؤولية بريطانيا، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، د.ت .

8_ عمر عبدالعزيز عمر: تاريخ المشرق العربي 1516_1922، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1984 .

9_ نجيب صدقة: قضية فلسطين، د.ن، بيروت، 1946 .

10_ وزارة الإرشاد القومي_ الهيئة العامة للاستعلامات: ملف وثائق فلسطين، مجموعة وأوراق خاصة بالقضية الفلسطينية، ج1، من عام 1937_1949، القاهرة، 1969 .

11_ نيل م. هايمان: سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ _ الحرب العالمية الأولى، ترجمة: حسن عويضة، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ط1، الامارات، 2011 .

12_ كرستيان كوتس أولريخسن: الحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط، ترجمة: طارق عليان، جروس برس ناشرون، ط1، لبنان، 2016 .

13_ كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب العربية، د.ن، لبنان، د.ت .

14_ أفرايم ومناحيم تلمي: معجم المصطلحات الصهيونية، ترجمة: احمد العجرمي، دار الجليل للنشر، ط1، عمان، 1988 .

15_ جامعة الدول العربية: الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين، المجموعة الاولى 1915_1946، القاهرة، 1957 .

ثانياً_ الرسائل العلمية

1_ فؤاد المرسي ابراهيم: موقف مؤتمر فرساي سنة 1919 من بلاد المشرق العربي، رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1970 .

2_ علي أكرم مهاني: العلاقات الصهيونية البريطانية في فلسطين 1918_1936، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية _ غزة، 2010 .

ثالثاً_ الصحف والدوريات

1_ جريدة رأي اليوم .

2_ جريدة الايام .

3_ جريدة المصري اليوم .

4_ جريدة الأنباء .

5_ ثائر دوري: مسار تصغير الأمة من مؤتمر باريس عام 1913 إلى إعلان دمشق 2003، الحوار المتمدن، بتاريخ 13 تشرين الثاني عام 2007 .

6_ وليد العوض: وعد بلفور، الحوار المتمدن، عام 2007 .

7_ وئام شاكر: الاستراتيجية الغربية لتنفيذ تصريح بلفور عام 1917، مجلة التراث العلمي العربي، العدد 36، بغداد، 2018 .

8_ عبد الواحد المكني: اتفاقية سايكس _ بيكو أيار/ مايو 1916: الفاعلون وخلفياتهم، مجلة أسطور القطرية: العدد 6، تموز/ يوليو عام 2017 .

9_ احمد محمود السامرائي: تطورات القضية الفلسطينية بين عامي 1914_1939، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد 11، تشرين الثاني عام 2013 .

10_ عبد الغني سلامة: المقدمات التاريخية والسياسية لوعد بلفور، مجلة قضايا إسرائيلية، العدد 65، د.ت.

رابعاً_ المراجع الاجنبية

1_ Toynbee, Arnold .J., The Western Question in Greece and Turkey, London,1922

خامساً_ مواقع الانترنت

1_ صلاح عيسى: صك المؤامرة وعد بلفور ... www.kotobarabia.com

2_ البلاد العربية خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها عام 1921 ... https://hauashle.ort.or

3_ الخليج أونلاين ... alkhaleejonline.net .

4_ مركز المعلومات الوطني الفلسطيني – وفا، على الموقع الالكتروني، info.wafa.ps/atemplate.aspx?id=5010 .

5_ https://www.arageek.com/bio/woodrow-wilson .

6_ عقيل صلاح: فلسطين ما بين الوعدين وعد بلفور ووعد طرمب 1917_2017... www.caus.org.lb.

الوضع الصحي في مدينة مرزق خلال العهد العثماني الثاني 1835-1911م

إعداد :

د.المبروك محمود صالح سليمان

د.امساعد محمد عبدالرازق

جامعة طبرق

مقدمة :

شهد الوضع الصحي بإقليم فزان عامة وفي مدينة مرزق خاصة؛ تدهوراً شديداً، إذ أن الاهتمام به كان قليل جدا، إذ لم ترصد له السلطات العثمانية ميزانيات تذكر، ولذلك فقد مثل الوضع الصحي صورة محزنة بسبب ما عاناه الأهالي بمرزق من نتائج الأمراض القاتلة، وافتقار البلاد لأدنى متطلبات العلاج والدواء وبقية اللوازم الصحية الأخرى، وبذلك فقد حصدت الأمراض أرواح ألوف الليبيين بصورة مستمرة.

شهدت مرزق سلسلة متواصلة من الأمراض وعدت الملاريا أخطرها، وذلك لكثرة البرك والمستنقعات بها، والتي تعدّ مرتعاً للبعوض الناقل لهذا الوباء. وأكثرها انتشاراً في الفترة قيد الدراسة 1835-1911 في تلك السنوات؛ فمن خلال التتبع لفترات انتشار وباء الملاريا سجلت لنا الوثائق التاريخية بعض السنوات التي منيت به كأعوام: (1845م، 1869م، 1870م)، وفي الوقت نفسه اصيبت مرزق بالعديد من الأمراض الأخرى المختلفة: كأمراض العيون وأمراض الأطفال المتمثلة في الحصبة، والسعال الديكي وغيرها. أما الأمراض التي تصيب المناطق الساحلية كالكوليرا والطاعون، فعادة ما تكون معدومة في منطقة مرزق.

ولم يول العثمانيون اهتمامهم بهذا المرفق اللهم إلاّ في أواخر حكمهم، ولذلك مثلت تلك الحقبة صورة قاتمة في تاريخ العلاقات الليبية العثمانية، ورغم ذلك فقد ظل الاهتمام مقصوراً على المدن الكبرى التي حظيت ببناء بعض المستشفيات أو المستوصفات، إضافة إلى عدة إجراءات صحية أخرى مثل: التلقيح والحجر الصحي ونظافة المدن... وغيرها.

ومن هنا تكمن أهمية هذه الدراسة لكونها تسلط الضوء على الوضع الصحي والأمراض التي انتشرت بمدينة مرزق إبان العهد العثماني الثاني. حيث اعتمدت هذه الدراسة على العديد من الوثائق الصحية؛ لكونها مصدر مهما ولا بديل عنه للمؤرخ في معرفة مختلف الأمراض التي كانت منتشرة في تلك الحقبة. ويهدف هذا البحث للإجابة عن عدة تساؤلات أهمها: ماهي أهم الأمراض وما مدى خطورتها على الأهالي، وهل وفدت أمراض على المدينة أتت من خارجها؟ وما هي طرق العلاج التي كانت متبعة في تلك الفترة؟

ولتوضيح الدراسة فقد تم تقسمها إلى عدة محاور هي:

أولاً: العوامل التي أثرت على الصحة وحدوث الأمراض:

ثانياً: الأمراض المنتشرة داخل مرزق:

ثالثاً: الإجراءات الصحية المتبعة داخل مرزق:

أولاً: العوامل المؤثرة على الأوضاع الصحية:

تعد مرزق من المناطق المهمة في ولاية طرابلس الغرب، وخاصة بعد اعتبارها عاصمة إقليم فزان، وقد عاشت هذه المدينة ظروفاً مناخية وصحية صعبة تمثلت في القحط وسنوات الجدب.

وقبل الخوض في مسألة الوضع الصحي لمرزق، فإنه من الضروري تسليط الضوء في البداية على طبيعة الحياة داخلها، من حيث العوامل المؤثرة على السكان المتمثلة في المناخ وطبيعة المنطقة الجغرافية، وسنكتفى بتقديم الخطوط العريضة التي تسمح بها الحصيلة الموجودة من المعطيات المتوفرة لدينا.

1- موقع مرزق :

على الرغم من ارتفاع مرزق عن سطح البحر بحوالي 1650 قدماً، إلا أنها تقع في منطقة منخفضة ذات طبيعة مستنقعية ضحلة؛ جعلت مناخها غير صحي، وهي عبارة عن مستطيل ضلعيه الغربي والشرقي أقصر من الشمالي والجنوبي، ويبلغ محيطه حوالي ميلين، كما أنها تقع في الحوض المسمى بحوض مرزق الذي يمثل إحدى الأودية الرئيسية الثلاثة التي تتوفر فيها المياه والحياة[1].

خريطة توضح موقع مدينة مرزق

مصدر الخريطة: https://www.google.com/search?qA

وعلى أي حال فإن مرزق بعيدة المسافة وليست في متناول انتشار الأوبئة الفتاكة مثل: الكوليرا والطاعون[2] التي اعتادت أن تصيب المدن والموانئ الساحلية خصوصاً منها المطلة على البحر المتوسط، وكانت المسافة بين المدن الساحلية وواحة مرزق تؤدى غرض "الحجر الصحي" أو "الكرنتينة"، فقد كانت القافلة تقضي عدة أشهر حتى تصل إلى مرزق، وفي هذه الفترة تموت كل الجراثيم التي تلوث اللباس أو الغذاء، كما لا يستطيع المصاب بأحد تلك الأوبئة المقاومة طيلة تلك المدة[3].

ونتيجة لموقع مرزق وحركة المرور والاتجاهات المختلفة تعرض سكانها إلى موجات من الأمراض المعدية الحادة أو المزمنة اتي بها هؤلاء العابرون معهم ثم تنتقل إلى السكان، ومن ذلك مثلاً: حمى "التيفوئيد والإسهالات وداء السل والأمراض التناسلية[4].

2- وصف عام للمدينة:

أفاد عبدالقادر الجامي أن للمدينة شارع الرئيسي عرف باسم "الشارع الطويل"، إضافة إلى شوارعها الضيقة الملتوية التي كثرت بها الأوساخ[5]. وكانت منطقة السوق تقع في مكان متوسط بين البابين الشرقي والغربي، وهي منطقة ذات كثافة سكانية؛ عانت لعدم وجود اهتمام بالنظافة خلال عام 1853م[6].

أما بالنسبة لبيوتها فإن معظمها شيد من الطين وطابق واحد، ومتلاصقة مع بعضها بعضاً وتتخللها على جانبيها ممرات ضيقة. كما سكن الأهالي الأكواخ كبيرة وصغيرة التي كانت ضيقة ومظلمه، اذ كانت مناطق عشوائية واتسمت بعدم النظافة، مما ساهم في انتشار الأمراض بين تلك الشريحة من الفقراء. وفي عام 1869م بلغ عدد المنازل في القسم الجنوبي حوالي (300) منزل، والشمالي قرابة (280) منزلاً، وبلغ عدد العائلات 600 عائلة. أي أن سكانها كان مجموعهم قرابة 3500 نسمة[7].

3- الغذاء:

لعل من أهم الجوانب التي كان لها تأثير على صحة الفرد داخل مرزق الجانب المتعلق بالغذاء، حيث اختلفت نوعيته ليس باختلاف المناطق فحسب بل باختلاف الوضع الاقتصادي للأفراد، ويمكن القول إن الغذاء بالدرجة الأولى كان يعتمد على الحليب (من النوق والخراف والماعز) ومنتجاته، ويصنع الأهالي منه العديد من أنواع الجبن والزبد. كما شكّل التمر الغذاء الرئيسي لسكان، بالإضافة إلى الخبز المكون من القمح والشعير، والخبز المجفف، كما استخرجوا الزيت من بعض النباتات، ناهيك عن أكلهم للثمار المجففة من نباتات الصحراء التي لها أهمية غذائية عالية جداً[8]. إلا أن كثيراً ما كان يتعرض السكان للمرض والعدوى جراء تناولهم للمأكولات المعروضة للتلوث في الشارع[9].

في 5 اغسطس 1852م وصل الرحالة فوجل مع بعثة عددها خمسة أشخاص إلى مرزق؛ غير أنهم ماتوا جميعاً بسبب اكلهم أطعمة غير صحية[10]. أما في عام 1869م فذكر الرحالة ناختيجال[11] أن أثناء تجوله بمرزق حدث معه مشاكل شديدة في الجهاز الهضمي، والتهابات معدية ومعوية والتهابات بالقناة التنفسية مصحوبة بإفرازات مفرطة، ولم تعد معدته لحالتها الطبيعية خلال شهر ابريل بأكمله تقريباً، وزاد من تأزم الحالة بكل تأكيد – كما قال – الطعام غير الملائم الذي كان في أغلب الأحيان مجبراً على تناوله. وأشار أيضاً إلى ارتفاع أسعار اللحوم[12].

4- المناخ والبيئة:

يتميز مناخ مرزق بصفات وخصائص المناخ الصحراوي الجاف الشديد الحرارة صيفاً دافئ شتاءً مع هبوط في درجة الحرارة قد تصل إلى الصفر في بعض ليالي الشتاء، وكذلك سقوط رخات قليلة من الامطار خلال العام. فمثلاً شهد عام 1841م هطول أمطار استمرت لمدة أسبوع كامل قرب واحة "مرزق". وتوجد بحيرتين إلى الجنوب الغربي من مرزق كانتا من أهم بؤر تكاثر البعوض ونشر "حمى الملاريا" في تلك المنطقة[13].

كانت مرزق تعاني من سنوات مجاعة وقحط والتي تزامنت مع فرض الضرائب من قبل السلطات العثمانية. وهو ما حدث في عام 1844م خاصة أن الأهالي خلالها عجزوا عن الدفع بسبب توقف الحركة التجارية التي تأثرت هي الأخرى بحالة المجاعة التي مرت بها البلاد، وهذا نراه واضحاً من خلال الرسالة التي بعث بها متصرف غدامس إلى والي الولاية بطرابلس، وصف بها التوقف شبه التام للحركة التجارية وضعف الكسب وكساد التجارة، حيث طلب من خلالها تخفيف الضرائب التي فرضتها السلطات بطرابلس التي قدرت بـــ 125000 قرش، والتي استمر فرضها حتى عام 1866م إلا أن تلك القيمة قد شهدت زيادة في عام 1892م بلغت 153000 قرش، وكانت السلطات في إقليم فزان قد عجزت عن الدفع في ظل المجاعة التي عانت منها[14].

ثانياً: الأمراض المنتشرة داخل مرزق:

كان من الطبيعي – بعد مراحل الجدب والجوع التي شهدتها مرزق – أن يصاب أهلها بكم كبير من شتى الأمراض، حيث ألمت بها في فترات زمنية متقاربة حيناً، ومتباعدة أحياناً أخرى، وغالباً ما يكون أصل بعض الأمراض من خارج مرزق، فتصلها عن طريق القوافل البرية التجارية، وأبرز تلك الأمراض الملاريا، الزهري، وأمراض العيون، وأمراض مختلفة أخرى.

1- الملاريا[15]:

تعد البرك المائية في مرزق السبب الرئيسي في تفشي الملاريا، والتي تعرف باسم (حمى الصيف)، وتلك البرك يطلق عليها السباخ [16]، فكانت مع مرور الزمن أرضاً خصبة لانتشار الوباء[17]. ناهيك عن وجود بحيرتين إلى الجنوب الغربي من مرزق كانتا من أهم بؤر تكاثر البعوض ونشر "حمى الملاريا" في تلك المنطقة[18].

اتسمت أعراض الملاريا بشكل عام بارتفاع درجة الحرارة أو سخونة الجسم، الا ان كثيراً من الأمراض تبدأ بارتفاع في درجات الحرارة. واطوار مرض الملاريا لها ثلاث مراحل هي الحرارة، ثم القشعريرة ثم التعرق. كما أن نوبات الملاريا تحدث كل ثالث يوم أو رابع يوم؛ فتعرف بالثلاثية وبالرباعية، وهكذا كان الناس يفرقون بين حمى الملاريا وحمى الأمراض الأخرى مثل: التيفوئيد والحمى الراجعة وغيرها[19].

كانت السلطات العثمانية بطرابلس تتخذ من "مرزق" منفاً للأشخاص غير المرغوب فيهم، أو ممن تعاقبهم جراء الأعمال المخالفة يقومون بها ضد سياسة الدولة العثمانية[20]. ويعتقد أن السبب وراء ذلك هو التخلص من أعداء الدولة العثمانية كي يصابوا بذلك المرض الذي يقود إلى الوفاة جراء عدم توفر علاج ناجح له خلال الحقبة قيد البحث.

وما بين عامي 1846-1847م حل مرض شديد الخطورة في منطقة مرزق لم يذكر اسمه ولعله كان وباء الكوليرا أو الملاريا. وقد طلب قائم مقام فزان الدواء اللازم من الوالي؛ فبعث له بقنينتين ممتلئتين بروح الكافور وروح النشادر لأجل مداواة المرضى[21].

وفي عام 1850م ساءت صحة أفرويج المرافق للرحالة لبارت في مرزق، بسبب تفشي مرض الحمى، وأصبح يهذي ويأتي بحركات جنونية، وقضَى نحبه في سبتمبر 1852م، عن تسع عشرين سنة[22].

وأشار الرحالة جوتاف ناختيجال أثناء مروره بمرزق أن من الأمور المسؤولة عن تفشي مرض الملاريا كثرة وجود السباخ التي تحمل فيروس الملاريا. حيث ذكر الرحالة أنه عانى من الحمى في مدينة مرزق أكثر من معانته فيما بعد في الأقاليم المروية جيداً إلى الجنوب من منطقة الصحراء الكبرى، وأشار أيضاً أنه من خريف عام 1869 حتى ربيع عام 1870م، فإنه لم يمر هناك أسبوع دون أن تداهمني الحمى إلا نادراً[23].

ويعتقد أن مرض الملاريا كان واسع الانتشار واصابة عدد غير قليل من الأهالي، وهذا ما أكده الطبيب الألماني (أرفين فون باري) الذي عالج عدد من سكان غات القريبة من مرزق المصابين بهذا المرض أثناء تواجده فيها عام 1875م[24].

أما في عام 1887م فقد كان الرحالة التونسي (الحشاتشي) أكثر مبالغة في وصف إصابات المرض عندما أشار إلى إصابة الأشخاص الغرباء الزائرين لمنطقة غات بهذا المرض، وإنه في أغلب الأحوال كان مصيرهم الموت جراء الحمى، أما من كان محظوظاً ولم يصبه المرض في الزيارة الأولى، فإنه ينجى من المرض ويزول الخطر عنه في الزيارات اللاحقة[25]، كما أشار إلى أن الإصابة بالمرض كثرت في فصل الصيف، على الرغم من أن هواء الولاية معتدل وغير رديء[26]، ويبدو ان كلام الحشاتشي فيه نوع من المبالغة فيما يخص موت الزائرين بالحمى لأنه في الغالب إصابة الزائرين بأمراض أخرى كانت سبباً للوفاة.

وقد توفى الرحالة ريتشي في مرزق وعندما أرسلت الحكومة الرحالة دنهام ورفاقه وتأخروا في مرزق؛ قرر دنهام الرجوع إلى بريطانيا خوفاً من المرض كي لا يلقَى مصير ريتشي وفرندبنرج رفيق هورنمان في رحلته الذي مات فيها هناك، فقد كتب دنهام إلى أخيه "**تعتبر مرزق أكثر أجزاء أفريقيا ضرراً بالصحة لكثرة عدد الواحات المحيطة بالمدينة التي يموت فيها عدة مئات من الأشخاص بالحمى سنوياً**"[27].

وكانت نسبة قليلة جداً من النساء تصاب بالمرض بالمقارنة لانتشار المرض بين الأطفال والرجال؛ وذلك بسبب العطر النفاذ الخاص الذي تضعه النساء هناك وهو ذو رائحة قوية ينفر منها البعوض. ولهذا استخدمت طريقة مبتكرة لمكافحة البعوض هي دهن الجسم بمرهم نفاذ الرائحة منفراً البعوض[28].

2- الزهري:

شاع المرض الزهري في مرزق، حيث وصلها من بلاد السودان عن طريق القوافل التجارية الوافدة إلى مناطق الولاية[29]، وذكر الرحالة هورتمان أن "داء الفرنسي أو الزهري" ينتقل بسرعة من منطقة إلى أخرى، وتواجد هذا المرض بكثرة في فزان[30].

وفي عام 1869م أشار الرحالة جوتاف ناخيتجال أثناء جولته في مرزق إلى انتشار مرض الزهري فيها، كما سجل لنا في تقريره أن انتشاره يعود إلى الفسق العريض الذي عانت منه مرزق في تلك الفترة، بسبب كثرة الجواري والرقيق وحركة العبور النشطة بين مرزق ومناطق برنو الأفريقية، ناهيك عن إهمال السكان المصابين مما يضمن أكبر انتشار له[31].

وفي 28 مارس 1870م جاء منشور من استانبول تحدث عن عدم وجود أطباء ليستقبلوا المصابين بالزهري ويشرفوا على مداواتهم، وبما أنه في المستشفيات العسكرية وفي بعض القطاعات العسكرية يوجد أطباء عسكريون؛ فقد أصدرت استانبول منشوراً بلغته لقائد الجيش العام وإلى الولاة بأن يعلنوا لمرضى الزهري، بأن يراجعوا أطباء الجيش أينما كانوا ليعاينوهم ويكتبوا لهم الوصفات الطبية مجاناً[32].

وفي عام 1887م كان لمرض الزهري أضرار بالغة الخطورة خاصة على النساء الحوامل، وكذلك على حياة الأطفال حديثي الولادة، لذلك قامت سلطات الولاية بإصدار قرار نص على معاينة الزهري مجاناً عند أطباء الجيش، وكذلك صرف العلاج مجاناً، والإشراف على مداواة المرضى[33].

وخلال ولاية الوالي نامق باشا (1896–1898)، تمت السيطرة على هذا المرض بصورة كلية ومنع انتشاره، حسب ما جاء بتقرير رفعته الولاية إلى مركز الحكومة تؤكد أن هذا المرض الذي وصفته بـــ (الفضيع) قد نجح في السيطرة عليه[34].

إن ورود وصف (الفضيع) لهذا المرض في هذه الوثيقة؛ يؤكد أن هذا المرض كان مؤذياً ومنتشر في أرجاء ولاية طرابلس الغرب، وهذا ما جعل الوالي يؤكد عليه في هذا التقرير دون غيره من الأمراض الأخرى التي كانت متواجدة في الولاية.

وكتب "الدكتور أمين" الذي كان منفياً بمدينة مرزق كتاباً حول مدى انتشار هذا المرض واعراضه ووسائل علاجه محلياً بواسطة الحنظل وأملاح النطرون ووصف معاناه المريض من جراء استعمال هذا العلاج[35].

3- أمراض العيون:

انتشرت امراض العيون في الولاية بشكل كبير خاصة في المناطق الجنوبية منها، حيث تضافر العديد من الأسباب المناخية والبيئية والتقلبات المفاجئة في درجات الحرارة، والغبار الذي تحمله الرياح، وحرارة الشمس أثناء النهار، والبرد والرطوبة في الليل[36]، وكثرة الذباب في ذلك الانتشار بشكل كبير وغالباً ما يستقر على وجه الأطفال لدرجة يسد فيها أعينهم وأنوفهم؛ فيكون عاملاً لإصابتهم بأمراض العيون، والتي انتشرت بين الكبار أيضاً[37]. كما يضاف إلى ذلك كله قلة المياه وعدم الاهتمام بالنظافة، مما تسبب في كثير من الأحيان في انتشار أمراض العيون وهي الرمد، والتراخومة، التهاب الملحمة[38].

وأكد هذا الأمر الرحالة الحشاتشي عام 1887م عندما أشار لكثرة انتشار أمراض العيون بين سكان الولاية، خاصة منطقة مرزق، وكيف أنهم بحاجة ماسة لطبيب مختص بأمراض العيون[39]، وهذا ما يؤكد خلو

مرزق من طبيب متخصص بأمراض العيون، لأنه يعتقد أن غالبية الأطباء المتواجدين في هذه الحقبة كانت اختصاصاتهم عامة لمعالجة الأمراض الشائعة مثل: الكحة والسعال وآلام البطن وغيرها[40].

ولاحظ جوتاف ناختيجال أثناء تواجده بمرزق أنه في عام 1869م تعرض عدة أشخاص إلى التهابات العيون الداخلية والسّد والكمنة والتهابات الشبكية وغلاف العين المشيمي، والعصب البصري والرطوبة الزجاجية، بالإضافة إلى المصابين بالقرنية والملتحمة، وتجمع كل هذه الأمراض من النمط الأخير معاً تحت اسم واحد هو الرمد[41].

ولم هناك موسم معين لانتشار هذا المرض، وتنتقل العدوى في كل موسم أو فصل. تميز المرض بحدوث حبيبات صغيرة كالرمل على داخل الجفن، وهذا يؤدي إلى تشوه الجفن وتقرح القرنية، مما يجعل المرض مزمناً ويجهد المريض لسنوات طويلة.

4- الجدري:

اعتبر الجدري من الأمراض الخطيرة والمتوطنة بولاية طرابلس، وكان منتشراً في مناطق عديدة، وخاصة الدواخل، فقد عصف بها فترة طويلة مما جعل الأهالي يعانون الأمرين، وغالبا ما انتقل هذا المرض عن طريق القوافل التجارية القادمة من المناطق الجنوبية، أو عن طريق التجار المصابين به، أو بوساطة الرقيق المجلوب من جنوب الصحراء، وتحديداً من السودان وبرنو وأغاديس[42].

وفي عام 1877م أشار الطبيب الألماني (ارفين فون باري) أثناء جولته في مرزق إلى انتشار الجدري فيها، كما سجل لنا في تقريره إن عدوى المرض غالباً ما تنتقل من بلاد السودان ومدن أفريقية أخرى، فضلاً عن ذلك فقد أكد أنه تلقى تحذيراً من عدم السفر إلى الدواخل تجنباً للإصابة بهذا المرض[43]، وهذا ما يشير أن المرض كان عاملاً مسبباً للوفاة في أغلب الأحوال، ويعتقد أن هناك عاملاً آخر كان وراء الوفيات المتكررة بهذا المرض أهمها تخوف الأهالي وتعاملهم بحذر وريبة مع الأطباء الأجانب والأدوية المصنعة في الخارج واعتمادهم على التداوي بالأعشاب وهذا ما حدى بأهالي منطقة غريان إلى إخفاء أطفالهم أثناء حملة التطعيم الإجبارية ضد مرض الجدري خوفاً من التطعيم الذي كانوا يجهلون أهميته الصحية لهم ولأطفالهم[44].

5- مرض الدرن:

هو مرض السل، أو ما يعرف شعبياً باسم مرض الرقيق، وعلاماته الهزال، والضعف العام الذي يصاحبه سعال شديد ونفث الدم، تكثر الإصابة بهذا المرض في حالات ازدحام المدن أو ازدحام المسكن الواحد يرافقها سوء التغذية وسوء تهوية مكان السكن الأمر المسهل لنقل المرض بواسطة التنفس والرذاذ المتناقل. وقد عانى سكان مرزق من مرض الدرن الذي انتشر بين النسوة عام 1869م[45].

كذلك شهدت سنة 1880 انتشاره بعد وصول قافلة تحمل رقيقاً تم جلبهم من أواسط أفريقيا؛ نزلت في أرض مرزق تمهيداً لتصديرهم عبر موانئ الولاية إلى أوروبا، وكان أحد أفراد القافلة مصاباً بالمرض الذي

انتشر بشكل سريع بين بقية الأهالي[46]. ولم يعرف دواء لهذا المرض خلال تلك الحقبة، ولم يسجل عدد ضحاياه التي كانت مبهمة لعدم الاهتمام الواضح بتلك الأمراض باستثناء الأوبئة التي يجري الاهتمام بتسجيل عدد ضحاياها.

6- أمراض أخرى:

يأتي على رأس تلك الأمراض ما يتصل بداء الرئة أو الصدر مثل سل الرئة وصفاق الصدر، وداء الخناق، ومرض احتقان الرئة والتدرن الرئوي، وكانت أغلب تلك الأمراض نهايتها الموت. وفيما يبدو حسب شهادة ناختيجال أن الكوليرا أو ما يعرف شعبياً بأبي كمّاش عرف طريقه من طرابلس إلى فزان خلال نهاية خمسينيات القرن التاسع عشر، وكان سبباً في كثير من الضحايا[47].

فضلا عن وجود أمراض الجهاز الهضمي، والروماتزم، والأمراض الجلدية، وهناك أمراض أخرى مثل الكلي، الحصى الكلوية. أما فيما يتعلق بأمراض النساء فقد عرفت بوجود اضطراب العادة الشهرية، والعقم، والإجهاض، والتهابات غدة الثدي، وسرطان الصدر والرحم، ونزيف الرحم، وما شابهها[48].

ومما تجدر الإشارة إليه أنه هذه الأمراض أهملت من قبل المصابين بها، وإذا عولجت فإن أسهل الطرق التي يلجأ إليها المريض هي الكي بالنار لاسيما أمراض العيون على أحد الصدغين، وهذه الطريقة السيئة للعلاج أدت إلى إصابة الكثيرين بالعمي[49].

ثالثاً: الإجراءات الصحية المتبعة داخل مرزق:

عاشت مرزق فترات حرجة نتيجة لتردي الأوضاع الصحية بها، وفي مقابل ذلك وجدت بعض الأنظمة الوقائية والعلاجية المتبعة داخلها، ولابد من الإشارة هنا أن لا الدولة العثمانية ولا حكومة الولاية؛ اهتمتا بإنشاء المرافق الصحية من مستشفيات ومستوصفات، وإن وجدت فإن وجودها اقتصر على المدن الكبيرة كطرابلس وبنغازي.

1-المستشفيات:

لم يقتصر إنشاء المستشفيات العسكرية على مركز الولاية بطرابلس وبنغازي، بل كان هناك مستشفى صغير في مرزق. وهذا ما أكده الرحالة الألماني رولفس عام 1865م أثناء زيارته إلى المستشفى العسكري برفقه طبيب الحامية العثمانية، وقال: "**إنه يحتوى على اثنى عشر سريراً مع فراشات وبطانيات ولوازم أخرى ويفوق في النظافة والنظام كل توقعاتي لمستشفى عسكري**"[50].

في عام 1869م أشار الرحالة جوتاف ناختيجال إلى وجود طبيب عسكري عثماني في مرزق كان على دراية بعلاج الملاريا باستخدام (الكينين) وهو علاج مداوى ويستعمل كثيرا في إقليم فزان، وعلى الرغم من ذلك ذكر الرحالة بأن هذا العلاج كان مكلف ولم يكن في متناول الكثير[51].

كما أكد الرحالة التونسي محمد الحشائشي عند إصابته بالحمى أثناء تواجده في مرزق على وجود المستشفى العسكري بها عام 1887م، حيث قصده فعالجه طبيباً ليبياً ذكر له أنه تلقى تعليمه في مهنة الطب

بمدينة باستانبول[52] عندما كان هناك، وبعد فترة من الدراسة، تم إرساله للعمل بهذا المستشفى، وإنه يعتبر نفسه محظوظاً لأنه لم يذهب للعمل في صحراء نجد أو اليمن، كما هو الحال لعدد من الأطباء الليبيين آخرين[53].

2-الصيدليات:

كان للصيدليات دور بارز في التداوي والعلاج، حيث عدَّت صيدلية (بيت الدواء) أول صيدلية أنشئت في مرزق. هو ما أكده الرحالة الحشائشي أثناء تواجده بمدينة مرزق عام 1887م، إذ أشار إلى وجود صيدلية تابعة للمستشفى العسكري هناك، والتي قام مرشده بجلب دواء له بعد إصابة ركبته اليسرى بجرح، واستغرب من ارتفاع ثمن الدواء الذي وصل إلى خمسة فرنكات، لكن الطبيب العسكري المكلف بالعمل في الصيدلية السيد "أحمد اليوزباشي" أخبره أن الدواء يحدد ثمنه من قبل الحكومة المركزية لذلك فهو لا يستطيع أن يبعه بأقل من ذلك الثمن، كما أخبره أن هذا الدواء لا يباع إلاّ لميسوري الحال والغرباء[54].

واستغرب الرحالة الحشائشي من حالة أخرى وجدها في هذه الصيدلية عندما قرأ توصيف الدواء مكتوب باللغة الفرنسية، علماً أن الشخص العامل في الصيدلية كان يحسن استخدام اللغة العربية والعثمانية في الوقت ذاته، فأخبره السيد أحمد أن كل الأمور المتعلقة بتجهيز الدواء في العساكر العثمانية، وفي جميع الولايات، يكون حسابه باللغة الفرنسية[55]، ولكنه لا يعرف سبباً لذلك.

هذه الرواية تستدعي الوقوف عند جانبين مهمين، الأول يتعلق بأسعار الأدوية التي يعتقد أنها كانت غالية نوعاً ما، فسعر الدواء الذي اشتراه الرحالة الحشائشي كان بـــ (5) فرنكات وبمعادلة بسيطة نجد أن الفرنك الواحد = 4,447 قرشاً طرابلسياً، وهذا يعني أن سعر الدواء بالعملة المتداولة في طرابلس يساوي (22,235) قرشاً، وهذا المبلغ يعد كبيراً في ذلك الوقت ودليلنا في ذلك أن سعر مرطة القمح والتي تساوي (11,538 كيلو غرام) كانت تباع في الأسواق بسعر (21) قرشاً[56].

ويذكر أن عدد كبير من الأمراء العثمانيون يجيدون التكلم باللغة الفرنسية وإن هناك أمور عديدة بالولاية تستخدم بها اللغة الفرنسية دون غيرها من اللغات. الجانب الآخر الذي يجب مناقشته والوقوف عنده هي مسألة تحرير الخطابات وكشوفات الأسعار باللغة الفرنسية في ولاية عثمانية ومن أشخاص عرب، وواقع الحال لم نجد شيء يفسر لنا ذلك[57].

3- إجراءات حكومية علاجية أخرى:

في عام 1867م جاءت رسالة من الولاية إلى مرزق تحث على ردم المستنقعات[58]. أما في عام 1888م فأرسل حاكم فزان إلى الوالي أحمد راسم (1882-1898م) وصفة طبية لعلاج مرض الجدري، وكمية من الدواء، حيث ذكر أنه عوّلج بهذا الدواء عدد من المرضى المصابين بهذا الوباء في مرزق، وأعطى مفعولاً ناجحاً[59].

وفي 14 اغسطس 1895م وجهت السلطات العثمانية بطرابلس خطاباً إلى متصرفية فزان تبلغها فيها بأنها قد أرسلت 663 جراماً من السولفاتو للمصابين بالحمى وتطلب منه إرسال 650 قرشاً ثمن الأدوية التي تم إرسالها إليه[60].

وما بين عامي 1903-1904م أولت الإدارة العثمانية اهتماماً خاصا بمكافحة مرض الجدري، من خلال المراسلات اليومية للولاية، وأيضاً الصحف المحلية أخذت على عاتقها تنبيه الأهالي وحثهم على ضرورة التلقيح ضده، فقد عممت الإدارة العثمانية منشوراً على جميع المتصرفيات والقائمقاميات في الولاية تحثهم على ضرورة تلقيح الأهالي ضد الجدري[61].

ومع كل تلك الاجراءات والتحذيرات؛ ففي عام 1907م أتضح أن أغلب الأهالي – خاصة في الدواخل – لم يقوموا بالتلقيح ضد الجدري، فقد أشارت وثيقة من ملفات الصحة أن 90% من أهالي المناطق الجنوبية غير محصنين ضد الجدري[62].

4-طرق أخرى لعلاج الأمراض في مرزق:

عالجه الأهالي بمرزق عضة الأفعى بربط مكان الجرح لمنع تسرب السم، ثم يعطى الملدوغ الحليب الساخن بكميات كبيرة ومرق اللحم إلى أن يتقيأ الملسوع، ثم يعطى له التمر، الذي يعتقدون أنه يهدئ ضربات القلب التي تبدأ بالتسارع أثر عضة الحية، أما لسعة العقرب التي تعد أقل خطراً من الأفعى فتعالج بإعطاء المصاب الشاي الساخن أو الحليب المغلي ثم يغطى مكان اللسعة بجلد ماعز أو خروف مسلوخ[63].

استخدم الأهالي في علاج الزهري مخلوط مكون من الملح والحنظل الشديد الإسهال، تغمس القروح بماء النطرون، أو الصودا المحلولة، والواقع أن هذه الأدوية تعد جيدة النتائج قلما تعجز عن الشفاء ما لم تكن جذور المرض عميقة[64]. ففي هذا السياق ذكر أبوشويرب أن الأهالي عالجوا الزهري بطرق شعبية كان يعتمد على استخدام الحنظل وأملاح النطرون التي كان المريض يعاني من مرارتها بشكل كبير[65].

وأشار جوتاف ناختيجال أن السكان عالجوا مرضاهم المصابين بمرض الزهري بنبات الفشّاغ وهو نبات طبي معترش من الفصيلة الزنبقية يتخذ من جذوره شراب مقوٍ ومطيب؛ ويعرف هذا النبات باسم عام بين السكان بـــ عشيبة. كما عالجوا الأهالي مرض الزهري بالحنظل. وعالجوا مرض ضخم الكبد والطحال؛ بـــ الكي أو عن طريق وضع نوع من السلك فوق موضع العضو المريض، أو يعطى الشخص جرعات من الكمون والثوم المنقوع في الزيت. فيما عالجوا أهالي مرزق أمراض العيون؛ بمسحوق مخلوط من سكر نبات وحبة السوداء ولسان البحر والمر والتوتيا (خام أكسيد الزنك) الذي يوضع في العين بمقادير صغيرة، كذلك عالجوه بمسحوق مركب مع مرارة الغراب بعد تجفيفها وخلطها مع السكر. أما إصابات الحروق فاستخدام مرهم من البيض النيء وأوراق الملوخية المطحونة للعلاج. كما عرفوا كيف يعدلون العظام المكسورة والعظام المخلوعة من مواضعها[66].

كما استعملوا الكحل لعلاج مرض العيون، إلى جانب تقطير حليب المرأة المرضع في العين المصابة[62]، أما الرمد فاستخدام في علاجه الحبة السوداء الذين قالوا عنها "أنها للعيون مليحة جداً"[67].

أما طرق علاج الأمراض الجلدية الحميّة؛ فعالجوها بالتدليك بالزيت والملح، أما مرض الشّرى وهو طفح جلدي ذو بثور حكاكة، ويعرف أيضاً باسم أبو شوكة؛ فتم علاجه بمرهم تم استخلاصه من روث البقر والأغنام والإبل. أما الالتهابات الجلدية السطحية والتهابات مناطق الاحتكاك بالجسم؛ فتم علاجها من خلال تركيبة مكونة معجون من الشب ونبات الشمّار والقرنفل والورد ومسحوق نوى البلح. كما عالجوا حب الشباب في أشكاله المعتدلة بمرهم زيت الياسمين مع قليل من الشمع أو تعالج الحالات الأقل انتشاراً ولكن الأكثر استعصاء على العلاج، بالسائل الحليبي اللاذع لشجرة العُشَر أو بمرهم صنع من مسحوق حبوب الخروع أو بالكي في آخر المطاف[68].

5- الطب الشعبي:

كان لكل قبيلة من قبائل طبيب محلي أو عدة أطباء عرفوا بمزاولة المهنة، وربما توارثوا هذه الصفة أباً عن جد بما فيها من أسرار وفيرة وأدوات خاصة. كان المعالجين عادة هم من النساء العجائز من ذوات الخبرة، وربما المتوارثة يزاولن مهنة معالجة المرض وفقاً لخبرتهن العملية، إلا أن حدود تأثير علاجهن محدود النطاق، وفيما عدا ذلك يعتقد الناس بجدوى الأحجبة، وأبناء مرزق سواء في ذلك مع أهالي الشريط الساحلي، فيقوم عدد من كتّاب الأحجبة بكتابة الحجاب المطلوب، ويوضع عند المواضع المؤلمة وغالباً ما تبلع الورقة التي كتبت لهذا الغرض، ويشرب ماء حبرها[69].

بالنسبة للسحر وكتابة الأحجبة والتمائم فقد كان يختص به فقيه أو عالم دين ويّعد هذه الأحجبة لغرض الشفاء من مرض معين، وخاصة الأمراض الجسمية والعقلية، وقد أشار إلى ذلك الرحالة (ريتشاردسن) الذي زار أحد مناطق الولاية عام 1846 ووجد أن الأهالي يعتمدون بشكل كبير على العلاج بالتمائم والرقي، وهذا ما أكده أيضاً الرحالة (رولفس) الذي أشار أن هذه التمائم يقصد من استخدامها الوقاية من العيون الحسودة، والإنقاذ من السم أو الأخطار الأخرى التي قد يتعرض لها الإنسان، ويتم حفظها بواسطة حجاب يضع من الجلد الأحمر ويوضع بقلادة تلبس في الرقبة أو يربط بالذراع، ولم يقتصر استخدامها على البشر، بل نجدها في أحيان كثيرة تربط برقاب الإبل للحفاظ عليها من مرض الجرب أو توضع فوق بعض الأشجار وخاصة عند موسم الإنتاج منعاً لإصابتها بالآفات[70].

إن من يقوم بتجهيز هذه التمائم والأحجبة، وكما نوهنا سابقاً، رجل دين يحصل من عمله هذا على مكسب مالي مربح، خاصة إذا ما علمنا أن استخدامها لا يقتصر على علاج الأمراض بل يتعداه إلى استخدامه في مجال الحب أيضاً، حيث يعمد الكثير من المحبين لعمل الأحجبة ضناً منهم أنها تكسب ود محبوبهم فيتم المراد والزواج، ومن قبيل الصدف، إن الزواج يتم بين المحبين فيضنون أن الأحجبة لعبت دورها الواضح في إتمام الزواج، وهذا يعود بالتالي بفائدة كبرى على رجل الدين الذي يزداد مكسبه المالي من جهة، وينتشر صيته وسمعته الطبية بين الأهالي الذي يجدون أنفسهم أمام شخص يحقق لهم أحلام كانت صعبة المنال ويشفي مرضاهم من أمراض مستعصية، وفي واقع الحال لم تكن الصدفة إلاّ هي سيدة الموقف في حالات كثيرة.

اعتقدت النسوة في العين الشريرة والحسد، حيث كانت تعلق الخميسة والقرين لمنع العين عن الطفل أو باب السكن، وزيارة أضرحة الأولياء الصالحين، إذا ما مرضت أو مرض أي فرد من أفراد عائلتها[70].

استنتاجات البحث:

– عدم الاهتمام بالحجر الصحي للمسافرين القادمين من مناطق موبوءة صحبة القوافل من جنوب الصحراء سبب من أسباب انتشار الأمراض كجدري.

– أجبرت الأوضاع الصحية والمناخية بمرزق بعض الدول خاصة إنجلترا وفرنسا على تغيير أساليبها وطرق تكتيكها في إرسال رحلاتها، حيث بدأت تستعمل الطريق الشمالي الصحراوي الذي يعتبر أقل انتشاراً للأمراض من الطرق التي كانت تنتشر بها أمراض عدة، وهذا أدى إلى تعطل الرحلات وتوقفها فترة طويلة من الزمن.

– انه بالرغم من إنشاء المستشفيات العسكرية العثمانية بليبيا، فإن الخدمات الصحية لم تصل للأهالي بدليل معاناتهم من ويلات المرض. وهو ما يشير إلى ان انشاء تلك المستشفيات، إنما كان الهدف من ورائه هو الدعم الصحي المقدم لجنود العثمانيين؛ لتنفيذ اغراضها ومصالحها السياسية من خلال الاهتمام بصحة هؤلاء الجنود.

– اصابة عدد من الرحالة الأجانب بمرزق. انما يدل إلى قسوة بيئة المنطقة، وسوء الأحوال الصحية والغذائية بها. فإنما يشير على عدم تواجد للبعثات الطبية الاجنبية وإلا كانوا لجأوا اليها حال مرضهم

– ان الاعتقاد السائد بأن الأمراض التي كانت تصيب الإنسان سببها الأرواح الشريرة، واللجوء إلى الشعوذة والاستعانة بالتعاويذ والتمائم لطرد هذه الأرواح الشريرة. يشير إلى ضعف الوضع التعليمي والثقافي بالمدينة

– اتبعت الدولة العثمانية سياسة توزيع الأطباء على جميع ولاياتها بغض النظر عن الجنسية هؤلاء الاطباء

– ساهم ارتفاع سعر الدواء في عدم شراء الاهالي له؛ نظراً لانخفاض مستواهم الاقتصادي وتفضيلهم شراء الطعام بدلا عنه.

– ان تحرير فواتير أسعار وكشوف الأدوية باللغة الفرنسية انما يشير إلى أن غالباً ما كانت تلك الأدوية تستورد من فرنسا.

– قد يشير استخدام الأمراء العثمانيين للغة الفرنسية. ذلك هو إعجابهم، شأنهم شأن غيرهم كثير، بالثورة الفرنسية وما حملته من مبادئ جديدة على المجتمع وما حملته من تغييراً على كافة مفاصل الحياة والسياسية منها بشكل خاص.

– وجود طبيب ليبي يجيد استخدام اللغة الفرنسية في المستشفى العسكري بمرزق، انما يعطي انطباع بإيفاد بعثات دراسية في مجال الطب لفرنسا من قبل الدولة العثمانية.

قائمة الهوامش :

(1) رجب نصير الأبيض، **مدينة مرزق وتجارة القوافل الصحراوية خلال القرن التاسع عشر**، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1998م، ص 52، 53.

(2) من الأوبئة الخطيرة خصوص في المدن والموانئ، ولكن هناك نوع من الطاعون المتواطن نتيجة لانتقاله بين فئران الصحراء والبراغيث بها، وكثيرا ما ينتشر المرض في الواحات الصحراوية نتيجة نزول فأر مصاب من بعض السفن القادمة من أحد الموانئ. ويسمى هذا النوع من الطاعون بـــ"النوع القروي". للمزيد ينظر: عبدالكريم أبوشويرب، **أعلام ومعالم من تاريخ الطب في ليبيا**، الجمعية الليبية لتاريخ العلوم الطبية، 2005م، ص 206.

(3) عبدالكريم أبوشويرب، **أعلام ومعالم من تاريخ الطب في ليبيا**، ص202.

Jusatz. Helmut I. Geomedcal Monograph Series; Kanter, Helmut: Libya, p.99.)1(

(4) عبدالقادر جامي، **من طرابلس الغرب الى الصحراء الكبرى**، ترجمة: محمد الاسطى، دار المصراتي، طرابلس – ليبيا، 1974م، ص90.

(5) رجب نصير الأبيض، المرجع السابق، ص 64، 65؛ جون فرنسيس ليون، **من طرابلس الى فزان 1818-1822م**، تعريب: مصطفى جودة، الدار العربية للكتاب، 1976م، ص75.

(6) رجب نصير الأبيض، المرجع السابق، ص66، 67.

(7) عبدالكريم أبوشويرب، أعلام ومعالم من تاريخ الطب في ليبيا، ص204، 205.

(8) جوتاف ناختيجال، **الصحراء وبلاد السودان**، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2007م، ص215، 216.

Gaber (A) Les Relationes Franco Libyenne Durant, L, Ere Karamanli, Memoire De)9(
.9Maitrise Aix 1973. P. 11

(10) انطلق الرحالة الألماني ناختيجال برحلته من طرابلس في 18 فبراير 1869م، حاملاً هدايا الملك البروسي لتقديمها الى الشيخ عمر الكانمي سلطان برنو، وأقام مدة طويلة في مرزق قبل أن يتابع سفره الى كوكه عاصمة برنو، إذ بلغت المدة التي قضاها فيها أكثر من تسعة أشهر، وقد زاول فيها المهنة الطبية، ومما كان يساعده في ذلك أنه كان يتقن اللغة العربية، إذ أنه مكث في الجزائر وتونس قبل ان يتوجه الى ليبيا. للمزيد ينظر: عماد الدين غانم، (محرر ومترجم) **رحلة عبر أفريقيا – مشاهدات الرحالة الألماني رولفس في ليبيا وبرنو وخليج غينيا 1862-1867م**، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية طرابلس، 1996م، ص280 وما يليها.

(11) جوتاف ناختيجال، **الصحراء وبلاد السودان**، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2007م، ص215، 216.

(12) غيرهارد رولفس، **رحلة عبر أفريقيا**، ترجمة: عماد الدين غانم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1996م، ص272، 273.

(13) دار المحفوظات التاريخية طرابلس، حافظات المراسلات، مراسلات غدامس، رسالة من قائمقام غدامس الى والي الولاية بتاريخ 1329هـ.

(14) تظهر الملاريا في مرزق بشكل متزايد مع تقدم فصل الصيف فتزداد الاصابة وتشتد وطأتها، وتبدأ بالتراجع في أواخر فصل الخريف، وتختفى تماماً في فصل الشتاء. وكان الزنوج أقل عرضه لفيروس الملاريا من أصحاب البشرة الفاتحة. للمزيد ينظر: جوتاف ناختيجال، المرجع السابق، ص215.

(15) ذكر الرحالة عبدالقادر جامي أن أملاح المستنقعات لا تساعد البعوض على التكاثر، وإنما رجّح سبب تكاثر البعوض خاصة في مدينة مرزق إلى جذور وأعواد القصب النامي في الآبار والبساتين خاصة المهملة منها. كما رجّح سرعة الإصابة بالملاريا إلى عدم توفر العناصر الغذائية اللازمة في الوجبات التي يتناولها السكان، وبذلك تقل مقاومة أجسامهم لهذا المرض. للمزيد ينظر: عبدالقادر جامي، المرجع السابق، ص92-96.

(16) جون فرنسيس ليون، المرجع السابق، ص56.

(17) عبدالكريم أبو شويرب، **الصحة والمرض وطرق العلاج في بعض الواحات الليبية**.. القرن 19، منشورات مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، السنة الثالثة عشر، العدد الثاني، 1991م، ص135.

(18) عبدالكريم أبو شويرب، المرجع نفسه، ص138.

(19) فرانشسكو كورو، **ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني**، ترجمة: خليفة محمد التلبسي، دار الفرجاني، طرابلس، د.ت، ص144.

(20) محمد امحمد الطوير، "**الوضع الصحي في ليبيا خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين**"، الأوضاع الصحية في ليبيا 1935-1950 أعمال الندوة العلمية التاسعة التي عقدت بمدينة المرج في الفترة 6/30 الى 2001/7/4م، تحرير: محمود أحمد الديك، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، 2009م، ص284؛ محمد بشير سويسي، المرجع السابق، ص470.

(21) Gaber (A) op. cit. P. 119.

(22) جوتاف ناختيجال، المرجع السابق، ص269.

(23) الطبيب الألماني **ارفين فون باري 1846-1877 ورحلته إلى غات وبلاد الآبير**، ترجمة: عماد الدين غانم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، سلسلة نصوص ووثائق (24)، طرابلس، 1995م، ص313.

(24) محمد بن عثمان الحشائشي، **رحلة الحشائشي إلى ليبيا سنة 1895 (جلاء الكرب عن طرابلس الغرب)**، تقديم وتحقيق: علي مصطفى المصراتي، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1965، ص210.

(25) المصدر نفسه، ص68.

(26) جون فرانسيس ليون، المرجع السابق، ص77.

(27) عبدالكريم أبو شويرب، الصحة والمرض في بعض الواحات .. 19، ص

(28) عبد الكريم أبو شويرب، **الأوضاع الصحية في المجتمع الليبي، في الفترة ما بين 1835-1950**، مجلة البحوث التاريخية العدد الثاني، طرابلس، 2000م، ص18.

(29) فرديك هورتمان، **رحلتان عبر ليبيا**، ترجمة: دار الفرجاني، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1974م، ص95.

(30) جوتاف ناختيجال، المرجع السابق، ص278.

(31) دار المحفوظات التاريخية طرابلس، وثيقة رقم 1335.

(32) نفس المصدر، ملفات الصحة، وثيقة رقم 114 /ملف 4/صحة، بتاريخ 1887م.

(33) عبد السلام أدهم، **وثائق تاريخ ليبيا الحديث الوثائق العثمانية 1881–1911**، ترتيب ومراجعة: أحمد صدقي الدجاني، منشورات جامعة بنغازي، ليبيا، 1974، وثيقة رقم (93)، ص153.

(34) أمين جولاشان، "**الطب الشعبي في فزان**"، مجلة البحوث التاريخية، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1979م، ص37–50.

(35) عبدالعزيز طريح شرف، **البيئة وصحة الإنسان في الجغرافيا الطبية**، 1986م، ص267.

(36) صادق مؤيد العظم، **رحلة في الصحراء الكبرى بأفريقيا**، ترجمة: عبدالكريم شويرب، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية – سلسلة الدراسات التاريخية (34)، طرابلس، 1998، ص75.

(37) جامي، المرجع السابق، ص148.

(38) محمد بن عثمان الحشائشي، المصدر السابق، ص210.

(39) خليفة محمد سالم الأصول، **الجالية اليهودية بولاية طرابلس الغرب من (1864–1911)**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الفاتح، كلية التربية، طرابلس، 1985م، ص162.

(40) جوتاف ناختيجال، المرجع السابق، ص279.

(41) الطبيب الألماني ارفين فون باري، المرجع السابق، ص25، 26.

(42) جوتاف ناختيجال، المرجع السابق، ص245.

(43) دار المحفوظات التاريخية، طرابلس، ملف الصحة.

(44) جوتاف ناختيجال، المرجع السابق، ص280.

(45) عبد الكريم أبو شويرب، المصدر السابق، ص18.

(46) جوتاف ناختيجال، المرجع السابق، ص272، 273.

(47) جوتاف ناختيجال، المرجع السابق، ص275–288.

(48) عبدالكريم أبوشويرب، **الطب في طرابلس القديمة**، جريدة طرابلس القديمة، العدد العاشر، بتاريخ 1987/5/17م، ص21.

(49) عماد الدين غانم، (محرر ومترجم) **رحلة عبر أفريقيا**، ص286 وما يليها.

(50) جوتاف ناختيجال، المرجع السابق، ص270، 271.

(51) هناك وثيقة مهمة أودّ الإشارة إليها وهي تَتَحدَّثْ عن سفر خمس وأربعين طالباً للدراسة الجامعية باستانبول عام 1887م بتوقيع الوالي علي رضا الجزائري ومنهم ثمانية لدراسة الطب ومن هؤلاء على الأقل خمسة قد تخرجوا وعملوا كأطباء إما بتركيا أو بإحدى الولايات العثمانية. للمزيد ينظر: ملف التعليم، وثيقة غير مصنفة، دار المحفوظات التاريخية طرابلس عام 1887م.

(52) محمد بن عثمان الحشائشي، المصدر السابق، ص123.

(53) المصدر نفسه، ص71.

(54) محمد بن عثمان الحشائشي، المرجع السابق، ص72.

(55) دار المخطوطات التاريخية، طرابلس، ملف متفرقات، وثيقة رقم (690) بعنوان قرار مجلس ولاية طرابلس بيع مرطة قمح للموظفين والعسكريين.

(56) محمد بن عثمان الحشائشي، المرجع نفسه، ص72، 73.

(57) دار المحفوظات التاريخية طرابلس، وثيقة رقم 26/م1/ص، بخصوص ردم المستنقعات بمرزق عام 12 شوال 1284هـ/ 1867م.

(58) دار المخطوطات التاريخية، طرابلس، وثيقة بدون رقم حول مراسلات حاكم فزان الى باشا طرابلس بخصوص بعض الوصفات الطبية.

(59) محمد امحمد الطوير، المرجع السابق، ص284.

(60) دار المحفوظات التاريخية، حافظات بلدية طرابلس المركز، وثيقة غير مصنفة، بتاريخ 1903-1904م.

(61) دار المحفوظات التاريخية، جريدة طرابلس الغرب، العدد 1195، السنة السابعة والثلاثون، بتاريخ 1907م.

(62) محمد سعيد القشاط، **الطوارق عرب الصحراء الكبرى**، ط2، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، ليبيا، 1989م، ص110.

(63) فردريك هورتمان، المرجع السابق، ص95.

(64) عبد الكريم أبو شويرب، **الأوضاع الصحية في المجتمع الليبي**، ص18.

(65) جوتاف ناختيجال، المرجع السابق، 271، 278، 280، 285، 286.

(66) محمد سعيد القشاط، المرجع السابق، ص107.

(67) المختار عثمان العفيف، **مدينة سوكنة دراسة تاريخية للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية 1835 – 1911**، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية – سلسلة الدراسات التاريخية (49)، طرابلس، 2002م، ص181.

(68) جوتاف ناختيجال، المرجع السابق، ص 277.

(69) جميل هلال، **دراسات في الواقع الليبي**، مكتبة الفكر، طرابلس، 1962، ص147.

(70) جيمس ريتشاردسن، **ترحال في الصحراء**، ترجمة: الهادي مصطفى أبو لقمة، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1993، ص553 ؛ Rohlfs, Gherardo, OP. Cit, D. 126.

(66) بشير قاسم يوشع، **وثائق غدامس، وثائق تجارية تاريخية اجتماعية**، ملف رقم 2، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، سلسلة نصوص ووثائق 23، ليبيا، 1924م، ص51.

الأوضاع الاقتصادية في مدينة زليتن

خلال العهد العثماني الثاني (1858-1911م)

أحمد العبد صالح

عضو هيأة التدريس بكلية التاريخ والحضارة

جامعة السيد محمد بن علي السنوسي

مدينة زليتن هي إحدى المدن الليبية، وهي تطل على شاطئ البحر المتوسط وتبعد عن العاصمة طرابلس بحدود 160 كيلو مترا شرقا. وتقع بين مدينتي مصرانه شرقاً والخمس غرباً. وقد اكتسب موقعها أهمية كبيرة لكونها تشتهر بمعالم دينية وثقافية كثيرة ، لعل أشهرها وجود ضريح الشيخ عبد السلام الأسمر، وكذلك وجود الزوايا ومنها زاوية الشيخ الفطيسي وزاوية البازة. وما يزيد من أهميتها وقوعها على طريق القوافل (الحج) الذي يربط الإسكندرية بالمغرب العربي. يتناول هذا البحث الأوضاع الاقتصادية لمدينة زليتن أواخر العهد العثماني الثاني, خلال هذه المرحلة كانت مدينة زليتن قضاء يتبع لواء الخمس، الذي يقع غرب مدينة طرابلس بمسافة تقدر بمائة وعشرون كيلو متر من مركز الولاية. ودراستنا تسعى إلى تسليط الضوء على أوضاع زليتن الاقتصادية خلال فترة الحكم العثماني الثاني، والتي حددت بدايتها سنة 1858م وهو تاريخ استصدار القانون العثماني بشأن ملكية الأرض, إلى نهاية العهد العثماني الثاني, وتحاول تتبع احوال السكان المعيشية وانشطتهم الاقتصادية (الزراعية، والصناعية، والتجارية).

يرجع اختيار هذا الموضوع لكونه أحد الموضوعات المهمة في التاريخ الاقتصادي الليبي, والتي لم يتطرق إليها الباحثون إلا من خلال بعض الإشارات. أما عن الهدف من اختيار الباحث لهذا الموضوع فهو محاولة لتوضيح أوضاع زليتن الاقتصادية من خلال ملكية الأرض فيها, وأنشطة أهلها المعيشية. وسيتبع الباحث المنهجية التحليلية القائمة على استقاء المعلومات من مصادرها وتحليلها للوصول إلى صورة أوضح وأقرب للواقع.

من ضمن الدراسات السابقة, دراسة قدمها سعدي إبراهيم الدراجي بعنوان: زليتن دراسة في العمارة الإسلامية, منشورات القيادة الشعبية الاجتماعية، زليتن/ ليبيا, 2003م. والتي استقيت منها معلومات حول بعض الفنادق (أسواق) في زليتن، وكذلك أصناف الدكاكين والمغازات داخل هذه الأسواق. أما أهم المصادر لهذا البحث فهي وثائق سجلات محكمة زليتن الشرعية؛ الموجودة في أرشيف محكمة زليتن، وهي عبارة عن سجلات كبيرة الحجم، وذات شكل مستطيل، وقد صنفت هذه السجلات حسب السنوات التي كتبت فيها، والسجلات التي استفدت منها تقع بين عامي 1326– 1329 ه. وهذه الدراسة قسمتها إلى المباحث الاتية:

المبحث الأول : ملكية الأرض في زليتن .

المبحث الثاني : الثروة الزراعة والحيوانية .

المبحث ثالث : الصناعات الحرفية .

المبحث الرابع : التجارة في زليتن .

المبحث الأول : ملكية الأرض في مدينة زليتن.

يصف الرحالة والباحثون المجتمع الليبي في العهد العثماني بأنه مجتمع زراعي ورعوي، وفي الحقيقة أن هذا الوصف لا يجافي الحقيقة إذا علمنا أن 90% من أفراده كان يمتهن الزراعة والرعي. كما أن القسم الأعظم ممن كانت مهنته الصناعة أو التجارة يملك أرضاً يتفرغ للعمل بها في أوقات مواسم الحرث والحصاد. وعلى أي حال فان أنواع الأراضي الصالحة للزراعة في زليتن والمستغلة من قبل سكانها، والتي كانت

مستهدفة من قبل القانون العثماني المتعلق بملكية الأرض الصادر في 21 ابريل 1858م كانت على النحو الاتي :

1- أراضي المِلك :

هي أراضٍ خاصة ملك لأصحابها، وتتألف من المدور والبستان، ولأصحابها حق التصرف برقبة الأرض من حيث البيع والشراء والتوريث، وكانت المحكمة الشرعية لا تحكم في بيع الأراضي وتسجيلها أو أي شئ منها إلا بموجب حجة شرفية تثبت الملكية من دائرة الطابو(1). ويبدو أنه عند غياب هذه الحجة (الطابو) تكون الأرض للدولة وهذا ما أكدته احد الوثائق التي جاء فيها : " إن باشة (كذا) طرابلس طلب الفلاحة في الأراضي التي يفلحون بها أن ترجع "للبيليك" إذ لم تكن بيدهم حجة ملكية, وإلا فليشترونها (كذا) ويدفعون ثمنها " (2) . وهذا النوع من الملكية انتشر حيثما انتشر العمران الحضري أو القروي، وحيثما وجدت الشجرة والسانية (المزرعة التي تقوم فيها الفلاحة على الري من الآبار).

2- الأراضي القبلية (الملك المشاع) :

هو ما يعرف بالملكية القبلية (الملك المشاع). ومثلما هو الحال في كل البلدان التي انتشر فيها نمط عيش المجموعات البدوية، فإن مدينة زليتن كانت من هذا النوع. ومن القبائل المستوطنة فيها على سبيل المثال لا الحصر قبائل الفواتير وقبائل أولاد الشيخ وقبائل البراهمة وقبائل أولاد غيث والكورغلية (3).وإن هذا النوع من الملكية كان يثير في ليبيا كثيراً من التساؤل، وذلك لعدة أسباب؛ أهمها نوعية العلاقة بين المجموعات القبلية البدوية والأرض، وهي ملكية جماعية لا تنفي الاستغلال الخاص للأرض، والكثير من المجموعات البدوية لديها مناطق استقرار رئيسية قرب مصادر الماء أو قرب الزوايا أو غير ذلك، ولها في هذه الأماكن حقول مشجرة أو أراضي حرث يملكها أصحابها بصفة عائلية، وخصوصاً عائلات كبار الزعماء, من ناحية اخرى تتميز هذه الأراضي بغموض حدودها، وبتغير مساحتها بحسب الظروف الأمنية والسياسية والمناخية, وهذا الوضع يجعل مساحة هذه الملكية أو محتواها مرتبطاً بحالة المجموعات التي تدعي امتلاكها، وليس بمبادئ حقوقية مستقلة عن الظروف السياسية والاقتصادية التي يمر بها المالك المفترض (4). وهنا تجب الإشارة إلى أن الملكية القبلية المشتركة تتعارض مع الملكية الخاصة الفردية.

3- الأراضي الأميرية (الميري) :

هي أراضي الدولة, وكانت تشتمل على الأراضي الزراعية والمراعي والغابات وبعض الأراضي التي كانت تحوّل الحكومة ملكيتها إلى الأفراد بواسطة نظام الطابو. وأن أصحاب حق التصرف بها لا يملكون فيها إلا حق الانتفاع والاستعمال مجرداً من الرقبة (5). وهذا النوع من الملكية غامض المفهوم, لأنه لا يحتوي على تحديد دقيق لمالك الميري : هل هو السلطان أو الباشا؟ والأخير يتغير باستمرار. هل هم حاشيته وأعوانه؟ لكن هؤلاء لا يملكون دائماً الحق القانوني في توريثها. هل هي الدولة بوصفها مؤسسة عامة؟ لكن الدولة لم يكن لها هذا المفهوم في ذلك الوقت.(6)

4- الأراضي الموقوفة :

هي الأراضي التي أوقفت توظيفاً إلى الشرع الشريف من الأراضي المملوكة أو الأراضي الأميرية؛ ومثل هذه الأراضي تكون رقبتها وجميع حقوق التصرف بها عائدة إلى جانب الوقف (7). ولم تكن هذه الأراضي قابلة للبيع، إذ كانت تظل تحت إشراف إدارة الأوقاف التي تعمل بحسب وصية الواقف الأصلي للأرض، الذي كان يحدد في العادة الأشخاص أو الهيئات الدينية وغيرها، التي يحق لها الانتفاع بالأرض(8). ولإيضاح ذلك ، نذكر وقفية سجلت في محكمة زليتن الشرعية توضح أن صاحبها أوقف أملاكه من الأراضي للإمام أبي يوسف محمد أبي حنيفة النعمان، وهذا نص الوقفية : " أمام القاضي حسن حلمي، أوقف الشيخ الحاج عمر وريث الصقوعي الفيتوري سنة 1319 ه (1901م) للإمام أبي يوسف محمد أبي حنيفة النعمان أملاكه في البرية والمعدة للحراثة والزراعة من محارث قضاء زليتن، وهي الأرض المعروفة برقبة أم الجرفان وقدرها حبل ونصفن (كذا) والحبل يساوي 145 ذراعا سجلت الوقفية بسجلات المحكمة الشرعية بتاريخ 7 شوال 1328 ه (1910م) " (9). وهناك وقف (الحبس) يديره ويتصرف فيه أحفاد مؤسس الزاوية الطبيعيون أو الروحيون. وهذا الحبس أو الوقف، فيه خلط بين الحبس الخاص لفائدة سلالة الولي, والحبس الديني المخصص للعامة من المسلمين.(10) ويرجع ذلك إلى تحول احباس الزاوية التابعة لطريقتي السنوسية والعروسية إلى ما يشبه أراضي الدولة من خلال إخضاعها لإدارة مركزية واحدة تديرها هيأه خاصة بالطريقة خارج نطاق الأوقاف العامة.

5- الأراضي المتروكة :

هذا النوع من الأراضي على قسمين أولهما : تسمى المحنية وهي متروكة لأجل عموم الناس مثل الطريق العام والمنافع العامة، وثانيهما تسمى المرافقة وهي الأرض المتروكة المخصصة لعموم أهالي القرية أو القضاء، ولكن تبقى رقبة هذه الأراضي لبيت المال(11).

6- أراضي الموات :

هي الأراضي غير الخاضعة لتصرف أحد من الأشخاص، ولا متروكة مخصصة للأهالي، وهي بعيدة عن مراكز العمران أو السكن وغير صالحة للزراعة أو من أي استفادة منها وتفوض أراضي هذا النوع لمن أحياها دون مقابل مع بقاء رقبتها لبيت المال(12).

المبحث الثاني : الثروة الزراعة والحيوانية.

يعد النشاط الزراعي في مقدمة الأنشطة الاقتصادية التي مارسها سكان زليتن، فقد كان الكثير منهم يعمل في زراعة الأرض، وهي المصدر الرئيسي لمعيشتهم، إضافةً إلى أن تربة زليتن اشتهرت منذ القدم بخصوبتها واعتدال مناخها وكثرة سقوط الأمطار عليها، مما جعلها تشتهر بالكثير من المحاصيل الزراعية منها الحبوب والخضروات والأشجار، وهناك نوعان من الزراعة في هذه المدينة الزراعة المروية التي تسقى بمياه الآبار والزراعة البعلية التي تسقى بمياه الأمطار مثل زراعة القمح والشعير.

- زراعة الحبوب :

من أهم الحبوب التي كانت تزرع في زليتن الشعير والقمح والذرة والقصب. وكانت حقول زليتن تنتج كميات كبيرة من الشعير تزيد عن حاجة السكان، ويصدر الفائض إلى أسواق طرابلس أو إلى فرنسا وألمانيا وتونس. وأحيانا كان الفلاح يخزن الفائض عن حاجته من الشعير، إلى الموسم القادم في مخازن تكون تحت الأرض لحفظه تعرف محلياً بـــ (المطمور)، وهي عبارة عن حفرة تحفر إلى عمق مناسب تحت الأرض، وتكون في سفح هضبة. ولعل الهدف من ذلك ألا تتجمع عليها المياه فتنبت أو تفسد, وبعد وضع الشعير فيها تسقف الحفرة بوضع التبن على الشعير ثم الخشب ويوضع فوق كل ذلك الطين.(13) وهذا الأمر يحدث في السنوات الممطرة التي يكون فيها الإنتاج غزيراً، بعكس سنوات الجفاف التي يتوقف فيها الأمطار لذا كان الفلاح يضطر في بعض المواسم لشراء مطمور جاهز لخزن الفائض لديه من الشعير, وهذا ما جاء في عقد شراء مطمور في محلة سيدي إبراهيم بمنطقة الفواتير، إذ ذكر أنه " اشترى مفتاح بن عبد السلام الصفراني الفيتوري من عبدالله أحمد بن شتيوي كامل المطمور المعد لخزن الشعير بثمن قدره ليرتان اثنتان بتاريخ 17 جمادي الأول 1327ه/1909م " (14). وبالإضافة إلى هذا عرف الفلاحون مخازن أخرى لخزن الشعير في البادية تعرف محلياً بـــ(العقلة)، وهي عبارة عن حفرة في الأرض أقل عمقاً واتساعاً من حفرة المطمور(15). ويأتي محصول القمح في المرتبة الثانية بالنسبة لزراعة الحبوب في زليتن، ولم يكن يسد حاجة الأهالي، لأن القمح يحتاج إلى كميات كبيرة من المياه أكثر مما يحتاجه الشعير لذا يضطرون إلى توريد القمح من خارج زليتن .

- زراعة الأشجار المثمرة :

تعد زليتن من المدن الليبية التي تشتهر بزراعة أشجار النخيل. ويعد التمر غذاءً مهماً للسكان. فضلاً عن الفوائد الكثيرة التي يجنيها الفلاح من زراعة النخيل، وكان إنتاج التمر في زليتن يسد حاجة السكان، والفائض منه يصدر إلى أسواق طرابلس بعد أن يعبأ في أوعية تعرف بالبراسيل مصنوعة من سعف النخيل. ومن أشهر أنواع التمور في زليتن هي الطابوني والبيوض والبكراري والعامي وأم المرواني والنوى وأم فتيتي. ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن الفلاح كان يهتم بزراعة أكثر من نوع من النخيل في بستانه(16) .

لما كان لأشجار النخيل من أهمية كبيرة لدى السكان، كان بعض الأهالي يقومون بوقف عدد من أشجار النخيل على زاوية أو جامع، أو تكون فطرة للصائمين. وقد جاء هذا في عقد شراء سانية مسجل في محكمة زليتن الشرعية، إذ ذكر فيه أنه " اشترى محمد بن شعبان المقرحي الكروغلي كامل النصف من كامل السانية وما احتوت عليه من نخل عدا نخلتين بكراري بالسطر الغربي منها واحدة حبس(وقف) على جامع سيدي عبدالله شعبان، والثانية فطرة للصائمين المصلين الكائنة بمحلة الغويلات بثمن قدره 7 ليرات بنتو بتاريخ 5 ذو الحجة 1327ه – 1909 م " (17). كما اشتهرت زليتن بزراعة أشجار الزيتون حيث كانت تنتج كميات كبيرة من حب الزيتون وكذلك من زيت الزيتون الذي يزيد عن حاجة الأهالي، ويصدر الفائض إلى أسواق طرابلس(18). كما تزرع في زليتن، إضافة إلى أشجار النخيل والزيتون، أشجار مثمرة اخرى مثل أشجار المشمش، والتين، والعنب والرمان، والتفاح، والخوخ، والليمون، واللوز، والبرتقال، والخروب، والأجاص،

والتوت. كما تزرع بعض الغلات الزراعية الأخرى مثل الطماطم، ويعتمد في زراعتها على مياه الآبار بشكل كامل، وذلك لتأمين الري نظراً لأن زراعتها في غير وقت سقوط الأمطار، فكانت تستخدم في ذلك الثيران والحمير لجلب الماء من الجوابي، ومن ثم توزيعه على البساتين(19). ولبيان أعداد أشجار زليتن المثمرة يمكن أن نجملها بالجدول الآتي.

نوع الشجرة	النخيل	الزيتون	المشمش	التين	العنب	الرمان	التفاح	الخوخ	الليمون
العدد	361476	84878	12200	10190	8349	5330	4358	2736	1895

(أ) تقارير احصائية عن أوضاع زليتن الاقتصادية، غير منشورة محفوظة لدى امحمد الهادي بن مسعود، زليتن.

وكان استغلال الأرض الزراعية في زليتن يتم بعدة طرق، لعل من أهمها :

أولا : زراعة الملك الخاص :

فيه يكون استثمار الأرض من قبل صاحب الملك سواءً كانت في البرية أو سانية، وله بطبيعة الحال الحق بالتصرف في الإنتاج بمفرده كيف يشاء .

ثانيا : نظام المغارسة :

يعد نظام المغارسة نظاماً مبنياً على اتفاقٍ مكتوبٍ بين مالك الأرض وطالب المغارسة، ويخص أشجار الزيتون والنخيل والفاكهة، وهذا على أساس المشاركة في الإنتاج وفي الأرض لمدة زمنية يتفق عليها، وغالباً ما تكون بعد أن تثمر الأشجار التي يغرسها طالب المغارسة. وكان دافع مالك الأرض إلى منح قطعة من أرضه كمغارسة، ناتجاً عن أن أرضه شاسعة أكثر من قدرته على استثمارها، وأنه ليس له من يخدمها. وقد يحصل طالب المغارسة على 1/3 أو 1/2 أو 2/5 الأرض الممنوحة غراسةً بعد استيفاء الشروط عليها في العقد (20). وهذا ما ذكر في عقد مصدق في محكمة زليتن الشرعية، وقد جاء فيه " حضر الرجل المدعو عبد السلام بن علي بن قدارة، وادعى بأنه أخذ قطعة أرض بالمغارسة من المرحوم سليم بن علي بيك بن قدارة، نيابة عنه ووقع المذكور عن والده وعن السيد المرحوم منصور باشا بن علي بيك بن قدارة، بمحلة الفطسة، قبلي زاوية الشيخ الفطيسي، على أن يغرس فيها 45 نخلة، أربعة منها من النوع الطابوني، وخمسة من النوع البياض والباقي من النوع البكراري على أن يكون الشجر والأرض مناصفة، النصف له والآخر للمنوب عن أرض المذكورين"(21) . وفي مثال آخر على النظام المغارسة، جاء في العقد " أنه وقع الشيخ سيدي الحاج التهامي بن سيدي أحمد بن سيدي الحاج موسى أبو حجر عن نفسه ونيابة عن إخوته إلى سيدي عبدالله وسيدي منصور ابني محمد بالفتح عبدالله الصقوعي الفيتوري قطعة الأرض... وقدرها 124 جدولة التي مقدارها سبعة اذرع بالتربيع، على أن يغرس فيها 150 نخلة 40 منها بياض وعشرة طابوني والباقي بكراري، ويتعهدا ذلك بالسقي والعلاج والحفظ من كل مؤذ... ولمدة عشرة أعوام، فإذا انقضت المدة ووقع الثمر وأطعم كله أو جله، كانت الأرض والشجر أنصافاً بينهما، النصف للدافعين المذكورين، والنصف الآخر للعاملين المذكورين على وضع المغارسة بتاريخ أول جماد الأول 1283هـ– (1866م) "(22) .

ثالثا : نظام المزارعة :

ينحصر هذا النظام بالأرض المزروعة قمحاً أو شعيراً، حيث كان يتم الاتفاق بين صاحب الأرض والفلاح، على أن يقوم الثاني بحراثة الأرض وزراعتها والعناية بها وحصاد المحصول. وحسب الاتفاق يكون للفلاح حصة في الإنتاج بنسبة يتم الاتفاق عليها بين الطرفين سواءً كان قمحاً أو شعيراً . (23)

- الثروة الحيوانية :

من الملاحظ أن هنالك اهتماماً لدى الأهالي بتربية أنواع عدة من الحيوانات، ولا سيما التي كان يستفاد منها في أعمال الحراثة والسقي والنقل وغيرها . فكانت الأبقار تربى بكثرة في ريف زليتن، لما بها من فوائد كثيرة، إذ كان الفلاحون يستعملون بعضها في استخراج المياه من الآبار لسقي المحاصيل الزراعية الصيفية، كما كانت تربى قطعان من الأغنام والماعز, بالإضافة إلى الإبل التي كان يعتمد عليها الفلاح في حراثة الأرض وفي إدارة مطاحن الحبوب المعروفة محلياً باسم (دكرمان). كما اعتنى الأهالي بتربية حيوانات أخرى لعل من أهمها الحمير حيث اشتهرت زليتن بتربية الحمير بأعداد كبيرة لما لها من أهمية كبيرة في النشاط الزراعي والحياة اليومية للسكان. ويمكن أن نشير هنا إلى جدول يبين أعداد الحيوانات التي كانت تربى في زليتن على النحو الآتي:

الحيوان	الحمير	البقر	الغنم	الماعز	الأبل	الخيول
العدد	3953	3816	34089	12566	470	61

(ب) تقارير إحصائية عن أوضاع زليتن الاقتصادية، غير منشورة محفوظة لدى امحمد الهادي بن مسعود، زليتن .

المبحث الثالث : الصناعات الحرفية.

في الواقع كانت أغلب الصناعات في زليتن تقليدية ويدوية، واقتصرت على صناعة الحياكة اليدوية، وصناعة الأواني الفخارية، والصناعة الجلدية ومعاصر الزيتون، ومطاحن الحبوب، ولم تبد الحكومة العثمانية اهتماما ملحوظاً بتطويرها أو العمل على تحديثها .

1-صناعة حياكة القطن والصوف :

تعد هذه الصناعة من الصناعات التقليدية التي اشتهرت بها زليتن، إذ كانت تستعمل بكثرة الأنوال الأفقية التي تدار بالأيدي والقدمين، ولا تزال هذه الحرفة منتشرة لدى بعض سكان أرياف المدينة، وقد بلغ عدد الأنوال التي تستعمل لنسج الصوف بحدود (200) نول في سنة 1910م (24) . ومن جهة أخرى، كان في بعض المحلات (الدكاكين) في سوق زليتن خمس من الأنوال التي تعمل لإنتاج الجرود والفراشيات أو الأردية التي ترتديها النساء. ويتم عرضها مباشرة للناس للبيع (25). ولكن المعلومات تفيد بأن هذه الصناعة تتركز أغلبها في البيوت حيث تقوم الأسر بحياكة العباءات والجرود لسد حاجتها منها، ثم يعرض الفائض في السوق للبيع، فمثلاً كانت العباءة تصنع من الصوف الثقيل وتصنع بواسطة (النول الرأسي) وتستغرق حياكة عباءة واحدة 45 يوما . أما الجرد فكان في الغالب ذو لون أبيض أو بني، ويصنع من صوف الغنم المحلي. وذكر أن

الأصواف الداخلة في صناعته تكون أقل كمية من العباءة، ويقدر طول متوسط الجرد بتسعة أذرع إذا صنع للباسٍ واحد، وعشر إذا صنع للغطاء أو للبيع أحيانا (26) .

2- صناعة الأواني الفخارية :

عرفت هذه الصناعة في المدينة لسد حاجة الناس من أواني الطعام والشراب، وكان الفخار رومانية وإزدو هما عماد هذه الصناعة إلى وقت قريب. كذلك كان يصنع التنور من الطين (الطفل) المستخرج من باطن الأرض عند حفر الآبار .

3- صناعة السعف والحصر :

من الصناعات المهمة المنتشرة في بلادنا صناعة السعف والحصر، ويقوم بها أفراد الأسرة الليبية، وهي تتميز بكونها أن موادها الأولية ليست غالية الثمن، ولا تتطلب صناعتها أدوات معقدة، وأهم الصناعات بها هي صناعة الحصر والأطباق والسلال وغيرها، وصناعة الحصر تعد أهمها، وهذه الصناعة مارسها عدد كبير من أفراد المجتمع الليبي ويطلق عليهم (حصرجية)(27)، وهناك مناطق اشتهرت بهذه الصناعة وهي المناطق التي تتوفر بها المادة الخام لهذه الصناعة، وهي نبات السمار (الديس أو الأسل) وهو نبات ينمو تلقائياً في (السبخات والمستنقعات)، وهو متوفر بشكل كبير في منطقة زليتن وتاورغاء، أضف لذلك أن أسعاره لم تكن غالية الثمن، فقد بيعت شبكة من هذا النبات تزن (300 كيلو جرام) بعشر بارات فقط (28)، والحقيقة أن الحصر هي أهم قطع الأثاث التي لا يخلو منها مكان، وهي أكثر المفروشات شيوعاً في البلاد، وهي تستعمل لفرش أرضيات المباني والمساجد في جميع الأوقات، وقد كانت الحصر الليبية رائجةً وغالية الأثمان في الأسواق الدولية، وكانت تصدر إلى الخارج، فتركيا وحدها تصدر إليها ثلث إنتاج الحصر الليبية، وقد كانت قيمة ما يصدر من الحصر ثلاثة آلاف ليرة تركية سنوياً(29)، وكانت الحصران المستعملة في أثاث البيت والمساجد من النوع المزخرف. على أن الحصران الخشنة أو الأقل جودة كانت تستعمل عادة لتجفيف حب الزيتون والتمور والشعير وغير ذلك، والحصران المستعملة لهذا الغرض ليس فيها أي زخارف(30) . بالإضافة إلى هذا اشتهرت زليتن بصناعة البراسيل، وهي عبارة عن سلال تصنع من سعف النخيل، وتستعمل لحفظ التمر فيها بعد تجفيفه، وتصنع القفاف التي تستعمل في اثناء جمع التمر من النخيل، كما تصنع من ألياف النخيل الأطباق والسلال ومراوح القيظ ومفارش الطعام وأقفاص الطيور(31). وهكذا نجد أن انتشار هذه الصناعة في زليتن قد ارتبط بكثرة أشجار النخيل في المدينة.

4- الصناعة الجلدية :

عرفت هذه الحرفة اليدوية في المدينة قبل العهد العثماني الثاني، إلا أنها ازدهرت فيه عما كانت عليه، وذلك لاستيراد أنواع من الجلود لإنتاج المصنوعات الجلدية الغالية الثمن. أما الجلود المحلية فكان يصنع منها الحقائب والأحذية الشعبية الرخيصة الثمن. ومن أهم الصناعات الجلدية التي كانت تصنع في زليتن، الأحذية النسائية بأنواعها، ومنه القفاز وهو حذاء نسائي طويل مصنوع من الجلد تلبسه نساء البادية(32)، وكذلك كان يصنع الخف للنساء وللرجال، وسروج الخيل، وغلاف السيف مع حمالته، وحزام به غلاف لغدارتين مع حقيبة للذخيرة وحزام للبندقية مع غلافها(33).

5- معاصر الزيتون :

عرفت صناعة عصر الزيتون في زليتن منذ عهد مبكر، ويعمل فيها بعض السكان، وكان ازدهار هذه الصناعة في المدينة يرجع بالأساس إلى عاملين، أولهما هو كثرة أشجار الزيتون فيها، وثانيهما اعتماد الأهالي الكبير على زيت الزيتون في إعداد الطعام، لذا نجد أن إنتاج زيت الزيتون كان يغطي حاجة الأهالي، ويباع الفائض في سوق المدينة أو يصدر إلى أسواق المدن القريبة، وفي بعض الأحيان كان يصدّر إلى أسواق طرابلس. أما عن معاصر الزيت، فقد اشتهرت زليتن منذ البداية بالمعاصر اليدوية، وقد وصل عددها إلى ست وتسعين معصرة يدوية (34)، ويبدو أن المعاصر الحديثة لم تدخل إلى المدينة خلال فترة الحكم العثماني الثاني . وتفيد المعلومات أن هناك طريقة لاستخراج الزيت تعرف محلياً في زليتن باسم "زيت ضرب الميه" أي زيت ضرب الماء، وتتلخص هذه الطريقة أنه بعد أن تتم عملية طحن حب الزيتون بواسطة الخرزة، ترفع العجينة إلى جابية الماء، وعندها يقوم العمال بدلك العجينة بجوانب الجابية، ثم تترك في الماء لكي تترسب الفيتورة والرواسب الأخرى في القاع، في حين يطفو زيت الزيتون على سطح الماء، وهنا يأخذ العمال بواسطة كف اليد الزيت، ويوضع في زير خاص، ويعد الزيت المستخرج بهذه الطريقة من أجود أنواع الزيوت وذلك لعدم وجود أي اثر للحموضة فيه أو الرواسب الأخرى(35) .

6- مطاحن الحبوب :

كان يتم طحن الحبوب من شعير وقمح وغيرها بطرق تقليدية قديمة، حيث كان الأهالي يستعملون لطحن الحبوب آلة يدوية تعرف باسم (الرحى)، ويذكر أن حجر الرحى كان يجلب من منطقة بن وليد حيث تقطع الحجارة هناك بعدها يعرض في زليتن للبيع، ولا يكاد يخلو بيت من بيوت زليتن من هذه (الرحى)، بل أن هناك بيوتاً فيها أكثر من واحدة، وعادة تقوم النساء في البيوت في فجر كل يوم بطحن حاجة الأسرة من دقيق الشعير والقمح وغيرها (36). بالإضافة إلى هذا يوجد هناك نوع آخر من المطاحن ذات طاقة استيعابية أكبر من الأولى وتعمل بواسطة الإبل وتعرف محلياً باسم (دكرمان)(37)، ويوجد منها في زليتن سبع مطاحن في سنة 1318 ه - 1902م (38)، وهي عبارة عن رحى كبيرة، تتكون من صخرتين دائريتين، السفلى منها ثابتة لا تتحرك، ومثبت في وسطها عمود من الخشب القوي، والثانية فوق السفلى تتحرك بفعل حبل يربط بالجمل الذي يتحرك بحركة دائرية، ومن الواضح أن هذه المطاحن تطحن كميات كبيرة من الحبوب وبوقت أسرع من الطريقة الأولى، إضافة إلى أن الكثير من الأهالي يفضلون طحن حبوبهم فيها ولا سيما في المناسبات أو ربما عندما لا توجد نساء قادرات على تحريك الرحى في البيت (39) .

المبحث الرابع : التجارة في مدينة زليتن.

كان للتبادل التجاري مكانة مهمة في اقتصاد زليتن، فموقع زليتن على البحر المتوسط ووجود مرسى فيها، وتوسط موقعها على طريق القوافل، كل ذلك ساعد كثيرا على تنشيط الحركة التجارية في المدينة. وأن هناك أنواعا من النشاط التجاري، منها التجارة الداخلية، وهي تبادل السلع والمنتجات الزراعية بين مناطق زليتن الثلاث وهي الوسط والفواتير والجمعة. وكان في المدينة سوق كبير يقام في يومي الخميس والاثنين، حيث يعرض التجار والباعة فيه السلع والبضائع المختلفة والمنتوجات الزراعية والحيوانية، وقد جرت العادة

أن يقام هذا السوق في ميدان واسع يقع أمام قصر الحكومة، أي مقر قائم مقام القضاء في وسط المدينة، وكان يعرف محلياً باسم (حومة القضاء) (40). إذ يقوم التجار والباعة بنصب خيامهم منذ الصباح الباكر بالقرب من القصر استعداداً للسوق . أما السلع التي كانت تباع في السوق، فكانت تشمل أنواع الحبوب من الشعير والقمح والقصب والذرة، وأنواعاً من التمور، وحب الزيتون والفواكه والخضروات واللحوم، وكذلك أنواعاً من الزيوت والسمن والجلود والحصر وغيرها من البضائع المختلفة، ويذكر أنه كان في سوق الخميس عدد من الرحبات تباع فيها بعض المنتوجات مثل رحبة بيع النوى ورحبة بيع الخضروات (41). ويبدو من هذا أنه لا توجد في زليتن، حتى نهاية القرن التاسع عشر، أسواق متخصصة لبيع سلعة واحدة أو بضاعة معينة، بل أنه ،كما لاحظنا، كانت جميع البضائع تعرض عندما يقام السوق في يومي الخميس والاثنين، كما لا توجد مسلخة خاصة بذبح المواشي، فقد كان الباعة والقصابون يقومون بذبح الأبقار والمواشي بالقرب من قصر الحكومة، وفي أحيان كثيرة في أطراف السوق (42)، دون مراعاة لنظافة السوق، وهذا ما يلحق الضرر بالصحة العامة. ومن أجل معالجة هذا الواقع، قررت ولاية طرابلس إنشاء مجزرة في زليتن خاصة بذبح الأبقار والمواشي سنة 1902م، وقد جاء في القرار الصادر بأن يتم بناء مجزرة تحتوي على مذبحتين واحدة للمسلمين والأخرى لموسويين، ويكون موقعها في عرصة دائرة بلدية زليتن بموقع مناسب خارج القصبة(43). وفي السنة ذاتها أمرت الولاية بإنشاء سوق متخصص لبيع الزيت والسمن وسائر الزيوت حفاظا عليها من الغبار وللمحافظة على الصحة العامة(44)، وتلا ذلك ظهور أسواق متخصصة اخرى لذلك يمكن القول أن سنة 1902م تعد بداية ظهور أسواق متخصصة في زليتن تختص بعرض بيع نوع واحد من السلع والبضائع (45). أما أهم الأسواق التي ظهرت في زليتن فهي كما يأتي :

1- سوق الزيت : ويختص هذا السوق ببيع أنواع الزيوت منها زيت الزيتون والسمن البلدي والزيوت الأخرى في حوانيت محددة بهذا العرض .

2- سوق النعمة : تباع في هذا السوق أنواع الحبوب من القمح والشعير والقصب (الدخن) وكذلك تباع فيه أنواع التمور .

3- سوق اللفة : تباع فيه العباءات والجرود، وأردية النساء والحولي .

4- سوق الرباع : تتركز فيه صناعة الأحذية، وصياغة الذهب والفضة، وتباع فيه المجوهرات .

5- سوق الخضروات واللحوم : تباع في هذا السوق أنواع اللحوم والخضروات والفواكه .

6- سوق العطارين : تباع فيه أنواع العطور ومختلف أنواع الزينة للنساء .

7- سوق السعي : ويختص هذا السوق ببيع وشراء أنواع الحيوانات من غنم، وماعز وأبقار وإبل .

من المفيد الإشارة هنا إلى أن كل سوق كان يضم صفاً أو صفين من الدكاكين المتقابلة ينفتح على طريق ضيق أو واسع، وبعضها الآخر يكون على شكل ساحة تحيط بها الحوانيت من الجهات الأربع وله عدة مداخل. ولما كان ظهور الأسواق في زليتن حديثاً، فقد ترافق مع ظهورها ظهور أصناف عدة من الدكاكين والمغازات، التي يمكن أن نذكرها هنا كل حسب اختصاصه وعلى النحو الآتي:

صنف المكان	العدد
مغازه تباع فيها أصناف مختلفة من المواد الغذائية.	214
دكان لأشياء مختلفة.	66
دكان نسيج.	64
دكان لبيع اللحوم.	37
دكان لبيع الخضروات.	16
دكان لبيع وشراء البيض.	21
دكان لبيع الذهب والفضة.	15
دكان لبيع زيت الزيتون.	09
مخبز (فرن).	07
دكان لبيع وشراء الأحذية.	14
دكان للحام النحاس وغيرها من المواد المعدنية.	08
دكان النول لنسج الأردية.	07
دكان لصناعة أحذية القفاز.	33
دكان لصناعة الأدوات الزراعية.	16

(ج) سعدي إبراهيم الدراجي، زليتن دراسة في العمارة الإسلامية، منشورات القيادة الاجتماعية . زليتن / ليبيا ، 2003 م . ص 34 – 37 .

وما تقدم ذكره كان منصباً على إبراز النشاط التجاري داخل المدينة، في حين يوجد هناك نشاط تجاري داخلي آخر يتم خلاله تبادل البضائع مع المدن القريبة، مثل مدن مصراتة والخمس وطرابلس، وبهذا الشأن ذكرت المصادر أن زيت الزيتون الفائض عن الاستهلاك المحلي يباع في أسواق طرابلس (46). أما التجارة الخارجية فقد كان لتجار زليتن دور واضح ومتميز في تنشيط العلاقات التجارية مع بعض الدول المجاورة التي تقع على البحر المتوسط، وقد لعب مرسى زليتن دوراً مهماً في تطوير هذه العلاقات، وفي ازدهار حركة الاستيراد والتصدير لتجارة المدينة. ومن أهم صادرات زليتن إلى الخارج هو نبات الحلفاء، فقد اشتهرت المدينة منذ القديم بكثافة نبات الحلفاء الذي كان ينمو طبيعياً بكثرة في السفوح الجنوبية لمرتفعات زليتن، وسهولها الجنوبية. وقد بلغ طول ورقة الحلفاء الخيطية الشكل متراً واحداً تقريباً، وعرضها مليمتراً ونصف، وهي تنفرد بميزة طبيعية فريدة إذ تقاوم درجة الحرارة المرتفعة، وكذلك درجة البرودة المعتدلة، وكان نبات الحلفاء يصدر إلى أسواق أوروبا، وتأتي زليتن في تصدير الحلفاء إلى الخارج بعد طرابلس والخمس(47).

لقد كان الأهالي يقومون بجمع الحلفاء من أماكن نموها في أواخر فصل الربيع وفي فصل الصيف(48) . بعدها يحمل على الإبل في شباك وزن الواحدة منها حوالي (240) كيلو جراما، وتنقل إلى سوق لبيع الحلفاء، حيث تباع هناك إلى وكلاء الشركات الأجنبية، ولا سيما البريطانية منها، وبعدها يتم وضع الحلفاء في مخازن خاصة حيث يجري فرز أليافها وتصنيفها من قبل عمال(49) ، ويذكر بأن العامل كان يتقاضى قرشين أو ثلاثة قروش من الأجر لقاء عمل عشر ساعات في اليوم(50). وتفيد المعلومات أن هناك

نوعين من الحلفاء، أحدهما يسمى حلفاء القديّم (الكديم)، والثاني يسمى حلفاء مصنع، فالأولى تنبت في أرض رطبة بالقرب من المستنقعات المائية، ويستفاد منها في صناعة الورق، وتكون رقيقة وطويلة. أما الثانية فهي تنبت في المنطقة الجبلية، وتكون غليظة و قصيرة وكثيرة العدد، وهي أقل جودة من الأولى، وتصنع منها أنواع من أدوات الحمل لقوتها وتستعمل في سقف البيوت .

بعد أن يتم فرز الحلفاء وتصنيفها تنقل إلى المكابس، لكبسها على شكل رزم أو بالات(51)، ولهذا الغرض أنشئت في زليتن أربع آلات لكبس الحلفاء سنة 1882م لكنها كانت تدار بالأيدي، وكل واحدة منها تستطيع أن تكبس (40) بالة في اليوم(52). بعد ذلك تنقل البالات على الإبل عبر طريق يمتد من منطقة الجمعة إلى مرسى زليتن، على بعد خمسة كيلو متر غرب المدينة، وكان يسمى محلياً بطريق الحلفاء، وعند المرسى تتولى الشركات الأجنبية تصدير الحلفاء إلى أسواق انجلترا ليستعمل في صناعة الورق. ومن أهم هذه الشركات التي تقوم بتصدير الحلفاء من موانئ طرابلس والخمس وزليتن، شركة يري بوري(Yerry Burry) الإنجليزية، وتنافسها شركة أخرى إيطالية. ولقد كانت بداية تصدير الحلفاء في ولاية طرابلس إلى انجلترا عام 1868–1869م، بعد أن اكتشفت إمكانية استعمالها في صناعة الورق، وكان الطن الواحد يباع في انجلترا بمبلغ (12) جنيها، هبط إلى (3) جنيهات للطن الواحد في سنة 1898م، وذلك بسبب اكتشاف إمكانية صناعة الورق من الأشجار دون الحلفاء(53). ونتيجة لذلك اكتسبت زليتن شهرة واسعة في تجارة الحلفاء وعوائدها المالية، ولا سيما في سنة 1898، وكما هو مبين في الجدول الآتي :

المدينة	العملة - بالبارة	العملة - بالقرش	الوزن – أقة	الوزن- بالقنطار
طرابلس	11	1202120	9	961696
الخمس	23	710337	3	568170
زليتن	15	168641	4	135013

(د) محمود ناجي ، مرجع سابق ، ص 29 .

أما أهم البضائع والسلع التي كان تجار زليتن يحرصون على استيرادها من الخارج، فتشمل السكر والشاي والكاكاوية وأنواعاً من الأقمشة، والحرير الطبيعي، وأنواع الحبوب ولا سيما القمح(54)، الذي يبدو أن نتاجه محلياً لا يغطي حاجة السكان المتزايدة له، وهذا ما دفع التجار إلى استيراد كميات من القمح لمعالجة النقص الحاصل. لذلك شهدت الفترة تطور العلاقات التجارية بين زليتن والاسكندرية، والتي اثمرت عن التعاون بينهما في مجال توريد الحبوب إلى زليتن. وقد أشارت إحدى الوثائق إلى عدد السفن التجارية، ونوع حمولتها ووزنها، وكانت تنقل الحبوب من ميناء الإسكندرية إلى ميناء زليتن مباشرة خلال سنة 1268هـ-1851م، على النحو الآتي :

تسلسل السفن	1	2	3	4	5	6	7	8	9
الوزن بالكيلة	1500	840	1440	2000	1500	700	1400	840	840
نوع الحمولة	حبوب	أ .ياء مختلفة	حبوب	حبوب	حبوب	حبوب	حبوب	حبوب	حبوب

(ع) ملف التجارة والتجار ، رقم الملف 12 / م / ب ، ص 42 ، أرشيف دار المحفوظات التاريخية ، طرابلس.

كما شهدت الفترة ذاتها نشاطاً تجارياً ملحوظاً لتجار زليتن في إقامة علاقات تجارية مع بعض الجزر القريبة في البحر المتوسط مثل صقلية ومالطا التي تعد الوسيط التجاري بين موانئ الليبية ودول أوروبا. فمثلا

كان تجار زليتن يستوردون الدخان من مالطا، وقد بلغ مجموع أوزان ما استوردوه من مالطا (700) أقة من الدخان في سنة 1300ه – 1882م، وبالمقابل كان تجار زليتن يصدرون إلى مالطا أنواعا من المنتجات الزراعية. وفي الوقت ذاته كان لتجار المدينة علاقات تجارية متطورة مع تجار تونس، إذ كانوا يتبادلون معهم الكثير من البضائع والسلع التجارية، وكانوا يستوردون من تونس الحرير الطبيعي والزعفران وغيرها(55). وهكذا يتبين بشكل جلي أهمية دور ميناء زليتن في الحركة التجارية وتطورها في المدينة. فعلى الرغم من حوضه الصغير، وقعره الرملي فان السفن الكبيرة كانت تأتي إليه وترسو على بعد ألف إلى الفي متر، بالإضافة إلى أنه يعد ملجأ أميناً للزوارق التي تعلو مترين (56) .أما عن حركة الميناء التجارية التي تقاس بمقدار الواردات، فقد ورد في تقارير الميناء أن واردات زليتن من السلع والبضائع التجارية قد بلغ وزنها (4365 طن)، في حين قدرّت الصادرات بحدود (2715) طن وذلك سنة 1910 – 1911م (57). ويبدو واضحاً مدى أهمية ميناء زليتن التجارية، وتأثيره في تطورات النشاط الاقتصادي للمدينة، اذ استطاع التجار من خلاله إقامة علاقات تجارية متطورة مع بعض موانئ البحر المتوسط مثل الإسكندرية وتونس ومالطا وصقلية، إضافةً إلى هذا فإن الميناء كان يزود خزينة قضاء زليتن بمورد مالي مهم عن طريق جباية ضريبة الجمارك المفروضة على البضائع التجارية الداخلة إلى الميناء، وقد جاء ميناء زليتن في المرتبة الرابعة بالنسبة لوارداته من ضريبة الجمارك بعد جمارك موانئ طرابلس ومصراتة والخمس لسنة 1902م وعلى النحو الآتي:

ارادات جمارك طرابلس بالفرنك الفرنسي	ارادات جمارك مصراته بالفرنك الفرنسي	ارادات جمارك الخمس بالفرنك الفرنسي	ارادات جمارك زليتن بالفرنك الفرنسي
637169	34000	7952	2650

(ف) محمود ناجي ، نفس المرجع ، ص 63 .

من أشهر التجار الذين وردت أسماؤهم في سجلات محكمة زليتن الشرعية، هناك أحمد محمد أبي حجر البرهمي (58)، وعبد السلام البصير الشيخي(59)، وعلي بن محمد البرهمي(60)، وعبد السلام بن مفتاح الشيخي(61)، وأحمد أفندي بن الحاج علي بن عريبي الغيثي(62)، والحاج محمد بن أحمد خليل البرهمي(63)، وعبد الواحد الدوكالي(64)، وخليل بن الحسين البكوشي الكورغلي(65)، واحمد بن محمد البرهمي (66)، وعلي بن حسين بن والي (67)، وأحمد عرقيب(68)، محمد بن محمود قنود الكورغلي(69)، وعبد السلام بن علي بن حريز الغيثي(70)، وأحمد بن مفتاح عريبي(71)، سالم افندي بن محمد الحاج عبد السلام بن زاهية الغيثي(72)، والحاج إبراهيم بن والي(73)، وأحمد بن إبراهيم الدراس(74)،وعبدالله بن حمودة البرهمي(75)، والحاج منصور بن حمودة البرهمي(76)، ومحمد بن حمد الغيثي(77)، وأحمد عبدالسلام عميش(78)، وعبد المجيد صوان(79)، ومحمد بن الشيخ محمد بن زاهية الغيثي(80)، وعبد الله بن محمد الدوكالي(81) .

فنادق (اسواق) زليتن :

يقصد بالفنادق هنا الأسواق التجارية التي تباع وتخزن فيها البضائع والحيوانات. وليس كما هو معروف اليوم من أنها أماكن لإقامة وراحة المسافرين. ومن هذه الفنادق (الأسواق) ما يلي:

– فندق بن زاهية : وقد شيده الحاج خليفة بن زاهية بالقرب من سوق القضاء، وله مدخل كبير ينفتح باتجاه الجنوب الغربي، وعلى جانبي المدخل ستة دكاكين، أما عن الداخل فهو عبارة عن صحن مكشوف تحيط به حجرات صغيرة، كانت مؤجرة بوصفها مخازن(82) .

– فندق القدرات : ويقع هذا الفندق على طريق الرأس القديم المتجه شرقا إلى مدينة مصراتة، وهو مستطيل الشكل من الداخل كان يضم حجرات تستخدم بوصفها مخازن للتجار وفيه مكان مخصص لربط الحيوانات(83).

– فندق أسميو : وهو فندق صغير المساحة، ويقع في طرف سوق العطارين، وموقعه هذا جعله جزءاً مكملاً للسوق، حيث أصبحت جميع حجراته محلات تجارية لبيع أنواع البضائع (84) .

– فندق البلدية : ويقع بجوار بلدية زليتن، وفيه صفان من الحجرات، وجميعها مؤجرة للتجار لخزن البضائع، وفي نهاية الفندق توجد به ساحة لربط الحيوانات. (85)

أما من حيث تنظيم هذه الفنادق، فقد كانت تخضع لتنظيمات معينة، إذ أن أبوابها تفتح وتغلق في مواعيد محددة، فذكر أنه كانت الأبواب تفتح بعد أذان الفجر، وتغلق قبل أذان المغرب، وكان يقوم عليها حراس، وهم مسئولون عن الفندق، وعما يمكن أن يقع فيه من حوادث وسرقات، كما تشمل مهام الحراس تأجير الحوانيت والمخازن، وقبض مبالغ الإيجار (86) .

العملات النقدية :

ذكرت سجلات المحكمة الشرعية أن أغلب أنواع العملات التي كان يتعامل بها أهالي زليتن هي العملات العثمانية, منها مثلا القروش التركية التي كانت تعد أكثر العملات استخداماً وتداولاً في أسواق المدينة (87)، ولفظة القرش مشتقة من اللفظة الألمانية (Groschan) وهو من الفضة ويساوي (40) بارة (88)، والبارة عملة نحاسية تساوي 40/1 من القروش(88). كما توجد عملة نقدية تعرف بالمتليك، تسك من النحاس وتساوي ربع قرش أي عشر بارات (90). كما تتداول في الأسواق، "المحبوب" وهو عملة فضية، وكان المحبوب الواحد يساوي (20) قرشا (90). ومن فئات المحبوب هي محبوب كامل، ونصف محبوب، وربع محبوب (92). وكذلك كانت تتداول في زليتن الفرنكات وهي عملة نقدية، والقطعة النقدية الواحدة فئة (5) فرنكات تساوي (23) قرشاً تركياً (93) .

قد أشارت الوثائق إلى أنواع أخرى من العملات التي كانت تتداول في أسواق المدينة منها الريال المجيدي الأبيض، نسبة إلى السلطان عبد المجيد 1839م، وهي عملة فضية قيمتها تساوي (21) قرشا و (20) بارة، ومن فئات المجيدي، هناك مجيدي كامل، ونصف مجيدي يساوي (10) قروش و(30) بارة، وربع مجيدي يساوي (5) قروش و(15) بارة(94). وكذلك الليرة العثمانية التي كانت تمثل العملة الذهبية العثمانية وتساوي (115) قرشا (95). ومن العملات الأجنبية التي كانت تتداول في أسواق زليتن الليرة الفرنسية الذهبية وتساوي (100) قرش (96)، والليرة الانجليزية الذهبية وتساوي (120) قرشا(97)، وريال أبو طيرة نمساوي (ماريا تيريزا)، ويعادل (19) قرشا(98)، وأبو مهراس وهي عملة نابولي تساوي 18 قرشا(99).

الخاتمة :

ختاماً لدراستنا للأوضاع الاقتصادية في مدينة زليتن, في العهد العثماني الثاني, يتضح لنا العديد من النتائج المهمة منها :

- تعرضت الدراسة إلى ملكية الأراضي في زليتن، وتبين أن أنواع الأراضي التي تشملها هي أراضي الملك, وأراضي الوقف, وأراضي القبلية (الملك المشاع).
- تعد مدينة زليتن من المدن الليبية التي تشتهر بزراعة أشجار الزيتون والنخيل, لما لثمارهما من فوائد جمة للسكان, من الناحية الغذائية والتجارية.
- إن الصناعة في زليتن في العهد العثماني الثاني لا سيما في أواخره، هي صناعات تقليدية متواضعة, توارثها سكانها جيل عن جيل, وقامت هذه الصناعات على تصنيع المواد الخام المتوفرة محلياً, مثل الصوف والجلود والحلفاء وسعف النخيل وغيرها, وهي تعتمد في نشاطها على متطلبات واحتياجات الأسواق المحلية, وتعتبر صناعات فردية يقوم بها شخص واحد, وفي بعض الأحيان يساعده بعض أهل بيته, مثل صناعة المنسوجات وصناعة الحصر وصناعة السلال الخشبية.

-كان للدولة العثمانية الفضل في إنشاء المحاكم الشرعية تقريباً في كل قضاء يتبعها, ومن ضمنها قضاء زليتن. الأمر الذي كان له أكبر الأثر في حفظ الحقوق, وحل المشاكل العالقة بين السكان, من خلال قضاء نزيه يحكم بما أنزل الله عز وجل، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

وعلى إي حال توجد إمكانيات واسعة لتطور أوضاع زليتن الاقتصادية, كما لاحظنا ذلك في المجالات الزراعية والصناعية والتجارية, وهذا كان من الممكن أن يتحقق, لو أن الإدارة العثمانية في ولاية طرابلس الغرب أولت اهتماماً جدياً بالعمل على تطبيق التنمية الاقتصادية الشاملة في المدينة وفق أسس اقتصادية مدروسة ومخطط لها, تراعي فيها أوضاع الأهالي وقدراتهم الاقتصادية, وتعمل على إزالة كل ما يعيق الوصول إلى هذه التنمية في البلاد, وهذا مما أدى إلى تأخر النمو المتوقع لأوضاع زليتن الاقتصادية وتطورها طوال فترة الحكم العثماني الثاني.

والله من وراء القصد

المصادر والمراجع :

(1) سيار كوكب الجميل، تكوين العرب الحديث، دار الشرق للنشر والتوزيع, الموصل، العراق، 1991، ص 344 .

(*) البيليك- تعني خزانة الحكومة. عمار جحيدر, أفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث, الدار العربية للكتاب,تونس-ليبيا,1991م,ص 203) .

(2) عمار جحيدر ، افاق ووثائق ليبيا الحديث ، الدار العربية للكتاب ، تونس – ليبيا ، 1991 م, ص 201.

(3) مقابلة مع مفتاح ميلاد أحمد قمو البرهمي، بنغازي، 2016/8/5 م.

(4) المولدي الأحمر, الجذور الاجتماعية للدولة الحديثة في ليبيا- الفرد والمجموعة والبناء الزعامي للظاهرة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009 م ، ص 101 .

(5) أنتوني . ج . كاكيا ، ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني 1835 – 1911 ، دار الفرجاني ، طرابلس ، 1975 م, ص 84.

(6) المولدي الأحمر, مرجع سابق, ص 100.

(7) سيار كوكب علي جميل، مرجع سابق، ص 345.

(8) كاكيا، مرجع سابق، ص84.

(9) سجلات محكمة زليتن الشرعية، سجل سنة 1328هج، تسلسل 60، ص 25 .

(10) الصديق يعقوب, " زاوية الشيخ بزليتن: مسيرة علمية عمرها أربعة قرون ومركب في الثقافة الإسلامية فريد ", ضمن أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات في ليبيا (واقعها وأفاق العمل حولها), زليتن, 1988م, ج1, إعداد وتقديم عمار جحيدر, مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية- كلية الآداب والتربية زليتن, ليبيا, 1992م, ص424.

(11) سيار كوكب على جميل، مرجع سابق، ص 345 .

(12) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

(13) مقابلة مع مفتاح ميلاد احمد قمو البرهمي، بنغازي، 2016/8/5م.

(14) سجلات محكمة زليتن الشرعية، سجل سنة هج1328، تسلسل 60، ص 25.

(15) مقابلة مع مفتاح ميلاد احمد قمو البرهمي، بنغازي، بتاريخ2016/8/5م .

(16) سجلات محكمة زليتن الشرعية، سجل سنة 1329ه/التسلسل 213، ص 81 .

(17) سجلات محكمة زليتن الشرعية، سجل سنة 1327ه/التسلسل 44، ص 190 .

(18) راي إدوارد، المغرب العربي، طرابلس ولبدة والقيروان في القرن التاسع عشر 1877، ترجمة مصطفى جودة، طرابلس 1998م، ص 87.

(19) أنتوني. ج. كاكيا، ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني 1835- 1911، دار الفرجاني، طرابلس, 1975م، ص100 .

(20) عقيل محمد البربار، دراسات في تاريخ ليبيا الحديث، مالطا، 1996م، ص 25 .

(21) سجلات محكمة زليتن الشرعية، سجل سنة 1329 ه/ تسلسل 213، ص 81 .

(22) سجلات محكمة زليتن الشرعية, سجل سنة 1329هج, زليتن، ص 25 .

(23) مقابلة مع مفتاح ميلاد احمد قمو البرهمي, بنغازي, 2016/8/4م.

(24) كاكيا ، مرجع سابق، ص 108 .
(25) تقارير احصائية عن أوضاع زليتن الاقتصادية غير منشورة محفوظة لدى امحمد الهادي بن مسعود، زليتن.
(26) مقابلة شخصية للباحث مع الحاج مفتاح ميلاد احمد قمو البرهمي, بنغازي, 2016/8/4م.
(27) وثيقة رقم (125)، ملفات النواحي الإدارية – ملف رقم (5)، دار المحفوظات التاريخية، طرابلس .
(28) سجلات المحاكم الشرعية رقم (9)، دار المحفوظات التاريخية، طرابلس، ص 12؛ كاكيا، مرجع سابق، ص 112 .
(29) ن.أ. بروشين، تاريخ ليبيا منذ نهاية القرن العشرين حتى عام 1969, ترجمة عماد الدين حاتم, مراجعة ميلاد المقرحي, مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية, طرابلس,2005م، ص ص 32 – 33 .
(30) عقيلة محمد البربار واخرون ، الحركة العمالية في ليبيا 1551 – 1978 ، بنغازي، 1991 م، ص 39 .
(31) تيسير بن موسى، المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، الدار العربية للكتاب، 1988م، ص 152 .
(32) كاكيا ، مرجع سابق ، ص ص 123 – 124 .
(33) تيسير بن موسى، مرجع سابق، ص 153 .
(34) تقارير إحصائية عن أوضاع زليتن الاقتصادية غير منشورة محفوظة لدى امحمد الهادي بن مسعود، زليتن .
(35) مقابلة مع مفتاح ميلاد احمد بن قمو البرهمي, بنغازي ، 4 / 8 / 2016م .
(36) المصدر نفسه .
(37) دكرمان كلمة تركية وتعني مطاحن تعمل بواسطة الإبل .
(38) وثيقة رقم (119), ملف زليتن الأول, ارشيف دار المحفوظات التاريخية ، طرابلس.
(39) مقابلة مع مفتاح ميلاد احمد بن قمو البرهمي, بنغازي ، 4 / 8 / 2016م .
(40) سجلات محكمة زليتن الشرعية، سجل سنة 1327 ه ، تسلسل 156، ص 226 .
(41) سجلات محكمة زليتن الشرعية، سجل سنة 1328 ه ، تسلسل 74، ص 64 .
(42) صحيفة طرابلس الغرب، السنة السابعة والثلاثون، العدد 1185، 10 / 2 / 1902م .
(43) تقريبا يكون موقعها حاليا بالقرب من جزيرة الدوران وسط المدينة , مقابلة مع مفتاح ميلاد البرهمي.
(44) صحيفة طرابلس الغرب، السنة السابعة والثلاثون، العدد 1185، 10 / 2 / 1902م .
(45) مقابلة مع مفتاح ميلاد احمد بن قمو البرهمي, بنغازي ، 4 / 8 / 2016م .
(46) راي إدوارد ، مرجع سابق، ص 87 .
(47) محمود ناجي ، تاريخ طرابلس الغرب ، ترجمة عبدالسلام أدهم و محمد الاسطي ، بيروت, 1970م ، ص 62 .
(48) عبدالله علي ابراهيم ، " أنماط التجارة الداخلية في ولاية طرابلس الغرب وبرقة في النصف من القرن التاسع عشر"، مجلة البحوث التاريخية ، السنة السادسة ، العدد الثاني ، مركز جهاد الليبيين ، يوليو 1984م ، ص 248 .
(49) أحمد صدقي الدجاني ، ليبيا قبل الاحتلال الايطالي أو طرابلس الغرب في اواخر العهد العثماني (1882–1911) ، المطبعة الفنية الحديثة ، القاهرة, 1971م ، ص 248 .
(50) محمد عقيل البربار ، مرجع سابق، ص23.
(51) أحمد صدقي الدجاني ، مرجع سابق ، ص 248 .
(52) محمود ناجي ، مرجع سابق ، ص 29 .
(53) عقيل محمد البربار ، الحركة العمالية في ليبيا 1551 – 1978 ، مرجع سابق, ص 25 .

(54) سجلات محكمة زليتن الشرعية ، سجل سنة 1327 ه ، تسلسل 84 ، ص 203.

(55) محمود ناجي ، نفس المرجع ، ص 63 .

(56) المرجع نفسه ، ص 64 .

(57) تقارير إحصائية عن أوضاع زليتن الاقتصادية غير منشورة محفوظة لدى امحمد الهادي بن مسعود ، زليتن .

(58) سجلات محكمة زليتن الشرعية ، سجل سنة 1326 ه ، تسلسل 192 ، ص 61 .

(59)المصدر نفسه ، سجل سنة 1326 ه ، تسلسل 453 ، ص 151 .

(60) المصدر نفسه ، سجل سنة 1326 ه ، تسلسل 457 ، ص 156 .

(61) المصدر نفسه ، سجل سنة 1326 ه ، تسلسل 13 ، ص 180 .

(62) المصدر نفسه ، سجل سنة 1326 ه ، تسلسل 11 ، ص 344 .

(63) المصدر نفسه ، سجل سنة 1327 ه ، تسلسل 362 ، ص 303 .

(64) المصدر نفسه ، سجل سنة 1327 ه ، تسلسل 29 ، ص 351 .

(65) المصدر نفسه ، سجل سنة 1327 ه ، تسلسل 382 ، ص 318 .

(66) المصدر نفسه ، سجل 1327 ه ، تسلسل 401 ، ص 318 .

(67) المصدر نفسه ، سجل 1327 ه ، تسلسل 413 ، ص 323 .

(68) المصدر نفسه ، سجل 1327 ه ، تسلسل 22 ، ص 348 .

(69) المصدر نفسه ، سجل 1327 ه ، تسلسل 23 ، ص 346 .

(70) المصدر نفسه ، سجل 1327 ه ، تسلسل 155 ، ص 226 .

(71) المصدر نفسه ، سجل 1327 ه ، تسلسل 70 ، ص 198 .

(72) سجلات محكمة زليتن الشرعية ، سجل سنة 1327 ه ، تسلسل 85 ، ص 201 .

(73) المصدر نفسه ، سجل 1327 ه ، تسلسل 204 ، ص 243 .

(74) المصدر نفسه ، سجل 1327 ه ، تسلسل 37 ، ص 188 .

(75) المصدر نفسه ، سجل 1327 ه ، تسلسل 436 ، ص 334 .

(76) المصدر نفسه ، سجل 1327 ه ، تسلسل 446 ، ص 335 .

(77) المصدر نفسه ، سجل 1327 ه ، تسلسل 312 ، ص 283 .

(78) المصدر نفسه ، سجل 1327 ه ، تسلسل 313 ، ص 283 .

(79) سجلات محكمة زليتن الشرعية، سجل 1327 ه ، تسلسل 164 ، ص 62 .

(80) المصدر نفسه ، سجل 1327 ه ، تسلسل 362 ، ص 303 .

(81) المصدر نفسه ، سجل 1327 ه ، تسلسل 362 ، ص 303 .

(82) سجلات محكمة زليتن الشرعية ، سجل سنة 1328 ه ، تسلسل 74 ، ص 64 .

(83) سجلات محكمة زليتن الشرعية ، سجل سنة 1328 ه ، تسلسل 111 ، ص 42 .

(84) سعدي ابراهيم الدراجي ، زليتن دراسة في العمارة الاسلامية ، منشورات القيادة الشعبية الاجتماعية ، زليتن – ليبيا ، 2003 م، ص 39 .

(85) سجلات محكمة زليتن الشرعية ، سجل سنة 1328 ه ، تسلسل 25 ، ص 11 .

(86) سعدي إبراهيم الدراجي ، مرجع سابق ، ص 40 .

(87) المرجع نفسه ، ص 40 .

(88) انعام محمد سالم شرف الدين ، مدخل إلى تاريخ طرابلس الاجتماعي والاقتصادي ، دراسة في مؤسسات المدينة التجارية 1711 – 1835 ، طرابلس, 1998م ، ص 46 .

(89) سجلات محكمة زليتن الشرعية ، سجل سنة 1326 ه ، تسلسل 234 ، ص 74 .

(90) تيسير بن موسى ، مرجع سابق ، ص 206 .

(91) وثيقة رقم (2)، ملف زليتن, دار المحفوظات التاريخية، طرابلس .

(92) تيسير بن موسى ، مرجع سابق ، ص 206 .

(93) سجلات محكمة زليتن الشرعية ، سجل سنة 1326 ه ، تسلسل 490 ، ص 194 .

(94) المصدر نفسه ، سجل سنة 1326 ه ، تسلسل 296 ، ص 98 .

(95) أ . تستا ، عرض إحصائي عن ولاية طرابلس الغرب (ليبيا) ، ترجمة حامل علي وحيدة ، مجلة الشهيد ، العدد التاسع ، مركز جهاد الليبيين ، طرابلس 1988 ، ص 266 .

(96) سجلات محكمة زليتن الشرعية ، سجل سنة 1326 ه ، تسلسل 296 ، ص 98 .

(97)وثيقة رقم (75), ملف التجارة والتجار ، رقم الملف 1447 ، دار المحفوظات التاريخية, طرابلس.

(98) المصدر نفسه ، والوثيقة نفسها .

(99) تيسير بن موسى ، نفس المرجع ، ص 207 .